



الجزء الخامس



مکرم علی

رئيس المجمع العلمي العربي



مايج في مطبعة الشرقى بدمشق ١٢٤٦ هـ و ١٩٢٧ م

التاريخ المملوكي

— ٥٢٥ —

الجيش

جيوش الاشور بين } لم تغلب القبائل الاولى التي كانت تسكن الشام
والفراعنة والعبرانيين } على امرها ، الا يوم جاءها من اشور جيش منظم
في الحملة اغار عليها واستصفي بلادها ، واذا عرفنا ان الاشور بين عرفوا بسفك الدماء ،
وانهم طالما اسروا شعوباً برمتها ، وانهم يعتقدون في ملوكهم الخلافة عن الله في
الارض كما كان الروس والعثمانيون يقولون بذلك الى عهد قريب — ندرك مبلغهم من
الطاعة ، وان الأرواح كانت نهب صاحب الشأن ، يُنهبها كما يشاء ، ويصرفها في
السبيل التي يراها . والدولة التي تستطيع ان تأمر أمة بأمرها ، تجيش جيشاً مهما
يستميت في قيام أمرها ، وبطبيع قواده طاعة عمياء .

كان الاشوريون او الكلدان يغزون في فصل الربيع من كل عام ، وسلاحهم
لرمح والسيف ، والترس والدرع ، والقوس والنشاب والعربات ، واخترعوا آلات
لافتتاح المدن والقلاع . يقسمون جيوشهم ثلاث فرق ، فرقة المشاة وهم القواسم ،
وفرقة الفرسان وهم الرماحة ، وفرقة راكبي العربات الحربية وهم حاملو السيوف
والاتراس . وكانت الاوامر تصدر الى القواد من الملك مباشرة ، وتبلغ الى من يلزم
على نظام غريب ، ولم يؤثر ان تغلب الجيش الاشوري ولا في وقعة واحدة . ومن
هذا الجيش ذاق الشام ايام استيلاء الاشور بين عليها القهر والذل .
وكان الفراعنة الذين امتد سلطانهم على بعض ارجاء القطر زمناً طويلاً

أحياناً من الشاميين ، ولكننا لانعرف كيف كانوا يجندون ، وقد ظهرت نماذج من أنظمتهم الحربية عرفناها بما حفظ من آثارهم في المتحف المصري . وكانوا الى العزايا . تماسك جيوشهم ، والى الدل اذا ضعف نظامهم في جندبتهم ، مثل ايام ملوك الرعا المعروفين بالهيكسوس وهم العرب او العمالة .

واشتهر العبرانيون اولاً انهم أمة حربية ، وكان لكل سبط من أسباطهم حامية او جيش صغير يدفع به عدوه ، وقد لا يكون من الاسباط الأخرى . ولذلك كان بأسهم بينهم على الأغلب ، فكان العبراني أسداً على نفسه وعلى أبناء جنسه ، ونعامة يوم يوافيه الغريب ، يؤثر ان يرآم للذلة ، على ان يُرخص روحه في الذود عن حماه . وكان بقاء الشعب الاسرائيلي في التيه على عهد موسى الكايم سنين طويلة من الحكيم التي قُصد بها انقراض شيوخهم المستضعفين ، وتربية الشبان على الأخلاق الحربية ، فتجدد شباب هذه الامة بهذه الرحلة الطويلة . ولما جاءت جيوش بُنخت أُصر الفارسي وادر يانوس الروماني الى فلسطين اذاقت ابناء اسرائيل الويلات ولم يغن عنهم ما جيشوه من الجيوش ، ولا ما كتَّبوه من كتائبهم .

جيش اليونان } كانت جيوش جميع الامم القديمة كما هو الحال عند
والرومان } بعض الامم الحديثة ولا سيما المستعمرة اخلاطاً من
الشعوب وأجيالاً من الناس . والامة التي يكون جيشها من عنصر واحد او سواده
الاعظم منه تكتب لها الغلبة على الأكثر ، ويكون نظامها أتم وتحمسها في النيل من
العدو أكثر ، وما نظن ان الجيش الذي جاء به الاسكندر المقدوني الى هذه الديار
وهو لا يتجاوز الثلاثين الف راجل واربعة آلاف وخمسمائة فارس ، الا مؤلفاً من
عنصر واحد ، وهو الجيش الذي غلب الفرس على كثرة جيوشهم ونفى على دولتهم
وسلطانهم .

وكان جيش الاسكندر أحسن جيش عهد سيف بلاد اليونان ، ويتألف الجحفل
اليوناني من ١٦ الف من الرجال مصفوفين الوقاً الوقاً ستة عشر صفّاً يحمل كل واحد
منها رمحاً طوله ستة أمتار ، وكانت المقدونيون لا يسرون في ساحة الوغى الى جهة

العدو ، بل يقفون ولا حراك بهنم ، و يضربون عدوهم برماحهم من كل جانب ، فيرفع جنود المؤخرة رماحهم من فوق رؤوس الصفوف الاولى ، بحيث كانت الجيش يشبه حيواناً عظيماً قد انتصب وعليه الحديد ، والعدو يداهم فيتحطم ، والجيش مؤلف على الأغلب من خيار فتيان الأشراف ..

واشتهرت الجيوش الرومانية بشدتها وحسن نظامها ، وما نظن روميسة الا كانت تجند من أبناء هذه البلاد كثيراً ، لان الشام أنبغت عدة رجال غدوا امبراطرة وقواداً في رومية ، فيستحيل ان لا يشترك أبناؤها في جنديتها ، وان لا تكون منهم الكتائب المنظمة والمتطوعة او المستأجرة على شروط معينة ، خصوصاً والشام كانت ولاية رومانية . وكان يقضى على كل من يدخل الجيش الروماني ان يكون وطنياً رومانياً وان يكون له مورد ثروة ليجهز نفسه بالسلاح وبأكل ولبس ، و يعفى الفقراء من هذه الخدمة . وكانت من له حق التجند تبعاً لقائده من سن السابعة عشرة الى السادسة والاربعة ، فكان كل فرد في رومية كما كان في المدن الرومانية وطياً وجندياً معاً ، ومتى احتاجت الدولة الى الجند يصدر القنصل امره الى جميع الوطنيين فيأتون ويحلفون بيمين الاخلاص والطاعة للقائد ، ويتعهدون ان يقاتلوا دون أعلامهم ، و يحق للقائد ان يقتل جندياً او يبقى عليه . فلا يستطيع جندي ان يفر من الزحف او يتزحزح عن محله الا بأمر قائده ، وسلاحهم الرماح والسيوف ويستعملون الدروع والخوذ والاتراس ويمرنون أبداً جنودهم في إنشاء الطرق والجسور والجاري ، اذا لم يكن أمامهم عدو يقاتلونه او متاربس يقيمونها .

الجيش العربي - ولقد فتح الجيش الروماني أعظم مملكة في المعمور السالفة ، مع الرومي
ايام كانت قوته تامة ، ورابطته متينة ، وقيادته موحدة ، فلما ضعفت مميزاته ، انحلت المملكة وانقسمت الى مملكتين : مملكة الروم الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ، ومملكة الروم الغربية وعاصمتها رومية . وكان نصيب هذه البلاد ان تقع في حصة المملكة الشرقية في القسمة . وهذه المملكة التي هي حاربتها جيوش العرب لما جاءت لفتح الشام .

وكان الجيش الرومي الذي قاتل العرب على اليرموك وفي دمشق ونخل وأجنادين وقيسارية وبيسان وقنسرين وإيلياء مؤلفاً من الروم ومن العرب المنتصرة ومن الأرمن، وجهرتة الروم، واذ كان جيشاً مرتجلاً لم يدرب زمناً وكانت جيش العرب روحاً واحداً، كتبت له الغلبة على قلته وكثرة عدد أعدائه وعُددهم، فنال الجيش العربي من الروم، وإن كانوا لأول أمرهم مشهورين بالطاعة لسادتهم، ولما جاءتهم العرب كان أمرهم قد انحل، وميزاتهم قد ضعفت، بل أصبح جيشهم مثال الجيوش المتفسخة، ووقعهم على الواقوسة مع العرب من أدهش أمارات الضعف والغفلة .

كان الجيش العربي مشهوراً بنظامه وطاعته لقواده، ومهارة هؤلاء وحنكتهم، وكانت للعرب عناية خاصة بالاحتفاظ بخطوط رجعتهم، ولكن أية رجعة لجيش منه من جاء من مكان قصي يبلغ طوله التي كيلو متر، ومنه من أقل ومنه من أكثر، وإذا فرضنا أن مدينة الرسول كانت أس الحركات الحربية، وإن العرب كانوا قد فتحوا الحجز كله يوم جاؤا لفتح الشام، فجعلوا معسكرهم في أقصى حدودها الشمالية، فخط الرجعة على كل لا يقل عن بضعة مئات من الكيلومترات، يمر في سباسب وبوادر لأماء فيها ولا كلاء، وكيف كان يتأتى الظفر لو لم يكن قلب كل جندي حصناً قائماً بالآيمان، معموراً بالطاعة للسلطان ؟

كان الجيش الذي فتح الشام محققاً مقللاً من كل شيء، مقللاً من الزاد، مقللاً من السلاح، مقللاً من الظهر، والخيول قليلة فيه والأبل أكثر، والأبل تصبر على العطش أياماً، أما الجندي العربي فكان يصبر على الجوع والعطش معاً . قال جوبدي : تعلمت العرب صناعة الحرب من الفرس والروم وكان ذلك سبباً لدخول الفاظ رومية وفارسية كثيرة في لغتهم .

ولما فتحت الشام قسمت خمسة اجناد اي خمسة فيالق بحسب مصطلح هذه الايام . فسميت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطياتهم فيها ، وكان الجنود اولاً من عرب الجزيرة ثم دخل فيهم من دان بالاسلام من جميع الشعوب المغلوبة ، وكان اليونانيون اكثرية الجيش الشامي ، وعليهم جل اعتماد رأس بني أمية في الشام . ذكروا ان سفبان

ابن عوف كان اتخذ من كل جند من اجناد الشام رجلاً اهل فروسية ونجدة وعفاف وسياسة وجروب وكانوا عدة له قد عرفهم وعرفوا به .

بعض قوانين الجيش العربي } ومن الجيش ما كان تحت الطلب في كل ساعة ، ومنه ما يجند اي يجمع في ايام قلائل حين الحاجة ، والأعطيات للجنود دارة في كل شهر ، ولم المغانم في الحروب الا قليلاً ، ينقاسونها مع قوادهم بحسب بلائهم ورتبهم ودرجاتهم ، وللجند مصطلحات معلومة ولم امراء وقواد ، يرتفون عليهم العرفاء وبنو بنيهم النقباء ، لتعرف من عرفائهم ونقبائهم احوالهم كما قال الماوردي ولكل طائفة شعار يتداعون به ليصيروا متميزين وبالا اجتماع متظافرين واللامير « ان ينصفح الجيش » اي يستعرضه ويفتشه) ومن فيه ليخرج من كان فيه لتحذيل للحجباء من وارجاف للمسلمين او عين لهم للشركين .

واوجبوا على امير الجيش في سياسته عشرة اشياء : احدها حراستهم من غمرة يظفر بها العدو منهم وذلك بان يتبع المكامن ويحوط سوادهم بحرس يأمنون به على نفوسهم ورجالهم ليسكنوا في وقت الدعة ويأمنوا ماوراءهم في وقت المحاربة . والثاني ان يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم ، وذلك ان يكون اوطأ الارض مكاناً ، ومكثرها مرعى وماء ، واحرسها اكثافاً واطرافاً ليكون اعون لهم على المنازلة ، واغوى لهم على المراقبة . والثالث اعداد ما يحتاج الجيش اليه من زاد وعلوفة ، تفرق عليهم في وقت الحاجة حتى تسكن نفوسهم الى مادة يستغنون عن طلبها ليكونوا على الحرب اوفر ، وعلى منازلة العدو افدر . والرابع ان يعرف اخبار عدوه حتى يقف عليها ويتصفح احوالها حتى يخبرها فيسلم من مكروه ، ويلتمس الغرة في الهجوم عليه . والخامس ترتيب الجيش في مصاف الحرب والتمويل في كل جهة على من يراه كفواً لها ، وينفق الصفوف من الخلل فيها ، ويراعي كل جهة يميل العدو اليها بمدد يكون عوناً لها . والسادس ان يقوي نفوسهم بما يشعرهم من الظفر ، ويخيل لهم من اسباب النصر ، ليقبل العدو سيفه اعينهم فيكون عليه اجراً وبالجرأة يتسهل الظفر . والسابع ان يعد اهل الصبر والبلاء منهم بثواب الله لو كانوا من اهل الآخرة ، وبالجزاء والنفل من الغنمة ان كانوا من

اهل الدنيا . والشام ان يشاور ذوي الرأي فيما يجضل ، و يرجع الى اهل الحزم فيما اشكل ، ليأمن الخطأ ويسلم من الزلل . والتاسع ان يأخذ جيشه بما اوجبه الله تعالى من حقوقه ، وامر به من حدوده ، حتى لا يكون بينهم تجوز في دين ، ولا تحيف في حق . والعاشر ان لا يمكن احداً من جيشه ان يتشباغل بتجارة او زراعة ، اصرفه الاهتمام بها من مصابرة العدو وصدق الجهاد .

ولم في هذا الباب قوانين مهمة لا تقل في حفظ رابطة الجيش عن كثير من قوانين الجندية في الحرب والسلم في هذا العهد الحديث ، منها انه لا يجوز اذا نقض العدو عهداً ان يقتل ما في ايدي المسلمين من رهائنهم . فقد نقض الروم عهدهم زمن معاوية وفي يده رهائن فامنع المسلمون جميعاً من قتلهم وخلوا سبيلهم ، وقالوا : وفاء بغدر خير من غدر بغدر . ومنها انه يجوز لامير الجيش في حصار العدو ان ينصب عليهم العرادات والمجنقات وان يهدم عليهم منازلهم ، ويضع عليهم البهات والتحريق . واذا رأى في قطع نخلمهم وشجرهم صلاحاً يستغفرون به ليظفر بهم عنوة او يدخلوا في السلم صلحاً فعل ، ولا يفعل ان لم ير فيه صلاحاً .

وذكر ابن خلدون ان الحرب اول الاسلام كانت زحفاً كلها ، والزحف ان تمشي الفئتان الملتقاتتان كل فئة مشياً رويداً الى الفئة الاخرى قبل التداني للضراب ، وهي مزاحف اهل الحرب . وربما استجنت الرجال بجيشها ، وتزاحفت من قعود ، الى ان يعرض لها الضراب او الطعان . وكان العرب انما يعرفون الكر والفر حملهم على ابداله امران اول الاسلام ، احدهما ان اعداءهم كانوا يقتلون زحفاً فيضطرون الى مقاتلتهم مثل قتالهم . الثاني انهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ، ولما رغب فيهم من الايمان ، والزحف الى الاستماتة اقرب . واول من ابطل الصف في الحروب وصار الى النعبة كراديس مروان بن الحكم ، ابطل الصف فتنوسي قتال الزحف . وزعموا ان امرأة قالت لولدها اذا رأت العين العين فدغراً ولا صفاً ، اي ادغروا عليهم اي احملا ولا تصفوا صفاً .

وكان قواد الجيوش يرسمون الخطط الحربية بحسب قواعد لم قديمة ، او يستنبطونها من الحال والموقع ، كما فعل علي بن ابي طالب يوم صفين فدعا زياد بن النضر وشمس بن

هاني فمقد لكل واحد منها على ستة آلاف مارس ، وقال : ليس كل واحد منكم منفرداً عن صاحبه ، فان جمعتكما حرب فأنت يازباد الامير . واعلم ان مقدمة القوم عيونهم ، وعيون المقدمة طلائعهم ، فابا كما ان تسأما عن توجيه الطلائع ولا تسير بالكتائب والقبائل من لدن مسيركما الى نزولكما الا بتعبية وحذر ، واذا نزلتم بعدوا و نزل بكم فليكن معسكركم في اشرف المواضع ، ليكون ذلك لكم حصناً حصيناً واذا غشيتكم الليل فحفوا عسكركم بالراح والتراسة ، وليألمهم الرماة وما اقمتم فكذلك فكونوا ، لان لا يصاب منكم غرة ، واحرسا عسكركما بانفسكما ولا تذوقا نوماً الا غراراً ومضمضة ، وليكن عندي خبركما فاني ولا شيء الا ماشاء الله حيث السير في اثركما ، ولانقائلا حتى تبدأ او يأتكما امري ان شاء الله .

ولقد كان للجيش ثكنات لا يواء الجند قال ابن حوقل : ليس من مدينة عظيمة الا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها اذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلوات ، وترد عليهم الاموال والصدقات العظيمة ، الى ما كان السلاطين يتكفونه ، وارباب النعم يعاونونه وينفذونه ، متطوعين متبرعين ، ولم يكن في ناحية رئيس ولا نفيس ، الا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغللات ، او مسقف من فنادق اه . ولقد جعل بعض الاغنياء دأبهم اذا اجتازت بهم الجيوش ان يقروها ويبروها ، ومن رجال بني أمية من جعل ذلك ديدنه ، واهل الخير على اختلاف طبقاتهم يتصدقون على الجيش .

واشترط العرب على اهل الذمة ان يؤدوا جندهم ثلاثة ايام على الاغلب وبطعموم من طعامهم ، عناية من الفاتح يحنوده ، وحتى لا تثبهم الرعية بنزولهم عليهم ان لم يكن لهم حق النزول . وكانوا لاول امرهم يختارون النزول في الخيام والمضارب ، فاذا كلب الشتاء ينزلون في المدن والقرى ، وياوون الى دور الروم الذين رحلوا بقدم الفاتحين ، واول من انزل الجند في بيوت غيرهم الحجاج ، انزل اهل الشام ببيوت اهل الكوفة .

وكان الأمويون في بعض ادوارهم يجندون الشبان ويجردونهم ليعرفوا عاهاتهم وحالتهم من الصحة . وفي الأغاني ان الحجاج ضرب البعث على المحتلمين ومن انبت من

الصبيان فكانت المرأة تجي^١ الى ابنها وقد جرد فتضمه اليها ونقول له بابي جزعاً عليه ،
فـسـي ذلك الجيش جيش بابي . وقدأ حضر ابن عبدل فوجد اعرج فأعفي عنه فقال بذلك :
(لعمري لقد جردني فوجدني كثير العيوب سي^٢ المتجرد)
(فأعفيني لما رأيت زمانتي ووقفت مني للقضاء المسدد)
وكان غرامهم بالخليل المطهمة يدربونها على الطراد و يربونها و يتعهدونها ، ومن
ملوكم من يستكثر منها جداً لتكون معدة ليوم الشدة .

روى ابن السائب الكلابي ان هشام بن عبد الملك قال يوماً لقوامه على خيله : كم
اكثر ما ضمت حلبة من الخيل في الجاهلية والاسلام قالوا : الف فرس وقيل الفان .
فأمر ان يؤذن بالناس بحلبة تضم اربعة آلاف فرس فقبل له : يا امير المؤمنين يحطم
بعضها بعضاً فلا يتسع لها طريق . قال : نطلقها ونوكل على الله والله الصانع ، فجعل الغاية
خمسين ومائتي غلوة والقصب مائة والقوس ستة اسهم ، وقاداليه الناس من كل اوب
ثم برز هشام الى دهناء الرصافة قبل الحلبة بايام فأصلح طريقاً واسعاً لا يضيق بها ،
فأرسلت يوم الحلبة بين يديه وهو ينظر اليها تدور حتى ترجع وجعل الناس يتراؤنها
— نقله ياقوت .

وذكر بعض العارفين من علماء العرب ان اكثر من
تعبية الجيش العربي } وضع شيئاً في تعبئة الحروب جعل اعداد اصحاب
السلح ١٦٣٨٤ ويجعل جيش العزل نصف هذا العدد ، وجيش الفرسان نصف
جيش العزل . وذلك ان هذا العدد ينقسم بقسمين الى ان ينتهي الى الواحد ، واذا
جعلنا الصف المنقاطر ستة عشر رجلاً يجب ان يكون في هذا العدد من الصفوف
المنقاطرة الف صف واربعة وعشرون صفاً . وهذه الصفوف تنقسم الى انواع ، فكل
سته عشر تسمى صفاً ، وكل صفين من هذه الصفوف المنقاطرة تسمى عصابة ، وعدد
من فيها من الرجال اثنان وثلاثون رجلاً ، والمقدم عليهم يسمى صاحب العصابة ،
وكل اربعة صفوف منقاطرة تسمى مقنباً ، والذي برأسه يدعى صاحب المقنب ،
وعدد من فيها من الرجال اربعة وستون رجلاً ، وكل مقنبن يسمىان كردوساً ، وعدد

من فيه من الرجال مائة وثمانية وعشرون رجلاً من الصفوف المتقاطرة ثمانية ، والمقدم عليها يسمى صاحب المائة و يدعى رئيس الكردوس ، وكل كردوسين يسمىان جحفلًا ، ويسميان ايضاً فئة ، وعدد من فيها من الصفوف المتقاطرة ستة عشر صفًا ، ومن الرجال مائتان وستة وخمسون رجلاً ، والمقدم عليهم رئيس الفئة او الجحفل وكل جحفل يجمع من هذا العدد خمسة رجال — مختارين ، وهم صاحب الراية وصاحب الساقة وصاحب البوق والخدام .

قال والذي اختاره ان يكون غلامه خلفه ، يرتبون كترتيب الصفوف المتقاطرة حتى لا يخرجوا عن الصفوف ، وشكل الجحفل مربعاً كرقعة الشطرنج ثمانية في ثمانية ، وهذا ستة عشر طولاً وستة عشر عرضاً . وكل جحفلين يدعيان كوكبة ، وعدد من فيها من الرجال خمس مائة واثنان عشر رجلاً ، ومن الصفوف المتقاطرة اثنان وثلاثون صفًا ، ويسمى المقدم عليهم رئيس الكوكبة ، وكل كوكبتين زمرة ، وعدد من فيها من الرجال الف واربعة وعشرون رجلاً ، ومن الصفوف المتقاطرة اربعة وستون صفًا ويسمى صاحبها صاحب الزمرة ، وكل زميرتين طائفة ، وعدد من فيها من الرجال الفان وثمانية واربعون رجلاً ، والمقدم عليهم يسمى رئيس الطائفة ، فيها من الصفوف المتقاطرة مائة صف وثمانية وعشرون صفًا ، ومن الناس من يسمى الطائفة الجماعة النامة ، ويسمى المؤولي عليها رئيس الجماعة النامة ، وكل طائفتين يسمىان جيشًا وعدد من فيه من الرجال اربعة آلاف وستة وتسعون رجلاً ، وفيه من الصفوف المتقاطرة مائتان صف وستة وخمسون صفًا ، والمؤولي لامره يدعى رئيس الجيش ، وبعض الناس يسميه عسكرياً ويسمى المؤولي عليها قائد الجيش ، وكل جيشين يدعيان خميسًا ، وعدد من فيه من الرجال ثمانية آلاف رجل ومائة واثنان وتسعون رجلاً ، ومن الصفوف المتقاطرة خمسمائة صف واثنان عشر صفًا ، ومن الجيش طائفة ومنهم من يسميه قافلة ، والمؤولي عليه يدعى رئيس القافلة ، وكل خميسين يدعيان العسكر الاعظم ، وفيه من الصفوف المتقاطرة الف صف واربعة وعشرون صفًا ، ومن الرجال ستة عشر الفا وثلاثمائة واربعة وثمانون رجلاً وهو العدد الاول ، فيصير مجموع العسكرة فئتين وهما اربعة جيوش ، والاربعة جيوش اثنان وثلاثون كوكبة وهي اربعة وستون

جحفلاً ، وذلك مائة وثمانية وعشرون كردوساً وهي مائتان وستة وخمسون مقنباً وذلك الجمع خمسمائة واثننا عشرة عصبة وعدد ذلك من الصفوف ما تقدم .

شدة الأمويين ومثال } وكان الأمويون من أشد الدول في الشام على
من أوامرهم } جنودهم ، وهم - في أحسن جند ، لان الشاميين
عرفوا بطاعة السلطات من بين جميع اهل البلدان ، وبهم بضرب المثل في الطاعة
والمشابعة ، وان لم يخل كل زمن من قوالين بالحق ، ناقمين على القائم بالامر ، داعين
الى منافسته . قالوا : وانما وريت زناد معاوية باهل الشام ، لانه كان في أطوع
جند منهم . وكان علي بن ابي طالب في أعصى جند من اهل العراق على الضد . والطاعة
اول خطة يسلكها الجندي ، وبفضل هذه الصفة المستحسنة رفعت اعلام الأمويين ^(١)

(١) اول لواء عقده صاحب الرسالة لواء ابيض لعمه حمزة وقال : « خذ
يا اسد الله » واول ما عقدت الرايات في الاسلام يوم حنين ، عقد الرسول راية
سوداء من بُرد عائشة وكانوا قبل ذلك لا يعرفون الا الالوية وكان اسم رايته العُقب .
وكان شعار بني أمية من الالوان البياض وشعار بني العباس السواد . ويقال للأمويين
المبيضة وللعباسيين المسودة . وكانت راية صلاح الدين صفراء وراية الفاطميين خضراء
وراية العثمانيين حمراء وبها هلال ومنها راية مصر اليوم فيها بعض التبديل اشبه بشعار
والشعار يختلف ايضاً . وكان شعار الظاهر بيبرس الاسد . وكان اللون الاحمر شعار
القيسية واللون الابيض شعار الجانية . وجعلوا لون راية دولة الحجاز ايام استقلت عن
الترك في الحرب العالمية الابيض والاحمر والأسود والأخضر جمعوا فيها ألوان
دول قديمة اخذوا ذلك فيما قيل من قول الصفي الحلي :

بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضعنا .

وكانت العرب في كل حروبهم يستमितون دون راياتهم فاذا سقطت الراية فكأن
الانحلال دب الى الجيش المحارب . ولما أعلن مجلس نواب الشام استقلال سورية في
عهد الملك فيصل جعل رايته راية الحجاز باضافة نجمة في وسطها . ولما احتل الجيش

في الصين من بلاد الشرق ، وفي الاندلس من بلاد الغرب وما بينهما الاقطار والامصار
وكان الأمويون اذا عرض لجيوشهم شيء من الضعف يرمونها برجل قوي الشكيمة فيرد
جماحها ، ويجمع على الطاعة قلوبها ، كما فعل زياد والحجاج بالعراق ، ولولا شدتهما
لخرج ذاك القطر عن طائفة بني أمية .

شكا عبد الملك بن مروان الى روح بن زنباع انخلال عسكره ، وان الناس
لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فقال له : ان في شرطي رجلاً لو قلده امير المؤمنين
امر عسكره لأرحل الناس برحيله وانزلهم بنزوله ، يقال له الحجاج بن يوسف . قال :
فانا قد قلدناه ذلك . فكان لا يقدر احد ان يتخلف عن الرحيل والنزول الا أعوان
روح بن زنباع ، فوقف عليهم يوماً وقد ارحل الناس وهم على الطعام يأكلون ،
فأمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم في العسكر ، وأمر بفساطيط روح فأحرقت بالنار .
فدخل روح على عبد الملك باكيًا ، وشكا مما اتاه الحجاج مع رجاله فقال الخليفة علي
به . فلما دخل عليه قال له : ما حملك على ما فعلت . قال : انا ما فعلت قال : ومن فعل
قال : انت فعلت ، انما يدي يدك ، وسوطي سوطك ، وما على امير المؤمنين ان يتخلف
لروح عوض الفسطاط فسطاطين ، وعوض الغلام غلامين ، فلا يكسرنى فيما قدمني
له ، فأخلف لروح ما ذهب منه . ولما استقر البيعة لعبد الملك بن مروان أراد
الخروج الى مصعب بن الزبير فجعل يستنفر اهل الشام فيسبون عليه فقال له الحجاج بن
يوسف : سلطني عليهم فوالله لا اخرجهم معك . قال له : قد سلطتك عليهم . فكان
الحجاج لا يمر على باب رجل من اهل الشام قد تخلف عن الخروج الا أحرق عليه
داره ، فلما رأى ذلك اهل الشام خرجوا .

ومن رسالة لعبد الحميد الكاتب على لسان مروان الى ولي عهده عبدالله بن مروان

الفرنسي المنطقة الداخلية جعل شعار الدولة السورية ارضاً سماوية اللون وفي وسطها
دائرة بيضاء ثم تبدل ذلك عندما اتحدت حلب بدمشق فجعلت الراية زرقاء وخضراء
وبيضاء بعلمها في احدي ناحيتيها العلم المثلث الألوان اي العلم الفرنسي وجعل علم لبنان
ارزة فوقها العلم المثلث .

حين وجهه لمحاربة الضحاك الخارجي وفيها بعض قواعد الحرب المعروفة عند الأمويين قال : اذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مخنصر ، وكان من عسكريك مقرباً ، قد شامت طلائعك مقدمات ضلالتك ، وحماة فننتك ، فتأهب أهبة المناجزة ، وأعد إعداد الحذر ، وكتب خيولك ، وعبت جنودك ، وإياك والمسير الا مقدمة ويمينة ، وميسرة وساقة ، قد شهرت بالاسلحة ، ونشروا البنود والاعلام ، وعرف جندك مراكرهم سائر ين تحت ألويتهم ، قد اخذوا أهبة القتال ، واستعدوا للقاء ، ملحين الى موافقهم ، عارفين بمواضعهم من مسيرهم ومعسكرهم ، وليكن ترجلهم ونزلهم على راياتهم واعلامهم ومراكرهم ، وعرف كل قائد واصحابه موقعهم من اليمين والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، لازمين لها غير مخلين بما استنجذتهم له ، ولا متهاونين بما أهدت بهم اليه ، حتى تكون عساكرهم في كل منهل تصل اليه ، ومسافة تخارها ، كأنه عسكر واحد في اجتماعها على العدة ، واخذها بالحزم ، ومسيرها على راياتها ، ونزولها على مراكرها ، ومعرفتها بمواضعها ، ان أضلت دابة موضعها عرف اهل العسكر من اي المراكز هي ومن صاحبها ، وفي اي المحل حلوله منها ، فردت اليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها ، فان تقدّمك بذلك ، وإحكامك له ، اطراح عن جندك مؤونة الطلب ، وعناء المعرفة ، وابتغاء الضالة . ثم اجعل على ساقتك اوثق اهل عسكرك في نفسك صرامة ونفاذاً . ورضا في العامة وانصافاً من نفسه للرعية . واخذاً بالحق في المعدلة . مستشعراً تقوى الله وطاعته . آخذاً بهديك وادبك . وافقاً عند امرك ونهيك . معتزلاً على مناصحتك وتزبيدك . نظيراً لك في الحال . وشبيهاً بك في الشرف . وعديلاً في الموضع . ومقارباً في الصيت . ثم اكثف معه الجمع . وايده بالقوة . وقوّه بالظهر . وأعنه بالأموال . واغمره بالسلاح . ومره بالعطف على ذوي الضعف من جندك . ومن رخت به دابته . واصابته نكبة من مرض . او رجلة او آفة . من غير ان تأذن لاحد منهم في التفخي عن عسكره . او التخلّف بعد ترحيله . الا المجهود او المطروق بأفة . ثم تقدم اليه محذراً . ومره زاجراً . وانه مغلظاً بالشدة على من مرّ به منصرفاً عن معسكرك من جندك بغير جوازك ، شاداً لهم اسراً . وموقرم حديدأ . ومعافهم موجعاً او موجههم اليك فتنهم عقوبة . وتجملهم لغيرهم من جندك عظة . . .

اجعل خلف ساقتك رجلاً من وجوه قوادك . جليداً ماضياً . عفيفاً صارماً .
شهم الرأي . شديد الحذر . شكيم القوة . غير مداهن في عقوبة . ولا مهين في
قوة . في خمسين فارساً من خيلك . تحشر اليك جنودك . ويلحق بك من يتخلف
عنك . بعد الإبرلاغ في عقوبتهم والتهيبك لهم والتنكيل بهم ليكون رحيلك إباناً
واحداً . ووقتاً معلوماً . تخف المؤنة بذلك على جنودك . ويعلموا اوان رحيلهم .
نية وموا فيما يريدون من معالجة اطعمتهم . وإعلاف دوابهم . وتسكن أفئدتهم الى
الوقت الذي وقفوا عليه . ويطمئن ذوو الحاجات إبان الرحيل . ومثي يكون رحيلك
مختلفاً تعظم المؤنة عليك وعلى جنودك . ويحتلوا بمرأكم . ولا يزال ذوو السفه والنزق
بترحلون بالاررجاف . وينزلون بالتوهم . حتى لا ينفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة .
إياك ان تنادي برحيل من منزل تكون فيه . حتى يأمر صاحب تعييتك بالوقوف
على معسكرك . آخذاً بفوهة جنبتيه باسلحتهم . عدة لامران حضر . ومفاجأة من
طليلة للعدو ان اراد نهزة . او لمحت عندكم غرة . ثم مر الناس بالرحيل وخيلك
رافقة . وأهبتك معدة . وجئيتك واقية . حتى اذا اسفلتتم من معسكركم . ونوجهتم
من منازلكم . سرتتم على تعييتكم بسكون ريح . وهدو جملة وحسن دعة
إياك ان يكون منزلك الا في خندق او حصن تأمن به بيات عدوك . وتستقيم
نيه الى الحزم من مكيدته . اذا وضعت الأثقال . وخططت ابنية اهل المعسكر لم
بد خبابة . ولم ينصب بناء . حتى يقطع لكل قائد ذرع معلوم من الارض بقدر
صحابه فيخفروهم عليهم . ويبنون بعد ذلك خنادق الحسك . طارحين لها دون اشجار
لرماح . ونصب الترس . لها بابان قد وكلت بعد بحفظ كل باب منها رجلاً من
نوادك في مائة رجل من اصحابه . فاذا فرغ من الخندق كان ذلك القائدان اهلاً
لذلك المركز واياك ان يشهروا سيفاً يتجادلون به . وتقدم اليهم فلا يكون قتالهم
بالليل في تلك المواضع من طرفهم الا بالرماح مسندين لها الى صدورهم . والنشاب
راشقين به وجوههم . قد ألبدوا بالترسة . واستجنوا باليهض . والقوا عليهم سوابغ
الدروع . وجباب الحشو . فان صد العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى . كبر اهل
تلك الناحية الاولى وبقيّة المعسكر سكوت . والناحية التي صدر عنها العدو لازمة

لما كرمنا . فعلت في ثقتهم وامدادهم بمثل صنيعك باخوانهم . وإياك ان تخمد نار رواقك . واذا وقع العدو في معسكرك فاجبها ساعراً لها . واوقدها حطباً جزلاً . يعرف بها اهل المعسكر مكانك وموضع رواقك . ويسكن نافر قلوبهم . ويقوى واهن قوتهم . ويشد منخذي ظهورهم . ولا يرجفون فيك بالظنون . ويحيلون لك آراء السوء . وذلك من فملك رد عدوك بغيظه . ولم يشغل منك بظفر . ولم يبلغ من نكايتك سروراً ان شاء الله اه .

هذا وقد كانت الشام على عهد أوائل العباسيين كما كانت في العهد الأموي تخرج جنداً لغزو الصوائف والشواتي اي حروب الصيف والشتاء الموجهة الى الروم . وان كانوا في جهادهم على الاكثر لافرق عندهم في الفصول يصيفون ويشتون . ويرتبعون ويخففون . ذكر المؤرخون ان المأمون أقطع اخاه ابا اسحق المعتصم الشام ومصر وفرض على دمشق وحمص والأردن ٤٠٠٠ جندي لغزو الصائفة . وذكر قدامة ان راتب مغازي الصوائف والشواتي في البر والبحر في السنة على التقريب مائتا الف دينار . وعلى المبالغة ثلاثمائة الف دينار . وكان ارتفاع الثغور الشامية — اي طرطوس وأذنة والحبيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وبياس ونقابلس — نحو المائة الف دينار تنفق في مصالحها وسائر وجوه شأنها وهي المراقب والحرس والقواثير (الكشافة) والركاضة (البريديون) والموكلون بالدروب والمخابض والحصون وغير ذلك من الامور والأحوال ، ويحتاج الى شحنتها من الجند والصعاليك اي الجند غير المنظم . وكان اذا عصا بعض عمالم او نجم ناجم من الثوار يبعثون بالجيوش من العراق كما أرسلوا جيشاً لحرب نصر بن شبث ، وجيشاً لقتال القرامطة . وكان الجيش الذي ألفه احمد بن طولون واولاده من الاسباب القوية في نزع مصر والشام من حكم العباسيين بالفعل . وقد قيل ان الجيش الذي نظمه ابو الجيش خمارويه بن احمد بن طولون لم ينفق مثله لأعظم الفاتحين ، وكان مؤلفاً من صفابة اي من اهل صقلية من الطليان والروم وغيرهم من العناصر .

أدوات التدمير والسلاح } كان جل الاعتماد في القتل والتخريب على المنجنيق
 والمواصلات } والنشاب ، الاول لتخريب الحصون ودلك الاسوار
 والثاني لازهاق النفوس . والمنجنيق (بفتح الميم وكسر ها) آلة ترمى بها الحجارة بشد سوار
 مرتفعة جداً من الخشب ، يوضع عليها ما يراد رميه ثم يضرب بسارية توصله لمكان بعيد
 جداً . قال في التاج وهي آلة قديمة وضعت قبل وضع النصارى البارود والمدافع ، واول
 من رمى به الرسول (ص) في حصار الطائف ، واول من رمى به في الجاهلية جذيمة
 الابرش وهو من ملوك الطوائف . ويستعملون الدبابات وهي أشبه بدبابات هذه الايام
 (التانك) وهي جمع دبابة آلة تتخذ في الحصار يدخل في جوفها الرجال ثم تدفع في اصل
 الحصن فينقبونه وهم في جوفها . ويتخذون ايضاً الحسك (السلك الحديد) يتحصنون
 وراءه ويمنعون العدو بعض الشيء من مباغتتهم . واخترع بعض الدمشقيين في حصار
 المسلمين عكاً على عهد صلاح الدين سائلاً اذا قذف به على الصقالات التي توضع لرمي
 المنجنقات تشعلها حينها . فكان الصليبيون منها في مصيبة . وأهم سلاح عديم للمهاجمة
 السيف والرمح وللدفاع الدرع .

ومما كانوا يتقون به مداومة العدو ان يضعوا مما يلي البلاد من حد الشرق رجالاً
 لتحرق زرعها ونباتها ، وهي اراض مخصصة كانت تقوم بكفاية خيل القوم مرعى . اذا
 قصدوا البلاد ، فكانت تحرق اضعافاً لهم ، وإقصاداً لحركاتهم ، اذ كانوا من عادتهم
 انهم لا يتكفون علوفة خيلهم بل يكلونها الى ما نبت الارض ، فاذا كانت ارضاً مخصصة
 سلكوها ، واذا كانت مجدبة تجنبوها ، وكانوا لا يفتنون لتقصدها حريقاً ثم فطنوا ،
 فصاروا يربطون عليها الطرق ويمسكون منها بالاطراف ، وكان ينفق في هذه المحرقات
 في كل سنة من الخزانة بدمشق جمل من الاموال ، ويجهز فيها أجلاذ الرجال . وكان
 شأنهم في الاحراق استصحاب الثعالب الوحشية والكلاب المنفرة ، ثم يكن مجهزون
 لذلك عند أمناء النصارح في كهوف الجبال وبطون الاودية ، وتمضي الايام حتى
 يكون يوم ريحه عاصف ، وهو اود زعزع ، وتعلق النار موثوقة في أذنان الثعالب
 والكلاب ، ثم تطلق الثعالب والكلاب في أثرها ، وقد جوشعت فتجد الثعالب في الحرب ،
 والكلاب سبب الطلب ، فحرق ما صبت به وتعلو الريح النار منه فيما جاوره . هذا الى

ما كانت تلقيه الرجال بأيديها في الليالي المظلمة ، وعشايا الايام المعتمة ، على ماروي ذلك جميعه ابن فضل الله .

واستعمل الملوك والأمراء النشاب للنسليه واظهار الشجاعة ومعرفة أساليب الرماية ، فاذا رموا أصموا ، واذا أفضلوا بالغوا ، وقد استعمل الامين لقتال عساكر اخيه المأمون نصول النشاب من خالص الذهب ونقش عليها هذين البيتين :

ومن جودنا نرعى العداة بأسهم من الذهب الا يريز صيغت نصولها

يداوي بها المجروح منها جراحه و يشري بها الا كفان منها قتيلا

واستعمل ذلك كثير من الملوك ومنهم السلطان احمد بن الملك الناصر بن محمد ابن فلاوون ، وكان يجلس كل يوم بين شراريف قلعة الكرك وهو محصور ويرمي سبعة سهام صيغت نصولها من فضة موشاة بذهب وقد نقش عليها هذان البيتان .

كان اعتماد الملوك في نقل الاخبار على ثلاثة امور : البريد واول من وضعه في الاسلام معاوية بن ابي سفيان حين استقرت له الخلافة ، فوضع البريد لتسرع اليه اخبار بلاده من جميع أطرافها ، أمر باحضار رجال من دهاقين الفرس واهل اعمال الروم وعرفهم ما يريد فوضعوا له البرد واتخذوا له بغالاً بكف كان عليها سفر البريد . ولم يزل البريد قائماً حتى آن لبناء الدولة المروانية ان ينقض ، ولما ان اغزى المهدي ابنه هارون الرشيد الروم ، وأحب ان لا يزال على علم قريب من خبره رتب ما بينه وبين معسكر ابنه برداً ، كانت تأتيه باخباره ، وتريه متجددات ايامه ، فلما قفل الرشيد قطع المهدي تلك البرد ، ثم رتب على عهد الرشيد على ما كان عليه ايام بني أمية ، وجعل البغال في المراكز ، وكان لا يجهز عليه الا الخليفة او صاحب الخبر ، ثم جاءت أدوار فلم يكن بين الملوك وما يريدون معرفته من الاخبار الا الرسل على الخيل والاربل . فلما أنت الدولة الزنكية أقامت لهذا النجاة ، وأعدت لها النجب المنتجة ، ودام هذا الى سقوط دولة بني ايوب . ولما صار الملك للظاهر بيبرس كان أحرص ما يحرص عليه مواصلته بالاخبار ، وما يتجدد من أخبار النار والفرنج . وقال مرة لكانب الانشاء شرف الدين عبدالوهاب ان قدرت ان لا تبيني كل ليلة الا على خبر ، ولا تصبيني الا على خبر فافعل ، واتخذ لذلك هو ومن بعده مراكز البريد ، تشتري الخيل بمال السلطان

ويقام لها السواس والعلوفات . ثم مما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوي أقطاعات عليها خيول موظفة تحضر في هلال كل شهر الى كل مركز اصحاب النوبة فيه بالخيول ، فاذا انسوخ الشهر جاء غيرهم ، وهم لهذا يسمون خيل الشهارة ، وعلى الشهارة والبر من قبل السلطات ، يستعرض في رأس كل شهر خيل اصحاب النوبة فيه ، ويدوغها بالداغ السلطاني . وقد جعلوا لها مراكز ومحطات وبنوا عليها خانات وفنادق ومساجد في كل طرف من أطراف المملكة .

هذا ما كان من امر البريد وانشأوا في الموصل حمام الزاجل ، فاقبسه خلفاء الفاطميين بمصر والشام ، و بالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بانساب الحمام . نقله من الموصل نور الدين محمود سنة ٥٦٥ هـ وكانوا في النهار يجعلون جل اعتمادهم عليه في نقل الاخبار ولا سيما زمن الحروب الصليبية ، وله مراكز في هذا القطر من الجنوب الى الشمال . ومن جملة ما يعتمدون عليه في الليل المناور وهي مواضع رفع النار في الليل ، والدخان في النهار ، للاعلام بمحركات العدو ، اذا قصدوا البلاد للدخول لحرب او لاغارة ، ولما يرفع من هذه النيران او يدخن من هذا الدخان أدلة تعرف فيها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به ، باختلاف حالاتها تارة في العدو وتارة في غير ذلك . وقد أرصد في كل منور الدياب والنظارة لرؤية ما وراءهم وايراء ما أمامهم . والمناور المذكورة تارة تكون على رؤوس الجبال وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها تعرف بها اكثر السفارة . وهي من أقصى ثغور الاسلام الى حضرة السلطان . حتى ان المتجدد بكرة بالفرات كان يعلم به السلطان عشاء في مصر والمتجدد بها عشاء كان يعلم به بكرة . قال صالح بن يحيى وفي سنة ٦٩٣ هـ جملت لامراء الغرب في لبنان درك بيروت ليراقبوا البحر وجعلوا فيها رهمية وحمام بطاقة مدرج الى دمشق وخیل بريد فكانت النار للحوادث في الليل وحمام البطاقة للحوادث في النهار والبريد لما يتجدد من الاخبار وكل ذلك فعلوه خوفاً من رجوع الافرنج . الى ان قال وذلك لاجل ما يتجدد من الاخبار ومنع الافرنج عن الاجتماع باهل كسروان . والزاجل والمناور أشبه بالهليوستا والايچكتيف او البروجكتور عند اهل زماننا .

الجيش على عهد } كانت جمهرة الجيوش الاسلامية على عهد صلاح الدين
ملوك الطوائف } مؤلفة من عرب واكراد وأتراك وكان صلاح الدين
كعلمه نور الدين من عظام القواد يعرف علم النعبية والمصافات ولا يغفل يوماً عن
تقوية جسمه بالرياضة البدنية ولا سيما لعب الكرة والجري والصيد والقنص ليستعين
بذلك على القتال . وكان اول اتصال صلاح الدين بنور الدين تفوق صلاح الدين
بلمب الكرة . وقد الف صلاح الدين بين القلوب وجمعها على المقصد الذي أراد حتي
لا يشمر المرء في جيشه باختلاف في العادات والمنازع .

وارتقى فن الحرب في الدولتين النورية والصلاحية بين الشاميين . والحرب تعلم في
الحرب . والجيش الذي يقوده قائد كنور الدين بنفسه مستعيناً بمشاهير قواده ثم يقوده
صلاح الدين بنفسه ومشاهير قواده مكتوب له الظفر لا محالة . وكان الجند موسماً عليه
كل التوسعة ، وهو على قلة عدده بالنسبة لجيوش الصليبيين منصور في أكثر الوقائع .
وكانت نسبته نسبة واحد من المسلمين الى اربعة من الصليبيين كما كان يوم حطين .
والفرنجي يلبس زرد الحديد من فرقه الى قدمه وقد لا يقتل الا اذا جُندل حصانه
والشاميون مخفون من السلاح . وكان اعتماد الفريقين على النشاب والنبال يقف
جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه والسلطان بنفسه يصف الاطلاب ويجهز
ابداً جيشه ويعلمه للبيكار والجمازة من آلات المحامل والاطلاب الكتائب والبيكار
الحملة او الحرب . والجندي الغازي موفور الكرامة والقواد عند السلطان كأخوته
وأشقائه وأولاده والأموال دارة على الجميع كما قال عبد المنعم الجلياني شاعر
صلاح الدين :

ان الملوك الذين امتد امرهم لم يخزنوا المال بل هما حووا بذلوا

كذا السياسة فالاجناد لو علموا ببخل الملوك وجاءت شدة خذلوا

ذكر ياقوت ان الملك العزيز صاحب حلب كان طول مملكته من الشرق الى
الغرب مسيرة خمسة ايام ومثلها من الجنوب الى الشمال . وفيها ثمانمائة ونيّف وعشرون
قرية كانت تقوم برزق خمسة آلاف فارس مزاحي العملة موسع عليهم وفيها من
الطواشية المفارب ما يزيد على الف فارس يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف

درهم الى خمسة عشر الف درهم ونسبة اعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخاثرها وارزاق مستحفظيها .

ولما استكثر آخر ملوك الايوبيين الملك الصالح ايوب من شراء الممالك وكانت يجعلهم في جزيرة الروضة على النيل او على بحر النيل اطلق عليهم اسم الممالك البحرية فكانوا القضاة على الدولة الايوبية جعلوا الملك منهم . فسميت دولتهم دولة الممالك البحرية كما سميت الدولة الخليفة دولة الممالك البرجية . وهم الذين أنشأهم السلاطون قلاوون من المغول والشركس وكانت يجلس معهم في أبراج قلعة القاهرة فسموا الممالك البرجية .

وهؤلاء الممالك البحرية والبرجية كانوا بلاء على الدول التي كانوا قوتها الوحيدة اذا أحسنوا يوماً فأساءتهم ايام . وطاعتهم وغناؤهم وبلاؤهم تبع للسلطان . اذا كان على أخلاق ومانة خضعوا واستكانوا وكانوا آلة خير لقتال اعداء البلاد والخوارج على الملك في الداخل والا أصبحوا من أعظم أدوات الشر . وكان هؤلاء يتمحسون للخدمة ويعيشون بالأقطاعات العظيمة التي كانت لهم . واذا نشبت الحرب راجت سوقهم وكثر الخبز عليهم لانهم يجهزون من الدولة بالاموال والالبسة والسلاح والكرم . وكلما جازوا بلداً او فتحوا مصرأ اعتدوا على السكان والمكان واخذوا ما استطاعوا اخذه من مال الامة وعروضها وناطقتها وصامتها . ولولا صفات خاصة في هؤلاء الممالك أورثتهم قوة ما استطاعوا وهم غرباء في مصر والشام ان يحكموها ٢٧٥ سنة .

الجيش الصليبي	}	رأت الشام من ضروب الجيوش على عهد الحروب
والنثرية		الصليبية ثم في عهد الحروب المغولية النثرية ما يستغرب

منه . فان جيوش الصليبيين كانت مؤلفة من معظم العناصر الفرنجية التي كانت تدين بدين البابوية في اوربا ، بل كانوا يجندون من أحب من الوطنيين ولا سيما الموارنة . وكانت جيوش هولاء كو وغازان وتيمورلوك مؤلفة من معظم عناصر آسيا الا قليلاً . وجميع هذه الجيوش الغربية والشرقية أضرت بهذه الديار أضراراً فاحشة ، لان النظم الحربية الحديثة لم تكن معروفة اذ ذاك فكان القائد يحكم الضرورة بتسامع مع

أجناده اذا عرقوا لحم من ينزلون عليهم وكسروه سواء كانوا مسلمين او محاربين .
 وطول دور الحروب الصليبية في الشام أورث اهل شجاعة واستهانة بالموت حتى كاد
 يعد جميع اهل جنداً . والشدائد معلة الشعوب . واي شدة على الشام أعظم من ان
 تيجيش اوربا على هذا القطر الصغير . وكانت المأقبة ان غلب هذا الصغير ذاك الكبير
 بالصبر والمثانة والاهتداء الى طرق ناجمة في جهاد عدوهم ومعرفة العرق الحساس من
 مقاتلهم . وقد اعترف المسلمون للصليبيين بالشجاعة والاقدام . واعترف هؤلاء للمسلمين
 بمثل ذلك . ومن أجل ضروب الانصاف ان ينصف المرء خصمه ويذكر محاسنه كما
 يذكر مقايجه .

* * *

أجناس الجيوش في القرون الوسطى } كانت طوائف الاجناد عدة كثيرة
 وجميعيات الفتوة } تنسب كما قال القلقشندي كل طائفة
 منهم الى من بقي من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم كالحافضية والآمرية من بقايا
 الحافظ والآمر او الى من بقي من بقايا الوزراء الماضين كالجيوشية والأفضلية من بقايا
 امير الجيوش بدر الجمالي وولده الافضل او الى من هي منتسبة اليه كالوزيرية او غير
 ذلك من القبائل والأجناس كالأتراك والاكراذ والغز والديلم والمصامدة او من
 المستضعفين كالروم والفرنج والصقالبة او من السودان من عبيد الشراء او العنقاء وغيرهم
 من الطوائف ولكل طائفة منهم قواد ومقدمون يحكمون عليهم .

وكان الجنود في دولة المماليك يقسمون الى طبقتين : المماليك السلطانية وهم أعظم
 الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا وأشدّهم الى السلطان قربًا وأوفرهم أقطاعًا ، ومنهم
 توترة الامراء رتبة بعد رتبة . وهم في العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة
 والقلّة . وقد كان لهم في زمن الناصر محمد بن قلاوون ثم في ايام الظاهر برفوق العدد
 الجم والمدد الوافر ، لطول مدة ملكها واعنائها يجلب المماليك ومشتراها . والطبقة الثانية
 أجناد الحلقة وهم عدد جم وخلق كثير ، وربما دخل عليهم من ليس بصفة الجند من
 التجهيزين وغيرهم بواسطة النزول عن الاقطاعات . وقد جرت عادة ديوان الجيش

عزم الجمع على الجند كي لا يحاط بعده ويطلع اليه هذا مارواه القلقشندي . وروى ابن فضل الله انه كان لكل اربعين نفساً منهم مقدم ليس له عليهم حكم الا اذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه وترتيبهم في موقفهم اليه . وكان اقوش الأفرم اذا مات لاحد من أجناسه فرس يحضر الكفل الى مطبخه و يأخذ من الديوان ستائة درهم . واذا خرج الى بيكار فجميع جنوده الى ان يعودوا لا يطبخ احد منهم ولا يشتري تبناً ولا شعيراً . وذكر الاسدي ان عبرة العساكر في الشام في القرن التاسع كانت اربعة وعشرين الف فارس وانه كان في كل مدينة الامراء والاجناد . وذكر الظاهري ان الجيوش كانت تنقسم في القرن التاسع أقساماً وهي أجناد حلقة وبحرية وتركمان وعرب واكراد وغير ذلك . وأجناد الحلقة بدمشق اثنا عشر الفا وممالك كافلها والامراء بها ثلاثة آلاف . واجناد الحلقة في حلب ستة آلاف وممالك كافلها والامراء بها الفان . وأجناد الحلقة بطرابلس اربعة آلاف وممالك كافلها والامراء بها الف . وأجناد الحلقة بصدد الف وممالك كافلها والامراء بها الف . واجناد الحلقة بغزة وممالك كافلها والامراء بها الف .

وجيش الحلقة هذا هو الجيش القائم دوماً على السلاح وهو ما يقابل باصطلاح هذه الايام جيش الحامية (garnison) وكان لكاتب الجيش جريدة باسماء الاجناد وأقطاعاتهم . ويحتاج صاحب ديوان الاقطاع ان يكون ماضياً فيما يسأل عنه من امور الاجناد وأحوالهم مثقداً لمن يغيب منهم بغير دستور . وكان الى صاحب ديوان الجيش عرض الاجناد وخيولهم وذكر صلاحهم وشيئات خيولهم، اي علامتها وأشكالها، وكان من شرط هذا الديوان عندهم ان لا يثبت لاحد من الاجناد الا الفرس الجيد من ذكور الخيل واناؤها دون البغال والبراذين وبين يديه نقباء الامراء يعرفونه احوال الاجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور وغير ذلك — قاله القلقشندي .

اما أجناس الجيوش في مصر والشام فكانت متنوعة اي من الترك والشركس والروم والروس وغير ذلك من الاجناس المضاهية للترك في الزي . وكانت للعرب على ما يظهر كتائب خاصة بقيادة امرائهم يستدعون حين الحاجة للقتال على اصولهم . وجيوش بني حمدان وبني مرداس وبني كلاب وبني كلب وآل الفضل وغيرهم من

الملوك والامراء عزب صرف لان صاحب العصبة عربي لا يأمن غيرهم . واكثرية الجيش شرادكة او اترك على الغالب والباقون من اهل البلاد .

ولقد كان بعض الخلفاء والملوك والامراء اذا شاهدوا أعراض الضعف في قوتهم يعمدون الى طرق ظاهرها بسيط وباطنها قوة لم لينقوا بهم عند الحاجة . اي يكونون جيشاً يرتجل في الحال و يغني غناءه . كما فعل الناصر لدين الله العباسي سنة اربع وستمائة فنقدم الى الوزير بجمع رؤوس الاحزاب وان يكتب في ذلك منشور فدخل الناس من الخاص والعام في الفتوة وسأل ملوك الأطراف الفتوة فنجد اليهم الرسل وقد ألبسهم سراويلات الفتوة بطريقة الوكالة . فما كتبه الوزير ان امير المؤمنين علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه هو اصل الفتوة ومنبعها ، ومنجم أوصافها الشريفة ومطلعها ، وعنه تروى محاسنها وآدابها ، ومنه تشعبت قبائلها وأحزابها ، واليه دون غيره ينسب الفتيان . فعل ذلك بمراي من السلف الصالح ومسمع ، ومشهد من أخيار الصحابة فلم يسمع ان احداً من الامة لأمه ، ولا طعن عليه طاعن في حد أقامه ، وحقيق بمن اورثه الله مقامه ، وانتمى اليه في فتوته ان يقتدي به عليه السلام في أفعاله . الى ان قال : ان من قتل له رفيق نفساً نهى الله تعالى عن قتلها وحرمة ، وسفك دمًا حقنه الشرع المطهر وعصمه ، وصار بذلك ممن قال الله تعالى في حقه ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالدًا فيها ثلاثة ، ان ينزل عنه في الحال في جمع الفتيان عند تحقيقه لذلك ومعرفته ، وبادر الى تغيير رفقته ، مخرجاً له بذلك عن دائرة الفتوة . وان كل فتى يحوي قاتلاً ويخفيه ، ويساعده على امره ويؤويه ، ينزل كبره عنه ، ويغير رفاقته ويتبرأ منه ، وان من حوى ذاعيب فقد عاب وغوى ، ومن آوى طريد الشرع ضل وهوى ، فان الفتى متى قتل فتى من حزبه سقطت فتوته . ووجب ان يؤخذ منه القصاص . وان قتل غير فتى عوناً من الأعوان او متعلقاً بديوان في بلد سيدنا الامام الناصر لدين الله فقد عيب هذا القاتل في حرم صاحب الحرب بالقتل ، فكأنما عيب على كبره فسقطت فتوته بهذا السبب . وسلم الى كل واحد من رؤوس الاحزاب منشور بهذا المثال فيه شهادة اثنين من المدول ، فألزم الناس اجراء الامر على ما تضمنه هذا المرسوم قائلين في تعهدهم ومتى جرى ما بنا في المأمور به المحدود فيه كان الدرك لازماً

لم على نابراء صاحب الحرب اي الخليفة . وهؤلاء الفتيان كانوا يقتلون كل من يخالفهم حتى أفتى الفقهاء بعد ذلك العصر بتحريم الفتوة وانكروا نسبتها الى علي بن ابي طالب وهي أشبه بجمعية فوضوية يعود الى تقويتها ايام الضعف .

الجيش العثمانية } لما جاء العثمانيون لفتح الشام كانت جيوشهم من العسكر المعروف (باليكي چري) اي العسكر الجديد ، وقد حرف الشاميون والمصريون هذه التسمية بلفظ الانكشارية ، وهو الجيش الذي ألفه السلطان اورخان بن السلطان عثمان باقتراح الوزير قره خليل جاندarli على ان يؤلف من اولاد المسيحيين من العثمانيين كالبوشناق والروم والصرب والبغار والالبان ، يجندون بحسب اللزوم وبموجب قانون التجنيد المعروف عندهم (بدوشرمة) اي اللقطاء ، وذلك من اهل الروم ايلي ومن سكان الاناضول على قلة ، ويعنى من ذلك الارمن وسكان جزيرتي سافز ورودس ، يأخذونهم من اهلهم من سن العاشرة الى الخامسة عشرة ويستثنى من ذلك المتزوجون الفتيان ، و يربونهم تربية اسلامية ثم يجعلونهم في الثكنات في الاستانة ، ومنهم من يخدم في قصور السلاطين في أعمال البستنة وغيرها ، ومنهم من يتعلم سبع سنين ولا سيما اللغة التركية حتى يصيخوا مسلمين اتراكاً ثم ينقلون الى العاصمة ، وكثير منهم ارتقوا في مناصب الدولة حتى اصبحوا وزراء وقواداً عظاماً وخدموا العثمانيين خدمة عظيمة ، لان خاص الاترك على الأغلب كانوا يفرون من تعليم اولادهم . وان كان الآباء عظماء في السلطنة . فانتقلت الأحكام بالطبيعة الى ايدي فئة من هؤلاء المتعلمين من الانكشارية .

ولما أسس اورخان هذا الجيش قصد ذات يوم آماسية وكان فيها رجل من الصلحاء اسمه حاجي بكتاش ، والتمس منه ان يسمي هذا الجيش فسماه الولي العسكر الجديد (بيكي چري) ودعاه بما معناه : يبض الله وجوههم ، وقوى سواعدهم ، وارفع سيوفهم ، وأهلك الاعداء بسهامهم ، وكتب لهم الغلبة والتوفيق . قال هوار : ذهب قره خليل جاندarli في تأليفه هذه الكتابات من المشاة بهذا الفخر . وكان تأليفها في عصر كانت فيه اوربا في القرون الوسطى ، وليس لها من الجيوش الا عصابت مسلحة ، بل وقبل

تنظيم كتائب الرماة في انكلترا ، وقبل ان أسس الملك شارل السابع ملك فرنسا جيشاً دائماً تحت الطلب بقرن واحد . وقال ميشو : كان العثمانيون بادي بدء الامة الوحيدة التي كان لها تحت السلاح جيش دائم منظم مما كانت للدولة به التفوق على الأمم التي تريد إخضاعها لسلطانها . وأصبح لمعظم ممالك اوربا في القرن السادس عشر جيوش بمقاديرها أعداءهم ، فانتشر النظام والتربية العسكرية بسرعة بين شعوب النصرانية ، واخذت المدفعية والبحرية كل يوم تزدان نظاماً ورقياً في الغرب ، على حين كان الأتراك يزهدون في التجارب التي وصلت اليها الجيوش البحرية والبرية ، ولا يستفيدون بتاتاً من العلوم التي انتشرت بين أعدائهم وجيرانهم اه .

أسس العثمانيون جيش الانكشارية على غير مثال في التاريخ ، خالفوا فيه الشريعة الاسلامية التي لا تجيز للملك ان يكره الذميين على استرقاق اولادهم ، واتبعوا فيه العرف والمصلحة ، ثم دخل فيه سوء الاستعمال في القرن السادس عشر على رأي موردمان ، وذلك بان اخذوا يتساهلون بادخال أناس من المسلمين واليهود والدور ، فأخذ جيش الانكشارية يشبه جيشاً من الأسرى على الاصول الافريقية الجديدة ، وكان ذلك من أسباب تسرب الفساد اليه .

كان عدد جيش الانكشارية لاول تأسيسهم ستة آلاف جندي وقيل بل الف جندي ، ثم جاوزوا المائة الف وقائدهم العام « آغا » الانكشارية ، وهم بقسمون الى كتائب وكانت كل كتيبة بادي بدء مؤلفة من مائة الى خمسمائة مقاتل ، يعملون في الولايات على الكر والفر . ويستخدم بعضهم في خدمة الولاة او في مزارع ارباب الأقطاعات او في حوانيت ارباب الصنائع ، ويعيش أفراد هذا الجيش من مياومات طفيفة وهي « افچه » واحدة لكل فرد في اليوم ، وتزبد اذا أثبت المقاتل في الحرب كفاة ، و يقبضون ذلك مرة كل ثلاثة أشهر بأبهة وطنطنة . وتوزع الاقطاعات على المبرزين منهم من الضباط وغيرهم يعيشون بها زمن السلم ، ويقضى عليهم في الحرب ان يجهزوا أنفسهم على نفقتهم .

وكان أغلب الانكشارية في الولايات من الفرسات وفي العاصمة من المشاة . وسلاح المشاة الدروع والمغافر والاثراس والخناجر مما يخفف حملة ، وسلاح الفارات

السيوف والرماح والحراش والمعاول يستعملونها في القرب ، ويستعملون في البعد الرماح والبنادق والغدارات . واسلحة الفرسان عبارة عن سيوف مستطيلة وبنادق بقتيل وبنادق بصوان وغدارات وقصافيز من حديد . وقد استعمل العثمانيون أسلحة نارية تشبه المدافع في محاربة قوصوة المشهورة . وكانت المدافع والمكاجل في عسكر السلطان سليم على مرج دابق من أسباب ظفريه بجيش الماليك لان هؤلاء كانوا خلوا منها . قال احمد رفيق : ولقد كان العثمانيون يستعملون من السلاح ما خف محمله حتى ان نعال خيولهم كانت على غاية الدقة وذلك حتى تسير سيرا سريعا . وكانوا يبدون مهارة فائقة في التقدم وكشف قوة العدو والأخطا به وتجهيزه . ويكنون له ويعنون من وراء الغاية بتعليم الجند وتدريبهم حتى يبلغوا بمن يأخذونهم من الاولاد مرتبة الكمال . يعلمونهم الألعاب الرياضية واستعمال القوس والنشاب ثم الرماية بالبنادق ، ويدرّبونهم على لعب الجريد والمساينة ليل نهار . وتبدل الاسلحة بتبدل الزمن .

وكان لكل كتية شعار يرثعه المجندون فيها على خيامهم وعلى أبواب ثكناتهم ويشتمونهم اي يستعملون لم الوشم بايديهم وأرجلهم . وقد أخذ هذا الجيش يفسد على عهد مراد الثالث لانه رخص سنة ٩٩٠ بقبول الرقاصين والمصارعين في الدخول فيه . وبعد ذلك اخذ يدخل في سلكه أخلاط من كل صنف من الناس بالشاعات والرؤى ليستفيدوا من امتيازات الانكشارية . وفي ذلك الوقت اخذ بعض سكان الشام يدخلون في هذا الجيش على ما يظهر . وفي سنة ١١٥٣ صدر الامر بان تباع العلوفات فضعفت قوة الجندية في الانكشارية وأصبح من كانوا من الجند حقيقة لا يقبضون من العلوفات ما يكفيهم بل يعيشون بالنهب والسرقه . وكما اتى الزمن على الانكشارية زاد تدخلهم في سياسة الملك في الاستانة فأخذوا يخيفون السلاطين ويخاؤونهم بل يقتلونهم ويزلون الصدور العظام وينصبونهم او يقتلونهم ويشردونهم . وآخر من قتلوه من سلاطين العثمانيين السلطان سليم الثالث .

ولما تربع السلطان محمود الثاني في دست الملك ورأى ماتم لعزيمه مر محمد علي من إنشاء جيش له على النمط الغربي صحت عزيمته ان يجعل في القضاء على الانكشارية

فاستصدر فتوى بقتلهم فقتلهم الاهالي ورجال البحرية ، وألغى نظام الانكشارية سنة ١٢٤١ وسموا هذه الواقعة في الاستانة بالوقعة الخيرية . وقد قتل فيها في العاصمة والولايات سنة آلاف رجل على رواية المؤرخ اسعد افندي . ومن ذاك الوقت ألغت الدولة جنداً على مثال الجيوش الاوربية : وكان من الانكشارية في الشام ان خربوا القرى والضواحي . وكانوا يعتدون على الاعراض والاموال واي اعتداء . ولما صدر الامر بقتلهم قُتل بعضهم هنا ومنهم قسم من الاهالي غير اسمه ورسمه فتفاضت الدولة عنه . هذا هو الجيش الذي بقيت الشام تحت رحمته اكثر من ثلاثمائة سنة ولم تر الشام من حسناته بل رأت سيئاته وتخرباته .

وكان من جملة الجيش عسكر اسمه (اللوند) وهو العسكر الخفيف الذي كانت مملكة البندقية تستخدمه قديماً ومنهم عسكر اسمه (السكبان) — السكبان كلمة فارسية مركبة معناها حارس الكلب — قال البوريقي : وهم عبارة عن طائفة كان وصنم ان الواحد منهم يحمل البندقية على ظهره ويقود الكلب في ساجوره (قيده) ويمشي أمام الامير والكبير حتى يسير الى الصيد . قال : ولم يكونوا اولاً شيئاً حتى جاء الى بلاد الشام امير يقال له ابو سيفين تولى ولاية نابلس فصحب منهم نحو مائة رجل يستعين بهم على رعاية بلاد نابلس لانهم لا يخلون من نوع شراسة ، فاعتاد الامراء استصحابهم الى ولاياتهم فكثروا . وقد أضيف هذا العسكر الى جوقة الانكشارية . ومن الجند صنف يقال له (السباهية) وهو من الفرسان كانوا يعطون عشر بعض الاراضي على صورة أقطاع و يقومون مقابل ذلك مدة الحرب بممارسة الدولة في القتال ، يأتون على خيولهم والدولة تعطيهم الذخائر والمؤن . ومنهم صنف يقال له (سبجه جي) وهو من العسكر المدرع (زرهلي) من جيوش العثمانيين . ومنهم (القوقولي) اي الحراس وأصلهم حراس السلطان كثروا في آخر القرن الماضي . ومنهم (الدالاتية) اي الادلاء واصل الكلمة فارسية من داله بمعنى الدليل . وكانوا يلبسون في رؤوسهم قلنسوة كالطرطور على ما في محيط المحيط و (المواره) وهم صنف من العساكر الغير المنظمة و (التفكجية) مأخوذة من تفكجي اي صاحب البندقية وهم جند من رماة البنادق وكانوا للمحافظة و (الشوريجية) وهم ضباط الانكشارية يعمل لم الحساء اي الشورية في

قدر خاص ، ورتبة الواحد منهم معادلة لرتبة قائد يعرفنا الى غير ذلك من صنوف الجنود .

الجيش الحديثة } كان بعض الامراء في هذه الديار لا يخلون من مقابلة
على الدوام يستخدمونهم في قيام امرهم . ومن اهمهم في
هذا الباب اولاد معن امراء الشوف وما اليها فقد كانوا يستطيعون ان يجندوا اربعين
الفا . وذكر فولني في القرن الثامن عشر انه رأى الامير في ديرا قمر جند خمسة عشر
الف جندي في ثلاثة ايام . ومن الجيوش التي رأتها الشام وكانت بالنسبة للجيوش
التركية تراعي النظام جيوش مصر مدة حكم ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير فكانت
مؤلفة من المصريين والارناؤد والموارة والهنادي من عرب مصر وكلم يدربهم
ضباط ماهرون وكان في رأس القواد بعض ضباط أجناب من الفرنسيين .

ولما انتشر نظام الجند الجديد ضاقت صدور الناس بالجندية لانها لم تكن مستوفاة
شروط الراحة ولان الأخلاق الحربية أوشكت ان تزول لطول العهد بها ولا سيما من
سكان المدن . على ان سكان البادية كانوا يعفون من هذه الخدمة . والسبب في ذلك
ان امراءهم لم يكونوا من جنسهم فكانت اللغة من جهة والشدة عليهم من أخرى من
الحوائل دون امتيازهم بالصفات الحربية وايتارهم الثقلت من الجندية ان أمكن .

ولقد أخرجت المدرسة العسكرية في دمشق مدة نصف قرن مئات من الضباط من
أبناء الشام خدموا الدولة خدمة صادقة . وكان منهم نبغاء لم يقصروا عن ارق العناصر
العثمانية علماً وذكاء ومضاء . ويقال على الجملة ان هذه البلاد في الدور العثمانية كانت
بعسكرها والحامية الانكشارية أولاً ثم الحامية النظامية آخرأ أشبه بعسكرات عظيمة ،
يعمل فريق عظم من الناس لخدمة الجيش . وكانت رواتب الضباط وجرايات الجنود
تتخف جداً وكذلك علف الدواب فيسدون العجز بطرق مخربة . ومع عدم العناية
بأكل الجند وملبسه كانوا يوم الغارة اسودأ خصوصاً اذا حسنت قيادتهم لان
الشباب كانوا يتدربون على الصراع والمسايفة والرماية والألعاب الرياضية بجملتها
فاذا كانت الحرب اواقتضت الحال الغارة على فريق اودفع صولة صائل استطاعوا ان
يستعملوا السلاح ويحسنوا الطعن والضرب اول تجميدهم .

وكانت أنظمة العثمانيين الأخيرة محتذاة من أنظمة الجيش الألماني والفرنسي ولنا
 ان نقول بعد هذا انه لم يتأورب أي لم يصبح أوربياً في هذه الارض مدة حكم
 العثمانيين شيء من أوضاعنا مثل الجيش . جندت الدولة العثمانية في الحرب العامة
 نحو ربع مليون من بلاد الشام او سبعة وعشرين قرعة ويمكن ان يقال على الجملة انه
 حارب ربعهم وهلك ربعهم واستخدم ربع في خدم خفيفة وهرب الربع الآخر . ولما غلبت
 الدولة العثمانية في الشام في الحرب العالمية الأخيرة وانهمز جيشها واستسلم أكثره لم يتمكن
 من الثبات أمام قوى الحلفاء الجديدة فانجلى الجيش في هذه الديار بالطبيعة .
 وقدرأت هذه البلاد مدة الحرب العالمية الأخيرة جيوشاً من الترك والاكراذوالألمان
 والمجر والنمساويين والهولنديين وغيرهم كآرات بعد انحلال العثمانية جيوشاً من البريطانيين
 والكناديين والاولستراليين والهنود والفرنسيين والجزائريين والمراكشيين والهنود الصينيين
 والسفاليين والسودانيين . وبالجملة رأيت جنوداً من معظم المستعمرات الخاضعة لبريطانيا
 وفرنسا فأشبهه تبلبل الألسنة في الشام تبلبلها فيه على عهد الحروب الصليبية والمغولية .
 ولما أسست الحكومة العربية في المذبذبة الأربع وأعمالها اخذوا يجندون جنوداً
 عربية بأجورة من اهل هذه الديار ثم شرعوا بالتجنيد الاجباري اشهرأ قليلة ريثما
 دخلت فرقة الجنرالين غوايه ودي لا موط الى دمشق وحلب وسقطت البلاد في يد
 الحكومة الفرنسية المنتدبة وفض الجيش العربي وصفي . وكان بضعة الوف مسجلة على
 الورق . ثم اخذت فرنسا بتأليف جيش مختلط من السوريين والفرنسيين أشبه بالدرك
 وذلك في البلاد الواقعة تحت ائندابها . وأبقت فرنسا فرقاً من جندها في البلاد التي
 انتدبت للاشراف عليها ، كما جعلت بريطانيا العظمى في فلسطين اعتمادها على جيشها .
 وفي الشرق العربي على جيش صغير من أبناء البلاد بعاونه الجيش البريطاني المربط
 في فلسطين عند الاقتضاء . وفي ثورة سنة ١٣٤٤ جندت الدولة المنتدبة كتائب
 من المتطوعة محتهم الانصار وكانت جمهورتهم من الشركس والارمن والاسماعيلية فلقى
 الأهليون من سوء تربيتهم وقلة نظامهم واعتدائهم على الأبرياء ما انسى ذكر الانكشارية .
 وكانت حجة الحكومة انها اصطفت أشقياء لقتال اشقياء . وجعل لبنان كتيبة له من
 الجند سيما القناصة وهم أشبه بالدرك والشحنة .

الاسطول



بحرية الفينيقية والعبرانيين } ليس في الايدي نص يركن اليه لمعرفة
والفراعنة } ما كانت عليه شعوب الشام القدماء من

الاصطلاح في بحريتهم . وسواحل هذه الديار المستطيلة الممتدة من العريش الى
خليج الاسكندرونة تحتاج في اتصالها الى مراكز للتجارة وغيرها . ولم يعرف ان عظام
الانهار في الشام كالاردن والعاصي كانت تجري فيها سفن الا الفرات فانه كان
يحمل مغادي وحراقات وجلابات تذهب وتجيء بين الشام والعراق .

واهم من عرف بمعاونة البحار اهل فينيقية سكان الساحل الأوسط فلم يكونوا اعظم
شعب بحري درج على هذه الارض فقط ، بل كانوا اعظم الشعوب القديمة في العالم
جراة على الاسفار في البحار ، وكانت اصولهم على الاربع من شعوب بحارة جاؤوا من
البحرين في خليج فارس ونزلوا هذا الساحل الجميل فظهرت كفاءتهم في اختراق
العباب في سالف الاحقاب . والصناعات في الناس تكون بالارث او ابنة المحيط .
والفينيقيون استوفوا هذين الشرطين فكانوا بحارة بالفطرة والبيئة بحارة
بالثروة والحاجة .

ومما ساعد الفينيقين على ايجاد صنع السفن كثرة الأخشاب في لبنان ولاسيا
شجر الارز الذي منه كانوا يصنعون مراكزهم الصغيرة والكبيرة . وكانت لم شؤون
ما عرفها غيرهم في السير والاسراء ، والاقلاع والامراء ، يهتدون بنجمة القطب
يستدلون بها على سمت الشمال . ولذلك كانوا يوغلون في البحار ، لا يخشون الاخطار ،

حتى لقد اجتازوا البحر الأبيض الى بحر الظلمات و بحر الشمال وغيره ، ولم ينازعهم منازع من الشعوب في هذا الباب ، لانهم كانوا يكتمون سرّ الطرق التي سلكونها و يتشدّدون في كتمانها . وربما أغرقوا سفنهم اذا اطلع بعض البحارة من الغرباء عنهم على خطة رحلاتهم ، فضلاً عن إغراق مراكب من يحاول سرقة اسرارهم في طرقهم البحرية . ولم يعرف غير الفينيقيين جزائر الكاسيتريد (Cassitérides) او جزائر سورلنج في الشاطئ الغربي من الجزائر البربطانية ومنها كانوا يجلبون القصدير .

ولم يؤثر عن العبرانيين ان كان لهم اسطول بل قوارب لا تبعد كثيراً عن الساحل على النمط القديم . اما الفراعنة الذين حكموا جزءاً مهماً من جنوب الشام وساحله مدة فكانت بحريتهم وصناعاتهم^(١) في مصر اولاً ثم جعلت في طرابلس وصور وجبيل لقربها من مستودع الأخشاب الصالحة لصنع السفن . ولم تكن ملاحه للفراعنة من السلائل الاولى حتى الدولة السادسة والعشرين لانهم ليسوا أمة بحرية .

بحرية الرومان كانت البحرية في العهد اليوناني في الشام على مثال بحرية
واليونان تلك الدولة قوية منظمة . وكانت اليونان أمة بحرية
من الطراز الاول عند الاقدمين . ألفوا اليم منذ عرف تاريخهم لان معظمهم
جزائر يون طالما عاركوا البحر وعركهم . وبالطبع انطبع سكان الساحل الشامي بطابعهم
وساروا على أقدامهم في سلوك سبل البحار . ومثل ذلك يقال في الرومان الذين طال
عهدهم في الشام ، فان أساطيلهم كانت تحمل من شواطئ ايطاليا واليهما تجارات الام
التي خضعت لسلطانهم . وصعب ان يحكم على بحرية الشام في الدور الروماني ولعلها لم
تخرج في كل حال عن طور الرومان . ولا شك ان بعض الموانئ الشامية كان لها
صناعات كما كان لها سيف في كل دور . ويمكن ان يقال على الجملة ان الشام لم يعرف له

(١) الصناعة في العرف اسم المكان المعد لانشاء المراكب والسفن نقلت الى لغات
الغرب فصارت ارسنال (Arsenal) وعادت الى العرب من طريق التبرك باسم
« ترسانة » .

منذ عرف تاريخه الى الفتح الاسلامي بحرية خاصة وافية بالغرض بالنسبة لتلك الاعصر
الا في عهد الفينيقيين وكانت في سائر أدواره مندجكة في الام القوية التي امتد
سلطانها عليه .

العرب والبحار } كان العرب الا قليلاً لا يحبون البحار لبعدهم عنها ولما
كان يبلغهم من أخطارها . وقد انفق في أوائل الفتوح
ان العلاء ابن الحضرمي عمل اسطولاً واجتاز من البحرين الى فارس ووصل الى
اصطخر ، ودمر الاعداء اسطوله فقتل كثير من رجاله ، فغضب لذلك عمر بن الخطاب
لان هذا العمل لم يكن عن مشورته . ولما كان معاوية على جند دمشق والأردن الح
على عمر في غزو البحر ، فكتب الخليفة الى عامله في مصر عمرو بن العاص يريد على
ان يصف له البحر فكتب اليه « يا امير المؤمنين اني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه
خلق صغير ، ليس الا السماء والماء ، ان ركذ خرق القلوب ، وان تحرك أزاغ العقول ،
يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، ان مال غرق ، وان
فجا برق . » فكتب عمر الى معاوية « لا والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً
ابداً وتالله لمسلم واحد احب الي مما حوت الروم . فإياك ان تعرض لي ، وقد
علمت مالي العلاء مني ولم أنقدم اليه في مثل ذلك . »

وقد علل ابن خلدون امتناع المسلمين عن ركوب البحر بان العرب أبدؤتهم لم
يكونوا اول الامر مهرة في ثقافته وركوبه . والروم والفرنج لما رستهم أحواله ،
ومر بهم في القلب على أعواده ، صرنا عليه وأحكموا الدربة بثقافته . فلما استقر الملك
للعرب وشيخ سلطانهم ، وصارت أم العجم خولاً لم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي
صناعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت
ممارستهم البحر وثقافته ، فتأقت أنفسهم الى الجهاد فيه وانشاء السفن والشواني ،
وشجعتهم الاساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوما العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر .
واختصوا بذلك من ممالكهم وثورهم ما كانت أقرب الى هذا البحر وعلى خفنته مثل
الشام وغيرها .

ولذا كان العرب باديء بدء يتخوفون ركوب البحر كل التخوف فقد استعمل
الوليد بن يزيد الاسود بن بلال الحارثي على بحر الشام فقدم عليه اعرابي من قومه
ففرض له واغراه البحر فلما أصابت البدوي تلك الأهوال قال شعراً منه :
فله رأي قادي لسفينة واخضر موار السرار بمور
تري مثنه سهلاً اذا الريح أفلت وان عصفت فالسهل منه وعور
فيا ابن بلال للضلال دعوني وما كان مثلي في الضلال يسير
لئن وقعت رجلاي في الارض مرة وحان لاصحاب السفين وكور
وسلت من موج كأن متونة حرار بدت اركانه وثبير
لنعترضن اسمي لدى العرض حلقة وذلك ان كان الأياب يسير
وقد كان في حول الشرية مقعد لذيذ وعيش بالحديث غرير

* * *

اول خليفة غزا في البحر الشامي } منع عمر عماله من غزو البحر بعد اخفاق
وبالبحرية الاموية } العلاء في غزوته البحرية . ولما قلد عمر
عبدالله بن قيس النظر في ثغور الشام جميعها كتب اليه عمر اني لا أحمل المسلمين على
أعواز نجرها نجار وجلفطها الجلفاط (والجلفاط الذي يشد ألواح السفينة) وما زال به
معاوية حتى أقنعه . وفي بيروت عمر معاوية المراكب وجهاز الجيش الى قبرس ومعهم
ام حرام واسمها الرميضاء بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت فلما رجعت رابطت في
بيروت ومات فيها . وشتا المسلمون بارض الروم سنة اثنتين واربعين وهو اول مشق
شتوه بها فاستعمل معاوية على اهل المدينة عبد الملك بن مروان وهو يومئذ ابن ست
عشرة سنة فركب عبد الملك بالناس البحر . فلما ولي عثمان بن عفان طلب اليه معاوية
ان يغزو البحر فوافقه على ذلك على ان ينتخب من يحملهم في المراكب ولا يقترح بينهم ،
فن اختار الغزو طائفاً يحمله ويعينه ففعل . وغزا معاوية الغزوة الاولى فكان اول
مسلم غزا في البحر ، كما ابتدع أعمالاً كثيرة نافعة في قوام الدولة وحفظ البيضة .
واستعمل على البحر عبدالله بن قيس الحامي خليفة بني فزارة فغزا خمسين غزوة من
بين شانية وصائفة في البر والبحر ولم يفرق فيه احد . وأغزى معاوية عقبة بن عامر

الجنهني في البحر واسره ان يتوجه الى رودس . وفتح هذه الجزيرة جُ: دة بن ابي أمية فنزلها المسلمون واتخذوا بها أموالاً ومواشي يرعونها حولها ، فاذا أمسوا ادخلوها الحصن . ولم ناطور يحذرهم ما في البحر ممن يريدكم بكيد ، فكانوا على حذر منهم ، وكانوا أشد شيء على الروم يعترضونهم في البحر فيقطعون سفنهم . وكان معاوية يدرهم لهم الارزاق والعطاء ، وكان العدو قد خافهم . فلما مات معاوية أقفلهم يزيد بن معاوية — رواء الطبري . وجُنادة بن ابي أمية الازدي من صحابة الشام كان على غزو الروم في البحر لمعاوية زمن عثمان الى ايام يزيد الا ما كان من ايام الفتنه فنة علي ومعاوية وشقي في البحر سنة ٥٩ .

وبذلك عرفنا ان معاوية أدرك بصائب رأيه ان سواحل الشام بل الشام لاينجها من غزوات الروم الا ايجاد اسطول عربي بغزو سواحلهم الحين بعد الآخر . والا تعذرت المحافظة على السواحل وبطلت التجارات . وكان المسلمون قبل ذلك على خطر ابدآ يتخطفهم اعداؤهم من عُقر دارهم ، ويطردونهم حتى في ارضهم ويحملونهم أسرى يبيعونهم بيع الاماء والرقيق . اي ان الروم يغزون الشام اذا لم يغزهم اهلها فاول معاوية ان يقنع الخليفة الثاني فتحامي هذا الاذن بركوب البحر خفا على المسلمين ، متأثراً مما أصابهم يوم غزوة البحرين ، ولانه لم ير مارآه عامله في الشام من الخطر الذي يدم البلاد ان لم تتواز قوتها البحرية بقوتها البرية .

قال محبوب المنجي : وفي السنة الثالثة لعثمان ركب معاوية البحر وصار الى قبرس فافتتحها وكان معه الف وسبعماية سفينة مملوءة سلاحاً وأموالاً فسبي منها ومن الجزائر المطيفة بها خلقاً من الناس ، ونزل على جزيرة ارود (رودس) ولم يصل اليها وفي الربيع رجع في جيوش أعظم واكثر من الاولي فنزل عليها وضيق عليهم جداً . فلما رأى اهل ارود الشدة التي هم فيها والعساكر التي أظلمت طلبوا الامان على ان يخرجوا الى سورية ويسكنوا حيث شاؤوا ووفى لهم معاوية بن ابي سفيان وخرجوا منها فأمر بهدم سورها فهدم وأحرق .

وذكر المنجي ايضاً انه في السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم في لونية فلما توسطوا البحر لحقهم بعض الروم في سفينة فألقى النار في السفن فاحترقت كلها وهم

اي الروم اول من أخرج النار وصارت لم عادة . وقد كان المسلمون في خطب نجل من هذه النار في البحار وهي الصواريج (Feu gregeois) وكانت اذا أصابت المراكب لانطفأ بالماء بل تطفأ بالتراب الندي او الرمل ومخترعها كالينكوس من اهل بعلبك لجأ الى الروم سنة ٦٧٣ م فعلمهم هذا التركيب الذي كان له في الحروب البحرية أهوا يل .

ومن غزا في ايام معاوية في البحر بسير بن أبي أرطاة وفؤالة بن عبيد الانصاري . وفي سنة ٤٩ كانت غزوة يزيد بن شجرة الرهاوي في البحر فشقى باهل الشام . وغزا في البحر ايضا عمرو بن يزيد الجهني (٥٨) . وروى المنجي ان معاوية ابن ابي سفيان استعد لقصد القسطنطينية في السنة التاسعة لعثمان والرابعة والثلاثين للعرب ، وأعد سفنًا كثيرة في مدينة طرابلس على ساحل البحر ، وحمل من السلاح امرأ عظيمًا ، وان الروم أحرقوا سفن العرب فبعث معاوية بجيش من البر ففتح قسماً من بلاد الروم وسبى من اهلها مئة الف نفس . ثم جاء ملك الروم في سفن كثيرة من البحر فلما التقى الجمعان كانت الهزيمة على الروم ، وكاد ملكهم ان يفرق ، وتخلص بعد ان قتل من الروم خلق كثير حتى صار البحر دمًا ، ورجع العرب بغلبة كبيرة .

وفي هذا يرهان جلي على العظيمة التي بلغها الاسطول العربي بسرعة ، وما أحرق منه في طرابلس لم يؤثر فيه لان الصناعة كانت ايضا في عكا وصور وربما في غيرهما من ساحل الشام ، ومن عكا ركب معاوية البحر لغزو قبرس ، وبعد ان أحرق الروميين اللذان كانا في خدمة الاسطول في طرابلس اسطول هذه الفرضة البحرية باجمعه ، اصبح من المتعذر على معاوية ان يأمن على أساطيله من كان ائمنهم ، وهم أنباط النصراني في رأي بعضهم ، ممن جعلتهم العرب ربابنة سفنهم ونوانيهم في مراكبهم الحربية ، والغالب ان العرب تعلموا ثقافة البحر من سكان ساحل الشام ثم اعتمدوا على انفسهم شأنهم في كثير من مقومات مدنيهم .

ومع هذا كان اكثر البحرية والذين يتكفلون بغزو الروم من اهل الاسلام وكان الروم معهم ولا سيما في القرون الثلاثة الاولى للهجرة في امر مريج . قال المسعودي :

أخبرني بعض الروم عن كان قد أسلم وحسن إسلامه ان الروم صوّرت عشرة انفس في بعض كنائسها من اهل البأس والفجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين ، منهم الرجل الذي يمث به معاوية حين احتال على البطريق فأمره من القسطنطينية ، فأقاد منه بالضرب ورده الى القسطنطينية ، وعبد الله البطال وعمرو بن عبد الله وعلي بن يحيى الارمني والعربيل بن بكار واحمد بن ابي قطيفة وقرنياس البهلقاني صاحب مدينة ابريق (ازيقي ؟) وحرس خادس اخت قرنياس ويازمان الخادم في موكبه ، والرجال حوله وابوالقاسم بن عبد الباقي . ومن رجال البحر الذين طالما تبرم بهم الروم ليون الطرابلسي ومعيوف بن يحيى الحجوري من اهل دمشق والمغيرة بن عبيد الازدي الخراساني ولي غازية البحر في ايام يزيد بن عبد الملك .

* * *

وصف اسطول شامي } وللبحتري قصيدة في مدح احمد بن دينار يصف فيها
مركبا كان اتخذه وهو والي البحر وغزا فيه بلاد
الروم . قال العسكري في ديوان المعاني وعنه نقل صاحب بلوغ الارب : لم يصف
احد من المتقدمين والمتأخرين القتال في المراكب الا البحتري ، وعدوا قصيدته هذه
من عيون قصائده وفضلوها على كثير من الشعر وهي التي يقول من جملتها :
ولما خطونا دجلة انصرم الهوى فلم يُبق الا لفتة المتذكر
وخطر شوق ما يزال بهيئنا لبادين من اهل الشام وحضر
الى ان قال :

ولما تولى البحر والجود صنوه غدا البحر من أخلاقه بين أبحر
اضاف الى التدبير فضل شجاعة ولا عزم الا للشجاع المدبر
اذا شجروه ^(١) بالرماح تكسرت عواملها ^(٢) في صدر ليث غضنفر ^(٣)

(١) شجروه بالرمح طعنه به . (٢) عامل الرمح وعاملته صدره دون السنان والجمع
العوامل . (٣) الاسد الغضنفر كسفر جل الغليظ الخلق المنقطن .

غَدَوْتُ عَلَى «الْمَيْمُون»^(١) صَبْحًا وَأَمَّا
 أَهْلُ «بَرْطَغِيه» وَ«مَرْ» كَأَنَّمَا
 إِذَا زَجَرَ النَّوْثِيُّ فَوْقَ عِلَاتِهِ^(٤)
 يَنْظُرُونَ دُونَ الْإِسْتِيَامِ^(٥) عِيُونُهُمْ
 إِذَا عَصَفَتْ فِيهِ الْجَنُوبُ اعْتَلَى لَهُ
 إِذَا مَا انْكَفَا فِي هُبُوءِ^(٧) الْمَاءِ خَلَّتْهُ
 وَحَوْلَكَ رَكَبُونَ لِلْهَوْلِ عَاقِرُوا
 تَمِيلُ الْمَنَائِيَا حَيْثُ مَالَتْ أَكْفَهُمْ
 إِذَا رَشَقُوا بِالنَّارِ لَمْ يَكْ رَشَقَهُمْ
 صَدَمَتْ بِهِمْ صَهْبُ الْعِثَانَيْنِ^(١٠) دُونَهُمْ
 يَسُوقُونَ اسْطُولًا كَأَن سَفِينَتِهِ
 كَأَن ضَجِيجَ الْبَحْرِ بَيْنَ رِمَاحِهِمْ
 نَقَارِبُ مِنْ زَحْفَةٍ يَنْهَمُ فَكَأَنَّمَا
 غَدَا الْمَرْكَبُ الْمَيْمُونُ تَحْتَ الْمَظْفَرِ
 تَشْرَفُ^(٢) مِنْ هَادِي حِصَانٍ مَشْهُرٍ^(٣)
 رَأَيْتَ خَطِيبًا فِي ذَوَابَةِ مَنْبَرٍ
 وَقُوفَ السَّمَاطِ^(٦) لِلْعَظِيمِ الْمُؤَمَّرِ
 جَنَاحَا عِقَابٍ فِي السَّمَاءِ مُهْجَرٍ
 تَلْفَعُ فِي إِثْنَاءِ^(٨) بُرْدٍ مَحْبَرٍ
 كَوْوَسِ الرَّدَى مِنْ دَارِ عَيْنٍ وَحِمْتَرٍ
 إِذَا أَصْلَتُوا حَدَّ الْحَدِيدِ الْمَذْكُورِ
 لِيُقْلَعَ إِلَّا عَنْ شَوَاءٍ مُقْتَرٍ^(٩)
 ضَرَابُ كَأَيْقَادِ اللَّظَى الْمَتَسَعِرِ
 مَحَائِبُ صَيْفٍ مِنْ جَهَامٍ وَمِطَرٍ
 إِذَا اخْتَلَفَتْ تَرْجِيْعُ عَوْدٍ مَجْرَجَرٍ^(١١)
 تَوَلَّفَ مِنْ أَعْنَاقٍ وَحَشٍ مَنْفَرٍ

(١) الميمون اسم المركب والمظفر الممدوح . (٢) يقال اشرف المرأاً علاه كتشرفه
 وشارفه ومثله تشوّف من السطح نطاول ونظر وأشرف . والهادي المتقدم من كل شيء
 او العنق ويقصده مقدم السفينة . (٣) المشهّر فرس المهمل بن ربعة التغلبي ولعله يريد
 بالمشهر كل فرس كريم . (٤) الهلالة السندان حجر آكان او حديدآ . ولكن ما مراده بالهلالة
 هنا ولعلها محرفة عن العلاء بالهمز . (٥) الاشتيام (الاستيام) رئيس المراكب البحرية
 الحربية . (٦) السباط الصف بكسر السين يقال قام بين السماطين ويقال قام القوم حوله
 سماطين اي صفين . (٧) انكفأ القوم رجعوا وتبددوا وانكفأ الى كذا مال اليه . الهبوة
 الغبرة ويعني بها رشاش الماء . (٨) اثناء طيات . (٩) المقتر ذو القنار بالضم
 وهو الدخان من المطبوخ والشواء . (١٠) الاصب والجمع صهب هو الذي يخالط بياض
 شعره حمرة والعشائين جمع عشنون وهي الحبيسة يعني بذلك الروم لانهم شقروا للحي .
 (١١) مجرجر من جرجر البعير ردد صوته في حنجريته والعود المسن من الاوبل والشاء .

فما رمت^(١) حتى اجلت الحرب عن طُلِيّ
 على حين لا تقع تطوّحه الصّبا
 وكنت ابن كسرى قبل ذاك وبعده
 جدحت له الموت الزعاف فعافه
 مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها
 اذا الموج لم يبلغه إدراك عينه
 تعلق بالارض الكبيرة بعدما
 مقطعة فيهم وهام مُطِير
 ولا ارض تُلغى للصريع المقطر
 مليئاً^(٢) بان توهي صفاة ابن قيصر
 وطار على الواح شطب^(٣) مُسَجَر
 عليه ومن يول الصنيعة يشكر
 ثني في انحدار الموج لحظة اخزر
 ثنة صه جري الردي المتطر^(٤)

* * *

سواحل الشام ونفقات الاسطول
 والمناور البحرية والرباطات
 والفداء
 كانت سواحل اجناب الشام كثيرة ،
 ولكن الصناعة صناعة المراكب كانت في
 صور وعكا وطرابلس على الاكثر .
 وسواحل جند حمص في الاسلام انطربوس وبنلياس واللاذقية وجبلة ، وسواحل
 جند دمشق عرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرغند وعدلوت ،
 وسواحل جند الأردن صور وعكا ، وسواحل جند فلسطين قيسارية وأرمهوف
 ويافا وغسقلان وغزة ، وسواحل جند قنسرين الاسكندرونة والسويدية . وعلى
 امتداد سواحل الشام لم يحدثنا التاريخ انه أغير عليها الا من البر ، وما جاءها من
 الحملات البحرية في عدة أدوار ولا سيما على عهد الاسكندر والرومان والصلبيين
 والانراك او الاسطول الانكليزي سنة ١٧٩٩ م والاسطول الدولي ١٨٤١ واسطول
 الحلفاء سنة ١٩١٨ لم يكن في الحقيقة الا ثانوياً أريد به ذلك بعض المواقع الحربية
 بنيران السفن او ضمان جلب الذخيرة او عدم قطع خط الرجعة من البر .

وذكر قدامة انه كان يجتمع الى مراكب الشام التي كانت تغزو من الثغور الشامية
 مراكب الشام ومصر من الثمانين الى المائة ، والغزاة اذا غزموا عليها في البحر كوتب

(١) فمارمت ما برحت مكانك . (٢) الملي بالامر المضطلع به التقدير عليه .

(٣) الشطب الطويل الحسن الخلق وقداراد به المركب . (٤) التطر الفرس الصريع .

اصحاب مصر والشام في العمل على ذلك والتأهب له ليجتمع بجزيرة قبرس ، ويسمى مايجتمع بها « الاسطول » كما يسمى مايجتمع من الجيش في البر « المعسكر » ، والمدير لجميع امور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية ومقدار النفقة على المراكب اذا غزت من مصر والشام نحو مائة الف دينار .

وذكر المقرئ ان اول ما أنشئ الاسطول بمصر في ايام المعتصم سنة ٢٣٨ فأنشئت الشواني برسم الاسطول وجعلت الارزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر ، واجتهد الناس في تعليم اولادهم الرماية وجميع انواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الاسطول جاهل بامور الحرب ، وكانت الحرب مجالاً بين المسلمين والروم ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ، وقد قويت العناية بالاسطول على عهد المعز الفاطمي ، فكانت المراكب تنشأ بمدينة مصر واسكندرية ودمياط من الشواني الحربية والشنديات والمسطحات وتسير الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان . وكانت جريدة قواد الاسطول في آخر ايامهم تزيد على خمسة آلاف مدونة ، منهم عشرة اعيان يقال لهم القواد ولم يروا دارة ، وكانت عدة المراكب السائرة في ايام المعز لدين الله تزيد على ستائة قطعة وآخر ما صارت اليه في آخر الدولة نحو مائة قطعة .

ولقد اتخذ المسلمون المناور البحرية لهداية السفن على الشواطيء الشامية ، وكانت في معظم السواحل رباطات للنيل من الاعداء ان قدموا بجزراً ، فاهل دمشق يرباطون في بيروت ، واهل القدس في الرملة او يافا ، واهل حمص في طرابلس ، وكانت قرية كفر سلاّم من قرى قيسارية في فلسطين ولها رباطات على البحر يقع فيها النفير ، وثقلهم اليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم اسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار ، وفي كل رباط قوم يذهبون في الرسالات ، ويحمل اليهم اصناف الاطعمة ويضج بالنفير لما تترامى مراكبهم فان كان الوقت ليلاً أوقدت منارة ذلك الرباط ، وان كان نهراً دخنوا ، ومن كل رباط الى القصة عدة منائر شاهقة ، قدر تب فيها اقوام فتوقد المنارة التي للرباط ثم الى التي تليها ثم الاخرى ، فلا يكون ساعة الا وقد أنقر بالقصة ، وضرب الطبل على المنارة ، ونودي الى ذلك الرباط وخرج الناس

بالسلاح والقوة واجتمع احداث الرساتينقي ثم يكون الفداء رجل يشتري رجلاً وآخر بطرح درهما او خاتماً حتى يشتري ما معهم . ورباطات هذه الكورة التي يقع بهن الفداء غزة ، ميباس ، عسقلان ، ماحوز ، ازدود ، ماحوز بينا ، يافا ، أرسوف — قاله المقدسي . والماحوز هو المكان الذي بينهم وبين العدو ، وفيه اساميتهم بلغة الشام ، ومعه الحديث فلم نزل مفطرين حتى بلغنا ماحوزنا .

وكانت حيفا تشارك هذه الموافي في صنع المراكب وتسمى الابنية الخاصة بالملاحة البحرية بالجودي اشارة الى سفينة نوح التي استوت على الجودي في الجزيرة . وكانت الحروب سجالات بين المسلمين والروم ، ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ، ويأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الاسلام على بلاد العدو ، وكان اول فداء وقع في الاسلام ايام بني العباس ، ولم يقع في ايام بني أمية فداء مشهور ، وانما كان يفادي بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر وغيرها ، الى ان كانت خلافة الرشيد فوقع الفداء الاول باللامس من سواحل البحر الرمي قربها من طرسوس في سنة تسع وثمانين ومائة على يد القاسم بن الرشيد وهو معسكر بمرج دابق من بلاد قنسرين في اعمال حلب ، ففودي بكل اسير كان ببلاد الروم من ذكر وانثى ، وحضر هذا الفداء من اهل الثفور وغيرهم من اهل الأمصار نحو من خمسمائة الف انسان بأحسن ما يكون من العدد والخيال والسلاح والقوة وقد اخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ، وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزينة معهم اسارى المسلمين ، فكان عدة من فودي به من المسلمين في اثني عشر يوماً ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير ، وجرى الفداء في ادوار مختلفة . ذكر هذا المهر يزي ثم عدد ما وقع من الفداء في اوقات مختلفة الى القرن الرابع وكان اكثر عدد من فودي به في خلافة الواثق ٤٣٦٢ من ذكر وانثى .

* * *

الاساطيل في القرون	} و معلوم ما كان من اسطول الفاطميين من المنافع في
الوسطى	
عسقلان ويافا وصور وبيروت وطرابلس وجبله واللاذقية . وكانت اساطيل الفاطميين	

- في الساحل مرتبة في عسقلان وعكا وصور وغيرها وذلك قبل ان يغلبهم الصليبيون على الساحل . وكان الاسطول من جملة العوامل في بقاء الامل باسترجاع البلاد ، وقد كان الظفر حليف الجيوش البحرية لكثرة ما لها من الامتيازات ، وفي العادة ان الاسطول اذا غنم ماعساء ان يغنم لا يعرض السلطان منه الى شي البتة ، الا ما كان من الأسرى والسلاح فانه للسلطان ، وما عداهما من المال والثياب ونحوهما فانه لغزاة الاسطول لا يشاركهم فيه احد .

ولم يقصر صلاح الدين ثم الدولة الايوبية ثم دولة المماليك البحرية ودولة المماليك البرجية في إنشاء السفن الحربية والتجارية ، وان كانت عنايتهم بجيوشهم البرية اكثر بما لا يقدر ، وما كان الصليبيون ينالون من المسلمين في الساحل الا يوم تصل سفنهم من موافي الغرب ويكثر عددها ، حتى اذا أقلعت وخلا الساحل تغزوه مراكب الدولة مقامة من الثغور ، او يمد من يجب امداده من المسلمين في الساحل الشامي ، وعلى الرغم من المعاهدات التي عقدت بين اصحاب مصر والشام وبين امراء ايطاليا واسبانيا والبرتغال ، بعد القضاء على الصليبيين في الساحل ، فان بعض الفرنج والروم عادوا الى طريقتهم القديمة من غزو البحر فغزوا صيدا وبيروت وطرابلس ، ولما غزوا اسكندرية (سنة ٧٦٧ هـ) ارتأى رجال الدولة في مصر ان يعمروا من غابة بيروت مراكب كثيرة ، حملات وشواني ، للدخول الى قبرس ، فأحضروا الصنائع من جميع الممالك ، وعمروا مسطبة بظاهر بيروت وكانت المراكب تعمل بها على بعد من البحر وأحضروا الجند من دمشق فأنزل بين البحر والمراكب حذراً من مراكب صاحب قبرس اثلا يحضر العدو على حين غفلة فيحرق ما يعمل من المراكب ، وعملت حملتان كبيرتان الواحدة باسم (سنقر) والثانية باسم (قراجا) وهما اميران من امراء ذلك الوقت ، ثم أهمل الاسطول الى ان جاء الجنوبية (٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م) الى صيدا واخذوها ثم جلوا منها ، ثم عادوا فغزوا بيروت ورمى الفرنج المسلمين بالجروح^(١) والمدافع — روى ذلك صالح بن يحيى .

(١) الجروح جمع جرح فارسية معناها الدولاب وهي آلة ترمى بها الحجارة

والنقط وغيرهما .

وكانت جزيرة قبرس مما يرغب الفاتحون بالاستيلاء عليه لانها مفتاح الشام ، وهي تعد من بخره وقطره ، ولذلك كان اذا استولى عليها صاحبها من الروم وقوسه سلطانها صانعه صاحب مصر والشام ، واذا استضعفوه أسروه وجملوه الى العاصمة فأهانوه وأذلوه . وكان ملك انكلترا ، او ملك الانكتار كما يقول مؤرخونا في الحروب الصليبية استعان بهذه الجزيرة ، وقد جعلها ريشاردس قلب الاسد لما جاءه باسطوله العظيم لفض الحرب مع صلاح الدين ، قاعدة اعماله الحربية البحرية . فانظر كيف يعيد التاريخ نفسه ، وكيف يتسلسل الفكر في الغرب و ينقطع في الشرق باقطاع من يتدعه و يؤسسه .

وكان الجنوبية والبياسنة والبنادقة من سكان سواحل ايطاليا قد استولوا على أزمة البحار في تلك العصور كما استولت عليها برطانيا العظمى في العصرين الاخيرين ، وكانوا احتلوا بعض جزر البحر المتوسط بأنون بعض السواحل الشامية يغزونها ، فكانت حكومات الشام تعنى بالمراكب أشد العناية ، لكن الاعتماد في نقل الجيوش من مصر والشام كان على طريق البر لانه أسلم ، اللهم الا في اوقات مخصوصة من السنة وعندما يُصافي ملوك الفرنجة والروم وصاحب قبرس . وظلت العناية بالاساطيل على عهد حكومات المماليك البحرية والبرجية تختلف باختلاف عقل السلطان المثلث ، وتفرغ ذهنه لصيانة مملكته من الطواريء الخارجية . اما السفن التجارية فزادت العناية بها خصوصاً واهل الشام ما برحوا منذ الزمن الأطول أمة تمارس الاتجار البحرية ، وتعرف من اين تؤكل الكتف في المتاجر ، وقد شوهدت آثارها حتى في جزائر برطانيا وبلاد النروج وفنلندة ومعظم سواحل البحر الابيض .

وكانت الحروب الصليبية معلمة لاهل اوربا على طريق البحار الى الشرق ، ومعلمة لاهل الشام على اختراق العباب الى اوربا ، وكل ذلك على سفن ومراكب فئات امثلة منها في المتاحف البحرية في الغرب ولا سيما في ايطاليا وفرنسا واسبانيا . وكانت السفن الحربية تسمى باسماء كثيرة منها الاغربية والبُطسات والاعواديات والبركوشات والشلنديات والمسطحات والحراريق (الحراقات) والنجوت والثواني والقراقير . ولكثرة اختلاط النوانية والملاحين من اهل الشام وغيرهم من السواحل الاسلامية

بأبناء حرفتهم النازلين على الشاطي' المقابل للشاطي' الأفرقي والشامي ، اخذ الفرنج كثيراً من المصطلحات البحرية عند العرب ، ونقلوها الى لغاتهم محرفة مرخمة ، ولا تزال الى اليوم نقرأها في معاجم اللغات اللاتينية خاصة ، ومنها « امير الماء » فحرف منها الفرنج وصاغوا لفظ « اميرال » والاصل فيها امير الماء اي الربان الاعظم وقائد الاسطول ، وقد اخذ الفرنج من العرب استعمال ابرة السفينة (الحك او الحقة) وكان العرب اخذوها عن الصينيين فيما قيل واخذها الفرنج عنهم في الحروب الصليبية .

ولما فتح العثمانيون الشام ومصر كانت الاسطول الدثاني في إبان قوته ، وكانت بعض سفنهم تطلع من موافي الروم ونأقي ساحل الشام ، وبعضها يقف بالمرصاد لقرصان البحر ، واذا حدثت فتنة داخلية كانوا يجهزون بعض مراكبهم لتساحل الشام وتشاطي' الارض التي نجم فيها الشر ، حتى اذا ضعفت بحرية العثمانيين بضعف الدولة — ولا سيما بعد ان أحرق اسطولها والاسطول المصري في نافارين يوم الفتنة اليونانية سنة ١٨٢٧ أحرقت الاساطيل الانكليزية والفرنسية والروسية ، لان الدولة العثمانية لم تراع اصول الهدنة التي كانت تقررت بين العثمانيين واليونانيين ، ولم يفقد من اساطيل الحلفاء شيء مع جودة المدفعية العثمانية اذ ذاك — أصبحت السفن التي يتمتع سكان السواحل بمراكبها للام الحديثة ولا سيما الروسيون والجنويون والبنادقة والفرنسيين والانكليز ، وقلّت سفن البرنقاليين والاسبانيين ، لان طرق مستعمرات هاتين الدولتين وتجارانهما لم تكن على بحرنا ، وسفنهم تخر العباب الى وجهات أخرى في اميركا وآسيا . والغاب ان الصناعة اي صنع المراكب كان خاصاً بالاستانة ولم يمهّد في دور العثمانيين ان أنشأوا سفناً في صناعات الشام . وكان للعثمانيين مراكب في الفرات يستخدمونها لنقل جيوشهم من الشام الى العراق ، ولا سيما في زمن الثورات والازمات ، على ما يفهم من كتاب أسفار البحار لكاتب جلبي .

وانخلت بحرية النرك في أواخر ايامهم حتى صرت لا تشاهد في ساحل الشام الا على الندر مراكب عثمانية ، وهي اذا قيست الى غيرها تبين الفرق العظيم بين بحرية الام المتحركة المتجددة وبحرية الامة الجامدة الخابدة . وكانت الدولة السليمانية

عزيمتها في أواخر أيامها ان ننشئ لها طراداً اورعاداً اوغواصة اودارعة او يحنًا ، توصي عليه في صناعات ايطاليا اوفرنسا او انكلترا ، لان العلم بذلك فُقد من بنيتها ، ولم تسر مع العصر في الرقي البحري ، كما سارت مع العصر في الجيش البري ، بمعنى ان الدولة العثمانية أصبحت قبيل انقراضها دولة برية فقط ، وكانت تجمع المزيتين البرية والبحرية أيام كانت ترتعد الفرائص منها في الغرب ، ويتمني عظماء ملوكها ان يخطبوا ودها كل ساعة لقوة أساطيلها وجيوشها .

وقد ظهر في حرب جناق قلعة الاخيرة مثال من ترقى بحرية الحلفاء ، ونموذج من ترقى جيش العثمانيين ، واستبسال قوادهم وضباطهم وأفرادهم . وفي مغادرة الحلفاء ذاك الشاطي بعد ان أضاعوا زهاء مئة الف من جنودهم مدة حربهم عليه سنة و زبادة ، اعتراف ضمني للعثمانيين بتفوقهم بجيوشهم البرية ، وان العسكري التركي من خير جنود الارض صبراً وإقداماً على الموت .

فصورنا في البر } ومن الغريب ان اهل الساحل ، ومنهم قسم يفخر بانه
والبحر } من نسل الفينيقية بين سادة البحار ، لم تصح عزيمتهم الى
اليوم ، على كثرة ما بلغه الشامي من درجات الغنى والتمدن في مهاجره ، ان ينشئوا لم
اسطولاً تجارياً صغيراً على النحو الذي نفعل أضف الشعوب لتغدو وتروح على الأقل
بين سواحل البحر الابيض والبحر الاحمر والبحر الاسود ، يحملون عليها متاجرهم
وينقلون قاصديهم وأبنائهم ، ويعتمدون عليها في نقل صادرات القطر ووارداته ، على
الصورة التي كانت لليونان قبل ان ينادوا باستقلال بلادهم منذ نحو مئة سنة ، فكان
لم اسطول تجاري قلبوه اسطولاً حربياً يوم استقلوا . وأغرب من هذا ان يقال
للقطر الشامي انه مستقل ، وما شوهدت قط في قديم ولا حديث ، امة مستقلة
لا اسطول لها ولا معسكر . وهذا من اغرب ما يدونه المدونون ، من اخبار
هذه القرون .

الجباية والخراج



جبايات القدماء } عزّ علينا الظفر بنص صريح في أصول الجباية في
الام القديمة التي انبسط سلطانها على هذا القطر ،
وغاية ما عرفنا عن الرومان وهي الامة الاعرق في المدنية من غيرها والتي طال عهدا
سبعمائة سنة ، انه كان يقضى على الشعب الشامي ان يؤدي الجزية وعشر غلاته ،
واتاوة من المال ، ورسمًا على كل رأس . وللشعب الروماني مواد مهمة من الجمارك
والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزراع الخنطة والمراعي يؤجرونها من شركات
متعهدين يسمونهم العشارين ، يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج . وفي كل
ولاية عدة شركات من العشارين وكل شركة مستخدمون من الكتاب والجباة
يظهرون في مظهر السادة ، ويتنادلون اكثر مما يجب لم اخذه ، ويسابون نعمة الاهلين ،
وكثيراً ما يبيعونهم كما يباع الرقيق . ولما كان الرومان قد جمعوا في بلادهم ثروة الام
المغلوبة اصبحت الدراهم كثيرة جداً في رومية ، ونادرة جداً في الولايات ، فكان في
رومية يمكن الاقتراض بفائدة اربعة او خمسة في المائة اما في الولايات فلا يقل عن
اثني عشر في المئة . واذا لم يستطع المدين ان يوفي رأس المال ورباه بعمد الصيارف
في نقاضي أموالهم الى الطرق التي يستعملها العشارون . اوجز اعدام السياسة
الامبراطورية في الرومان بقوله : « الراعي الصالح يجرّ صوف غنمه ولا ينثفه » ففضي
قرنان وامبراطرة الرومان يكتفون بجز سكان مملكتهم ، يسابون منهم كثيراً من
الأموال ولكنهم يجمعونهم من العدو الخارجي .

ويقول لامنس ان الرومان ضربوا الجزية على اهل الشام على الذكور من سن الرابعة عشرة وعلى الاناث من الثانية عشرة الى سن ٦٥ من عمرهم جميعا وفرضوا عليهم خراجا جبوه من الأملاك يبلغ في المئة واحدا ورسموا ايضا ضرائب ومكوسا على الواردات والصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت أخف على عائق الشاميين من المغارم والسخر التي حملهم اباها ملوكهم سابقا وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي اي آن شاؤوا .

وفي قاموس الكتاب المقدس ان العشار ملتزم الاعشار والضرائب عند الرومانيين وكانوا مشهورين بالظلم والصرامة ، وان التشير جرى قبل ايام موسى بكثير بين الامم القديمة ولا سيما الآسيوية وأدخلها موسى باءلهام آلهي في شريعته وأعطيت العشور للأولاد الذين لم يكن لهم نصيب من الارض فالتزموا ان يأخذوا معاشهم من اخوتهم وكانوا يعشرون البقر وبقية المواشي ولم يكن عشر الاعشاب مطلوبا الا ان الفريسيين كانوا يعشرون النعنع والشبث والكمون . اما الجزية على ما يؤخذ من روايات التوراة فقد علم ان الشريعة الموسوية كانت تفرض على كل محدود نصف شافل ينفق في سبيل خيمة الاجتماع وفي الايام الاولى من تاريخ العبرانيين الى ايام الملوك لم تكن جزية للخدمة المدنية والعسكرية وانما قدم الشعب من عمله ومقنياته تبرعا حتى جعل الملوك جزية او خراجا على الارض وأكمل ذلك سليمان الى درجة ثقيلة جدا على الشعب .

اعتمدت العرب اول الفتح في تنظيم دراوين أموالها
 الجباية في الاسلام } على الروم في الشام ، ينظرون لهم في مسائل الدخل
 والخرج ، ووضع التوازن بحسب عرف تلك الايام ، وذلك لان العرب كانوا لاول
 امرم نصف أميين او نصف متحضرين ، واهل الشام أعرق منهم في الحضارة وما ينبغي
 لها ، حتى كان زياد يقول : ينبغي ان يكون ككتاب الخراج من رؤساء الاعاجم
 العالمين بأمور الخراج .
 ولقد كان الاسراف يبدو في الاموال ايام الترف والنعيم ، وينجلي الاقتصاد

فيها على عهد الجدة والاصلاح ، وذلك يرجع على الاغلب الى من يتولى امر الامة من خليفة او سلطان او ملك او امير ، فاذا صلح الرأس صلح الجسد كله . واذ كانت دواعي الاتفاق محصورة داخل البلاد ، وكان النقد أقل من هذه الايام بالطبع ، والنفن في ضبط الشؤون الاقتصادية لم يبلغ مبلغه في القرون الاخيرة ، وحركة المعاملات والمقايضات محدودة ، وأضعف من العصور الحديثة ، كانت المسائل المالية لعهد العرب الى السذاجة لاول الامر شأنهم في عامة امورهم .

والجباية اول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة ، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة ، فان كانت الدولة على سنن الدين فليست الا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية ، وهي قليلة الوزائع ، لان مقدار الزكاة من المال قليل ، وكذا زكاة الحبوب والماشية ، وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى ، وان كانت على سنن التغلب والعصبة فلا بد من البداوة في اولها . والبداوة تقتضي المسامحة والمكرامة وخفض الجناح ، والتجافي عن أموال الناس والمغلة عن تحصيل ذلك الا في النادر . قال : والدولة تكون في اولها قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده ، فيكون خرجها واتفاقها قليلاً ، ويكون في الجباية حينئذ وفاءً بازيد منها ، بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم ، ثم لا تلبث ان تأخذ بدين الحضارة في الترف ، فيكثر لذلك خراج اهل الدولة ، و يكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة بالغة ، فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع ، ويستحدث أنواعاً من الجباية يضربها على البياعات ، ويفرض لها قدرأ معلوماً على الاثمان في الأسواق ، وعلى أعيان السلع في المدينة .

كانت الجباية في الصدر الاول تجمع من الخراج
 والعشور والصدقات والجوالي^(١) اي ان لها اربعة موارد } ضروب الجباية

(١) «الني» ما يؤخذ من ارض العنوة «الخراج» ما يؤخذ من ارض الصلح «العشر» ما يؤخذ من زكاة الارض التي أسلم اهلها عليها والتي أحياها المسلمون من الارضين او القطائع «صدقات الماشية» وهي زكاة السوائم من الابل والبقر والغنم دون العوامل

رئيسة ، ثم صارت اصل جهات الأموال السلطانية عشرة الجزية والخراج والعشور والاجور ومانز نوات وأثمان الميهات والمقاسمات والغنيمة والنبي والمعادن . وزادت أنواع الجباية على عهد انحطاط هذه البلاد ونسي المنغليون والفاطميون « ان تكثير المالك ماله باموال رعيته بمنزلة من يحصن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه . »
قال الظاهري : ان كثرة الأموال وقتلتها بقدر المعرفة باجتلابها من جزى مقررة ، ومتاجر معشرة ، وأخرجة محضرة ، وعشور محررة ، وقسم مقدرة ، وغنائم موفرة ، وفي من جهات غير منحصرة ، هذا الى زكوات واجبة ، وأجور لازمة ،

والمعلوفة « الكراع » هي الدواب لا غير « الحشري » هو ميراث من لا وارث له « الركاز » دفين الجاهلية « سيب البحر » هو عطاء البحر كاللؤلؤ والمرجان والعنبر ونحوه . ومن ابواب المال أخماس المعادن وأخماس الغنائم وجزء رؤوس اهل الذمة جمع جزية وهو معرب كزيت وهو الخراج بالفارسية « مال الجوالي » جمع جالية وهم الذين جلوا عن أوطانهم ويسمى في بعض البلدان مال الجماجم وهي جمع ججمعة وهي الرأس « المكس » ضريبة تؤخذ من التجار في المراصد « الطسق » الوظيفة توضع على أصناف الزروع لكل جرب وهو بالفارسية تشك وهو الاجرة « الاستان » المقاسمة « الاقطاع » ان يقطع السلطان رجلاً أرضاً فتصير له رقبته ونسح تلك الارضون قطائع واحديتها قطيعة « الطعمة » هي ان تدفع الضيعة الى رجل ليممرها ويؤدي عشرها وتكون له مدة حياته فاذا مات ارثجت من ورثته والقطيعة تكون لعقبه من بعده « الأربفار » هو الحماية وذلك ان تحمي الضيعة او القرية فلا يدخلها عامل ويوضع عليها شيء يؤدي في السنة لبيت المال في الحضرة او في بعض النواحي . « التسويغ » ان يسوغ الرجل شيئاً من خراجه في السنة وكذلك الحطيطة والتريكة « العبرة » ثبت الصدقات لكورة وعبرة سائر الارتفاعات هو ان يعتبر مثلاً ارتفاع السنة التي هي أقل ريعاً والسنة التي هي أكثر ريعاً ويجمعان ويؤخذ نصفها فتلك العبرة بعد ان تعتبر الاسعار وسائر العوارض الواقعة « التلجئة » ان يلجئ الضعيف ضيعته الى قوي ليحامي عليها وجمعها الملاجي والتلاجي وقد يلجئ القوي الضيعة وقد لجأها صاحبها اليه . (مفاتيح العلوم) .

وديات دماء ذاهبة ، ومحرد مباحات رانية ، ومستخرج معادن غير ناهية ، وعداد نعم سائمة لاسائبة ، وظائف على أكرة عاملة ناصبة ، الى غير ذلك من تريبغ مزارع ، وتوزيع قطائع ، وتوسيع مراتع ، وتفريع مواضع ، وترجيع طوالع . فهذه جهات أموال جعل الشرع بيد السلطنة زمام استخراجها . ويمكن من استيفائها بسلوك طريقها ومنهاجها . وفوض فيها حقوقاً تجب رعايتها . عند صرفها واخراجها اه .

وقال الغزالي : وكل ما يحمل للسلطان سوى الاحياء وما يشترك فيه الرعية قسمان : قسم مأخوذ من الاعداء وهو الغنينة المأخوذة بالقهر . والني وهو الذي حصل من مالم في يده من غير قتال . والجزية وأموال المصالحه وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة . والقسم الثاني المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه لا قسمان . الموارد وسائر الاموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك . والاوقاف التي لا متولي لها . اما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان — اي في القرن الخامس — وماعدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وانواع الرشوة كلها حرام . وقال ايضاً : ان أموال السلاطين في عصرنا حرام كلها اواكثرها وكيف لا والحلال هو الصدقات والني والغنينة ولا وجود لها ، وليس يدخل منها شيء في يد السلطان ولم يبق الا الجزية وانما تؤخذ بانواع من الظلم لا يحل اخذها به . فانهم يجاوزون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه ، والوفاء له بالشرط . ثم اذا نسبت ذلك الى ما ينصب اليهم من الخراج المضروب على المسلمين . ومن المصادر والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشره .

اول ما فرض من } واول شيء من المال فرض على اهل دومة الجندل
الجباية } يعرف من الكتاب الذي أرسله النبي مع حارثة بن
قطن الكلبي من اهل دومة الجندل يقول فيه : هذا كتاب من محمد رسول الله الى
اهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب لنا الناجية . من النخل ولكم الصامته
من النخل . على الجارية العشر وعلى الغايرة نصف العشر . لا تجمع سارحتكم . ولا تعد
فاردتكم . تقيمون الصلاة لوقتها . وتؤتون الزكاة بحقة . لا يحظر عليكم النبات . ولا يؤخذ
منكم عشر النبات . لكم بذلك عهد الله والميثاق . ولنا عليكم النصيح والوفاء . وذمة الله

ورسوله . شهد الله ، من حضر من المسلمين اه . واول أقطاع اقطعه الرسول عليه السلام لتميم الداري كان سنة تسع للهجرة اي قبل ان تفتح الشام باربع سنين وذلك بعد منصرفه من غزوة تبوك .

واختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور . وكان لأول الفتح ضرب الخراج على الارض والجزية على الرقاب ، وراعى الخليفة الثاني حال الشام فعمل في نواحيها غير ما عمل في غيرها من البلاد التي فتحت في عهده ، راعى في كل ارض ما تحتمله وكانت الجزية في بدء الامر ديناراً في كل حول على كل جمجمة ثم وضعها عمر بن الخطاب على الذهب اربعة دنانير ، وعلى الورق اربعين درهماً ، وجعلهم طبقات لغنى الغنى ، وإقلال المقل ، وتوسط المتوسط ، وقيل جعل على كل رأس مومس ثمانية واربعين درهماً ومن الوسط اربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً . والجزية تؤخذ من غير المسلمين . والخراج يشترك فيه كل من يملك ارضاً .

وصالح ابو عبيدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على ان تترك لهم كنائسهم وبيعهم ، وعليهم ارشاد الضال ، وبناء القناطر على الانهار من أموالهم . وان بضيفوا من صرّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام . وصالحهم عمر على ضيافة من صرّ بهم من المسلمين ثلاثة ايام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبح شاة او دجاجة . ونهيت دوابهم على غير شعير وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن .

ولما مسح عمر السواد وضع على كل جريب^(١) عامر او غامر يناله الماء بدلو او بغيره زرع او غطل درهماً وقفيزاً^(٢) واحداً . وألغى عمر النخل عوناً لاهل السواد . واخذ

(١) الجريب عشر قصبات في عشر قصبات ، والقفيز عشر قصبات في قصبة ، والعشير قصبة في قصبة ، والقصبة ستة اذرع ، فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة واما الذراع فسبعة أصناف وهو يختلف باصطلاح كل بلد وقطر .
(٢) القفيز مكيال ثمانية مكاتيك جمع مكوك . وفي القاموس المكوك مكيال يسع صاعاً ونصفاً او نصف رطل الى ثمان اواقي او نصف الوبة والوبة اثنان وعشرون او اربعة وعشرون مداً بمد النبي (ص) او ثلاث كيلجات والكباجة تسع منسا وسبعة

من جريب الكرم عشرة دراهم ، ومن جريب السهم خمسة دراهم ، ومن الخضر من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم ، ومن جريب القطر خمسة دراهم ، ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً ، وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً ، وعلى كل الف اصل كرم مما قرب ديناراً ، وعلى كل الف اصل كرم مما بعد ديناراً ، وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب ديناراً ، وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً ، وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك ، وما دون اليوم فهو في القرب ، وحملت الشام على مثل ذلك . وقد ذكر عن بعض اهل المدينة واهل الشام انه تخرج زكاة الخضر من أثمانها على حساب مائتي درهم خمسة دراهم . ١٠ المكنوس على البضائع فكانت تختلف باختلاف الاعصار وكانت قليلة في العهد الاول . كتب عمر بن الخطاب الى ابي موسى الاشعري أن خذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ، وما زاد على المائتين فمن كل اربعين درهماً درهم . ومن تجار اهل الخراج نصف العشر ومن تجار المشركين ممن لا يؤدي الخراج العشري من اهل الحرب .

اول من وضع العشور عمر لقوله عليه الصلاة والسلام ليس على المسلمين عشر وانما العشور على اليهود والنصارى وقال : يا معشر العرب احمدوا الله الذي وضع عنكم العشور ، ولا تؤخذ الصدقات الا مرة في السنة الا ان يجد الامام فضلاً . وفرض عمر ستة خمس عشرة الفروض ودون الدواوين واعطى العطايا على السابقة في الاسلام وفرض لاهل الشام الفين الفين . وكانوا يسمون ما يجمعون من الغنائم الاقباض ويقسمونها بين الفاسقين . وامر عمر عثمان بن حنيف لما ارسله لمسخ السواد ان لا يمسح تلاً ولا أجمة ولا مستنقع ماء ولا ما لا يباغفه الماء . ولما فرض على الرقاب

اثمان منا والمنا رطلان والرطل اثنا عشرة اوقية والاوقية اثنان وثلاثون مثقالاً والامانة اربعة مثاقيل ونصف المثقال درهم وثلاثة اسباع درهم والدرهم ستة دنانير والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة سدس ثمن درهم وهو جزء من ثمانية واربعين جزءاً من درهم .

وجعل على من لا يجد اي الفقير اثني عشر درهماً في السنة قال : درهم في الشهر لا يعوز رجلاً . وكان يأخذ الجزية من اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم وكذلك فعل علي .

ذكروا في النبي والخراج ان من صولحوا اذا عجزوا يخفف عنهم ، وان احتملوا اكثر من ذلك فلا يزداد عليهم ، وان تظالموا فيما بينهم حملهم امام المسلمين على العدل ، ووضع ذلك الصلح عليهم جميعاً بقدر ما يطيقون في أموالهم وأراضيهم ، ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات ولا لاسلام من أسلم منهم ، ويؤخذ بذلك كل من بقي منهم ما كانوا يطبقونه ويحتسبونه — قاله يحيى بن آدم . كتب عمر الى سعد حين افتتح العراق : اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فاذا أتاك كتابي هذا فانظر ما أجلب الناس به الى العسكر من كراع او مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في أعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء وقد كنت امرتك ان تدعو الناس الى الاسلام فن أسلم واستجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لم وله سهم في الاسلام ، ومن استجاب لك بعد القتال وبعثد الهزيمة فهو رجل المسلمين وما له لاهل الاسلام لانهم قد أحرزوه قبل الاسلام . ولما ولي عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن جذيم حمص وما يليها من الشام كتب اليه كتاباً بوصيه فيه بنقوى الله والجد في امر الله والقيام بالحق الذي يجب عليه ويا صبه بوضع الخراج والرفق بالرعية . فأجابه سعيد بن عامر على نحو من كتابه .

ولما طمن عمر قال : أوصي الخليفة من بعدي باهل الأمصار خيراً . فانهم جباة المال . وغيظ العدو . وردء المسلمين . وان يقسم بينهم فيثبم بالعدل . وان لا يحمّل من عديم فضل الا بطيب أنفسهم . وأوصي الخليفة من بعده باهل الذمة وان يوفي لهم بعدهم وان يقاتل من ورائهم وان لا يكلفوا فوق طاقتهم . وكان كثيراً ما يصادر عماله ويحمل أموالهم في بيت المال . فمن صادر خالد بن الوليد فاتح الشام لانه أجاز رجلاً انتجعوه منهم الاشعث بن قيس أجازته بعشرة آلاف وسأله عمر من أين هذا

الثراء قال : من الأتقال والسهام ما زاد على ستين ألفاً فلك فقوم رماله فزاد
عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال .

قال الصولي في أدب الكتاب : ارتفع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب
رضي الله عنه خمسمائة الف دينار . فلما أبغى الأمر الى معاوية قطع الوظائف على
اهل المدن فوظف على اهل قنسرين اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك
الثلاثان . وعلى اهل دمشق اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلاثان .
وعلى الأردن مائة وثمانين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلاثان . وعلى فلسطين
مثل ذلك . ثم جعل بعد ذلك يصطفي الارض الجيدة ويدفعها الى الرجل يخرجها
وعلوجها والخراج على اصله لا ينقص منه شيء .

ولما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لم وحسن
عدل الخلفاء الراشدين السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين
وعونا للمسلمين على أعدائهم . فبعث اهل كل مدينة مما جرى الصلح بينهم وبين المسلمين
رجلاً من قباهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم . فكتب ابو عبيدة الى كل وال
من خلفه في المدن التي صالح أهلها يأمره ان يرد ما جبي منهم من الجزية والخراج وكتب
اليهم ان يقولوا لم انما ردونا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجوع وانكم قد
اشرطتم علينا ان نمنعكم وانا لا نقدر على ذلك . وقد ردونا عليكم ما اخذنا منكم ونحن
لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم . فلما قالوا ذلك لم وردوا
عليهم الأموال التي جبوها منهم قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا لم يردوا
علينا شيئاً . واخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً .

وقد تغير الحال على عهد الخليفة الثالث فيما يظهر لانه أعطى بعض ولاته حر يقيمهم .
ومنهم معاوية بن ابي سفيان فصاروا يجمعون المال وبيذرونه . وقد دفع هو الى ثلاثة
انفس من قریش زوجهم بناته ثلاثمائة الف دينار فيما قال المسعودي لكل واحد مائة
الف دينار وأقطع بني أمية قطائع لمصلحة تعود على المسلمين لان تلك الضياع كانت
خراباً لا عامر لها فسلمها الى من يمرها ويؤدي الحق عنها . واقتني هو وجماعته الضياع

والدور بهو كان في نهاية الجود والبذل في القربى والبعيد فسلك عماله وكثير من اهله طريقته وتأسوا بفعله . وكان عثمان على ما يظهر على شيء من السعة قبل الخلافة ، وكثرت في أيامه أموال الأتقال والغنائم بكثرة الفتوح .

قال الذهبي في حوادث سنة ٣٢ : ان الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كانت الفرس يشتري بمائة الف ، وحتى كان البستان بالمدينة يساع باربعائة الف ، وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والأموال والناس ، يجي إليها خراج الممالك وهي دار الأمانة وقبة الاسلام ، فبسط الناس بكثرة الأموال والخييل والنعم . وفتحوا أقاليم الدنيا واطمانوا وثرغوا .

وأراد الخليفة الرابع ان يرجع في معاملة العمال الى طريقة الشيخين ابي بكر وعمر الا انه لم يوفق الى ذلك . واستأثر معاوية بأمانة الشام عشرين سنة وبالخلافة عشرين سنة . وما كان له بل ولا لعثمان حكم على هذه الديار مع معاوية الداهية الذي دعي بكسري العرب لكثرة أجهته ونفقته . وكان يذل المال لمن وافقه ولمن خالفه . فأنشأ للأموال بين ملكاً بالشام توارثوه ، وبنوا القصور والمصانع والمرافق . وهذا لا يكون بالطبع الا بتوفر الجباية والتطلع ولو بعض الشيء الى ما في ايدي الناس من الأموال ، والاغضاء عن بعض الحقوق ، ولا مجال للانكار ان من خلفاء الأمويين من كانوا يجورون على الرعية ومنهم من كانوا يقطعون أنفسهم او بعض أبناء بيتهم او خاصتهم الأقطاعات الكثيرة .

والجباية كانت تكثر في عهد العادلين أكثر من زمن الجائرين . وما نقص من مال السلطان زاد في مال الرعية . والأقطاعات أقطاعات قمليك وهو موات وعامر ومعادن ، وأقطاعات استغلال وهو عشر وخراج . واللقاح البلد الذي لا يؤدي الى الملك الأربان والأربان هو الخراج وهو الأمانة . قال مكحول : كل عشري بالشام فهو مما جلا عنه اهله فأقطعه المسلمون فأحيوه . وكان مواتاً لا حق فيه لاحد فأحيوه بلذن الولاة : واول من أقطع الأرضين وباعها عثمان ولم يقطعها ابو بكر ولا عمر ولا علي .

أوصى الخليفة الرابع اجد عماله باهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبين لهم

كسوة شتاء ولا صيفا ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب احداً منهم سوطاً واحداً في درهم ولا تُنقمة على رجله في طلب درهم ولا تبع لاحد منهم عرساً في شيء من الخراج ، فانما أمرنا ان نأخذ منهم العفو . وكتب للاشتر النخعي : وثقنا امر الخراج بما يصلح اهله ، فان في اصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم ، لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله ، وليكن نظرك في عمارة الارض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لان ذلك لا يدرك الا بالعمارة . ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ، ولم يستقم امره الا قليلاً ، فان شكوا ثقلأ او علة او انقطاع شرب او وبالة او إحالة ارض اغمرها غرق او أجحف بها عطش ، خففت عنهم بما ترجو ان يصلح به امرهم ، ولا يثقان عليك شيء خففت به المؤونة عنهم ، فانهم ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك ، مع استجلاب حسن ثنائهم ، وتبجحك باستنفاضة العدل فيهم ، معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمالك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم ، فربما حدث من الامور ما اذا عولت فيه عليهم من بعد ان احتملوه طيبة انفسهم به ، فان الامرات محتمل ما حملته وانما يؤتى خراب الارض من إعواز اهليها وانما يعوز اهليها لاشراف انفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبراء .

وقد كانت نفوس العمال الذين ولاهم عمر بن الخطاب على مثاله من النقشف والزهد في المال . رُزق عياض بن غنم حين ولاء جند حمص كل يوم ديناراً وشاة ومداً . ولما قدم عمير بن سعيد امير حمص على عمر قال : مامعك من الدنيا فقال : معي عصاي أنوكاً عليها واقتل بها حية ان لقيتها ومعني جرابي احمّل فيه طعامي ومعني قصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثوبي ومعني مطهرتي احمّل فيها شرابي ووضوئي للصلاة . فما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لما معي . فقال عمر صدقت رحمك الله .

أحكام عمر بن عبدالعزيز
العادلة

هكذا كان قانون الخلفاء الراشدين وسيرتهم
الصالحة مع عمامهم وما كانوا يدخرون مالا

للأمة ولا لانفسهم الا ان الأمويين الذين قلبوا الخلافة الى ملك عضوض كانوا

يهتمون بتوفير الجباية لئتمكنوا من أعمال العمران التي أقاموها وإطعام الجيوش التي فتحوا بها القاصية . وكانت الجباية ثقل عندما ينكسر الخراج فلا يحمل شيء كثير منه فيحط أو زلزال أو وباء . ولقد كان عمال معاوية يحملون إليه هدايا النيروز والمهرجان فيحمل إليه في النيروز وغيره وفي المهرجان عشرة آلاف الف . وهدايا النيروز والمهرجان مما رده عمر بن عبد العزيز كما رد السخرة والعطاء وورثت العيالات على ما جرت به السنة غير أنه أقر القطائع التي أقطعها أهل بيته والعطاء في الشرف لم ينقصه ولم يزد فيه وزاد أهل الشام في أعطياتهم عشرة دنائير ثم رأى أن ينكثها ومماها مظالم . وكتب إلى عماله عامة : « أما بعد فإن الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله وسنن سيئتها عليهم عمال السوء فلما قصدوا قصد الحق والرفق والاحسان » . وبقي العطاء على حاله حتى نقص يزيد بن الوليد الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص . وبينما كان عمر بن عبد العزيز يقول لأسماء بن زيد وكان على ديوان الجند بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر يتولى خراجها : ويحك يا أسماء إنك تأتي قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل فإن قدرت أن تنعشهم فانعشهم . كان سليمان يقول لعامله أسماء : إحلب حتى ينفيك الدم فإذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القبح لا تبقها لأحد بعدي . فعمل أسماء في مصر أعمالاً جائرة حتى استخرج من أهلها اثني عشر ألف الف دينار .

• أما عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة جمل لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة . خطب على المنبر ذات يوم فقال : أما بعد فإن هؤلاء يعني خلفاء بني أمية قد كانوا أعطونا عطايها ما كان ينبغي لنا أن نأخذها منهم وما كان ينبغي لهم أن يعطونا إياها . واني قد رأيت الآن أنه ليس عليّ في ذلك دون الله حسيب وقد بدأت بنفسي والأقربين من أهل بيتي ، اقرأ يا مزاحم ، فعمل مزاحم بقرأ كتاباً كتاباً فيه الانقطاعات بالضياع والنواحي ثم يأخذه عمر بيده فيقصه بالعلم أي المقرض .

ولقد اجتمع إليه بنو أمية لما عزم عمر بن عبد العزيز على أخذ ما في أيديهم من حقوق الناس ورده على أهلهم وكلوه فقال : انكم أعطيتهم في هذه الدنيا حظاً فلا تنسوا

حظكم من الله واني لاحسب شطر أموال بني الدنيا وأمة محمد في ايديكم ظلماً والله لا تركت في يد احد منكم حقاً لمسلم ولا معاهدا الا رددته . وقال ابني مروان : أدرا ما في ايديكم من حقوق الناس ولا تلجؤني الى ما اكره فأحكمكم على ما تكرهون فلم يجبه احد منهم . فقال : اجيبوني فقال رجل منهم : والله لا نخرج من اموالنا التي صارت الينا من آبائنا فنفقرا ابناؤنا ونكفر آباءنا حتى تزايل رؤوسنا فقال عمر : اما والله لولا ان تستمعينوا علي بن اطلب الحق لم لأضرعت خدودكم عاجلاً ولكنني أخاف الفتنة ولئن أبقاني الله لأردن الى كل ذي حق حقه ان شاء الله . وكان عمر اذا نظر الى بعض بني أمية قال : اني اري رقاباً سترد الى اربابها .

قال ابن سعد : لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع الكس عن كل ارض ووضع الجزية عن كل مسلم وأباح الأحماء كلها الا النقيع . وفرض عمر بن عبد العزيز للناس الا للتاجر لان التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين وسوى بين الناس في طعام الجار . وكان اكثر ما يكون طعام الجار اربعة ارادب ونصف لكل انسان . وكتب الى احد عماله ان استبري الدواوين فانظر الى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم او معاهد فردها عليه فان كان اهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه الى ورثتهم . وما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم من لدن معاوية الى ان استخلف وقد اخرج من ايدي ورثة معاوية ويزيد بن معاوية حقوقاً . وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن أرطاة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين : اما بعد فانظر اهل الذمة فارفق بهم واذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه فان كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه وقاصه من جراحه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بد من ان تنفق عليه حتى يموت او يعفق . وكتب اليه : ضع عن الناس المائدة والنوبة والمكس ولعمري ما هو المكس ولكنه الجنس الذي قال فيه الله ولا تبغضوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين . فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يؤد فالله حسيبه . وحرم عمر بن عبد العزيز الكلاً في كل ارض . وان عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيه والذي يشير به على من ولي هذا الامر من اهل بيته توفير هذا الجنس على اهله فكانوا لا يفعلون ذلك فلما ولي الخلافة نظر فيه فوضعه مواضعه الخمسة وآثر به اهل الحاجة من

الاخماس حيث كانوا ، فان كانت الحاجة سواء دسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس ، وانه ربما اعطى المال من يستألف على الاسلام وانه اعطى بطريقا الف دينار استألفه على الاسلام . وامر ان لا يؤخذ من المعادن الخمس ، وتؤخذ منها الصدقة ، وأنكر التسخير في سلطانه ، وضرب احدى اربعين سوطاً لانه سخر دواب النبط . وبما كتبه الى احد عماله : اما بعد فخل بين اهل الارض وبين مبيع ما في أيديهم من ارض الخراج ، فانهم انما يبيعون في المسلمين والجزية الراتب . وكتب باباحة الجزائر وقال انما هو شيء أنبته الله فليس احد أحق به من احد .

دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال : كم جمعت من الصدقة فقال : كذا وكذا قال فكم جمع الذي كان قبلك قال كذا وكذا فسعى شيئاً كثيراً من ذلك فقال عمر : من اين ذاك قال : يا امير المؤمنين انه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدان خمسة دراهم وانك طرحت ذلك كله قال : لا والله ما ألقينته ولكن الله ألقاه . وكتب : اني ظننت ان جعل العمال على الجسور والمعابر ان يأخذوا الصدقة على وجهها ، فتعدى عمال السوء ما أمروا به . وقد رأيت ان أجعل في كل مدينة رجلاً يأخذ الزكاة من أهلها فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر . وكتب الى عامله ان لا تقاتلن حصناً من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهن الى الاسلام ، فان قبلوا فاكفف عنهم ، وان ابوا فالجزية فان ابوا فانبذ اليهم على سواء .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز وقد أصبحت عادة للخلفاء « اذا جاءتهم جبايات الامصار والآفاق بأنهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه ، وانه فضل أعطيات اهل البلد من المقاتلة والذرية ، بعد ان اخذ كل ذي حق حقه » اي فضل أعطيات الأجناد وفرائض الناس . قال ابن ابي الحديد : رد عمر بن عبد العزيز المظالم التي احدثها بنو مروان فأبغضوه وذموا وقيل انهم سموه فمات . اما من جاؤا من قبل ومن بعد من بني أمية فكانوا أشكالا ومشارب منهم الجماعة ومنهم المبدد . فقد كان في بيت مال الوليد يوم قتل سنة ١٢٦ هـ سبعة وسبعون الف دينار ففرقها يزيد عن آخرها . وذكر المؤرخون ان الوليد بن

عبد الملك بن مروان أقطع جند أنطاكية أرض سلوقية عند الساحل وصير اليهم القراة و
 بدينار ومُدِّي قمع فمتمروها واجرى ذلك لم وبني حصن سلوقية . والفلتر مقدار من
 الأرض معلوم كما يقول غيرهم القدتان والجريب . وأقطع عبد الملك بن مروان ضيعة
 يزملكا لحفص بن عمر بن سعيد الأزدى وذلك انه قال يوماً لعبد الملك : يا امير المؤمنين
 ان في غوطة دمشق قرية يقال لها زمكا ، ولي فيها بنو عم وسألوني الاشراف عليهم ،
 وليس لي في الموضع شيء . فقال له عبد الملك : سل هل لنا في تلك القرية شيء ؟ فنظروا
 فاذا فيها ضيعة من صوافي الروم فأقطعه إياها ، وكتب له عبد الملك بذلك كتاباً
 يقول فيه بعد البسملة : هذا كتاب من عند عبدالله عبد الملك بن مروان امير المؤمنين
 لحفص بن عمر بن سعيد بن عبد العزيز الأزدى اني انطيتك بقرية زمكا كذا وكذا
 فدانا وأشهد على نفسه اخويه محمداً وعبد العزيز وقبيصة بن ذؤيب وروح بن زنباع .
 أوردناه مثالا من منحهم الاقطاعات .

* * *

العباسيون والجبابة } وكذلك كانت سيرة العباسيين بعد . فقد اخذ
 ومساحة الشام } المنصور أموال الناس حتى ماترك عند احد فضلاً ،
 وكان مبلغ ما أخذ لم ثمانمائة الف الف درهم . وعدل ابو جعفر المنصور أرض الغوطة
 غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مداً بدينار بالقاسي وكان أداء الناس على ذلك .
 وكان الخلفاء من بني العباس يعمدون الى إبطال الرسوم عندما يتجلى لهم ضررها ولا يقطعون
 امراً بدون أخذ آراء جلة الفقهاء في عصرهم . فقد امر المعتضد سنة ٢٨٣ بالكتابة
 الى جميع البلدان ان يرد الفاضل من سهام المواريث الى ذوي الأرحام وأبطل ديوان
 المواريث . وخلف المعتضد هذا في بيوت الأموال تسعة آلاف الف دينار ومن الورق
 الف الف درهم . ومن خلف هذه القناطير المقنطرة من الذهب لا بد له ان يظلم أمته
 وان لا يصرف أموالها في وجوه مصالحها ، وقد كنت ترى في أيام العباسيين عدلاً
 شاملاً لا مثيل له حيناً وتجد ظلاً شائناً في دور آخر ، فعهد الرشيد والمأمون والمهدي
 والظاهر والمنتوكل كان عجباً في العدل وانتظام الجبابة . فقد كتب المأمون سنة ٢١٨
 الى اسحق بن يحيى بن معاذ عامله علي جند دمشق في التقدم الى عماله في حسن السيرة

وتخفيف المؤونة وكف الاذى عن اهل عمله قائلاً ، فنقدم الى عمالك في ذلك اشد
القدمة ، واكتب الى عمال الخراج مثل ذلك . وكتب الى جميع عماله في أجناد الشام
جند حمص والأردن وفلسطين بمثل هذا .

والمهدي مثلاً افتتح امره بالنظر في المظالم وبسط يده في العطاء فأذهب جميع
ما خلفه المنصور وهو ستمائة الف الف درهم واربعة عشر الف الف دينار سوى ما جباه
في ايامه . والمأمون العباسي أقام سنة بدمشق (٢١٤) مساحة اراضي الشام واجتلب
للعديله مساح العراق والأهواز والري وكان جده ابو جعفر المنصور تشبث بذلك فلم
يتم له فبعث بـقية بن الوليد يمسح اراضي دمشق كما كان يمسح اسماعيل بن عياش العنيسي
الحصني الى دمشق فعدل ارضها الخراجية وعدل احمد بن محمد ارض دمشق والأردن
وكان على ديوان الخراج سنة ٢٤٠ وحمل كل ارض ما تستحقه . وقال المسعودي :
احتال كتاب الدواوين على المتوكل لخوفهم منه وقالوا ان البلد يحتاج ان يعدل ولا يقوم
بالتعديل الا من ولي ديوان الخراج فتوجه سنة ٢٤٠ يعدل دمشق والأردن .

والخلفاء الأول من بني العباس كانوا أقرب الى الرفق بالرعية فقد كان اسماعيل
ابن صبيح الكاتب يحدث عن الرشيد انه قال للحسن بن عمران يوم أدخل عليه في الحديد:
وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها غدران ، تنكفأ أمواجه على رياض كالزراعي ، واردة
منها كفايات المؤمنين الى بيوت أموالهم ، فما برح بك النعدي لارفاقهم فيما امرتك حتى
جعلتها أجرد من الصخر وأوحش من القفر . قال : والله يا امير المؤمنين ما قصدت لغير
التوفير من جهته ، ولكن وليت أقواماً ثقل على أعناقهم الحق فنفرقوا في ميدان النعدي ،
ورأوا المراغمة بترك العارة أوقع باضرار الملك وأنوه بالشنعة على الولاة ، فلا جرم ان
امير المؤمنين قد أخذهم بالحظ الاوفر من مساءتي اه . وفي ايام الرشيد رفضت ضبايع في
فلسطين وتركها أهلها فوجه الرشيد هرثة بن اعين لعمارتها فدعا قوماً من مزاريعها
وأكرتها الى الرجوع اليها على ان يخفف عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم فرجعوا ،
فأولئك أصحاب التخفيف ، وجاء قوم منهم بعد فردت عليهم أرضهم على مثل ما كانوا
عليه ، فم أصحاب الردود .

والمهدي اول من نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً

مقررًا ولا يقاسم وجعل الخراج على النخل والشجر . وأعاد الظاهر بأمر الله سنة ٦٢٢
سيرة العمرين . قال ابن الأثير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله
لكان القائل صادقاً فانه أعاد من الأموال المنصوبة في أيام أبيه شيئاً كثيراً وأطلق
المكوس في البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم وان يسقط جميع ما جددته أبوه ،
وكان كثيراً لا يحصى ، وفي أيام أبيه خربت العراق وتفرق أهله في البلاد .
خربت العراق وما إليها من الأمصار والأقطار للشدة في نقاضي الجبابة والنفنن
في الضرائب وعدم إطرادها على وتيرة واحدة . كتب علي بن عيسى إلى عامل ديار ربيعة
وقد ورد الحضرة قوم من أهلها يتظلمون من حيف لحقهم في معاملتهم : « بسم الله الرحمن
الرحيم . في علمك أكرمك الله بما أمر الله به من العدل والاحسان ، ونهى عنه من الجور
والعدوان ، وعاقب به الظالمين في سالف الأزمان ، غنى لك عن التنبه والتوقيف ،
والوعظ والتحذير ، وفيما رسمته لك مشافهة ومكاتبه ، في إنكار الظلم وإزالته ، وإظهار
العدل وإفادته ، كفاية وبلاغ . وقد ورد الحضرة أكرمك الله ، جماعة من وجوه
الدُّنْيَاء والمزارعين بديار ربيعة ، متظلمين مما عوملوا به في سني ثلاث عشرة وثلاثمائة ،
من إكراههم على تضمين غلات بيادرهم بالحزر والتقدير ، وإلزامهم حق الأعراس في
ضياعهم على التزيع ، واستخراج الخراج منهم على أوفر عبء ، قبل إدراك غلاتهم
وثمارهم ، وإكراه وجوههم وتجارهم على ابتياع الغلات السلطانية بأسعار مسرفة مجحفة ،
فأقلقني ما أفاضوا فيه من الشكوى ، وآلني ما انتهوا إلى وصفه من عظيم البلوى ،
ووجدته مع قبح ذكره وعظيم وزره ، عائداً بخراب الضياع وتقصان الارتفاع ، فينبغي
أكرمك الله ، ان تجري سائر رعيته على المعاملات القديمة ، وتحملهم على الرسوم
السليمة ، حتى يعودوا إلى أفضل حال عهدوها ، وأجل سيرة حمدوها ، وتزيل السنن
الجائرة وتبطلها ، وتقطع أسبابها وتحسمها ، وتكتب إلي بما يكون منك في ذلك ،
فانني على اهتمام به ومراعاة له ان شاء الله » .

ولو رجعت إلى كتب التاريخ والسير لرأيت شيئاً كثيراً من هذا القبيل . وفي
الكتاب الذي كتبه الامام ابو يوسف صاحب الامام ابي حنيفة إلى الخليفة هرون
الرشيد صورة جميلة من تلمظ العلماء في نصيح الملوك والخلفاء . وكتابه دستور

الجباية تستدل به على ترقى العقول في عصره . وما خلا عصر من علماء يدعون على العمال أعمالهم ، ويقبحون تجانفهم عن طرق الحق في معاملة الامة ، وقلما كانت المواعظ تفعل الا في المستعدين للغير من الخلفاء فمن دونهم .

الذميون وتجارهم } وكثيراً ما كان الناس يعذبون في الخراج ، وقد وقع ذلك في أوائل دولة الأمويين بالشام ، فأخذ جباة الجزية يعذبون بعض أهل الذمة ، ويجعلونهم في الشمس ساعات عقوبة لهم ، فنهى عن ذلك الفقهاء وبطل تعذيب المكلفين من ذاك اليوم . ونص الفقهاء انه لا يؤخذ شيء من نصراني اتجر في بلاده من اعلاها الى اسفلها ولم يخرج منها ، واذا خرج من بلاده الى غيرها من بلاد المسلمين تاجرأ لم يؤخذ منه مما حمل قليل ولا كثير حتى يبيع . وقال مالك في النصراني يكرى ابله من الشام الى المدينة : يؤخذ منه في كرائهم العشر بالمدينة قال : لا . فان اكرى من المدينة الى الشام راجعاً يؤخذ منه . ويؤخذ من اهل الحرب ما صالحوا عليه في سلعهم و يؤخذ من عبيدهم كما يؤخذ من ساداتهم . ذكروا ان عمر بن الخطاب قال لاهل الذمة الذين كانوا يتجرون الى المدينة : ان اتجرت في بلادكم فليس عليكم في أموالكم زكاة وليس عليكم الا جزيتكم التي فرضنا عليكم وان خرجتم وضررتم في البلاد وادررتم أموالكم اخذنا منكم وفرضنا عليكم كما فرضنا جزيتكم فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كلما قدموا من مرة ولا يكتب لهم براءة مما اخذ منهم كما تكتب للمسلمين الى الحول فيأخذ منهم كلما جاؤا وان جاؤا في السنة مائة مرة ولا يكتب لهم براءة بما اخذ منهم .

زاد الاجتفاف بحق الرعية لما توزع ملوك الطوائف البلاد واخذ كل ملك او امير يستولي على اقليم صغير من الارض و يجنف على الناس في الجباية ويسمي نفسه ملكاً من ذلك بنو حمدان في حلب وماليها فانهم كانوا على جانب من البطش والظلم فقد لجوا في الاستئثار بالاموال وكانت فتنهم مع الروم لا تنقطع فاستأثر القضاة بهلاك العباد وخراب البلاد على ايدي المدافعين والمهاجرين . ولي خلافة الرازي سنة ٣٢٤ فبطلت الدواوين والوزارة فكان كل من تولى إمرة الامراء تحمل اليه الاموال

فيتصرف فيها جميعاً كما يريد ويطلق للخليفة ما يريد وبطلت بيوت الاموال وكانت الشام اذ ذاك في يد محمد بن طنج . وبينما كانت الشام تدافع القرامطة وتشتغل بفتن بني حمدان للنقع في ابدي الاخشيدية أصحاب مصر كانت بغداد في شغب ونعب واذ كانت هي العاصمة فأحر بالاطراف ان تكون اسوأ حالاً .

نعمي المعري على ظلم الناس } وهكذا اختلت احوال المملكة العربية وطرق الجباية
فيها لما نال الناس من المغارم والمظالم ، والحكومات
لا تعرف واجبها ولا تدري ان الجباية في الدولة اجرة الحماية ولذلك تأفف ابو العلاء
المعري في النصف الاول من المئة الخامسة من ملوك عصره فقال :

واري ملوكاً لا تحوط رعية
وقال : عجم وعرب دائلوت وكلنا
وقال : اري امراء الناس يمسون شرهم
وبني كل مصر حاكم فموفق
وقال ايضاً : يقولون في المصر العدول وانما
ولست بمختار لقومي كونهم
وقال : بكل ارض امير سوء
وقال : ان العراق وان الشام مذمن
ساس الانام شياطين مسلطة
من ليس يحفل خمص الناس كلهم
وقال : وجدت غنائم الاسلام نهياً
وقال : ملء المقام فكهم أعاشر أمة
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها
ومن قوله :

فشان ملوكهم عزف وتزف
وهم زعيمهم إنيهاب مال
واصحاب الامور جباة خرج
حرام النهب او إحلال فرج

الجباية في الدولتين } وبعد فقد استقر خراج فلسطين على عهد معاوية
 الأموية والعباسية . } على اربعمائة وخمسين الف دينار ، واستقر خراج
 الأردن على مائة وثمانين الف دينار ، وخراج دمشق على اربعمائة الف وخمسين الف دينار
 وخراج جند حمص على ثلاثمائة وخمسين الف دينار ، وخراج قنسرين والعواصم على
 اربعمائة وخمسين الف دينار . وفعل معاوية بالشام والجزيرة واليمن مثل ما فعل بالعراق
 من استصفاء ما كان للوك من الضياع وتصبيرها لنفسه خالصة وأقطها أهل بيته وخاصته
 وهو اول من كانت له الصوافي في جميع البلاد . قال البلاذري : وكانت وظيفة الأردن
 التي أقطها معاوية مائة الف وثمانين الف دينار ووظيفة فلسطين ثلاثمائة الف وخمسين
 الف دينار ووظيفة دمشق اربعمائة الف دينار ووظيفة حمص مع قنسرين والصور
 التي كانت تدعى بالعواصم ثمانمائة الف دينار ويقال سبعمائة الف دينار . وكانت
 ارتفاع الشام سنة ٢٠٤ هـ وهي اول سنة وجد حسابها بالدواوين بالحضرة ثلاثمائة الف
 وستين الف دينار وارتفاع قنسرين والعواصم وارتفاع جند حمص مائتي الف وثمانية
 عشر الف دينار وارتفاع جند دمشق مائة الف وعشرة آلاف دينار وارتفاع جند
 الأردن مائة الف وتسعة آلاف دينار وارتفاع جند فلسطين مائتي الف وتسعة
 وخمسين الف دينار .

قال اليعقوبي : ان خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثلاثمائة الف دينار ، وخراج
 جند الأردن يبلغ سوى الضياع مائة الف دينار ، وبلغ خراج جند فلسطين مع
 ما صار في الضياع ثلاثمائة الف دينار ، وخراج حمص سوى الضياع ايضاً مائتي الف
 وعشرين الف دينار . وكان خراج الاردن زمن عبد الملك بن مروان مائة وثمانين
 الف دينار ، وكان خراج قنسرين على عهد المأمون اربعمائة الف دينار ، ومن الزيت
 الف حمل ، وخراج دمشق اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار ، وخراج الأردن
 سبعة وتسعين الف دينار ، وخراج فلسطين ثلاثمائة الف دينار وعشرة آلاف دينار ،
 ومن الزيت ثلاثمائة الف رطل .

ولما تغلب الموالي من الانبراك واثار سلك الخلافة وبقيت الدولة العباسية في
 الترف وقوي عامل كل جهة على ما يليه ، كثرت النفقات وقلت الجباية بتغلب الولاة

على الأطراف . قال المقدسي : كانت الضرائب ثقيلة على قنسرين والعواصم زمن سيف الدولة بن حمدان فكان خراج هذا الاقليم ثلاثمائة الف وستين الف دينار ، وعلى الأردن مائة الف وسبعون الف دينار ، وعلى فلسطين مائة الف وتسعة وخمسون الف دينار ، وعلى دمشق اربعمائة الف ونيّف .

وانت ترى ان الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور والادوار والثقلبات الجوية . ومن الاراضي الخراجية والعشرية التي تدفع العشر لانها مما فتحه المسلمون عنوة قال ابو يوسف : كل ارض اقنطعها الامام مما فتحت عنوة ففيها الخراج ، الا ان يصيرها الامام عشريّة ، والشام في ذلك كمصر والعراق ، ولانها كلها فتحت عنوة . وفي التارخانية ان السلطان اذا دفع اراضي لا مالك لها وهي تسمى الاراضي الممككة الى قوم ليعطوا الخراج جاز . وطريق الجواز احد شيئين اما اقامتهم مقام الملاك في الزراعة واعطاء الخراج او الاجارة بقدر الخراج . ويكون المأخوذ منهم خراجاً في حق الامام اجرة في حقهم . وقال ابن عابدين : ومن هذا القبيل الاراضي المصرية والشامية ويؤخذ من هذا انه لا عشر على المزارعين في بلادنا اذا كانت اراضيهم غير مملوكة لم لان ما يأخذه منهم نائب السلطان وهو المسمى بالزعم او التيماري ان كان عشراً فلا شيء عليهم غيره وان كان خراجاً فكذلك .

الاموال في رأي الغزالي } قال الغزالي : ان الأموال المنصبة الى الخزائن
ونقسم المقر يزي لها } المعمورة اربعة أصناف : الصنف الاول ارتفاع
المستغلات وهي مأخوذة من أموال موروثه . والصنف الثاني أموال الجزية . والصنف
الثالث أموال التركات . والصنف الرابع أموال الخراج . فهذه هي الاموال المأخوذة
وأخذها جائز وبقى النظر في مصارفها وهي مع اختلاف جهاتها تحويها اربع جهات
وفيها فنحصر مصالح الاسلام والمسلمين . الجهة الاولى المرتزقة من جند الاسلام .
الجهة الثانية علماء الدين وفقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فانهم حراس الدين
بالدليل والبرهان ، كما ان الجنود حراسه بالسيف والسنان . والجهة الثالثة محايج
الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر الكفاية .

الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس . وهذا وجه الدخل والخرج .

ولم تكثر الأقطاعات الا في القرون الوسطى قال المقر يزي : وكانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان يجبي أموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الأمراء والعمال والأجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم ، وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء ، وما زال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم ، فغير هذا الرسم ، وفرقت الأرضون أقطاعات على الجند ، وأول من عرف انه فرق الأقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين ، وذلك ان مملكته اتسعت فرأى ان يسلم الى كل مقطع قرية او أكثر او أقل على قدر أقطاعه ، فعمرت البلاد وكثرت الغلات ، واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين واربعمئة الى أوائل القرن التاسع .

الاقطاعات وضرو بها } وكانت أقطاعات الشام اقل من أقطاعات مصر
في القرن الثامن والتاسع ، وليس في الشام من يبلغ شأواً كبيراً الأمراء المقدمين بالديار المصرية الا نائب الشام فانه يقار بهم في ذلك .
وخاصة الأمراء المقدمين أنواع من الانعامات ماعدا المقررات من المشاهرات والاكل والعليق والكساوي كالعقار والابنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها فوق مائة الف دينار . قال التاج السبكي المتوفى سنة ٧٧١ : ومن قبائح ديوان الجيش إلزامهم الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة ، والفلاح حر لا يد لآدمي عليه وهو امير نفسه . وقد جرت عادة الشام بان من تزح من دوت ثلاث سنين يلزم وبعاد الى القرية قهراً ، ويلزم بشد الفلاحة ، والحال في غير الشام أشد منه فيها ، وكل ذلك لا يحل اعتماده ، والبلاد تعمر بدون ذلك ، بل انما تخرب البلاد بذلك ، لانهم بضيقون على الناس .

وما عدا الأرض التي كان الملوك يوغرونها اي التي يدفع عنها اربابها قدرأ من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج ، وما خلا الأقطاعات التي يستأثر بها اصحابها من أرباب الدولة ولا يؤدون عنها خراجاً وعدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب وعدا

الصوافي، واحدها صافية، وهو ما يستخلصه السلطان لخاصته او هي الاملاك والأرضون التي جلا عنها اهلها او ماتوا ولا وارث لها — ماعدا هذا كان هناك نوع من الارضين يسمى الجاء اي يلجأ صاحب الأرض الى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه ، تعزأبه من عمال الحراج حتى لايجوروا عليه ، فتصبح الضيعة مع الزمن ملكاً لذاك الكبير .

قال ابن ابي الحديد : ان من اهل الحراج من يلجئ بعض أرضه وضياعه الى خاصة الملك ويطأه لاحد امرين ، اما لامتناع من جور العمال وظلم الولاة ، وتلك منزلة يظهر بها سوء اثر العمال وضعف الملك وإخلاله بما تحت يده ، واما للدفاع عما يلزمهم من الحق والتيسير له ، وهذه خلة تفسد بها آداب الرعية وينقص بها أموال الملك . وكان العادلون من الملوك يعاقبون الملتجئين والملتجأ اليهم ، ولكن الناصي يلجئون املاكهم عند ارباب الصولة . وكم من مرة خربت الشام او صقع كبير من أصقاعها بظلم ظالم من عمالها . ذكروا ان الخليفة الحاكم أعفى ولاية حلب من الحراج سنة ٤٠٧ لانها كانت ضعفت بالفتن المتواصلة . وان الب أرسلان لما ولي امرة حلب رفع عن اهلها الكلف التي كانت مجددة عليهم واب نجم الدين ايل غازي بن ارتق (٥١٤) رفع المكوس عن اهل حلب والموئن والكلف وأبطل ما جددته الظلمة من الجور والرسوم المكروهة . وبالع الامير حصن الدولة معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي الذي ولي دمشق سنة ٤٦١ في المصادرات وارتكاب المظالم فلم يلق اهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن الصمصامة في ولايته ما لقوه من ظله وسوء فعله ، فخرت اعمال دمشق وجلا عنها اهلها وخلت الاماكن من قاطنيها ، والغوطة من فلاحيها .

تجري العدل في الدولتين	}	والغالب ان المكوس والضرائب كثرت
النورية والصلاحية		أواخر حكم العباسيين والعهدين في الشام .

وبقي في البلاد رسوم كثيرة حتى ابطلها نور الدين ، وايطل ابق الصوفي الاقساط في دمشق وما كان يؤخذ في الكور من الباعة جملة . وابطل صلاح الدين مكس مكة وعوض اميرها بجلاب غلة تحمل اليه كل سنة ونعمين ضياع موقوفة عليها بالديار المصرية .

قال ابن ابي طي : ان الذي أسقطه السلطان صلاح الدين والذي سماحه لعدة سنين

آخرها سنة اربع وستين وخمسمائة مبلغه عن نيف الف دينار والفي الف اردب ،
 سماح بذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه من المعاملين ، وكذلك فعل اخوه ابو بكر
 ابن ايوب فانه أبطل كثيراً من المظالم والمكوس وطهر بلاده من الفواحش والخور
 والقمار ، وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصاً مائة الف دينار ، الا ان المكوس
 عادت فأحدثت . ولما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ أزال المكوس وكانت
 الولاية في اهلها قدسات وأسرفت ، واليد المعتدية قدامت الى أموالهم وأجحف .
 قال العماد : اقتصر صلاح الدين في جميع البلاد على الرسوم التي يبيحها الشرع وهي الخراج
 والاجور والزرع . وكذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكي فانه منع
 ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها . وكان
 والده زنكي ينهي اصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول معها كانت البلاد لنا فأبي حاجة
 لكم الى الأملاك ، فان الأقطاعات تغني عنها ، وان خرجت البلاد من أيدينا فان
 الأملاك نذهب معها ، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا
 عليهم وغصبوا أملاكهم .

قال ابو يعلى : تجتمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على التحريض لنور الدين على
 إعادة ما كان أبطل وسامح به اهل دمشق من رسوم دار البطيخ وعمرصة البقل والاثار ،
 وصانهم من إعنات شرار الضمان وصوله الاجساد ، وكرروا لسخف عقولهم الخطاب ،
 وضمنوا القيام بعشرة آلاف دينار ببض ، وكتبوا بذلك حتى أجلبوا الى ما راموا ،
 وشرعوا في فرضها على أرباب الاملاك من المقدمين والاعيان والرعايا ، فما اهتموا
 الى صواب ، ولا نجح لهم قصد في خطاب ولا جواب ، وعسفوا الناس بجهلهم بحيث
 تألموا واكثروا الضجيج والاستغاثة الى نور الدين ، فصرفهم الى النظر في هذا الامر ،
 ففتحت له السعادة واثير العدل في الرعية الى إعادة ما كان عليه ، فأمر باعادة الرسوم
 المعتادة الى ما كانت من إمانتها ، ونعفية اثر ضمانها ، وأضاف الى ذلك تبرعاً من نفسه
 بإبطال ضمان المريسة والجبن واللبن ورسم بكتب منشور يقرأ على الناس كافة بإبطال
 هذه الرسوم جميعها ونعفية ذكرها . قال السبكي : وقد علم ان المكوس حرام فان ضم الوزير
 الي أخذها الاجحاف في ذلك وتشديد الامر فيه والعقوبة عليه ، فقد ضم حراماً الى حرام .

و مع كثرة احتياج البلاد للمال ذمن نور الدين وصلاح الدين للاستعانة به على قتال الصليبيين ، كانت الجباية الى الرفق في الجملة ببلاد الشام ، فأطلق نور الدين المكوس والضرائب واكتفى بالخراج والجزية . وأسقط صلاح الدين فريضة الاتيان المقسطة على أعمال دمشق وضياع الغوطة والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور والعقبة ومزارعها ، ولما فتح حلب أطلق المكوس والضرائب وسامح باموال عظيمة « ومنها ماهو على الأثواب المجلوبة ، ومنها ماهو على الدواب المركوبة ، ومنها ماهو في المعاييش المطلوبة » ومما كتب عنه من منشور « إن أشقى الامراء من ممن كيسه وأهزل الخلق ، وأبعدهم من الحق من اخذ الباطل من الناس وسماه الحق » . وكان هذان الملكان من أزهد الناس في المال فلم يخلفا في خزائنها الا التافه .

كتب القاضي الفاضل الى صلاح الدين لما عزم على الحج وأراد صرفه عنه : « يامولانا مظالم الخلق كشفها أم من كل ما ينقرب به الى الله ، وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ، ومن تسلط المقتطمين على المقتطمين ما لا ينادى وليده ، وفي وادي بردى والزبداني من الفتننة القائمة ، والسيف الذي يقطر دماً ، ما لا زاجر له ، وللمسلمين ثغور تريد التحصين والدخيرة ، ومن المهمات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخراج بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل ، وفرع من غير اصل اه » .

وخلف الملك الأفضل ستائة الف الف دينار عيناً ، ومائة وخمسين اردباً دراهم نقد مصر ، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال ، في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسمامير ، وصندوقين كبيرين فيها ابر ذهب برمم الجوارى والنساء ، عدا الثياب والطرائف والقطعان والخيول والبغال والرقيقى . وهذا مالا يمكن ان يحوزه ملك صغير الا بالضغط على الرعية ولو قليلاً ، لاستخراج هذه الأموال والتوقف في صرفها على مصالح الامة ومرافقتها . وقد استعمل ملوك الطوائف الشدة في تكثير الجباية ، وكان ينال المنكر لها من العلماء اذى من ذلك ان نحر الدين بن عساكر انكر على الملك المعظم تضمين المكوس والتمور فعاقبه بان انتزع منه المدرسة النقوية والصلاحية بدمشق . وقد فعل عكس ذلك الاتابك طغرل الظاهري صاحب حلب ، فقد امر

سنة ٦١٨ برفع الجبايات ومحو اسمها وإهراق كل خمر في المدينة ورفع ضمانها وكتب الى النواحي . قال القفطي : وكان المحصول من ضمان ما أطلق ما مقداره مائتا الف درهم في السنة وان أضيف اليه ما يستغل في السنة الآتية من رخص الكروم وتعطيل ضماناتها وقلة دخلها بهذا السبب كان الف الف درهم او ما يقاربها .

موازنة حلب وهي } لم نعثر لدمشق عاصمة البلاد على ارتفاع لها خاصة
وحيدة في بابها } وقد قال ابن الجيطي : حدثني كريم الدولة بن شرارة
النصراني وكان مستوفي دار حلب يومئذ انه عمل ارتفاع سنة تسع وستمائة في الايام
الظاهرة ، دون البلاد الخارجة عنها والضياح والاعمال ، فبلغ ستة آلاف وتسعمائة
الف واربعة وثمانين ألفاً وخمسمائة درهم قال : ومما أحطت به علماً في ايام الملك الناصر
ابن ارتفاعها على القاعدة في الارتفاع في آخر دولته مع حلوله بدمشق وخلوها منه ،
كان على ما يفصل . ثم فصل الارتفاع فكان ستة واربعين صنفاً وسطر المجموع
بـ ٧٣٠٥٠٠٠ درهم . وكان مسافة ما بين مالک حلب في ايامه وهو الملك العزيز
محمد بن الملك الظاهر غازي من المشرق الى المغرب مسيرة خمسة ايام ومن الجنوب الى
الشمال مثل ذلك وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملك لاهلها ليس للسلطان فيها
الا مقاطعات يسيرة ونحو مائتي قرية ونيف مشتركة بين الرعية والسلطان .

قال ياقوت الحموي : أوقفني الوزير صاحب القاضي الاكرم جمال الدين ابوالحسن
علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي أدام الله تعالى ايامه ، وختم بالصالحات أعماله
وهو يومئذ وزير صاحب حلب ومدبر دواوينها علي الجريدة بذلك وأسماء القرى
وأسماء املاكها ، وهي بعد تقوم برزق خمسة آلاف فارس مزاحي العلة موسع عليهم .
قال لي الوزير الاكرم أدام الله تعالى علوه : لو لم يقع إسراف في خواص الامراء ،
وجماعة من أعيان المفاريد ، لقامت بأرزاق سبعة آلاف فارس لان فيها من الطواشية
المفاريد ما يزيد على الف فارس يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم
الى خمسة عشر الف درهم ، ويمكن ان يستخدم من خواص الامراء الف فارس ، وفي
أعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخائرها وأرزاق مستغفطها خارجاً عن جميع

ما ذكرناه وهو جملة أخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الأقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتهما عنياً وحبوباً ما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم ، وقد ارتفع في سنة ٦٢٥ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي تجبي فيها العشور من الفرج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة الف درهم . وهذا مع العدل الكامل ، والرفق الشامل ، بحيث لا يرى فيها متظلم ولا متهضم ولا مهتضم ، وهذا من بركة العدل وحسن النية اه .

الضرائب زمن الأتراك } ولما قبض الأتراك والشراكسة على زمام الاحكام
والشراكسة } في الشام في القرن السابع والثامن والتاسع كانت
المكوس كثيرة جداً وزادوها ثم وثقتوها في خسروها حتى صعب احصاؤها وحفظها ،
وكانت الخمر في سنة ٦٤٣ مضمنة والمكوس شديدة وكان صاحب امين الدولة في
مدة وزارته الملك الصالح اسماعيل حصل له أموالاً عظيمة جداً من اهل دمشق وقبض
على كثير من أملاكهم . وأبطل الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ ضمان الحشيشة وامر
باحراقها . والغالب ان بعض الملوك لم يكونوا يستنكفون من اخذ الضرائب عن
الخمر والمكيفات ، بل تعدوا ذلك في تلك الحقبة من الزمن الى اخذ الرسوم عن البغايا
والمواخير . فقد ابطل الظاهر برقوق في جملة ما ابطل من المظالم والمكوس في الشام
ضمان المغاني اي المغنين والمغنيات في الكرك والشوبك . وضمان المغاني كان معروفاً
في مصر فأبطل سنة ٧٧٨ زمن الاشرف قلاوون ابطله من جميع أعمال مملكته وكان
عبارة عن مال كثير مقرر على المغاني من رجال ونساء يؤدونه كل سنة الى الخزانة .
وأبطل الناصر قلاوون ضمان المغاني ايضاً وهو عبارة عن اخذ مال من النساء البغايا
وذلك انه لو خرجت اجل امرأة نقصد البغاء ، ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة ،
وأقامت بما يلزمها من القدر المعين عليها ، لما قدر اكبر من في مصر ان يمنحها عن البغاء
وعمل الفاحشة ، وكان يتحصل من ذلك جملة كثيرة من المال .

لا جرم ان دولة الترك والشراكسة في مصر والشام تشبه في كثير من الوجوه
دولة الترك العثمانيين التي جاءت بعدها ، وكانت مراسيم ملوكها تصدر الحين بعد الآخر

بإبطال بعض الرسوم والضرائب ، ولكن مع هذا تجد من الامراء من كانوا يصادرون على ملايين من الدينارين ، دنع سائر اسباب الثروة من ناطق وصامت . والدولة التي تخفف عن رعاياها بالأقوال ، والأفعال على خلاف ذلك ، هي دولة سيئة ادارتها المالية . فقد كان الملك المؤيد شيخ كثير المصادرات للرعية ، وهو الذي قطع دابر النواب العصاة الذين أخرجوا غالب البلاد الشامية ، وحدث في ايامه اشياء كثيرة من ابواب المظالم لما كان يخرج الى التجاريد . والخروج الى التجاريد او الحملات كان من جملة الاسباب التي نتهباً للوك الشراكسة ليسلبوا الناس اموالهم ولا تكلف التجريدة اقل من نصف مليون دينار . فاذا جرد السلطان في حياته عشرين تجريدة كان المصروف من ذلك في هذا السبيل عشرة ملايين لا تصل الى خزانة السلطان حتى يجبي مثلها من الرعايا المساكين .

* * *

إبطال المظالم ايام } وفي سنة سبعمائة استخرجت الحكومة مالاً عظيماً من
الشراكسة } جميع الأملاك والأوقاف بدمشق وظاهرها ، فكان
من داخل دمشق حق أربعة اشهر ، واخذوا من الغوطة من كل قرية تكثر اموالها
ثلث ضمانها واخذوا من القرى التي لزراعة القمح والشعير والقطن والحبوب على نسبة
مقل سنة ثمان وتسعين وستمائة ، فعظم ذلك على الناس وهرب خلق كثير واستغنى
جماعة ، والذين وقعوا بأيديهم قطعوا أشجار البسافين وأباعوها حطباً بحيث أباعوا
القنطار الدمشقي بثلاثة دراهم . فكان خراب الغوطة بهذا السبب ، ومن شدة الطلب
وكثرة الظلم والجور .

وفي سنة ٧١٤ أصدر الملك المؤيد صاحب حماة امراً الى جميع نوابه ان لا يقبل
احد حماية لأحد ، بل الكل متساوون في الحقوق ودفع ما عليهم ، وذلك لأن
الامم اعليهم كانوا في مصياف لا يدفعون لسلفه اموالاً بدعوى الحماية فأخذت
الأموال من الجميع . وفي سنة ٧٢٤ برزت المراسيم الشريفة الى نائب حلب بان
يترك البلاد الحلبية اي يسمحها ويعين عليها مالاً كما فعل في البلاد الشامية فراكوا
جميع البلاد الحلبية وجميع البلاد الشامية والحلبية والمصرية في الروك الناصري ،

وابطل في هذه السنة مكوس الغلة بالشام ، وكان مبلغاً عظيماً يؤخذ من ثمن الفرارة ثلاثة دراهم ونصف .

ومن جملة ما ابطلوه - في ادوار مختلفة من الرسوم ، وهو ما نوردته مثلاً من حالة تلك الأيام ، ما ابطله برقوق مما كان منقراً على البردارية في كل شهر من المال ، وما كان يأخذه السماسرة على الغلال والكيالة ، وعن الملح في عين تاب وعلى الدقيق في البيرة ، وما كان مقررّاً لنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر والولاية بغلة او ثمنها خمسمائة درهم . وابطل المنصور قلاوون من جملة ما ابطل من المظالم وظيفة ناظر الزكاة ، وهو ان يؤخذ من عنده مال زكاته ، فان مات الرجل صاحب المال او عدم ماله بقي ذلك القدر المقرر عليه في الدفاتر ، يؤخذ من اولاده او من ورثته او من اقاربه ولو بقي منهم واحد . وفي سنة ٧٩٦ ابطل الامير احمد اليغموري ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس الشريف ، المكوس والمظالم والرسوم التي احدثها قبله النواب بالقدس ، ونقش بذلك رخامة ألصقت على باب الصخرة . وابطل الاشرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجباية بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس ، بل ابطل المكوس والضرائب عن سائر اصناف الغلة بجميع الشام ، وكان ذلك جملة تخرج عن الاحصاء .

وتجد الى اليوم على السواري الاربع القائمة في مدخل جامع بني أمية بدمشق من الغرب اربع وثائق في ابطل المكوس كتبت كل وثيقة على سارية . تاريخ الاولى سنة ٨٦٣ على عهد قايتباي الحمزاوي كافل المالك الشامية ابطل بها الرسم المقرر على الأسواق والطواحين وغيرها من المكوس بدمشق . والثانية كتبت سنة ٨١٥ وهي مما امر به الظاهر جقمق بابطل المكوس على الاقمشة الحمصية وفرع الاردية وفرع القطن وغيرها . والثالثة بتاريخ سنة ٨٥٢ نقول بانه ورد مرسوم شريف من مولانا السلطان الملك الظاهر ابوسعيد جقمق بابطل بعض المكوس ومنها التمر والعفص والسّمك البوري والحنا والقماش المصري . قال وهذا في صحائف الدولة العادلة ! والرابعة فيها ذكر القلي والخروع والقلقاس وجلود الجاموس والماعز .

أُسلو بهم في نشر الاوامر } وكانت العادة ان تنقش على الرخام صورة الامر
السلطانية . } الصادر من الملك في رفع مثل هذه المظالم ، فقد
نقش الملك الظاهر ابوسعيد ططر رخامة وألصقها على باب الجامع الأموي في هذه
المدينة بابطال ما كان لنائب الشام على المحتسب في كل سنة ، وكذلك ابطال في القدس
ما كان يجبي لنائب القدس في كل سنة من المال ، ونقش ذلك على رخامة والصلقها
بباب الجامع الأقصى . وفي سنة ٧٤٦ كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع
ما مضمونه : مسامحة الجند بما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الجندي وذلك احد
عشر يوماً وبعض يوم في كل سنة ، وهذه مسامحة بالـ عظيم ، وكتب بالمسامحة
بمثل ذلك على حائط قلعة طرابلس ، وهذا التفاوت ايام الدوران ما بين السنين
الشمسية والقمرية .

وكثيراً ما كان يصدر الامر في زمن الشراكسة بجمع الذهب اذا قلّ او الفضة
وتسليمها الى الملك ليضرب بها سكة وتقوداً ، وكثير في ايامهم غش الفضة حتى كان
سعر الدرهم ينزل كثيراً ، ويصاب الناس في الشام ومصر بخسائر فادحة ، وكثيراً ما
كانوا يخسرون ثلث اموالهم لان بعض ملوكهم كانوا يفتشون الفضة وينزلون عيار الذهب ،
فكانت المصيبة بالفضة والذهب لهدم كالمصيبة بالاوراق النقدية لهدنا ، كل يوم في
ارتفاع وانخفاض . ولا عجب فقد كانت الدول بعد عصر صلاح الدين وآله في هذه
الديار تختبط بدون قاعدة مستقرة ، والدول التي ينصب لها ملك وهو لم يبلغ الحولين ،
ويتولى المالك امره لا يصدر منها اكثر من هذا ، كما وقع في سلطنة الملك المظفر
ابي السعادات احمد بن الملك المظفر فأركبوه فرس النوبة وهو ابن سنة وثمانية اشهر
وسبعة ايام وهو يزعم من البكاء ، ومشت قدامه الامراء حتى دخل القصر الكبير ،
وهو في حجر المرضعة ، وقبلوا الارض أمامه ، ولما دقت الكوسات بهت الطفل وصار
احول العين .

غنى الشام في القرون الوسطى } وكانت ايام الشرا كسرة فريدة بثروة عمالها والغالب
 ان الواحد منهم كان يأخذ رزق مئة الف او مئتي
 الف انسان على نحو ما كانت الحال في مصر قبل خمسين سنة ولكن الثروة كانت شيئاً
 كثيراً في تلك الايام محصورة في الافراد . فقد اخذ نيمور من دمشق لما جاءها سنة ٨٠٣
 عدا المأكول والمشروب وغيره الف الف دينار فقام بها اهل دمشق من غير مشقة
 فلم يرض نيمور بذلك وقال ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار
 او الف تومان والتومان عشرة آلاف دينار من الذهب ، فنزل بالناس باستخراج هذا
 منهم ثانياً بلاء عظيم . ولما حمل الى نيمور قال هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف
 الف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف الف دينار وظهر لي انكم تجزئتم . ثم اخذ اموال
 المصريين حكام البلاد والتجار الغائبين عن دمشق وافرد على كل رأس من كبير
 وصغير عشرة دراهم شامية . وأفرد على اوقاف الجوامع والمساجد اجرة ثلاثة اشهر ،
 فتزايدت البلايا وكانت دمشق يومئذ احسن مدن الدنيا وأعمرها على ما قال ابن تغري
 بردي ولذلك هان عليها ان تجمع بضعة ملايين دينار وهو اذا قيس اعتباره بنسبة
 هذه الايام لا يقل عن مئتي مليون ايرة .

المكوس على التجار } وكانت المكوس على البضائع الصادرة والواردة تؤخذ
 في الحدود بين الشام والروم ، وكثيراً ما كان الروم
 اذا قويت شوكتهم في الشام يقيمون في حلب رجلاً منهم لاخذ مكس البضائع كما
 جرى في القرن الرابع . وكان للصليبيين في الحروب الصليبية على المسلمين ضريبة
 يؤدونها في بلادهم ، وتجار النصارى يؤدونها في بلاد المسلمين على سلعمهم ، وبعد المعاهدات
 التي عقدت بين سلطان مصر والشام قلاوون وابنه خليل كثر مجيء البنادقة والجنوية
 الى سواحل الشام في التجارة ، وتكاثر كما قال صالح بن يحيى حضور مراكب الفرنج .
 وكانت تؤخذ ضرائب الصادرات والواردات ببيروت ، وهي جملة مستكثرة ، وكان
 على باب الميناء دواوين وعامل وناظر ومشارف وشادة ، يوليهم نائب دمشق والمتوفر
 عن المرتبات يحمل الى دمشق ، ولم يذكر المؤرخون مقدار هذه الضرائب .

رسوم غربية } رجع الى الرسوم والمكوس في القطر الشامي ، فقد تنوعت
 أنواعها في عهد الشراكسة ومنها ما كان الخلف بلغيه على
 غير ارادة السلف ، ففي سنة ٨٢٤ امر الناصر بابطل مكس القمح ببلاد الشام كلها
 وكان يؤخذ على كل اردب ثلاثة دراهم وكانت المتحصل عن ذلك في كل سنة الف
 الف ومائتي الف درهم أقمرة وأزيد . ونودي في المحرم سنة ٨٣٧ بمرسوم السلطان
 بان يبطل طرح السكر وان ينقش ذلك في الجامع الأموي والقلعة ودار السعادة قال
 الاسدي : فنقش ذلك وعلى الظن الغالب انهم لا يفون بذلك لما علم من عادة السلطان .
 وتروى الى اليوم في جامع حلب الكبير عدة سوار في إلغاء الرسوم فالسارية الاولى
 كتب عليها ان الملك دمر داش أبطل سنة ٨١١ مكس البيض من المملكة الحلبية .
 الثانية أبطل فيها الملك جقمق سنة ٨٥٢ ما كان يؤخذ ظلماً من الدالين في سوق
 الحراج . الثالثة في سنة ٨٤٦ بابطل الملك الظاهر جقمق مكس الكتان . الرابعة
 سنة ٨٤٦ بابطل ما كان يؤخذ من اهل سرمين . الخامسة بتاريخ سنة ٨٥٢ بابطل
 مكس الزيتون من قرى عنراز . السادسة سنة ٨٦٤ بابطل ما يتحدد على المصبغة بقلعة
 القصير عن كل خابية عشرة دراهم ، وان لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خابية .
 وغيرها بابطل مكس السلاح في جميع سوق السلاح ، ومنها ما كتب سنة ٨٨٢
 بابطل مكس الملح الداخل مدينة حلب ، ومنها بابطل ما على الدباغين بدير كوش من
 المكس ، ومنها ما صدر سنة ٨٩٣ بابطل ما كان يأخذ ناظر الحنة من سوق الحناوية ،
 ومنها ما صدر سنة ٩٠٢ بابطل ما كان يؤخذ من مكس القطن ، ومنها ما صدر سنة
 ٩٠٢ بابطل مكس المسك والزعفران ومنها بابطل مكس السماق ، ومنها ابطل ماهو
 معين عن ختم القماش العراقي والدمشقي والقدسسي . ومعظم هذه الاوامر مسطورة على
 الاعمدة مشفوعة بجملة ملعون ابن ملعون من جددها او اعادها الى غير ذلك من استجلاب
 اللعنات على من يجردها ، ومنها كان الله ورسوله خصمه يوم القيامة الى غير ذلك من
 القيود والعقود .

ويحق لنا ان نستنتج مما تقدم ان المكوس كانت تختلف باختلاف البلاد ، فما كان
 في طرابلس لا يجبي مثله في حمص ، وما كان في القدس لا عهد لحلب به ، وما في

دمشق لا مثيل له في المدن الاخرى . وهالك أمثلة أخرى من هذا القبيل ففي مدخل جامع طرابلس امر بابطال المظالم المحدثات على اهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم والخبز والفراخ وغير ذلك ، وذلك في ايام ابي النصر شيخ سنة ٨١٧ وفي مدخل هذا الجامع امر من صاحب طرابلس بابطال منع استيفاء رسم الدخان ، وما يستأديه من يكون متكلاً في ديوان الحجوبة الكبرى واستناد دارية الديوان الشريف من سكر وخل وغير ذلك ، ومن طرح الصابون والزيت والبلس (البوتاس) ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها ومن جميع الكلف والمخادم الجارية بها العادة قديماً والحادثة مستقبلاً ، وعلى حائط مدرسة الشمسية امر كتب سنة ٨٢٦ بابطال الملك الاشرف برسباي ما على البلاد الطرابلسية من الخيل بالبريد ورسم الملك الاشرف بابطال التحكير بالخانات والكوس على الخطب والتبن وغيره وجهر بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الأموي ونقش به رخامة . وابطل المقر السهفي نائب السلطنة بحمص سنة ٨٤٤ جميع ما أحدث في حمص من ظلمات الحرير والصوف والبر والخبز والزيت وكتب على باب جامع سيدنا خالد بن الوليد وصية بذلك وفيها اسم السلطان جقمق .

وفي سنة ٨٤٦ سوح عوام القدموس بما على أنوال الحياكة وخراج الضكروم بالقدموس مساحمة مستمرة على الدوام ونقش رخامة على حائط الجامع الكبير . وفي سنة ٨٥١ أبطل ما تجدد على عوام القدموس والكهف والمينقة والعليقة والخوابي من الاعمال الطرابلسية من الثياب الخام ودورة الاستاددار . وفي سنة ٨٥١ ابطل الظاهر المظالم من القدس ونقش بذلك بلاطة وألصقت بحائط المسجد الغربي عند باب السلسلة وابطل الظاهر خشقدم المظالم من القدس ونقش بذلك رخامتين وجهزهما الى القدس في أواخر عمره وألصقتا بحائط المسجد الأقصى (توفي سنة ٨٧٢) .

وفي مدرسة طرابلس رسم بابطال ما على النخيرة (المسلخ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة وقدره في كل يوم ثمانون درهماً ، وبابطال معلوم كتابة السر احد وعشرون درهماً ، ومعلوم الحجوبة ثلاثة عشر درهماً وفي حائط تلك المدرسة ايضاً كتابة بتاريخ ٨٨٨ بابطال المظالم وهي الطروحات التي كانت تطرح على التجار

والمتسببين بمدينة طرابلس وذلك عن الصابون والكرم والزيت وغير ذلك . وفي سنة ٨٨٨ أبطل مكس الدواليب الحرير والقصابة بالكهف والقدموس وأبطل مكس فحيرة البقر والجاموس وقطع الضأن وقوم الاساكفة بالقدموس والخواجي وعلى ذلك الحائط كتب سنة ٩٠٩ بإبطال المظالم والحوادث عن فلاحى الوقف وان لا يكرهوا فلاحى الوقف الا الجزية الشرعية والمال المقرر وفي سنة ٨٢١ أبطل ضمان المكس بسوق العطارين بطرابلس وكتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة ٨٧٠ ان لا يؤخذ من تجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهي على الالف عشرة دراهم لا غير وان لا يتناول الاجرة الا من باشر العمل بنفسه من أبناء السبيل ، ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة ، وان لا يؤخذ شيء ممن باع سلعته بغير دلال . والفى قانصوه الغوري المكس عن حاكة حمص .

نفن الشراكسة في } وبذلك رأينا ان الغاء المظالم والمغارم كان على اشده
افتضاء الأموال } في آخر ايام الشراكسة وكان من اسوأ ملوكهم
شعبان قال المؤرخون فيه انه كان متطلعا الى جمع المال وفتح باب قبول البدل في
الأقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديواناً قائماً بالذات وكان يعين البدل في المناشير
وهو مبلغ ثلاثمائة درهم فما فوقها . والخلاصة فان الشراكسة نفنوا في طرح المكوس .
ومن غريبها في ايامهم مكس القرعان وذلك ان شخصاً من المالك الشراكسة كشف
رأسه في سنة ٨٣٠ بين يدي السلطان فاذا هو أقرع فضحك منه السلطان فقال ذلك
المملوك : اجعلني والي القرعان يا مولانا السلطان ، فأجبه السلطان الى ذلك وأخرج
له مرسوم سلطاني به وان يكون شيخ القرعان وخام عليه خلعة فصار يدور في الأسواق
والحارات ويكشف رؤوس الناس ، فمن وجده أقرع يأخذ منه ديناراً حتى أعيان
الناس فضج الناس منه وشكوه للسلطان فضحك ونادى بالامان للقرعان وان كل شيء
على حاله وكسب ذلك الرجل في هذه الحركة مالا عظيماً .

قال الاسدي في القرن التاسع و يكشف في كل سنة مقدار الارتفاع ومقدار
المصروف ، ومهما توفر بعد ذلك رفع علمه للمسامح الشريفة فيرفع منه ما يرفع محمولاً

للخزائن الشريفة بالديار المصرية ، ويرفع منه ما يدخر في القلاع الحصينة لما يحتاج اليه عند حوادث الزمان . وكان يتحصل من كل مملكة من المال (اي من ممالك الشام) ما يوفي بمصروف ذلك العمل ، وبقى من بعد ذلك ما يرفع للمصالح عند الاحتياج اليها . قال : وقد وجب في الشريعة المطهرة على الامام انه يأمر بتخصيل ماوجب استخراجه من المال الحلال على وجهه ، وانه يسان عن التدنس بالحرام ، لان المال الحلال محل للخير ، لما يوجد من حلول آثار البركة فيه ، والمال الحرام مفسد للمال الحلال ولا خير فيه . فاما المال الحلال فهو ما يؤخذ بحقه ويصرف على مستحقه من خراج الارضين والبلدان ، بعدما يجب من العارة وتأمين الرعايا ، وقسم الغلال بالحق واستخراج الزكاة والجوالي والعشر والخمس بالشرع ، وكذلك ما يجب استخراجه من زكاة الأموال والبهائم والثمار والأصناف المعين فيها وجوب الزكاة ، وكذلك ماوجب فيه الحق من الركاز والمواريث والغنائم والنفي وغير ذلك مما يحمل لبيت المال من الأموال الواجبة والمباحة . واما المال الحرام فهو ما استخرج بخلاف ذلك على غير وجه الحق حسبما وضعوه من الرسوم والخدم الموضوعة في كل ديوان ، ومارتبوه واجروا به العوائد مثل الموجبات التي لا حق فيها والمكوس التي هي محرمة على مستخرجيها وآكليها ، وما يرتكب في أبواب الحكم من وجوه التبعات والمظالم وضروب الخوطات على أموال الناس التي هي لم بالحق وأخذها منهم بوجوه المغارم . قال : وفي الظاهر ان هذه الأموال المحصلة بهذه الوجوه الخبيثة مصالح للسلطان ، ومعونة للأعوان ، وفي الباطن انما هي فساد وظلم ، وتخريب وفسوق ، وعصيان وعوائد رديئة ، قد ظهرت واستمرت وصارت من القواعد لتخريب البلدان .

* * *

الأموال أوائل } انتهى دور الشراكسة الحزن المرمض ، وأملت الامة
العهد العثماني } بدخولها في حوزة الترك العثمانيين ، ان ترى ايام رغد
وسعادة ، لانها دولة جديدة تتحامي ما أمكن الأغلاط التي وقعت فيها الحكومة قبلها ،
ولكن جاء الامر على العكس من ذلك على ما تراد . لما فتح السلطان سليم العثماني الشام
ومصر قال وقد ملأ خزائنه من أموال الشراكسة بهدان كان في ضائقة شديدة

اضطر معها الى الاستدانة من بعض التجار : اني ملأت الانابيب بالذهب ، وكل من يستطيع من اخلاقي ان يملأها دراهم فليختم عليها بطابعه ، والا فتبقى الخزينة السلطانية مختومة بطابعي . هذه كانت وصيته ولذلك كانت خزينة « الاندرون » مختومة بخاتم سليم . لا جرم ان اكثر فتوح السلاطين العثمانيين كان السائق اليها حب الغنائم والنهب ، ولذلك كانوا يرجعون فتح البلاد في جهات اوربا على الفتح في آسيا لان تلك كانت أغنى في نظرهم ، وعلى شيء من الانتظام في الجملة ، نسد مغائرها نهمة جيوشهم وخواصهم ، وفيها من الجمال ما يكافي الاتعاب فتمتتع السلطان واهل دولتهم بمن شاؤوا من بنات المغلوبين وبناتهم ، ولذلك جاء النسل التركي في الاستانة فقط مزيجاً من الروم والكرج والبشناق والارناؤد والرومان والصرب والبلغار والمجر والطيلائ والروم والبولونيين وغيرهم من أم اوربا .

ولما فتح السلطان سليم دمشق (٩٢٢) فوض نيايتها وما اليها من بلاد الشرق الى عريش مصر الى جان بردي الغزالي على مال معين قال ابن طولون قيل قدره مائتا الف دينار وثلاثون الف دينار . وذكر النجم الغزي ان هذا السلطان نهن في ضرب المكوس ومن جملتها المكس على المومسات فتأسف العقلاء واكبر الامر اهل الدين والورع . ومن وصل به الطمع في مال الامة الى هذه الدرجة وهو في مبداء تغلبه على البلاد ، يجب عليه ان يريها شيئاً من العدل ينسبها مظالم الدولة الشركسية ، فحدث ما شئت ان تحدث ، احدثه أخلافه من البدع في الارناعات بعده حتى قال مؤرخو الترك انفسهم : ان خراج ايلة الشام كله كان يعطى للمرأة السابعة من نساء السلطان ابراهيم وكان الجاي يأتي دمشق فيجيبها بنفسه ، لان نساء القصر لم يكن « يأمن » احداً من الولاة والمتصرفين على جبايتها من الامة . فتأمل أيلة بل مملكة كهذه تعطى جبايتها لاسرأة واحدة من نساء القصر تنفقها على زينتها وأزيائها ، كيف تكون مجابيتها عادة مصروفة في سبلها .

الخراج والعثمانيون والسخيف } وذكر مؤلفو الترك ان أقطاع الشام كله
 من ضروبه } كان مسانحة مليون افجه^(١) ولا ميرلوانها
 من مئين الى ثلاثمائة الف افجه وفيها ١٢٨ زعامة و ٨٦٦ أقطاعاً وعدد جندها ٢٦٠٠
 من الفرسان . وكانت ايلة طرابلس وارثها السنوي خمسة بوكات^(٢) ولديوان
 الخاص من ٢١٠ الى ٣٩٠ الف افجه وحاميتها من الفرسان ١٤٠٠ وأيالة حلب وخراجها
 ثمانمائة وسبعة عشر الف افجه وديوانها الخاص يرتفع من ٢٠٠ الى ٥٠٠ الف افجه
 وفي هذه الأيالة ١٠٤ زعامات و ٧٩٩ أقطاعاً وحاميتها ٢٥٠٠ فارس يخرج منها عشرة
 بوكات كان يدفعها اولاد رمضان حكام اذنة . وكانت الدولة تستوفي نصف ايراد
 الشام على عهد السلطان سليمان الاول اعني في سنة ٩٩٩ هـ ١٥٥٣ م ٢٠٠٠٠٠ دوكا
 والدوكا عشر افجات والبارة ثلاث افجات وتصرف الباقي على وقاية البلاد ومحافظتها ،
 وكذلك كانت تفعل في مصر تأخذ نصف ريعها وتصرف النصف الآخر في حمايتها .
 وما برحت الحال المالية في هذه الديار في إدار ، وهي تبع للوالي الذي يتولى
 زمام الحكم . فقد ذكروا ان والي الشام رفع في سنة ٩٩٤ المظالم وأبطل الكوس الزائدة ،

(١) كل ثلاث افجات بارة وكل ٤٠ بارة قرش والكيس خمسمائة قرش ذهباً
 او فضة . وذكر لامنس ان القرش كان يساوي في القرن الثامن عشر في الشام نحو
 خمسة فرنكات وفي منتخبات الجوائب ان نقود الدولة العثمانية كانت قبل القرن الحادي
 عشر للهجرة من صنف الدوكات المنسوبة الى البندقية التي كانت مملكة عظيمة مستقلة
 وكان وزن كل مائة دوكات ذهباً ١١٠ دراهم اما نقود الفضة فكانت من صنف الريال
 الجرمانى الذي كان يجلب من المانيا وكان وزنه تسعة دراهم وقيته ٨٠ افجه . وادل
 من استعمال الافجه السلطان بايزيد الاول وذلك في سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م) - استعمال
 البارة فاشتهر في سنة ١٠٦٦ هـ وفي سنة ١٠٩١ قر الرأي ان كل ٤٠ بارة تحسب
 قرشاً وكانت البارة تساوي ثلاث افجات اما الكيس الذي كان يساوي ٥٠٠ قرش
 ذهباً او فضة على حساب المعاملات فكان يساوي الف دوكات .

(٢) اليوك مبلغ خمسمائة الف قرش .

فأبطل مكس الخمرات ، وكان هذا المكس لكل من كان حاكماً على بر الشام ، ثم أبطل اليسق من باب صاحب الشحنة . واليسق كبير الانكشارية يلتزم هذه الوظيفة بمال كبير يدفعه للآغا وللباشا ويكون في باب صاحب الشحنة ، بقطع الجرائم ، ويدفع المال عن اربابه ، يرج ديناراً عثمانياً كل يوم ، فاذا كانت الجريمة خمسين ديناراً مثلاً دفعها عمن ألزم بها ، وله ربحها في كل يوم خمسون عثمانياً ، فاذا بقيت عليه اياماً حتى يسعى في تحصيلها تضاعفت عليه ، حتى لا يقدر على الوفاء والتخلص منها ، فان كان له أسباب او عقار او وقف او غير ذلك باعها او مذكها لذلك اليسق كيفما أراد ، فأدى ذلك الى تمول الانكشارية وتملكهم كثيراً من الأملاك ، وأبطل اليسق من باب القاضي ، ورتبت الانكشارية مالاً على البضائع المحلوبة ، وأبطلت المكوس التي كانت تؤخذ على اللبن الداخل الى دمشق وعلى الموازين .

وفي سنة ١٠٠٤ طالبت الحكومة الرعايا بعوارض سننين جديدة وعتيقة ، وطالبوا الاسرائيليين بمال عظيم . ومثل هذا كثيراً ما كانت تعتمد اليه حتى الى عهد قريب ، تطلب المال قبل استحقاقه ، وتسلب أموال الصيارف والمرابين ، بحجة الاستدانة منهم ، وحدث ان بعض الامراء والملوك صادروا النصارى واليهود خاصة كما فعل الملك الأشرف قايتباي فصادروهم مرتين في ايامه . وغرّم احمد حافظ باشا سنة ١٠١٨ وكان كافل الشام أموالاً طائلة ، وصادر جماعات في دمشق واخذ أموالاً منهم بغير حق ، ولذلك كانت المصادرة عامة لتنازل من كان في صندوقه مال اياً كان مذهبه .

وفي سنة ١٠٠٨ تولى السيد محمد باشا ولاية دمشق وامر بتغيير المعاملة فيها ، وجعل كل سلطاني بثمانين قطعة جديدة ، زنة كل قطعة فيراطان ونصف فيراط ، وهبطت الاسعار وحصل الرخاء . وذكر بعضهم ان نحر الدين المعني كان يجبي تسعمائة الف ليرة ويزيد ذلك بزيادة التجارة ، فكان دخل صيدا بأقي الدولة سنوياً بمائتي الف ليرة . و يدفع من جبايته للسلطان ثلاثمائة واربعين الف ليرة فقط ، وكان الامير بشير كالا مير نحر الدين يحب البذخ ، وقد ضاعف خراج لبنان اربعة أضعاف .

ولا نعتقد ان جباية الامير المعني قد بلغت هذا القدر ، فقد ذكر في كتاب صادر عن احمد بن محمد المولى بنابلس سنة ١٠٣٠ (جمادى الآخرة) ان يتصرف خوشنبر

اذا المستحفظ بمدينة نابلس ولوائها في جميع متحصلات القرى والحرب الكائنة بالجبل القبلي والشامي وبني صعب والقرى والحرب المقاطع عليه سابقاً ، من شتوي وصيفي وزيتون وخرنوب وعداد ورجالية وخراج واعشار واغفار وسائر المتحصلات الشرعية والعرفية العائد جميع ذلك للخزينة العامة بدمشق الشام على الامانة وان يتحضر للخزينة العامة سبعة آلاف سلطانياً ذهباً . فاذا كانت بلاد نابلس يضمن خراجها وضرائبها بهذا القدر وهي ما هي من الخصب واتساع الرقعة فمن الصعب ان تجبي من بلاد ابن من جباية كبيرة كالتي ذكرت واكثرها جبال قاحلة .

مثال آخر من قلة الجباية لنقر البلاد : في سنة ١٠٣٥ طلب المال من الأمير يونس الحرفوشي امين بعلبك عن سنة ١٠٣٣ و ١٠٣٤ فقال ان المطلوب من مقاطعة بعلبك عشرة آلاف سكة حسنة ، وانه لا يستطيع ضمها الا بعشرة آلاف قرش فبالنظر لاداء نفقات الحج الشريف ومال العلوقة أعطيت له المقاطعة بعشرة آلاف قرش عن سنة ٣٤ ولكن لم يتحصل منها سوى سبعة آلاف قرش . اما سنة ٣٣ فلا يمكن تحصيل شيء منها لان ابن من خرب تلك الولاية كما يؤخذ من السجلات الرسمية في تلك الايام .

* * *

نفنن الجزائر في اخذ المال } وهكذا انقضى القرن الحادي عشر والثاني عشر
وطريقة العثمانيين } والثالث عشر في سلسلة مغارم ومظالم ، فقد
تولى احمد باشا الجزائر دمشق لأول مرة سنة ١٢٠٠ وكانت مدة حكمه فيها خمس
سنين لم يرتح شهراً واحداً من طلب المال ظلماً ، ومن طرح النقود وطرح البضائع
المشوعة ، بينهم من جهات ويطرحها على أخرى باسعار زائدة . ومن مظالمه انه اذا
وجد قتيل في احد الايام يلحقون جميع القرى التي تشرب من ذلك النهر ، يأخذون
منهم مالا غزيراً ، وكان لا عمل له الا القبض على الاغنياء ومصادرتهم على أشنع
صورة فصدق فيه قول الشاعر :

قد بلينا بامير ظلم الناس وسج
فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبح

قال ابن آق بيق في حوادث سنة ١٢١٧ شغل الشام بالظلم واكرامية الباشا .
البلاد ، واشتغل حسن آغا بالظلم في دمشق وإرهاق القرى بالطروحة والاكراميات
وافراض الدخائر ومعاذنة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها اثر في السابق . وفي
سنة ١٢٤٧ كانت محاولة سليم باشا والي الشام وضع « مصر يتين » ضريبة على كل سكرة
اي عقار في دمشق من جملة أسباب قتله حرقاً مع جماعته .

وقال ابن عابدين : ان غالب الغرامات الواردة على القرى في هذا الزمان (اي في
أوائل القرن الثالث عشر) ليست لحفظ أملاك ، ولا لحفظ أبدان ، وانما هي مجرد
ظلم وعدوان ، فان غالب مصارف الوالي وأتباعه ، وعمارات منزله ومنزل عساكره ، وما
يدفعه الى رسل السلطان الواردين باوامر ونوامر وأمثال ذلك كله يأخذه من القرى
ويسمون ذلك بالدخيرة ، تؤخذ في بلادنا في السنة مرتين ، ويزيد فيها دراهم كثيرة
رشوة لأعرانه وحواشيه من أعيان البلدة ، وقد جرت العادة بقسمة ذلك كله على
عدد فدان القرية ، وتارة يقسمونه على مقدار حق الشرب بالساعات الرملية ، فمن كان
له فدان مثلاً يؤخذ منه ما يخصه او من له ساعة يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلاً
او امرأة او صبياً ، وكذا يجعلون منها على رقاب الرجال الساكنين في القرية الذين
لا ملك لهم فيها .

ومما اخترعه العثمانيون « الزعامة » وهي عبارة عن قرى يقطعها من بمطاهها وتخمن على
الاقل بعشرين الف درهم عثماني كل سنة ، واخترعوا العوارض وهي مظلمة سلطانية
تؤخذ من البيوت في الشام في كل سنة . ويقال انها من محدثات الملك الظاهر بيبرس
أشار اليها الاكرمي بقوله :

لحسا الله ايام العوارض انها هموم لرؤياها تشيب العوارض

يضيق لما صدري واني لشاعر ضليع وبديعي ما عليه عوارض

قلنا وهذا من جملة الدواعي التي انتقلت بها في القرن الماضي قرى ومزارع كثيرة
في سهول الشام وجباله الى ارباب النفوذ ، فخرج اهلها عن ملكها ، ورضوا بالاستعباد
على ان يكونوا أحراراً مالكيين . وذلك فراراً من ظلم الحكومة وتخلصاً من الضرائب
الثقيلة التي لا تحمّلها نفس بشرية . واطالما قصّ الشيوخ علينا قصة الطبلبة يوم تدق

في قريتهم ، ويجي^١ أعوان الظلمة لأخذ المظالم من أهلها ، وهناك كنت تسمع من المؤلات وخروب الظلم في طرق الجباية ما تسأل الله معه السلامة ، وتستغرب كل الغرابة من جنس هذا الناطق المتمرد ، ومن طرز إدارة العثمانيين التي تعرف كيف تستنزف دماء الامة وأهلها ، وقلما فكرت فيما يجلب لها الثروة ، ويحفظ عليها الحق وبقيم بينها قسطا العدل . وكانت الامراء اذا خرجت لأخذ الصدقة تضرب الطبول عادة لهم قديمة .

* * *

ولما فتح جيش محمد علي باشا المصري بلاد الشام
كان الاجنبي اذ ذاك يعطي رسوم كمارك
وضرائب اقل مما يدفع الوطني بكثير ،
} الجباية على عهد المصريين
والمقابلة بين طريقتهما
وطريقة العثمانيين
ولذلك اضطر بعض التجار الى ابتياع حماية الأجانب حتى يستطيعوا ان يتجروا ، وهذا كان مبدأ اشتداد الامتيازات الاجنبية . كذب اللورد دوفرين الى حكومته سنة ١٨٦٠ يقول : في مقدمة اسباب ضعف الادارة العثمانية في الشام ، ان الباب العالي كان يعتبر هذه الولاية منذ بضع سنوات كأىالة أجنبية يقتضي الانتفاع منها ما يمكن ولذلك طرح منصبها في المزاد ولم يول عليها الا الزائد الأخير . ومن الطبيعي ان كل وال جديد لم يكن يفكر الا في تعويض مادفعه من المال ، ويجمع الثروة ، فيسلب اهالي ولايته لدن وصوله ، مبتزاً منهم الأموال ، ومثقالاً كاهلهم بالضرائب الجديدة . وبعد ان ذكر كيف كان الوالي يرشي جماعة الاستانة لتسقيم له الولاية مدة ، يواصل فيها استنزاف الأموال واملاء جيوبهم بها قال : فنشأ عن ذلك مظالم لا نطاق ، وابتزاز أموال لا تحصى ، وتعاقب على الأيالة ولاية غير اكفاء للمنصب ، جائرون مرشون ظاعون في جمع المال ، لا تشبع بطونهم ، خالون من ادنى اهتمام بالمصلحة العامة اه .

تبدلت الأوضاع الإدارية في هذا القطر مرات على عهد العثمانيين وفي سنة ١٢٧٢ هـ كانت تقسم الى أياالتين أياالة دمشق وأياالة صيدا ، ودخل الاولى التي هي عبارة عن دمشق ومرج الغوطة ووادي العجم ووادي بردى وجبل قلون وحماة وحمص

وبعلبك ومعرة النعمان وعجلون والبقاع وحاصبيا وراشيا وحوران وجبل الدروز وحصن
الأكراد والقنيطرة وايبكي قبولي ، من الخراج والأعشار والبدل العسكري والرسوم
المختلفة ٤١٨٠٥ أ كياس يضاف اليها ٩٠٠ كيس كانت تدفعها الخزينة الى الأوقاف
وذلك عدا ما كان يؤخذ من حماة وحوران وحمص وجبل الدروز وحصن الأكراد
ومعرة النعمان وعجلون عينا من الأعشار والرسوم ، وهو ١٨٢٥٩ اردباً من القمح
و ٢٥٨٨٤ اردباً من الشعير و ٩٥١ من الذرة و ١٣٣٩٣ اوقية ممن و ٣٢٠ اوقية حرير
و ١٣٠٠ رأس غنم . وكان دخل أيلة صيدا وقائم مقاميتي لبنان الدرزية والمسيحية
و يدخل فيها بيروت وطرابلس واللاذقية ونابلس وعكا وحيفا وساحل عكا و القضاة
الشمسية ٣١١٥٤ كيساً ماعدا المستوفى عينا من القمح والشعير والذرة والكرسنة
والسمسم والعدس والسمن والزيت والفيالج والقطن . وكان مجموع دخل ايلة دمشق
١٨٥ الف ليرة على ذلك العهد وايلة صيدا ٥٠ ألفاً وكان لبنان يؤدي للدولة سنوياً
٣٥٠٠ كيس جزية وخراجاً .

رأي انكليزي في اعائن
البلاد بالضرائب
كتب المستر برانت فنصل انكلترا في دمشق
الى سفير دولته في الاستانة عن حالة أيلة
دمشق في ١٤ حزيران ١٨٥٨ من كتاب ما يأتي : « ان الضرائب كانت باهظة على
عهد الحكومة المصرية ، على ان استنباب الأمن وعدم بخل الحكومة على الشعب كانا
يكفيان لاقصاءه ان في وسعه تحمل وقرها دون ان يرزح تحتها ، وكان الدخل يدار
بنزاهة واقتصاد ولدى الحكومة المصرية جيش وافر العدد ونقوم بكل نفقات إدارة
الايالة المتوقع ازديادها تدريجاً ، اما حالة اليوم (اي على عهد الحكم التركي) فهي على
عكس ما تقدم من جميع الوجوه فالضرائب عبء ثقیل لا يطاق ^(١) مع انها أقل من

(١) قال بيريه ان الضرائب التي وضعها ابراهيم باشا المصري على الشاميين كانت
شديدة وما كان القوم يتحملونها لو لم يكونوا من عناصر واديان مختلفة . قلنا ومن حسنات
ابراهيم باشا انه أبطل الرشي والاصطناع وأبطل المصادرات وقرر حق التملك .

قبل والأمن مفقود والدخل يقل كل يوم لاهمال القرويين حراسة الارضين ، وكل ما يتم جمعه ينفقه بامسراف او يسرقه ، الموظفون والأموال اللازمة لادارة الحكومة تطلب من الاستانة ، وصار من الجلي ان المالية تزداد اختلالاً وفساد الادارة مستمر .

« كانت حكومة محمد علي فرضت على كل ذكر ساكن في المدينة ضريبة جديدة تدعى ضريبة الفردة تختلف بين ١٥ قرشاً الى ٥٠٠ قرش ، حسب حالة كل انسان ، وكانت مجموعها يبلغ عشرين الف ليرة انكليزية . ولما عاد الأتراك الى البلاد لقوا مقاومة شديدة في جبايتها ، فأبدلوها بضريبة على البيوت تستوفي دون حدوث اضطراب كبير او قتال ، على ان مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة انكليزية ، وقد جرت بعض احتكاكات وفرضت ضرائب جديدة على البنائات المحدثه ، للاستعاضة عن الدخل الذي أسرفوا به ، وكانت الحكومة المصرية تستوفي نحو ٥٥ الف كيس ولا يتأخر لها بارة ، وهذا المبلغ يساوي ٢٧٥ الف جنيه فمبط الدخل اليوم الى ٣٥ الف كيس قيمتها ١٤٣ الفاً وخمسمائة جنيه ، يجبي منها عشرة آلاف كيس وبقى زهاء ٤١ الف جنيه في ذمة الاهالي ، وهذه بتعذر جباية قسم منها .

* * *

رأي مدحت باشا } هذا ما قاله رجل غريب عن البلاد وأصرح منه
في مظالمهم } ما كتبه مدحت باشا ايام كانت والياً على الشام

بتاريخ ١٧ آذار ١٢٩٥ شرقية من لائحة في سياسة الشام وأموالها ومما قاله : ان
الوامر التي تصدر من الاستانة الى الشام محصورة في طلب المال والجنود فقط ،
وبذلك بطل العمل بالقانون والاصول المرعية ، وفتحت ابواب سوء الاستعمال ، وماعدا
بعض الرجال من الموظفين أصبح كبار العمال وصغارهم لا يلتفتون الى غير مصالحهم ،
فطراً على المعاملات خلل ، و بسوء تأثير ذلك فسدت أخلاق الناس ، وكثر القتل
والنهب والغارة على الأموال والعروض في كل مكان ، واختل الأمن كل الاختلال .
قال واذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الخراج والأموال قد نزل ارتفاعها الى
النصف ، وخربت مسائل الأعشار البلاد ، وقلّ البدل العسكري ، وحدث

ما شئت عن بلية « القائمة ^(١) » فن اجل سقوط أسعارها نزلت الواردات في العام الماضي الى النصف ، وبقي النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد .

وكلام مدحت باشا يشمل ولايتي سورية وبيروت لان الولايتين في عهده كانتا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية وفلسطين ، وبالطبع كانت فلسطين اقصى الجنوب وحلب في اقصى الشمال على هذه الصورة او أشد ، لان روح المملكة كانت واحدة ، وهي المركزية الشديدة ، وكانت في الدور الذي سلف لامركزية ولكنها أشبه بالفوضى . ولم تتغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسة الى آخر سقوط الشام ورحيل الأتراك عنها ، وان كانت الارتفاعات زادت في العقود الاربعة الأخيرة ، لانتشار الأمن في الجملة ، بتأسيس المحاكم النظامية التي قضت على الاشقياء بعض الشيء ، وكفت البادية عن العيث في البلاد القريبة من المعمار ، بعد ان كانت تأتي لاختد الخوة من القرى القريبة من الحواضر الكبرى ، ولزيادة النفوس بقلة الاوبئة وتخفيف بعض البطائح . وسد العجز المالي ، ولا سيما في الساحل بما ادخله المهاجرون الى اميركا وغيرها من أبناء الشام ، فكانوا وما زالوا يحملون الى هذه الديار مبالغ طائلة تدخل في تحسين الزراعة والصناعة وتزاد بها الحركة التجارية . وكانت الدولة العثمانية كلما سلخت عنها الولايات النائية تزيد في مقدار الجباية والمظالم على بلادها ، فالدخل ينقص على الدوام بسلخ الممالك من جسمها ، والخرج يزيد لان اهل الاستانة عالة على اهل الولايات ، يشقى هؤلاء لينعم اوائلك ، ويبنوا القصور ويتمتعوا بالخور والولدان .

* * *

الاشتطاط في الاعشار	}	ولم يكف الحكومة العثمانية زيادتها في العشور
والقسط في الجباية		حتى بلغت ثلاثة عشر اربعا في المئة ، تؤخذ

من الحاصل والمجصول عدا ما يلحقها من ظلم المتزمين والعشارين ، وهو قد يبلغ عشرين

(١) الورق النقدي الذي أصدرته الدولة في حرب روسيا وكانت سبب ابتزاز

قسم عظيم من ثروة الامة .

في المئة او اكثر من ذلك في بعض الانحاء ، ولم يكفها زيادة الأموال والضرائب الأخرى الى ضعفين بل الى أضعاف ما كانت قبل عشرين سنة ، بل زادت في العشر والخراج زيادة مهمة مدة الحرب العامة ، دج ما أحدثته من التكاليف الحربية واستلبته من أموال الفلاحين وعروضهم ومواشيهم ، ولولا ارتفاع الأسعار ودخول ملايين من الليرات التي اقترضتها الدولة من ألمانيا لتنفقها على الجيش الذي جمعته وجلبته من القاصية ، لولا ذلك لبقى عشرة في المئة فقط من قرى هذا القطر عامراً ، ولاضت الحال أنعس مما كانت قبل ستين او سبعين سنة ، ايام كان الفلاحون لا يستطيعون زراعة اراضيهم لقلة الأيدي العاملة ، فيجلبون أناساً من العبيد يستخدمونهم في الحرث والكرث .

وبعد الحرب كثرت الجباية والمغارم في بلاد الشام خصوصاً لقلة الذهب في الأيدي والاستعاضة عنه بالورق النقدي ، فزادت الجباية في بعض المال اربعة أضعاف ، فعلت الشكوى ، وأخذت أسعار البياعات تملو وتسفل في المدة القصيلة ، والمقرر على الرعايا ينزل ويرتفع على تلك النسبة ، فنضرر الناس من هذا وكان البلاد في ذلك عاماً في كل البلاد التي لم يستقر سعر ورقها المالي على وتيرة واحدة ، او لم تواز قيمته قيمة الذهب ، واضطرت حكومات الشام الى الاتفاق اكثر من قبل على صغار عمالها وكبارهم ، لئلا تترك لهم مجالاً الى الرشى والتلاعب بحقوق المساكين والضعفاء ، وان تقوم ببعض الأعمال اللازمة في الحكومات المتقدمة ، فانخرجت مسافة الخلف بين الدخل والخرج ثم تعادلا واخذت الحكومة تفكر في إلغاء طريقة الأعشار والاستعاضة عنها بمال مقطوع وزادت الضرائب على العقارات بنسبة اجورها .

خارج الارض
والعقارات^(١) } هذه الضريبة من التكاليف غير الشرعية التي أحدثت
أواخر ايام سلطنة السلطان بايزيد الثاني العثماني ،
وكانت المرتبات التي تم على كل بلدة من البلدان توزع بمعرفة لجنة مؤلفة من الوالي

(١) كتب هذا الفصل المالي المحقق السيد رفيق الحسامي .

او المتصرف او المسلم ورجال الشرع الشريف ووجوه البلدة وأعيانها يُراعى فيها عدد النفوس المذكور ، او الدور الموجودة في كل بلدة . وكان هذا التوزيع يسجل في المحاكم الشرعية ، وكانت كل فرد يخضع لذلك التوزيع ، و يدفع ما يصيبه مرتاحاً بحيث لا يبقى منه شيء في ذم المكلفين . وقد دام الحال على هذا المنوال مدة اربعة او خمسة عصور .

ولما تسرب الخلل الى القوانين الموضوعه وأعلنت التنظيمات الخيرية ، كانت من جملة الاصلاحات التي تذرع بها السلطات محمود الثاني وأقرها السلطان عبد المجيد تسجيل الأراضين والعقارات كافة في عامة البلدان والقرى ، وذلك بتقدير قيم لها ، واستيفاء الضريبة على نسبة قيمتها . وكانت هذه الضريبة تجبي بمعرفة المختار في المدن والقرى (شيوخ الصلح او شيوخ القرية) . وهذا بموجب تذكرة إجمالية « طوب مركى » تدفع الى المختار فيجبي ما يصيب كل شخص من المكلفين ، و يدفع المجبى في كل اسبوع او خمسة عشر يوماً او شهر بحسب مقدار ما يجبي او بحسب تعقيب الحكومة او إهمالها .

ولما رأت الحكومة بأخرة ان بعض المختارين يتلاعبون بهذه الأموال ، وكثيراً ما كانوا يفرضون على الاهلين فرائض تربو على ما يصيبهم من النكليف بدعوى النقص في الأموال حتى آضت الحال الى تعذر الجبايات — منعت المختارين من ماملة الجباية وألفت لجاناً خاصة ، وأنشأت ترسل لكل مكلف تذكرة باسمه حاوية مقدار ما أصابه من الضريبة في كل سنة . ويجبي جابي الفرع المقيم به المكلف بموجبها ، والذي يتأخر عن دفع دينه بنجوماً (نقاسيط) معينة تُنذره رسمياً حتى اذا لم يبادر في عشرة ايام من تاريخ تبليغه الانذار الى دفع ذمته ، تحجز امواله الموقولة او غير المنقولة فيما اذا لم يكن له أموال منقولة واذا كان ممن لا يملك شيئاً غيرها يحبس احد وتسعين يوماً ، اذا ثبت اقتداره على الوفاء .

وفي سنة ١٩٢٥ اصدرت الدولة قانوناً للجباية لم يخرج بمجهره عن النظام السابق الا ما كان من الاكتفاء بحبس المدين شهراً واحداً بدلاً من احد تسعين يوماً على ما كان

في النظام السابق الى غير ذلك من العقود الشرعية التي لا علاقة لها بجوهر هذا النظام القديم ولا يزال التعامل جارياً على هذا النمط .

رسم المواشي } هذا الرسم من الأوضاع الشرعية وكان يُنقضى ادائل
عهد الحكومة العثمانية عيناً وهو غنمة واحدة من كل
عشرة اغنام ولا يُنقضى شيء من بقية الحيوانات ، ثم طبق هذا القانون على اصول
التلزم . وفي سنة ١٠٤٠ الهجرية اصول التلزم وأخذوا يستوفون الرسم بتقدير قيمة للمواشي
واستيفاء بارة عن كل قرش من قيمتها . وفي سنة ١٢٤١ أعيد استيفاءها عيناً .
وفي سنة ١٢٥٥ عندما أعلنت التنظيمات الخيرية كان بقدر نتاج كل دابة ، واخذت
الرسوم تستوفى على نسبة عشرة في المئة من ذلك النتاج بحيث صار يستوفى عن كل رأس
من الغنم والماعز اربعة قروش ، وعن الجاموس والاوبل عشرة قروش . وبدأت تترقى
هذه الرسوم بنسبة اسعار الماشيات الى ان أصبحت ثمانية قروش عن كل رأس من الضأن
والماعز ، وعشرين قرشاً عن كل رأس من الاوبل . وهذه الرسوم على قسمين كان
قسم منها يستوفى عند العد وقسم يمد ذلك . اما القسم الذي يستوفى عند العد
فهو ما كان للتجار وعابري السبيل ممن لا تعرف اما كن سكناهم . واما القسم الثاني
فهو ما كان يُستوفى من البناء سكان القرى والعربان .

الأعشار } العشر من النكاليف الشرعية القديمة وكان يُنقى على عهد
الأقطاع في تموين الجنود وزعمائهم . وقد أصبح في سنة ١١٠٠
بحال لسنة واحدة اوسنين متعددة على بعض الصيارف المتمرلين . وفي سنة ١٢٥٦ اخذوا
على عهد اعلان التنظيمات الخيرية يستوفون الأعشار على طريق الأمانة اي على ذمة
الحكومة بمعرفة جباة خصوصيين وبعد ذلك اي في سنة ١٢٥٨ أعيدت اصول التلزم
واخذ بباع عشر كل قضاء عن سنين من الملتزمين . وفي سنة ١٢٦٣ تقرر اجراء
معاملة الاحالة لرجال السلطنة وخدامها وبعض ذوي اليسار والسعة من التبعة العثمانية
منفردين ومجتمعين لخمس سنين وذلك باخذ متوسط بدلات الثلاث السنين التي

تقدمت السنة المذكورة ، على ان يضاف على البدل المتوسط المنوه به في السنة الثانية التي تلو سنة التلزم واحد بالمئة وثلاثة بالمئة ، على بدل كل من السنة الثالثة والرابعة والخامسة ، بحيث تصبح الاضافة عن السنة الخامسة عشرة بالمئة .

ولما نشبت حرب القريم في سنة ١٢٦٩ أعيدت اصول الأمانة لضمان تموين الجيش ، وظل الحال على هذا المنوال لغاية سنة ١٢٧١ . وفي سنة ١٢٧٢ رجعوا الى اصول التلزم ايضاً فأخذت تباع اعشار القرى في مجالس الأفضية قرية قرية وفي مجالس الأولوية والولايات قضاء قضاء على ان لا تحال أعشار لوائين لاحد الملتزمين مجتمعين . ولما أعلن القانون الأساسي في سنة ١٢٩٣ أعيدت اصول الامانة . وفي سنة ١٢٩٧ وضع نظام التخميس وذلك بحسب بدلات كل من سنة ١٢٨٩ و ١٢٩٠ و ١٢٩١ و ١٢٩٢ و ١٢٩٣ واخذ متوسطها ، على ان يوزع ما يصيب كل قرية على حساب الدونمات . وفي سنة ١٣٠١ أعيدت اصول الأمانة ايضاً . وفي سنة ١٣٠٢ عاد الى طريقة التلزم ايضاً على اساس القرى لا القضاء او اللواء كما كان آنفاً . وظل الحال على ذلك الى سنة ١٣٣٠ اي سنة اعلان النفير العام وفي خلال ذلك وضعت اصول التخمين موضع الاجراء وظلت الى سنة ١٣٣٣ حتى اذا كانت سنة ١٣٣٤ طبقت اصول الامانة وبعد مغادرة الحكومة العثمانية هذه الديار أعيدت اصول التلزم ايضاً . وفي سنة ١٩٢٥ م وضعت اصول التبريع وذلك باخذ متوسط بدلات كل من سنة ١٩٢١ و ١٩٢٢ و ١٩٢٣ و ١٩٢٤ واتخاذها اساساً لوضع بدل معين على كل قرية من القرى . ولم تبرح هذه الاصول معمولاً بها . اما اصول جبايتها فهي تابعة لقانون الجباية حرفياً اي أصبحت تجبي على نحو ما تجبي الضرائب .

رسوم الجمر } ان اصل هذا الرزم يرجع الى الزكاة التي هي من جملة التكاليف الشرعية ، وكان يجبي من التجار الوطنيين على نسبة واحد من اربعين ومن التجار الأجانب على نسبة واحد بالعشرة من مجموع أموالهم . وظل الحال على ذلك من اول تأسيس الدولة العثمانية الى الزمن الذي عقدت فيه المعاهدة التجارية مع الدول الغربية فأنشأوا يستوفونه على الصورة التالية :

اولاً - رسم الواردات عن البضائع التي ترد برآ و بجرأ الى البلاد العثمانية .
 ثانياً - رسم الصادرات عن البضائع التي تخرج من البلاد العثمانية الى البلاد الاجنبية
 ثالثاً - رسم التصدير عن البضائع التي تستهلك في الداخل كالدهان والاسماك .
 رابعاً - رسم المرور (ترانسيٲ) عن البضائع التي تمر بالبلاد الأجنبية عن طريق البلاد العثمانية ولا تستهلك فيها .

وأخيراً قسمت هذه الرسوم الى قسمين داخلي وخارجي . اما الرسم الخارجي فينقاضي وفقاً لاحكام المعاهدات التي عقدت مع الدول المجاورة بحسب الملائق التجارية . واما الرسم الداخلي فيستوفي وفقاً لاحكام المقررات الخاصة التي كانت تقرر ما بحسب الاحوال وعلى نسبة التعرفة المخصوصة . ولما كانت علاقة الاجانب بالتجارة الخارجية تدور على رخصة خاصة كسائر المسائل كانت تمنح الاجانب حق تعايط التجارة في البلاد العثمانية على انه كان ذلك بامتياز خاص بالتجر . ولما كانت المواد التي تقضي المعاهدات بايرادها وإصدارها تذكر في تلك المعاهدات نوعاً فنوعاً أصبح ذكر تلك المواد يدل على منع سواها ، ولما زادت الصلات التجارية مع الاجانب قبلت بادي بدء حرية التجارة الى حد محدود وبعد ذلك بدأت بالتوسع فأعطي على عهد السلطان محمد الفاتح الامتياز المعلوم للبنادقة وصادق السلطان يازسليم على المعاهدة التي وقع عليها ملك مصر . وفي عام ٩٧٠ عقدت المعاهدة المعلومه مع النمسا . وفي سنة ٩٨٣ مع حكومة البندقية . وفي سنة ٩٨٤ مع حكومة النمسا ايضاً . وفي سنة ١٠٨٤ اي في سلطنة محمد الرابع عقدت معاهدة مع ملك فرنسا جاءت مؤيدة للمعاهدات السالفة التي كانت ترمي لاستيفاء رسم الكرك على نسبة ٣ بالمئة بدلاً من الخمسة ما خلا رسم التصدير .

ولما عقدت المعاهدة الجركية بين فرنسا وانكلترا في سنة ١٢١٦ اشتركت الحكومة العثمانية معها بتلك المعاهدة التي كانت عبارة عن تجديد نصوص العهد القديمة . وفي سنة ١٢٥٤ عقدت معاهدة تجارية مع فرنسا كان من جملة أحكامها التوسع في معاونة التجار الفرنسيين وشركائهم وما الى ذلك ، على ان يتناول ذلك عامة البضائع والمتاجرات وقد تضمنت هذه المعاهدة فيما تضمنته استيفاء رسم الواردات على نسبة ٥ بالمئة ورسم الصادرات ١٢ بالمئة ورسم المرور (ترانسيٲ) ٥ بالمئة من مجموع

قيمة البضائع والسلع وبقية المعاملات السابقة، بحالها على ان تعدل مرة في كل سبع سنين .

ولما نشرت نظام التنظيمات الخيرية انشأوا يستوفون هذه الرسوم بطريق الامانة اي على ذمة الحكومة ثم اخذوا يحيلونها الى بعض الصيارف والمليين ودام ذلك الى سنة ١٢٧٤ . وفي سنة ١٢٧٥ وضع نظام خاص لجميع المقررات التي قررت من بداية التنظيمات الخيرية الى ذاك العهد وجرى تطبيق ذلك على جميع ما يتقاضى منه رسم الجمر ك ما خلا رسم مواد البناء والدخان والسعوط والمسكرات . وجرى في عام ١٢٧٧ و ١٢٧٨ تعديل ذلك بعد عقد المعاهدات مع بلجيكا والدانيمرك وفرنسا وانكلترا وايطاليا وهولاندة والنمسا وروسيا والسويد واسبانيا واميركا ، وكان من جملة أحكام تلك المعاهدات : ابلاغ رسم الواردات الى ٨ بالمئة ونزول رسم الصادرات الى ٨ بالمئة ايضاً على ان ينزل من اصله واحد بالمئة في كل سنة الى ان يصبح واحداً في المئة فقط . وقد اعتبر رسم المرور اثنين في المئة على ان ينزل في ثماني سنوات تبدأ من تاريخ العقد الى واحد بالمئة فقط .

وبعد ذلك وقع التذرع كثيراً لتعديل هذه الرسوم وصورة جبايتها فلم يأت تذرعهم بثمره تذكر بيد انه اضيف في سنة ١٣٢٣ على رسم الواردات ثلاثة بالمئة بموافقة جميع الدول العظمى بحيث أصبح احد عشر بالمئة على ان يؤخذ خمسة وعشرون بالمئة من الزيادة التي عينت لتسديد الديون العامة وخمسة وسبعون بالمئة لتسديد ديون الولايات الثلاث الخ .

الجمارك الشامية ووجوه } كان محصول الرسم الاصل الذي هو ٨ في المئة
نققاتها ونوزبعها } حتى يوم ١ كانون الثاني سنة ١٩٢٦ بوزع بين
الدول الشامية الموضوعة تحت الانتداب الفرنسي ، وكان الرسم الاضافي ثلاثة بالمئة يدفع لحساب الدين العام العثماني . وقد صدر قرار في ٣ نيسان سنة ١٩٢٤ يقضي برفع الرسوم الجمركية من ١١ الى ١٥ بالمئة ابتداءً من شهر ايار سنة ١٩٢٤ وقضي القرار المؤرخ في ٢٣ شباط سنة ١٩٢٦ بان الأموال الباتجة من تحصيل ضرائب الرسوم الجمركية

من ١ ايار سنة ٩٢٤ حتى ٣١ كانون الاول سنة ١٩٢٥ (٦٢ مليون) تؤلف مبالغاً مشاعاً يؤخذ منه ما نستلزمه الضرورة والمبالغ الخاصة لسد جميع النفقات المترتبة من الثورات التي نشبت في الدول الموضوعة تحت الانتداب . على ان يجري توزيع ذلك فيما بعد بصورة قطعية وتقرر في ٢٥ ايار سنة ١٩٢٦ رفع رسوم الواردات اعتباراً من ١ حزيران سنة ١٩٢٦ الى ٢٥ في المئة .

وما زال محصول الرسم الاصيلي ١٥ في المئة المخصص للدين العام باقياً الى ان يجري اتفاق مع حامي الاسهم بشأن عملة الدفع .

ويتضح من عمليات المستشار المالي في المفوضية العليا انه يمكن ان يلاحظ لعام

١٩٢٧ ١٠ بلي :

١٢٥٠٠٠٠٠٠ فرنك محصول الجمر من الرسم الاصيلي ١٥ في المئة .

٦٠٠٠٠٠٠٠ فرنك ضرائب ١٠ في المئة .

المجموع ١٨٥٠٠٠٠٠٠

وتوزع كما يلي :

٨٥٠٠٠٠٠٠ فرنك لدائرة الدين على ان تجري التزيلات التي يقبل بها

حاملو الاسهم .

٥٠٠٠٠٠٠٠ فرنك نفقات جيش الشرق .

٥٠٠٠٠٠٠٠ فرنك يقتضي توزيعها بين الدول .

ومن الممكن ان ينزل الرسم ٢٥ في المئة لانه اذا كان قد طبق هذا الرسم لاحوال

استثنائية فلا يكون اليوم الا عشرة في سبيل تنمية اقتصاديات البلاد .

ضريبة التمتع } يرجع تاريخ احداث هذه الضريبة الى قسمين : القسم الاول ما احدث قبل التنظيمات الخيرية وكان اصلها

رسم الاحساب الذي احدثه السلطان محمود سنة ١٢٤١ وهو عبارة عن ضريبة تؤخذ باسماء متنوعة تسمى يومية الدكاكين وشهرية الدكاكين ورسم المأكولات والمستهلكات والذهب والفضة والمجوهرات والمنسوجات وما شابه ذلك .

ثم بناءً على الأمر السلطاني الصادر في ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٥٤ ألفي رمم الاحساب ونشر نظام مؤرخ في ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٥٤ بقضي بتوزيع التكاليف على الاهالي عن طريق تعيين مقدار الأملاك والأرضين والحيوانات ، وبيع التجار والأصناف السنوي ، غير انه لم توضع ضريبة مخصوصة على الأرباح السنوية بل وضعت موحدة على الثروة الذاتية المقدرة لكل فرد على نسبة أملاكه وأراضيه وأمواله وحيواناته وأرباحه .

والقسم الثاني ما وضع بعد التنظيمات الخيرية وظلت هذه الضريبة تعد من الضرائب الموحدة من سنة ١٢٥٥ - ١٢٧٥ وقد أصبحت اذ ذاك تؤخذ على نسبة ثلاثين بالآلف من مجموع الربح السنوي . وبناءً على القرار المؤرخ في ٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٧ الصادر بشأن الأملاك والأغنام والأعشار بلغت اعتباراً من ذلك التاريخ الى أربعين في الآلف . وفي عام ١٣٠٣ أبلغت الى خمسين وشملت أصحاب الرواتب والمشاهرات ايضاً ، ولما كان الاجانب غير مرخص لم بتعاطي التجارة داخل البلاد العثمانية كان هذا الرمم محصوراً بالعثمانيين لا يتناول احداً من الاجانب . ولما جرى الاتفاق على قبول إقامة الاجانب في البلاد العثمانية وتعاطيهم التجارة ألفت لجنة مختلطة في نظارة الخارجية - في سنة (١٨٨٠ م) ونظمت لائحة تتضمن حمل الاجانب على اداء الضريبة المذكورة أسوة بالعثمانيين . فقاوم سفراء الدول هذه الفكرة مقاومة حالت دون تطبيقها الا على رعايا صربيا وبلغاريا ورومانيا والجبل الأسود واليونان وايران . وفي عام ١٣٢٣ أحدث نظام خاص يقضي باستيفاء الضريبة المذكورة على قسمين: مقطوع ونسبي وخصصت به من يجب تكليفه بالضريبة المقطوعة ومن يجب ان تنقاضي منه الضريبة النسبية من ارباب التجارة والصناعة . وفي عام ١٣٣١ ألفت القانون السابق وأحدثت قانوناً جديداً ألفت به الامتيازات الاجنبية بتمامها فقضي على جميع رعايا الدول اداء الضريبة المذكورة أسوة بالعثمانيين بدون تفریق بينهم على ان تطرح هذه الضريبة على ثلاثة اوجه نسبي ومقطوع ومجهول .

الضريبة النسبية } يحقق هذا القسم من الضريبة بالنظر الى الاراد غير
الصافي المقدر للعمل الذي يشغله المكلف وجعل هذا
القسم على ستة أنواع كل منها يحتوي على قسم من أنواع التجارة والصناعة ومقدار
نسبة الضريبة التابعة لها . فالنوع الاول تدخل فيه اصحاب المصارف ونسبة ضريرتهم
عشرون بالمئة من الاراد غير الصافي المقدر للعمل المتخذ مصرفاً . والنوع الثاني يحتوي
على شركات النقل والمستغلين بالاوراق المالية والمتوسطين في إجراء البيع والشراء
والمتعهدين والاطباء والمهندسين ووكلاء الدعاوي وأمثالهم من اصحاب الصناعات
والاعمال العلمية ونسبة ضريرتهم خمسة عشر في المائة من الاراد المذكور .
ويشمل النوع الثالث التجار البائعين بالجملة والسيارة والخياطين وباعة الاقمشة
وخاطمتها وباعة الاحجار الثمينة وأمثالها ونسبة ضريرتهم ١٢ في المائة . والنوع الرابع
يتناول بائعي الألبسة والأقمشة والأدوية والعطور وأشياء ذلك من عامة المعاملات
والمصنوعات ونسبة ضريرتهم عشرة في المائة . والنوع الخامس يدخل فيه ارباب
الصناعة كالنجار والحداد والخياط ومن يبيع حبوباً ومأكولات واخشاباً وأشياء
حديدية واصحاب الفنادق والقهاوي والألعاب وأمثالها ونسبة ضريرتهم ثمانية في المئة .

* * *

الضريبة المقطوعة } يحتوي هذا القسم على من لم يتخذ محلاً مخصوصاً
لممارسة الصنعة من متعهدين وأطباء ومهندسين
وأمثالهم فاعتبرت ضريرتهم مقطوعة وجعلت خمسة اقسام باعتبار نفوس البلدة فقط .
فالنازلون في العاصمة من القسم الاول وضريرتهم ٣٠٠ قرش والنازلون خارجها من
الصنف الثاني مكافون بـ ٢٥٠ والثالث بـ ١٥٠ والرابع بـ ٧٥ والخامس بـ ٥٠ قرشاً .
وكذلك الحال في ذوي الصناعة من معمارين ورؤساء اشغال وعملة قد كلف
كل منهم حسب بلده ومكانة صناعته بمقدار معلوم ومسطر في جدول مخصوص من
القانون المذكور تبدي ضريرتهم من خمسة عشر قرشاً الى ثلاثمائة قرش .

* * *

الضريبة المتخولة } ان هذه الضريبة جعلت قسمين القسم الاول يطرح
 على اصحاب المحال التجارية والصناعة لاستفادتهم من
 خدمة العاملين عندهم والمعاونين فتبتدي الضريبة من ستة قروش الى مائة قرش
 بحسب صنوف البلدة ونوع التجارة وعمل العامل ، اما اصحاب الرواتب فقد كلفوا
 بموجب المادة السادسة بثلاثة قروش في المئة من مجموع ايرادهم السنوي ان كان
 زائداً عن الفي قرش ديناري ومن لم يزد ايراده عن ذلك فهو مستثنى من الضريبة .
 والقسم الثاني يطرح على حسب الوسائط العائدة لاجراء الصنعة كجملات الركوب
 والنقل والحيوانات والآلات التجارية وجعلت درجات باستبار صنعة البلد ونوع تلك
 الوسائط وكذلك الشركات فقد كلف كل منها بنسبة معينة في المادتين الرابعة والخامسة
 وقد ألفت لجان للنظر في الاعتراضات بدايةً واستئنافاً وتميزاً ، وبقي معمولاً به من
 السنة المذكورة الى يومنا هذا . اما التعديلات التي طرأت عليها من ذلك التاريخ
 حتى الآن فلم يكن من شأنها ان تغير هذه الأسس ، بل انها محصورة في بعض
 المعاملات الفرعية التي لا علاقة لها بهذا البحث انتهى كلام السيد الحسامي .

* * *

الرأي في الجباية } لاجرم ان الأموال اذا جبيت كما تجب في البلاد
 والنفقات } المتقدمة بالرفق ، وبحسب طاقة المكلفين ، يتوازن مع
 الزمن الدخل والخرج ، بل قد يزيد الاول على الثاني اذا وقع الاقتصاد في وجوه النفقات ،
 كأن تكفي الشام بما تخرجه لها ارضها ويفيض عليها ما تصرفه على الخطوط الحديدية ورصف
 الطرق وتعميدها في المدن وبين القرى ، وعلى الاسلاك البرقية والكهربائية والهاتفية ،
 وتجفيف البطائح واصلاح طرق الري ، واقامة معالم العلم ودرر التهذيب .
 وكل مماكة تسد عجزها بالاقتراض ، ولا تستثمر بايدي رجالها مافي سطحها وبطنها
 من الخيرات ، يكون مصيرها الى الاستعباد الاقتصادي ، وهو اشع خسروب الاستعباد
 في هذا العصر . ومالا تستطيع ان تعمله لنفسك ليس في مكنة غيرك ان يجعله اليك .
 وكل امة لا تفرض الجباية بالعدل ، ولا تجبها بطرق العدل ، ولا تبذل على الرافق
 العامة منها الفضل ، لنحل بل تضحل .

الوقوف



منشأ الوقف } من أهم القوانين الاجتماعية التي أثرت في عمران هذه
الديار وأخلاق أهلها قانون الوقف ، وهو حبس العقار
او الارض عن البيع وحصر مغلها في يد شخص او أشخاص على مقصد معين . كان
الوقف معروفاً عند الرومان ومنه الخصاص والعام وكذلك هو معروف عند الامم المسيحية
لهدنا وكان اهل الجاهلية من العرب لا يعرفونه . قال الشافعي : لم يحبس اهل الجاهلية
فيما علمت وانما حبس اهل الاسلام . فاستنبط الرسول صلوات الله عليه الوقف لمصالح
لا توجد في سائر الصدقات ، فان الانسان ربما يصرف في سبيل الله مالا كثيراً ثم
يفنى فيحتاج اولئك الفقراء تارة أخرى ، ويجيء أقوام آخرون من الفقراء فيبقون
محرومين ، فلا أحسن ولا ائتمن للعامة من ان يكون شيء حبساً للفقراء وابناء السبيل ،
تصرف عليهم منافعه وبقى اصله على ملك الوقف . وقد وقف رسول الله بعض ماله
عليه من الارضين فلم يقسمها وقد قسم بعض ماله عليه ، ووقف ثمانية عشر سهماً من
خبر لمن نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس والوفود وما نابه من نوائب
الناس . وفي صحيح مسلم ان عمر أصاب ارضاً بخبر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم
يشتأمره فيها فقال : يا رسول الله اني أصبت ارضاً بخبر لم أصب مالا قط هو أنفس
عندي منه فما تأمرني به ، قال : ان شئت حبست أصلها وتصدق بها . قال :
فتصدق بها عمر انه لا بيع أصلها ولا بيتاع ولا يورث ولا يوهب قال : فتصدق عمر
في الفقراء وفي القرى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضييف لا جناح علي

من وليها ان يأكل منها بالمعروف ويطعم فقيراً غير مشمول فيه ، وفي رواية غير متأثر
مالاً . قال بعض الفقهاء : انما وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه سواد الكوفة
لانه ليس مما حازه المسلمون حين ظهوروا عليه ، ولو كانوا حازوه وجمعوا ما فيه من السبي
والأموال كان غنيمة ليس للإمام ان يقفه حتى يخرج منه الخمس لله ثم يقسم أربعة
أخماسها بين الذين حضروا فتحه .

وذكروا ان احد شهداء أحد واسمه مخيريق عهد الى الرسول قبل قتله ان يضع
أمواله حيث أراد فحبسه على سبعة حوائط وهي كروم النخل في المدينة فأصبحت
الأموال المحبوسة من ذاك العهد لا تشرى ولا تورث ولا توهب واخذ بعض الناس
يحبسون أموالهم على أعقابهم وأعقاب أعقابهم . وغزوة أحد كانت في السنة الثانية
للحجرة وغزوة خيبر في السابعة فيكون وقف مخيريق اول وقف في الاسلام . وقد
تصدق النبي بسبعة حوائط في المدينة ، ووقف الصحابة وغيرهم اوقافاً . قال زيد بن
ثابت : لم نر خيراً لليت ولا للحي من هذه الحبوس الموقوفة ، اما الميت فيجري اجرها
عليه ، واما الحي فحبس عليه ولا توهب ولا تورث ولا يقدر على استهلاكها .

تعريف الاوقاف } قالوا ان ولاية الاوقاف من باب التعاون على البر
وطرقها } والتقوى ، ولا ينهض بحملها الا الأمين القوي ،
فان أبوابها متسعة ، وأربابها متنوعة ، وشعابها متفرعة ، فانهم أصناف مختلفون ، وطوائف
موصوفون ، فمنهم الأشراف المتصلون بالرسول ومنهم الهاشميون والعباسيون والعلويون
والحسينيون والحسينيون وغيرهم ، ومنهم الفقهاء الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة
وغيرهم ، ومنهم الصوفية والفقراء والنراء والاضراء والاسرى وابناء السبيل والمرضى
والجائنين ، ومنها تكفين الموتى واصلاح أسوار الثغور وقناطر الطرقات وعمارة
المساجد ومصابيحها وأئمتها ومؤذنها وقومتها ومصالح المدارس واقامة وظائفها ، وكذلك
الربط والخوانق والمشاهد ومواطن العبادة الى ما سوى ذلك من وقف على تعليم اليتامى
الخط ، ووقف على من انكسرت له آنية لا يقدر على عوضها وغير هذا من أبواب
الطاعات وجهات الخيرات ، فهذه الوقوف العامة جميعها على اختلاف مصارفها وتباين

جهاتها مشتركة في ان المقصد بها التقرب الى الله تعالى فانها معدودة من الصدقات ،
داخلة في باب القربات ، فيجب اتباع شروط واقفيها والعمل بها .
وما برحت الاوقاف تنمو في بلاد المسلمين بنمو الثروة والتبسط في مناحي الملك ،
وامتداد السلطة بامتداد الفتوح ، حتى تكاملت اجزاؤها ، وتكاثرت موادها ، في صدر
الخلافة العباسية وخصوصاً على عهد الخليفة المأمون فانه وقف الاوقاف الكثيرة في
العراق وغيرها على العلماء ودور العلم والجوامع والمباني العامة ، لتبقى دائمة الانتفاع على
الدهر وتكفي العلماء مؤونة قرع أبواب الملوك والامراء ، والمحاويج واصحاب الزمانات
والعامات من التكفف والاستجداء ، فمن ثم كثرت الأوقاف النافعة كثرتها في
الولايات المتحدة الاميركية لهذا العهد ومعظمها على دور العلم والباحثين .

* * *

اول اوقاف الشام | اول وقف حبس في بلاد الشام فيما بلغنا اراضي
وسوء استعمالها | بطارقة الروم فيها ممن فروا من جيوش الاسلام
او قتلوا في الحرب وكانوا قواد جند الروم ، فأصبحت أملاكهم شاغرة فأوقفها الفاتحون
على بيت المال ، وكان العمال يقبلونها اي يضمونها ويضيفون دخلها الى بيت المال ،
وكان من العمال من يجلس القرى على مصالح المدينة ومرافقها ، قاصداً بذلك عمارتها ،
وكان من البلاد المفتوحة عنوةً ما ليس يملكه السلطان فيباع « لانه في » للمسلمين يقوم
مقام الوقف على جميعهم » قال القاضي ابو بعل في الاحكام السلطانية : ان ارض
السواد صيرها عمر وقفاً بنفس الفتح ، والارض لا تصير وقفاً حتى يقفها الامام ، فعلى
هذا يجوز له بيعها اذا رأى بيعها أصلح لبيت مال المسلمين ، ويكون ثمنها مصروفاً في
عموم المصالح وفي ذوي الحاجات من اهل النفي واهل الصدقات . وقد قال احمد في
رواية عبد الله : الارض اذا كانت عامرة هي لمن قاتل عليها الا ان يكون وقفها من
فتحها من المسلمين كما فعل عمر بالسواد فاعتبر ايقافه .

ومن أحسن القوانين الصريحة عند المسلمين أحكام الموارث فانها تقضي على
المورث ان لا يوصي بغير الثلث من ماله في وجوه المبرات وان يبي الثلثين لوارثيه
يستمتعون به استمتاعه من قبل ، ولذا لم يكن الا في الوقف مندوحة في خرق هذه

القاعدة ، فتوسع القوم فيها لاسيما ما كانت منها اهلياً حتى كاد ينقلب الخير الى شر ومحال ايجاد الخير المحض . فان الواقف يقف املاكه او شطراً منها لتكون من بعده وسيلة الى التعارف والتعاطف بين الدراري والأعقاب ، فما هو الا جيل او جيلان حتى تغدو اوقافه ذريعة للنقاطع والتدابير ، فنقوم نائرات الخصومات بين الأسرات ، للاستئثار بادارة الوقوف واقتسام مغلها ، خصوصاً عند كثرة المستحقين وقلة الانصبة ، وربما تكاثرت ذريعة الواقف بعدد حتى يصيب الفرد من الدخل بضعة قروش . ولا تسئل كيف تكون حال تلك الدقارات والارضين الموقوفة من العمران ، ففي تعدد الموقوف عليهم تعدد للنحاي وتباين في الآراء . وربما استأثر بالوقف فرد واحد يكون أشد المستحقين مراساً ، فينصب حقوق الآخرين . من اجل هذا ترى الفاصبين وفي مقدمتهم المتولي او الناظر يقضون حياتهم على دكات المحاكم الشرعية مدافعين ذوي الحقوق بالحق والباطل ، حتى جرى في حكم الأمثال قولهم « نصف الاوقاف موقوفة على الحكام » .

شرط الواقف وخراب
أوقاف الشام } بالغ المتأخرون في احترام الاوقاف اهلية كانت
او عمومية حتى قالوا : ان شرط الواقف كنص
الشارع ، ولو كان فيما هو ظاهر ضرره ومكروه عند العارفين . وعُدت الاوقاف على طول الزمن من أعظم القرُبات حتى قالوا ان من لم يمت عن وقف فكأنما مات ميتة جاهلية . وقد رد ابن قيم الجوزية قول من قال ان شرط الواقف كنص الشارع فقال : ان شرط الله أحق وأوثق ، بل يقولون ههنا نصوص الواقف كنصوص الشارع وهذه جملة من أبطل الكلام ، وليس لنصوص الشارع نظير من كلام غيره ابداً ، بل نصوص الواقف بتطرق اليها التناقض والاختلاف ، ويجب إبطالها اذا خالفت نصوص الشارع وإلغاؤها ولا حرمة لها حينئذ البتة . ويجوز بل يرجع مخالفتها الى ما هو أحب الى الله ورسوله منها وأنفع للواقف والموقوف عليه . وقال علماء الحنفية ان قولهم شرط الواقف كنص الشارع لاني وجوب العلم به والاثم بتركه بل بالاخذ بمفهومه وانه لا يستحق المعلوم اذا خالفه .

وقال ابن القيم ايضاً عند كلامه على الحيل الجديدة في مسائل الوقف : ومن الحيل الباطلة تحيلهم على ايجار الوقف مائة سنة مثلاً ، وقد شرط الواقف ان لا يؤجر اكثر من سنين او ثلاثاً ، فيؤجر المدة الطويلة في عقود منفردة في مجلس واحد ، وهذه الحيلة باطلة قطعاً ، فانه انما قصد بذلك دفع المفساد المترتبة على طول الاجارة فانها مفسد كثيرة جداً ، وكم قد ملك من الوقوف بهذه الطرق وخرج عن الوقفية بطول المدة ، واستيلاء المستأجر فيها على الوقف هو وذريته وورثته سفيناً بعد سنين وكم فات البطون اللواحق من منفعة الوقف بالايجار الطويل ، وكم اوجر الوقف بدون اجارة مثله لطول المدة وقبض الاجرة وكم زادت اجرة الارض والعقار أضعاف ما كانت ولم يتمكن الموقوف عليه من استيفائها . الى ان قال : اللهم الا ان يكون فيه مصلحة الوقف بان يخرب و يتعطل نفعه فتدعو الحاجة الى ايجاره مدة طويلة يعمر فيها بتلك الاجرة ، فهنا يتعين مخالفة شرط الواقف تصحيحاً لموقفه واستمراراً لصدقته ، وقد يكون هذا خيراً من بيعه والاستبدال به ، وقد يكون البيع والاستبدال خيراً من الاجارة والله يعلم المصلح من المفسد اهـ .

وبهذا النقل رأيت ان الوقف يصح بيعه واستبداله اذا كان هناك مصلحة ، وان تلاعب المتلاعبين أدى الى تبدل الاوقاف وجعلها حرة تباع وتشترى منذ المائة الثامنة او من قرن قبله ، ولولا ذلك لأصبحت هذه البلاد الا جزءاً قليلاً منها أوقافاً كلها بمرور الايام ووقفت بالوقف حركة العمران وقوفاً هو الجمود بعينه . وفي الجمود الميت والفناء . ولكن المولى تعالى أرفق من ان يسلب مافع الارض مخلوقاته ، ويجعلها خاصة بفئة معينة لا ينقطع عنهم ماديها ، ولولا ذلك لكأن ابن الغني غنياً على الدهر وابن الفقير كذلك ، ولبطل هذا النظام الطبيعي الذي لا تقوى القوانين على تغييره .

قالوا ان الامير جكم العرضي المتوفى سنة ٨١٠ الذي تسلطن بحلب والشام أخرب غالب البلاد الشامية ، وأخرج اوقاف الناس في ديار الشام وفرقها أقطاعات بمثلالات على جماعته . وفي سنة ٨١٢ أخرج الملك شيخ الاوقاف التي بدمشق وجعلها أقطاعات وفرقها بمثلالات على عسكره . وفي ايام الملك الناصر فرج بن برقوق المتوفى سنة ٨١٥

خرجت غالب أوقاف الناس في البلاد الشامية والحلبية . فاستدلنا بذلك ان الاوقاف لم تلزم حالة واحدة ، والرأي في تمطيلها لصاحب القوة اياً كان .

كان اكثر العمال وأصحاب الأموال في عصور المصادرات يقفون الاوقاف على الجوامع والمدارس والرُّبُط والمستشفيات وغيرها فراراً بأموالهم من مصادرات الملوك اذا غضبوا عليهم ونحوهم عن وظائفهم ، او قضوا نحبهم فطمعوا في وفهم ، وهذا كانت الشأن مع الاقوياء والامراء وارباب الاقطاعات . ومن الاوقاف ما منحه الملوك بعض عمالهم وحاشيتهم ليستمتعوا بها ما داموا أحياء على سبيل الاقطاع فما عتَمَ المنعم عليهم ان جعلوا ذاك العقار او تلك القرية بواسطة القضاة واهل الحكم اوقافاً شرعية يتناولها أعقابهم من بعدهم فننزع عليهم بعد ان يكونوا ألفوا الاتكال ، وانقطعت أيديهم عن الاعمال ، الا من بسطها للناسول ريع اوقافهم الحقيبة . واذا كان بعض الواقفين توقعوا من اوقافهم ان يبنوا أبناءهم وأحفادهم عوادي الفاقة ، فان اعتماد انسلم على ما خلفه لم آباؤهم قد يرميهم فيما كانوا يحاذرونه من الفقر ، وذلك لتوزع الوقف بتعدد الأنصبه ، ولان المستحقين لمغل الوقف يعتمدون على ريع اوقافهم التي تأتيهم بلا عمل غالباً ، وينسون ان الثروة هي العمل وان من لا يعمل لا يثري ولا يتنعم سنة الله في خلقه .

* * *

التفنن في الاحباس } ولقد تفنن القوم في أنواع الاوقاف حتى لا يكاد
والتلاعب بالموقوف } يخطر ببالك خاطر في الوقف الا وتجد من سبقك
اليه مما أوشكت ان تكون معه معظم بلاد الاسلام موقوفة وكاد يصبح نصف اراضي
المملكة تقريباً من نوع الوقف ، وكانت ثلاثة ارباع الاملاك في البلاد العثمانية
وفقاً على الجوامع والمساجد . والاحباس والاوقاف عامة وخاصة فالعامة هي ما جعل
عينها وريعها بدون قيد ولا شرط وفقاً على أعمال الخير والبر او على المصالح العامة .
والخاصة هي التي جعل واقفوها حق الاستمتاع بريعها الى وارثيهم مباشرة ولا تؤول
الى الاوقاف الا بانقراض نسل الواقف . قلنا ومن العادة في معظم البلاد الاسلامية
ان يشرط الواقفون في أواخر صكوكهم شروطاً منها ان الوقف اذا انحل بفقد الذرية

وانقراض المستحقين يعود بحملته الى الحرمين الشريفين ومن الناس من يقفون عليها مباشرة فلهذا كثرت اوقافها كثرة زائدة .

لما ولي علي بن عيسى الوزارة للمقتدر العباسي فشت صدقاته ومبراته ووقف وقوفاً كثيرة من ضياع السلطان وأفرد لها ديواناً سماه ديوان البر جعل حاصله لاصلاح الثغور وللمحرمين الشريفين .

وفي صك وقف الملك سيف الدين بلبان لزور بلخسين في شيزر من عمل حماة سنة اربع عشرة وسبعمائة : « انه وقفه وفقاً صحيحاً شرعياً على نفسه الزكية الطاهرة الرضية مدة حياته أحياء الله الحياة الطيبة ثم من بعده على أولاده ذكوراً وإناثاً على الفريضة الشرعية للذكر مثل حظ الانثيين ثم على نسله وعقبه قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل على الشرط المزبور على ان من مات منهم عن ولد أو ولد ولد او نسل وعقب كان نصيبه لولده ثم لولد ولده ثم لنسله وعقبه يقدم الاقرب فالاقرب ومن مات ولا ولد له ولا نسل ولا عقب كان نصيبه للاقرب فالاقرب لمن هو في درجته وذوي طبقتة فاذا انقرضوا باجمعهم وخلت الارض منهم ذكرهم وانثاهم رجع هذا الوقف باجمعه على الفقراء والمساكين والايتام والأرامل والمنقطعين المجاورين بالحرمين الشريفين بمكة والمدينة الطيبة . . . » وشرط ان لا يؤجر جميعه ولا شيء منه في عقد واحد اكثر من ثلاث سنوات ولا يستأنف عقد حتى تنقضي مدة عقد الاول . وعلى هذا جرت عادة الواقفين باتباع هذه الشروط وسطروا وقفياتهم عليه . ومن الوقفيات الغربية التي اطلعنا عليها حجة نقلت حوالى المئة العاشرة عن حجة كتبت سنة ثمان وسبعمائة للهجرة جاء فيها ان « الست الجليلة سالحة خاتون ابنة الامير الكبير صلاح الدين بن بهلولان ابن الامير الكبير شمس الدين الاكري الآمدي وقفت وحجست وابدت ، في صحة منها وسلامة وجواز امرها ، جميع الضياع الخمس المتلاصقات المعرويات بوادي الذخائر عمل دمشق المحروسة ونعرف احدها بالبويضا والثانية بالبريضا والثالثة بالحيرا والرابعة بدير عطية والخامسة بالحرا » وقد تغيرت معالم هذا الوقف ولا يعرف بهذه الاسماء غير دير عطية والحيرا في تلك الجهة وانتقلت القريتان الى ابداً أخرى .

وأنفن الواقفون في صدقاتهم ومبراتهم في الشروط التي شرطوها ، وفي كتاب

وقف الوزير لالا مصطفى باشا ووقف زوجته فاطمة خاتون بنت محمد بك بن السلطان الملك الاشرف قانصوه الغوري ، وكتب الاول سنة اربع وثمانين وتسعمائة والثاني سنة اربع وسبعين وتسعمائة ، مثال من هذا الفن . ووقف الاول على منزل في قرية القنيطرة للمتددين بين مصر والشام وزائري القدس ومشهد الخليل وجامع قرية الشعراء من عمل القنيطرة ومكتب على الصبيان وعمارة على الضيفان الى غير ذلك من ضروب البر ، وفي هذا الكتاب كلام على المتولي ووظيفة الواقف وأولاده والبنات منهم اذ انقراضهم ، وجباة الوقف ووظائفهم وخطيب الجامع والامامين ورئيس الحفاظ والقراء والمؤذنين ووظيفة ثلاثين قارئاً ومفرق الاجزاء . ومن يقرأ سورة يس وعم والنصر وتبارك ومعلم الكتاب وخليفته والمخير ، والمشروط لثمن القنسا دبل والزيت ووظيفة الشعال والبواب والقيم والكناس والفراش ومعاونه والبواب بالحوش ، وشيخ العمارة ونقيب اللحم والخبز ووكيل خرج العمارة والكيلاردار ومعاونه وحافظ الغلال والخباز وتليذه والطباخ وتليذه ومن يغسل الصحن وبنقي الارز ودقاق الخنطة والبناء والبستاني ومصالح الصحن وكناس منازل المسافرين والذاكرين في مسجد القنيطرة والمؤذنين بجامع الأموي بدمشق ، والمشروط لحصير المكتب بالقنيطرة ، ووظيفة من يرم الموقوفات ورئيس الشواة ، وشرط الواقف في الاطعام ومدة إقامة المسافرين الى غير ذلك من الشروط والقيود ما لا يصدر الا عن أناس ذاقوا طعم الحضارة وأشربت نفوسهم بحبة الخير . ولهذا من الامثال في البلاد ماث والوف وقد بلغ ريع الاوقاف التي استصفتها الحكومة في الشام وأدخلتها في موازنتها بضع ماث الالوف من الليرات وقد اكل اكثر منها ولو صرفت على ما وضعت له لما بقي في القطر جاهل ولا معوز الا قليلاً . وفي وقف تكية السلطان سليمان بدمشق المؤرخة سنة ٩٦٤ غرائب من شروط البر ما لا يخفى في الفكر . منها إطعام ثمانمائة فقير في كل غد وعشية وان يكون الخازن على غلاله حفيظاً فظاً غليظاً حتى لا يني في توزيع الغلال وأخذها منه . وكان الواقفون يعينون على الاكثر المبالغ التي تعطى للمباشرين لخيراتهم من العلماء وغيرهم ، كما عينوا نوع الصدقات ومقدارها في كتاب وقف المدرسة الدلامية بدمشق ان صاحبها رتب بها اماماً وله من المعلوم مائة درهم ، وقيماً وله مثل

الامام ، وستة ائقار من الفقراء الغرباء المهاجرين لقراءة القرآن ولكل منهم ثلاثون درهماً في كل شهر ، ومن شرط الامام الراتب ان يتصدق لاقراء القرآن للمذكورين وله على ذلك زيادة على معلوم الائمة عشرون درهماً وستة ايتام بالمكتب الذي على بابها ولكل منهم عشرة دراهم في كل شهر ايضاً . وقرر لهم شيئاً وله من المعلوم في الشهر ستون درهماً ، وعاملاً وله من المعلوم كل سنة ستائة درهم ، ورتب المرتب في كل عام مثلها ، وللبيع ولقراءة البخاري والتواريخ مائة درهم ، ولارباب الوظائف خمسة عشر رطل من الحلوى ، ورأسي غنم اضية ولكل من الايتام جبة قطنية وقيص . . . وتاريخ هذا الوقف ٨٤٧ هـ .

ومن غريب الاوقاف وأجملها قصر الفقراء الذي عمره في ربوة دمشق نور الدين محمود بن زنكي . فانه لما رأى في ذلك المنزه قصور الاغنياء عزاً عليه ان لا يستمتع الفقراء مثلهم في الحياة فعمر القصر ووقف عليه قرية داريا وهي أعظم قرى القوطة وأغناها . وفي ذلك يقول تاج الدين الكندي :

ان نور الدين لما ان رأى في البساتين قصور الاغنياء
عمر الربوة قصرأ شاهقاً نزهة مطلقاً للفقراء

وذكر القرماني ان داريا كانت وقفها لعامة فقراء دمشق لفرق عليهم غلاتها ، وما برحت كذلك وفقاً الى القرن الحادي عشر كما قال كاتب جاي .

ولقد أخرج الاستكشاف من الاوقاف سير الشرق في محجة الترقى ولا يزال مؤخرأ لها وكم في البلاد من آثار ودور وقصور ومحال عامة هجرت وتعطلت بضباع أوقافها وكثرة المنازعين عليها ، وكان من الاوقاف ان اضرت بالجباية التي تصرف في مصالح الدولة قال بلوك : ان العقار الموقوف على الاعمال الخيرية عند المسلمين لا يعنى من الضرائب فقط بل انه لا يباع ، وهو امتياز انتفع به كثير من رؤساء البيوت واستخدموه في تدبير ثرواتهم ، ولذلك كثرت الاوقاف كثرة زائدة فأضرت كل الضرر بالمصلحة العامة ، وذلك لان إعفاء الاحباس من الخراج يسلب الحكومة جزءاً مهماً مزريعها وارلقاءها . وحظر بيع الوقف بعث برعسه على وجه الأجمال ، لان اموال الاوقاف وعقاره لا تستثمر استثماراً جيداً .

ولقد شدد الواقفون في شروط أوقافهم خصوصاً إذا كانت عليها مسحة الاوقاف المسبلة على المصالح العامة ، ومع هذا انتهبت أیدی الضیاع ، وسطت علی ریعها وأعیانها مخالب السارقین والمزورین . وهذه مدينة دمشق كان في واديها في القرن التاسع زهاء الف وخمسمائة مسجد وجامع ، وليس فيها اليوم مائتان وخمسون ، وكان فيها أوائل القرن العاشر ثلاثمائة وعشرون مدرسة ورباط وخانقاه وتكية ومستشفى وليس فيها اليوم من كل ذلك الاورث القديم خمس مدارس وربط . يصح ان يطلق عليه اسم مدرسة او رباط اللهم الا من باب التجوز ، وقد بدلت أعيانها كلها واختلست أحباسه ، ومنها ما لا تزال قائمة أوقافه مزبورة على أحجار أبوابها حتى الساعة نقرأ بلسان عربي مبين ، على كثرة ما بدل المبطلون وتلاعب المتولون والمستحقون ، وهكذا قل عن مدارس القدس فان أكثرها مما عث به النظار والمتولون ومثل ذلك قل في مدارس حلب وهي تعد بالعشرات كمدارس العاصمة ورباطها وزواياها وجوامعها فانها أصبحت وأوقافها أثراً بعد عين ولم يكتب البقاء الا لبضع منها .

اوقاف نور الدين وصلاح الدين } راجت أسواق الاوقاف على عهد صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله وآل ومن تقدمهما وخلفهما }
بيته ، فان حاشيته وأولاده أكثروا من أعمال الخير اقتداءً به حتى وقف عبيد دولته ورقيقاته وأبناءؤه وأحفاده وبناته اوقافاً حجة على الخيرات في بلاد الشام وغيرها .
وكان ربع اوقاف نور الدين في الشام سنة ٦٠٨ تسعة آلاف دينار صورية كل شهر ليس فيها غير ملك صحيح شرعي ظاهراً وباطناً .
وفي الروضتين تقدم نور الدين باحصاء ما في محال دمشق فأناف على مائة مسجد فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفاً . وقد وقف نور الدين وتصدق في سبيل الخيرات ، ووجوه البر والصدقات ، ما تقدير ثمنه مائتا ألف دينار ، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار ، من ذلك ما وقفه على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وأثبتها ومدرسيها وفقهائها ، وما وقفه على دور الصوفية والربط والجسور والبيمارستانات والجوامع والمساجد والأسوار ، وما وقفه على أبناء السبيل في

ل طريق الحجاز ، وما وقفه على فكاك الأسرى وتعليم الايتام ، وقصر الغرباء وفقراء المسلمين ، وما وقفه على الأشراف العلويين والعباسيين ، وما ملكه لجماعة من الاولياء والفرزة والمجاهدين . هذا عدا ما أنعم به على اهل الثغور من أملاكهم فانه بضاهي هذا المبلغ وزيادة . ولهم أوقاف على فكاك الأسرى ومنها وقفان سجلا على الحجر بالحرف الكوفي في مدينة بصرى في حوراث تاريخ احدهما سنة ٥٦١ ووقف جاولي اربعة حوانيت ووقف آخران فرناً وداراً على من لا يكون له اهل ولا يقدر على فكاك نفسه .

قال ابن جبير من اهل القرن السادس عند كلامه على مشاهد دمشق : ولكل مشهد من هذه المشاهد اوقاف معينة على بساتين وارضٍ بيضاء ورباع ، حتى ان البلد تكاد الاوقاف تستغرق جميع ما فيها ، وكل مسجد يستحدث بناؤه او خانقة يعين لها السلطان اوقافاً تقوم بها وبساكنيها الملتزمين لها ، وهذه ايضاً من المفاخر المخلدة ، ومن النساء الخواتم ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد او رباط او مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الاوقاف ، ومن الامراء من يفعل مثل ذلك .

وذكر ابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٢ في رحلته كلاماً يقرب من كلام ابن جبير قال : والاقواف بدمشق لا تحصر أنواعها وحصارها لكثرتها ، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج لمن يجمع عن الرجل كفايته ، ومنها اوقاف على تجهيز البنات الى أزواجهن ، ومن اللواتي لا قدرة لاهلن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسرى ، ومنها أوقاف لابناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطرق ورصفها ومنها أوقاف لسوى ذلك من افعال الخير . قال : مررت يوماً ببعض ازقة دمشق فرأيت بها مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني ، وهم يسمونها الصحن ، فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الاواني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . قال : وهذا من أحسن الأعمال فان سيد الفلام لا بد له ان يضربه على كسر الصحن او ينهره ، وهو ايضاً ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب جزى الله خيراً من تسامت مهمته في الخير الى مثل هذا .

انما الدنيا هبات وعوار مستردة شدة بعد رخاء ورخا بعد شدة

تكاثر الاوقاف } استولى الخراب على البلاد بعد تخريب تيمور دمشق
ومضار الجلود } أوائل المئة التاسعة ولكن عاد الى الشام رونقه ، فتجدد
على عهد الدولة الشراكسية ، فلما جاء العثمانيون اخذت البلاد تتراجع حتى بلغت هذه
الدركة من الانحطاط الذي نراه وليس في البلاد جزء صغير من ذاك العمران المستبجر
وقد نال الاوقاف مانال غيرها من التشتت ، وكان يد القدرة قضت ان لا تدوم
سعادة السعيد ولا شقاء الشقي ، ولو دامت مثلاً تلك الحركة المباركة التي كان الناس
او اهل الثروة منهم يقلد فيها بعضهم بعضاً من إنشاء معاهد الخيرات والصدقات على
اطراد واتصال ، لاصبحت بلاد الشام بأسرها لمهدنا مجموعة اوقاف يتناول ريعها الاشرف
والاجلاف ، واصبحت سائر الامة خدمة وأجراء .

ولذلك كان العقلاء على مثل اليقين ان الاوقاف التي وقفها بعض ابناء الطائفة
المارونية في جبل لبنان وبلغت لمهدنا نحو ربع الجبل على ما يؤكد بعضهم يتصرف فيها
بطريركهم وينفق من مستغلها على بعض الاديار والبيع ، لا تلبث ان يقوى عليها
أصحاب القوة والمكنة ويتخذون من القانون حجة لبيعها او يعرض لها عارض آخر — كما
وقع في فرنسا على عهد ثورتها الاولى — أواخر القرن الثامن عشر في استصفاء الحكومة
أموال البيع والاديار والجمعيات الدينية — فتمزق الاوقاف وتعود الى الامة ، لان
مثل هذه الاوقاف التي حبسها اهل الخير على أعمال البر في الغالب لم تنفع ابناء تلك
الطائفة في زمن المحنة اي في الاربع سنين الاخيرة على عهد الحرب العامة ، ولو صح
الاجتهاد وأظنه يصح في مثل هذه المواقف لانه هو المعقول — والشرائع تسير على
المعقولات ، لكان على شمامسة الموارنة وقساوستهم وأساقفتهم وطريركهم ان يعمدوا
الى بيع تلك الاوقاف او رهنها على الاقل ليصرفوا ثمنها على إطعام أبناء طائفتهم ولو
فعلوا لما مات جوعاً في لبنان من الموارنة الوف .

* * *

تأثير الوقف في } رأينا في ايامنا مزارع ومنها البعيد عن المدن ، المتعذر
العمران } استثماره بحسب العرف ، قد أصبحت حدائق غلباً بفضل
نوفر أربابها على تعهده ، وطول آمالم في تحسينه ، ارادة ان يستمتعوا به هم وأولادهم

من بعدهم ، ولو كانت من نوع الوقف لخربت وبارت ، ولأعرضوا عن تعهدها كل الاعراض كما هو المشاهد في القرية الموقوفة . ولكم رأينا الدائر العامر الى جانب الزاهر العامر . وحالة المسقنات او العقارات كحالة المستغلات أدهى وأمر . وكذلك الحال في الانامي الذين يعيشون من اوقافهم ومن يعيشون من زراعتهم او صناعتهم او تجارتهم ، فتجد في الاولين انكالا مجسما وهما متراخية ، وفي الآخرين مضاء وعزما وشما وحسن ثقة بانفسهم . وعندي ان من وقفوا الاوقاف وحبسوا الاحباس لابنائهم ومن يجي بعدهم قد أضروا بهم اكثر مما نفعهم ، والرزق كالحياة لا طاقة لصغير او كبير ان يحميه لنفسه فكيف به لغيره ، والمرء لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

كانت الاوقاف نافعة في الصدر الاول لقلتها بالنسبة لمجموع البلاد ، ولانها محبوسة على وجوه البر وعلى البائسين خاصة . فقد سأل عمر بن الخطاب شيخنا عاجزا من اهل الذمة فقال له : ما انصفناك اخذنا منك الجزية زمن شبابك ، ولم نكفك مؤنة التكيف ايام عجزك ، وامر له من مال الصدقة بما يكفيه . من اجل هذا كانت الحبس على هذه الغاية الشريفة مما لا يسع عاقلا انكار نفعه . ولكن الملوك ومن بعدهم من رجال الدبل انشأوا يحملون من أموال المغارم اوقافا ، وقلما تشاهد المخلص فيما حبس ووقف .

الادواق عند قدماء	}	فقد كان ملوك بني عثمان في مبداء امرهم تغلب
العثمانيين		عليهم البداوة والسذاجة والتدين ، ولذلك ملأوا

بروسة وادرنة والاستانة وكوتاعية وازنيق باوقافهم ومدارسهم ، وكذلك فعل وزراؤهم وكانوا يتنازلون أرزاقهم من مقاطعات يقطعهم إياها سلطان الوقت . فلما غلبت عليهم الحضارة وفتحوا مصر والشام في عهد سليم وتكاملت فتوحهم في عهد السلطان سليمان أصبحوا ينفنون في ضرب الضرائب على الرعية وقد غدا دخلهم لا يوازي خرجهم كما كان سابقا ، وأمسى رجال الامر فيهم يسرون على سيرة ملوكهم يعرفون لحم الامة ليجمعوا أموالا ربما وقفوا بعضها على الأعمال الخيرية ، فكانوا كالتي تزي وتصدق ، وما كانت صدقاتهم في الحقيقة الا فرارا بأموالهم من المصادرات ، لان مصادرة

الوزراء والامراء بعد المئة العاشرة أصبحت في الدولة العثمانية مورداً من الموارد التي تعيش بها الدولة ، بعد ان كانت لاول امرها تقتصر في دخلها على الجزية الشرعية والخراج الذي كانت لتقاضاه من ملوك الصراية وأعشار الاملاك السلطانية وربع الجمارك والملاحات والخمس الشرعي من أموال الغنائم .

واذا كان عمال الدولة لا يأخذون الاموال الا من حلها كيف استطاع مثل سنان باشا فاتح اليمن ان يصرف على خيراته ما يربو على مليوني ليرة بسكة زماننا ، ولو قدر هذا المال بقيته العرفية اليوم لبلغ عشرة او عشرين مليوناً . لا جرم انه لم ينجس هذا المبلغ الذي تعجز أمة من الامم الراقية اليوم عن المعاداة به الا بارتكاب ضروب المظالم والمغارم . ولفتح هذا الفاتح مابين المشرقين وارتكب مثل هذه المنكرات في أموال العباد ما نفع شيئاً في قرباته وصدقاته .

واذا كان مثل جنجي خوجه من مشايخ السلطان ابراهيم وهو من ارباب الخرافات والخزعبلات بالطبع ، قد جمع من الرشاوى والهدايا والاقاف ما يربو على مائة الف كيس والكيس خمسمائة قرش يوم صودر واخذ خطه بها ، فكيف حال من يقبض على زمام الامر من الوزراء والولاة ويظل مدة في منصبه ثم هو يظن ان انشأ مدرسة او جامع مما يبرر أعماله ويكفر عن سيئاته ، وان ذراريه بآمن من الفقر لان الملوك في الغالب كانوا يتركون لم العقارات والارضين ويكتفون بمصادرة الاموال فقط .

الوقف من مال } قال في « نتائج الوقوعات » : وولفه من وزراء السلطنة
غير محلل } في عهد السلطان عبد العزيز في الرد على من قال ان
الاسلاف لم يحبسوا ما حبسوه الا خوف المصادرة وارادة ان يتركوا لاولادهم وأحفادهم
مورداً يعيشون به : اذا كان من الواقفين من هم على هذه الصفة فان اكثرهم على خلاف
ذلك لا محالة ، وقد رأينا في صكوك أحبابهم انهم وقفوها على الجوامع والمدارس
والكتاتيب والخانات والحمامات وعلى إنشاء القلاع وإعاشة القائمين عليها من المرابطين
وعلى أبناء السبيل . اذا عرفت هذا وشاهدت ما بقوه من هذه الآثار العجيبة النافعة
التي ساعدوا بها على نشر المعارف والعلم وعمروا بها البلاد ، فليس من الانصاف ان

نقدم الاصل على الفرع وتذهب الى سوء الظن فيهم . قال : واذا جئنا نبحث عن المبالغ التي أنفقت على هذه الاوقاف وهل اكتسبت من وجوه محلة ، فاننا معك بان كل هذه الخيرات لم تتم بالمال الطيب ، اما وقد جمعت تلك الاموال بصور مختلفة فان انفاقها بما ينفع العامة من الاعمال الصالحة ازين في العاقبة وأدعى الى المحمدة من صرفها في الاسراف والسفاهة ، وحاسبها يذكر بالرحمة ، ويستفيض اسمه المسجل في عداد المتصدقين .

هذا ما ارتأه الوزير التركي وفي كلامه نظر عند القلاء ، اذ اي طاعة ثبتت في جنب تلك المعاصي . ولعمري متى ماغ المرء ان يأكل أموال الناس بالباطل ، ثم يتصدق بها : ببعضها ويحمد الخالق والخلق أثرد . وقد أحسن هذا الوزير بقوله ان صرفها في هذه السبيل ادلى من غيره على كل حال .

قال حجة الاسلام الغزالي : ارباب الاموال والمقترون منهم فرق ، ففرقة يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقنابر وما يظهر للناس كافة ويكتبون اسماءهم بالآجر عليها لتخلد ذكركم ، ويبقى بعد الموت اثرهم ، وهم يظنون انهم قد استحقوا المغفرة بذلك ، وقد افترأ فيه من وجهين : احدهما انهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم والنهب والجهات المحظورة ، فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها وتعرضوا لسخطه في إنفاقها وكان الواجب عليهم الامتناع عن كسبها ، فاذا قد عصوا الله بكسبها فالواجب عليهم التوبة والرجوع الى الله تعالى ، وردها الى مولاكها اما باعيانها او برد بدلها عند العجز ، فان عجزوا عن الملاك كان الواجب ردها الى الورثة ، فان لم يبق للمظلوم وارث فالواجب صرفها الى أهم المصالح .

نم نحن على رأي صاحب « نتائج الوقوعات » من ان جميع الواقفين لم يكونوا على نسبة واحدة في تحصيل الثروة ، وقوله ان اكثرهم صالح يحتاج الى نظر بايغ ، بل الاولى ان يقال ان منهم الصالح الذي جمع أمواله من طرق مشروعة وجعلها قربة لمولاه لما اتمرب من لقائه ، كأن يدخر المال ويقتصد فيه ويكون أقطاعه اوراتبه عظيماً او يرث من آباءه او غيرهم او يتجر ويزارع الى غير ذلك من وسائل الاغناء

المشروع ، وفي سير بعض الامراء والعلماء وبعض صدور الناس حوادث كثيرة
تؤيد هذه القضية .

مزار الأوقاف } وكيفما دارت الحال فان الأوقاف على الصورة التي
وصلت اليها في هذه الديار عامة كانت او خاصة قد
حملت في مطاويها من المضار ، أضعاف ماتوقع واقفوها منها من المدايع ، وخدوصاً الأوقاف
الاهلية فانها ضارة من كل وجه ، اما الأوقاف على وجوه البر والنقوى فليس في
استطاعة احد منعها ما دام المرء حراً بماله بصرفه كما يشاء .

وقد أدرك المثلثيون في العهد الاخير مضار الأوقاف الاهلية فقضوا بقسمتها اذا
كانت صالحة للقسمة او بيعها وتقسيم ثمنها بين الشركاء ان لم تكن كذلك بمجرد طلب
احد الشركاء ، وبذلك تخف مضرتها . على ان اوقاف الجوامع والمدارس وسائر
القربات ايضاً قد تخلص من ربة الوقف بحيل يسمونها شرعية واخترعوا لها
كالتحكير والاحترام والاجارتين والمرصد واخرجوها بهذا العمل عن ملك الوقف الى
ملك خاص .

وبهذا نقل الأوقاف حيناً وتكثر تارة أخرى ، وفي حلب اليوم الف واربعمئة
وقف ينظر فيها ديوان الأوقاف و يبلغ ربتها ما يوفى قرش ما عدا الأوقاف الاهلية
وكذلك الحال في دمشق والقدس وأوقاف كل بلد بحسب غناه ونفوسه .

منافع الأوقاف } ان إخراج الزكاة عند المسلمين في القرون الاولى
للإسلام ، ثم إنشاء المعاهد الدينية وغيرها في القرن
الوسطى وما بعدها ، وحبس الاموال لإطعام الفقير والزين والعاجز عن الكسب ، قد
خفف ولا شك من شرور المجتمع العربي بعض الشيء ، وان كان فيه من جهة أخرى
تحييب التوكل والتواكل الى بعض الناس . ولم نر في بلادنا ، بتحصيل الرزق فيها
أهون منه في اوربا مثلاً ، ما نسمع به من ضروب الشقاء الذي يسوق هالك الى
الانتحار والى ارتكاب الفظائع . وبعض الامم المتمدنة اليوم تفكر في قلة العجائز لقلة

فأثدتهن في المجتمع ، والابقاء على الكلاب وهذا من أغرب ما سمع . اما المجتمع العربي فلم يعهد فيه شيء من هذا بفضل ما حبسه التصديقون على خربة البر ، وان كان هذا الإفراط والتضامن ، والافضال على العاجزين عن الكسب ، قد يورث الخمول ويقعد بالهم عن الكدح والانكماش .

الى اليوم لم ينشأ للبشر مجتمع كامل في عامة صفاته على كثرة ما جاءه من الشرائع وسن لاجله من القوانين ، والسعادة لم يمسسها النار بأيديهم وكأنها محالة الآن . وما ندري ان كانت أسبابها تتم في مستقبل الديمور والعصور ، فلا الواف وفي الناس من النقر ولا عدمه أنقرهم . هذه القوانين قد تلطف من شريرة الشر ، ولكنها لا تستأصله من جذوره ، لان ذلك اسباباً أخرى لم ترتفع نواعدا في المجتمعات ، ولعله لا يتم المطلوب قبل انتضاء أيام وليال ، ونضاء آجال وأجيال ، والله يحكم لا معقب لحكمه .

نقسم الاوقاف } يقسم^(١) الوقف الى خيرى وأهلى ، وينقسم الخيرى
وإصلاحها } الى دينى محض كحبس المساجد والمسايد ، والى دينى
دنيوى وهو يشمل جميع أنواع الوقوف الخيرية كوقف مدارس العلم ودور الصناعات
ورباطات المجاهدين ، وفنادق أبناء السبيل ، ومستشفيات المرضى ، ومقابر الموتى ،
ونحو ذلك من وسائل الارتماق العام ، ومثله ما تحبس عينه لينتفع بربعه مصارف
الصدقات الشرعية سواء أكان الحبس على جميع لمساكين ام على فئة مخصوصة منهم .
واما القسم الثانى وهو الاهلى فينقسم الى طائفتين وذري ، والاول ما حبسه الواف
على طائفة مخصوصة من الناس . والثانى ما حبسه على ذريته من بعده . وهذه الاقسام
تبع لانقسام الوقف باعتبار المتعلق ، لانه ينقسم باعتبار متلقه وعوارضه الى اقسام

(١) افترحننا على صديقنا الشيخ سعيد الباني من علماء دمشق ان يكتب لنا رأيه في الاوقاف وطرق إصلاحها فكتب كتاباً سماه «الكشاف عن أسرار الاوقاف» وهو لا يزال مخطوطاً فاقبضنا منه ما هو بمثابة نعمة لما كتبناه في الفصل السابق .

كثيرة ، فالمتعلق الموقوف له كالعبادة التي وقفت لاجلها المعابد ، والثاني الموقوف عليه وهو الخلفاء التي تُتمتع بنعمة ما حبس عليها ، والثالث الأعيان الموقوفة . واما العوارض فهي كالصحة او عدمها من الوجهة الشرعية ، وكالضبط او الالحاق من الوجهة الادارية ، وقد يتداخل بعض هذه الاقسام مع فروعها فيقال مثلاً وقف خيري صحيح مضبوط . ولا تقسام الاعيان الى ثابتة ومنقولة انقسم الوقف باعتبار هذا المتعلق الى وقف الأموال الثابتة ووقف الأموال المنقولة ، فالثابتة كارض الزراعة المملوكة الرقبة والحوائط والبساتين والعرضات والمقارنات المسقوفة . وهذا النوع لا خلاف بين جمهور علماء المسلمين بصحة وقفه . واما الأموال المنقولة صائمة كانت او ناطقة ، فقد اختلف الفقهاء بصحة وقفها ، والمعتمد الصحة وفقاً لما جرى عليه تعامل المسلمين في القديم والحديث من وقف المصاحف والكتب والجنائز ونحو ذلك ، وبالأولى معدات الجهاد كالسلاح والكرام .

والارض الأميرية سواء كانت عشرية ام خراجية لا يصح وقفها الا اذا كانت مملوكة الرقبة ، فاذا ملكها السلطان ملكاً شرعياً فله ان يقفها على من يشاء كتصرفه ببقية أمواله المملوكة . والواجب اذا تقبيل وقف السلاطين الارض الأميرية بالاوقاف الاهلية اذ لا يسوغ للسلطان ان يفرز مزرعة من ارض بيت مال الامة العام ويخصصها بغثة من الناس على سبيل الحبس والتأيد ، كما فعل السلطان سليم الاول العثماني حينما استولى على الشام بافرازه كثيراً من المزارع بدون تملك رقبتهما ، ووقفها على ارباب الزعامة الدينية وذريتهم . والعشر الذي تُنقضاء اليوم البقية الباقية من الذرية او ادعياء النسب المندسون بها هو ضرب من السحت يجب ان يتحول مجراه عن هذه الخليات الطفيلية الى مصالح الامة ومرافقها الخيرية العامة .

وخلاصة القول ان هذا النوع من الاوقاف السلطانية غير صحيح ، وبالأخلق وقف الوزراء وعمال الولايات . ولو اقترن بموافقة سلطانهم الأعظم ، لان عمال القرون المظلمة في عهد الحكم الأقطاعي كانوا يقترفون في أفعالهم ما شاؤوا وشاءت أهواؤهم فيقتلون البررة والابرياء ، ويعفون عن الجناة وقطاع السابلة الاشقياء ، ويصادرون أموال من يشاءون ، ويصلون بها من يشاءون . فاذا كان الموت والحياة

بين شفتيهم ، وحقوق العباد الخاصة ألوثة بين ايديهم ، وأموال الرعية مباحة لديهم ، فأخلق بهم ان يعينوا بالحقوق العامة كأرض بيت المال الشائعة الانتفاع بين أفراد الامة فراغاً بالبيع او انتقالاً بالارث ، او إحياء بالعمل مقابل البدل . فقد كان هؤلاء الظلمة يضعون ايديهم على ما يختارونه من ارض أياالتهم الاميرية المملوكة الانتفاع فضلاً عن الشاغرة (وهي ما تدعى بمصطلح قانون الارضين بالمحلولات الاميرية) ويتملكون هذا الحق بالتفويض من انفسهم لانفسهم ، لانهم الكل بالكل لا يسألون عما يفعلون ، ما داموا يسترون الولاية على الأيالة بثمن مقطوع ، يؤدونه مساهمة الى سلطانهم او أعوانه ، وبعبارة ثانية يفهمها عوام الموظفين الحكوميين ، ما دام الولاية يلتزمون الولاية على الأيالة من أعوان السلطان بالمزايدة حتى تصل الى بدلها اللائق او الفاحش ، ويقع عليهم المازاد الأخير وتحال الى عهدتهم إحالة قطعية .

وكل وقف من أوقاف السلاطين يتحول من منفعة خاصة الى مصلحة عامة فهو صحيح والعكس بالعكس . وحكمة ذلك سد الذرائع بوجه الوزراء و ال الايالات الظالمين الذين كانوا يطوقون بنف ذم الارض الشاغرة ، ويقتصبون المملوكة وينتفعون بحق قرارها ثم يحنالون بوقفه خشية المصادرة . وقد مهد لهم سبل الاحتيال المنقبة المصانعون ، فأفتوهم بصحة الوقف على النفس الذي يروى القول بصحته عن بعض علماء السلف لمصلحة عامة ، وهي ترغيب الناس بالوقف لان مصيره بعد موت الواقف وانقراض ذريته الى جهة لائقة وهي الفقراء والمساكين الذين لا تخلو منهم الارض في كل عصر وقطر . لكن منتهى سوء قلبوا هذه المصلحة مفسدة فأعانوا الظلمة بهذه المتوى وأضرابها على إفراز المزارع من ارض بيت المال ، وحبس حق قرارها على انفسهم في حياتهم وعلى ذرياتهم من بعد مماتهم .

هذا رأي نبديه من الوجهة الفقهية النظرية ولا نقضي به من الوجهة الشرعية العملية ، وان كانت مناطه المصلحة العامة التي ترمي اليها الشريعة السحرة الواسعة ما لم تنفق عليه كلمة اهل الحل والعقد من علماء الشريعة الاسلامية لان الفرد يخطئ ويصيب . لكن الذي تقطع باجعه من الوجهة القانونية هو مصادرة حق قرار الارض من المتصرف بها بمجرد تعطيلها ثلاث سنوات عن الحرث والزرع بدون

معذرة شرعية ، لان المتصرف - بالمنفعة لم يملكها الا باسباب شرعية ، وكل ما يملك بسبب شرعي لا يجوز نزع من مالكه الا باسباب شرعية .

ضروب الخيل وانتهك }
حرمة الاوقاف }
الاسس محتاجون بسائق الاضطراب الى البيع
والاقتناء والمقايضة والمقاسمة ، مادام الانسان
مدنياً بالطبع مضطراً الى التعامل بالتبادل الذي هو محور دائرة المنفعة الاقتصادية
وهي دعامة العمران . وقد أودت تهافت السلف على الوقف اصطدام سكونه المؤبد
بحركة التعامل الاقتصادي الضروري الاستمرار ، لان التصرف بالعقارات الموقوفة
بها او شراء ممنوع شرعاً ، وبواعت العمران والاقتصاد نقضي هذا التصرف طبعاً ،
درة لخطر الآفات الاجتماعية ، والأزمات الاقتصادية ، التي تؤدي بحياة البلاد ،
وخراب البلاد .

ولذا اخترعوا — والحاجة أم الاختراع — ابتزاعاً على مايقولون من قواعد ناصر
السنة الامام احمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ما يدعى في الديار الشامية بالمرصد .
وهو الدين الذي على ذمة العقار الموقوف او الاستيفاء من أجرته بعد استيفاء المتولي
عليه مقداراً مالياً معجلاً من المستأجر يسمى « خدمة » وفرض مقدار معجل عليه
يستوفي منه مسانحة يسمى ديناً مؤجلاً ، بشرط ان يكون المستأجر على الموقوف اعماره
او ترميمه ديناً بذمة شخصه ، فاذا أيسر للمتولي ان يؤدي الى صاحب المرصد ما كان
له على رغبة الوقف ايعيدها الى جهته طوعاً او كرهاً . وصرى هذا المخرج ومغزاه تحرير
العقارات الموقوفة بالجملة بمنح التصرف بها بها وشراء مراعاة للمصلحة الاقتصادية ،
مع تقدير مرتب مقابل هذا المنح ، ومع الاحتفاظ بحق الرجوع بعد اداء الدين حرمة
للاحكام الشرعية ، وبنسبة تكاثر العقارات الموقوفة بدمشق مثلاً تكاثر المرصد .
هذا فيما يتعلق بالعقارات المسقوفة ، واما الارضون الصالحة للزراعة فقد اخترعوا
لمنح التصرف بها ، فراغاً او انتقالاً ، مخرجاً آخر وهو سراية « شد السكة » من الارض
الاميرية الى الموقوفة . ومعناه استحقاق الحراثة في الارض التي ليست مملوكة الرقبة
للحراث مقابل أداء العشر او الخراج ان كانت اميرية ، واداء مرتب الوقف ان كانت

موقوفة الرقبة بعد أداء حق قرارها . وقد أضحيت قضية ارض الزراعة الموقوفة في الشام ذات غموض عظيم في زماننا ، لاختلاط الموقوفة بغيرها ، واختلاط الموقوفة وقتاً صحيحاً لتملك رقبتها بالموقوفة وفقاً غير صحيح لعدم تملك الرقبة ، وكذلك لاختلاط ذات الوقف الاهلي بذات الوقف الخيري فضلاً عن ضياع وقف أغلبها واندثاره بتقادم العهد ، ما عدا الارضين التي صانت الحكومة وقفها وضبطته ، مقابل إفراز العشر والاعتراف باستحقاقه لجهة الوقف سواءاً كانت خيرية ام اهلية ، وسواء أكان الوقف صحيحاً ام غير صحيح .

واذا كانت قضية الارض الاميرية باعتبار ذاتها من أشكال المشكلات لما طرأ من التبديل على الخطة التي رسمها سيدنا عمر رضي الله عنه بعد فتح الشام ، فكيف بما عرض لها من عوارض الوقف المختلفة الأنواع التي استترت على ابناء هذا الزمان ، ما لم يتح لهم الاطلاع على كتب الواقفين ، ومناشير السلاطين المصونة بيد المستحقين او المتولين ، ويندر ان يطلعوا عليها احداً لعشيمهم بشروط الواقفين من الوجهة الخيرية ، واختلاسهم حقوق المستحقين من الوجهة الاهلية . على ان أغلب ارض الزراعة الموقوفة لا تختلف أحكامها في عهدنا وربوعنا عن بقية الارضين من وجهة الفراغ والانتقال .

ونحن مع اعترافنا بضرورة اختراع هذا المخرج لعلمنا بيسر الشريعة واتساعها وملاءمتها لمقتضيات الزمان والامرات لا يسعنا انكار ما نجم عن اختراعه من اندثار الاوقاف الاسلامية وانهايار معالمها ، لانه فسح مجالاً لابتداع الحيل التي مهدت السبل لاختلاس الاوقاف وطمس معالمها ، ودرس معاهدها . ولما أدرك أرباب الطمع ان المرصد يملكهم المقار الموقوفة ملكاً باتناً لان لتولي الوقف الرجوع على صاحب المرصد متى أدى اليه دينه على الوقف ، كادوا للاوقاف الاسلامية بحيل ابتدعها بعض منفقة القرن الوسطى ، ما عرفها الشرع ولا عرفته ووضعوا أسماء لهم سموها ما انزل الله بها من سلطان وهي : القيمة . الجدك (الكدك) . الخلو . القميص . الحكر . الاحترام . ويشمل هذه الانواع ما يسمى حق^(١) القرار في البلاد الشامية والكردار

(١) هو غير حق القرار بالاراضي الاميرية المراد به التمتع بحق حرائثها وزرعها .

في بلاد خُوارزم ، وهو غير حق القرار في الارض ، بل يريدون به تجاوزاً الاعيان القائمة سواها كانت متصلة كالجدران والسقف ، ام منفصلة كالآلات والعدد .
وتختلف اسمائها باختلاف ما حلت به من الامكنة ، فان حلت في البساتين والحدائق فاسمها في ديارنا «قيمة» والمراد بها جدران البستان (الدكوك) وما يشتمل عليه من جذور ونجمه .
وبمصطلح العسامة (شروش الفصة ومعجن مشمشه) وبمصطلح العامة (جرن معك مشمش القمر الدين) وقمامته (المزبلة) . وان وجدت في الحمامات فالمراد بها الفرش والاثاث كالسجاد والوزرات والطاسات . وان كانت في الحوانيت فتسمى جدكاً وهو ما يضعه المستأجر متصلاً كالأبواب والرفوف . اما اذا كان منفصلاً كهدد النقا هي وآلات الخلافة فيسمى خلواً او حق السكنى . ويغلب على الظن ان هذا غير الخلو الذي اصطلح عليه متفقهة القطر المصري بل الأرجح انهم يعنون بالخلو ما يدعوه متفقهة الشام بالمرصد ، ويقرب منه ما يدعوه متفقهة بلاد الروم بذي الاجارتين وهو بلا ريب غير الخلو المراد به وضع اليد والقدم .

ثم ان هذه الاعيان اذا كانت في المطاحن فانها تسمى قيصاً ، والمراد به آلات الطحن كالقطب وحجري الرحي ونحو ذلك من آلات الطحن الموقولة . واذا كانت مادة بناء قائم في عرصة موقوفة فتسمى حكرأ . وصورة احتكارها ان يأذن متولي الوقف للمستأجر بالانشاء في العرصة الموقوفة على ان يكون ما بينيه ملكاً له ، بعد ان يؤدي الى المتكلم على الوقف مقداراً معجلاً يسمى خدمة ، ويتعهد باداء مقدار مؤجل يؤدي مسانحة يسمى ديناً مؤجلاً . وان كانت غراساً فتسمى غرسها احتراماً . وصورته ان يأذن المتولي على ارض موقوفة — ماعدا ارض الزراعة — بغرسها لانسان على ان ما يغرسه يكون ملكه او ان يكون البعض ملكه والبعض الآخر ملك جهة الوقف على سبيل التبعية للارض بعد ان يؤدي الى المتكلم على الوقف مقداراً معجلاً يسمى ايضاً خدمة ، ويتعهد بمقدار مؤجل يؤدي مسانحة يسمى ايضاً أجرة او ديناً مؤجلاً — هذا ملخص ما نص عليه المتفقهة المتأخرون .

مصائب الأوقاف } ان غلو الواقفين بالتهافت على الوقف ، واتخاذ الظلمة المتجرين بالدين الوقف دريئة لصيانة اموالهم المغصوبة من المصادرة ، وتخرج أئمة الحرج الذين سماهم بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم المنفقة المنطمعون ، وتشديدهم على الناس او تضيقهم ما وسع الله تعالى على عباده وتساهل منفقة السوء بابتداع حيل الاوقاف لافحام جيوبهم وإشباع بطونهم النهمه التي لا تشبع بالقليل لانهم يأكلون بسبعة اعماء — كل ذلك كان من اعظم البواعث على إضاعة الاوقاف الاسلاميه في قطر الشام ، لان اغراق الاسلاف المتقدمين بالتهافت على الوقف ضيق على الذين يلونهم من الأخلاف المتأخرين سعة الارض الحرة بالحبس عن التصرف بهما او ابتياعا او مقايضة او مقاسمة الى آخر ما هنالك من ضروب التصرف المدني . على حين مبني الشرائع الآهية كما قال ابن القيم على الحكم والمصالح ، وكما ارحمة وحكمة ، ومصلحة وعدل ، وكل قضية خرجت عن الرحمة الى النقمه ، وعن الحكمة الى العبث ، وعن المصلحة الى الفسدة ، وعن العدل الى الظلم ، فليست من الشريعة وان أدخلت فيها بالتأويل . وارى ان كل ما كان كذلك فهو من الشرع المبدل .

أضاع هؤلاء الجامدون حكمة الوقف ومصلحته ، وحالوا دون نمو ريع العقارات الموقوفة كحرصهم على شرط الواقف وصفته ، ولو اقتضت منفعة الوقف التغيير والتبديل . وقد نجم عن التهافت على الوقف غلو في الدين او التجار به ، وعن تشديد المنفقة على الناس ابتداع الحيل التي أودت بالاوقاف ، فطفق الناس يتماكوت العقارات الموقوفة تملكاً محضاً وان ظلت عليه شية من مسحة الوقف باسم الحكر او القيمة او القميص ونحوها من الحيل الكر دارية التي جرأت الظلمة فيما بعد على اختلاس المساجد والمدارس والمقابر مباشرة مع عقاراتها الموقوفة عليها بدون التذرع بهذه الحيل في زمن آثر كثير من ابنائه الدنيا على الدين لفرط جشعهم . فانفجر بركان الجراة على الشريعة لتضيق أئمة الحرج ، وفجر المتأخرون لغلو المتقدمين بالتهافت على الوقف . ولم يجد اختراع مخرج المرصد نفعا لصيانة العقارات الموقوفة . اذ لم نسمع ولم نشهد ان المتكلم على وقف ادى الى صاحب المرصد ما كان له ديناً على رقبة الوقف واسترجعها

الى جهته ، بل نفي الينا عكس ذلك وهو ان أصحاب المراصد كانوا يرشون المتسكين على الاوقاف ليغضوا الطرف عن انتقال العقارات من الوقف المرصد الى الملك الحر ، ويرشون ايضاً مفوضي تمليك العقارات ليسجلوا العقار الموقوف ملكاً صرفاً ، بل ان بعض المتولين انفسهم كانوا يخونون الوقف بائخاذهم مخرج المرصد حيلة ، اذ يتذرعون به بدون اضطرار اليه لتحويل العقار من الوقف المحض الى المرصد ، اتماماً للجيوب ويرشون قضاة سوء ليثبتوا اضطرار الوقف الى الدين والاستدانة .

اوقاف الذرية } قوام الوقف ركنتان وهما الحبس والتأبد ، فحق حبس
الواقف العين عن التملك وأبد الحبس بالتقييد الى جهة
لا تنقطع أصبح الوقف مبرماً وأضحت العين محبوسة شرعاً . ولا يمكن نحريرها من
قيد الوقف ، ورجوعها ملكاً صرفاً كما كانت البتة ، لان الشرع صانها للجهة الموقوفة
عليها من تصرف الانتقال والتملك . ولخوف الوقف من سفه ذريته ، وتبديدها الثروة
من بعده ، او لخوفه من المصادرة او لغير ذلك من الاسباب المختلفة باختلاف النيات ،
لجأ الى الوقف وقيدته بقيود وشروط تلائم رغائبه ، وأبدته بالتقييد الى جهة لا تنقطع
بعد انقراض الذرية لئلا يفقد الوقف احد ركنيه . وما التجأ الواقف الى الوقف
الا التجأ الى كنف الشريعة التي شرعت الوقف وصاهاً باحكامها . وغير خفي ان
حامي حمى الشريعة امام المسلمين المكلف برعاية احكامها ، والنائب عنه من هذه
الوجهة وزارة الاوقاف في العاصمة ودوائرها الفرعية في الأيالات ولحقاقتها . والشريعة
لا ترد اللاجي الى حماها بالطرق الشرعية . ولهذا لم تفرق قواعدها وأحكامها بين
الاوقاف الخيرية والاهلية بالمناعة والصيانة ، فكل من النوعين منيع مصون بنظر
الشريعة . واللاجي الى الشريعة لاجي طبعاً الى المكلف بمجابتها ورعاية احكامها ،
فكان حقاً على امام المسلمين والنائبين عنه من الوجهة الوقية ، صيانة الاوقاف الاهلية
كحرصهم على صيانة الاوقاف الخيرية . فهذه القواعد منشأ سيطرة دوائر الاوقاف
الحكومية على الاوقاف الاهلية المحضة ، ولا سيما ان الوقف الاهلي الصرف يحتمل
ان ينقلب خبيراً محضاً في أقرب وقت ، بانقراض الموقوف عليهم ، لان آل الاهلي

الى الخيري بالمعجل او الآجل ، لتقييد الوقف بالتأيد الى جهة لا تنقطع . وكل ما يعود الى هذه الجهة فهو من الاوقاف الخيرية فحق على ووائر الاوقاف ان تكون في كل آن واقفة بالمرصاد أمام تصرف نظار الاوقاف الاهلية . على ان اغلب من تذرعوا بالوقف الاهلي لصيانة الثروة ، ولا سيما الوزراء وعمال المقاطعات ، كانوا يتبرعون بالاوقاف الخيرية ليوطدوا الادلى بالثانية ، ويهدوا بلولاية على الجميع الى الارشد من ذريتهم . فرعاية لشروط الواقفين لا تنتزع دواوين الاوقاف الولاية من المتولين على الاوقاف الخيرية المتحدة بالولاية على الاهلية ما دام المتولي يؤدي دفتر المحاسبة نقياً من الشوائب . واذا كان الامر كذلك لا يسوغ لديران الاوقاف ان يضبط الوقف بل بذره ملحقاً ، لكن يحق له ان يجبر المتولي ان يؤدي حساباً عن الوقفين الخيري والاهلي لتدخلها وان لم ترفع اليه شكوى من ارباب الاستحقاق .

* * *

الاوقاف في العهد العثماني الاخير } لهذا العهد ثلاثة أدوار الاول دور السلطان عبد الحميد الثاني . الدور الثاني دور اخيه محمد رشاد الخامس . الثالث دور اخيهما وحيد الدين محمد السادس خاتمة ملوك بني عثمان . ولم تكن دوائر الاوقاف في الشام على العهد الحميدي أقل من بقية الدوائر الحكومية من وجهة تحلل الفوضى والاختلاس وقلة النظام والانظمة ، بل كانت أكثر اختلالاً من غيرها لان لها وجهة دينية ذات اتصال بمشايخ الدين الحشوبين او الدجالين الذين هم أبعد الناس عن النظام والانظمة ، فكانت الشؤون الدينية في عهد عبد الحميد مسرح الفوضى لتهاونه بالدين واكتفائه على الجملة بالتمويه بشعاره الصورية ورسومه الرسمية ، وكان أعوانه يبيعون على مسمع ومرأى منه الوظائف الدينية كالقضاء الشرعي والفتيا والتدريس العام والوعظ والإرشاد . ومن جملة ما يبيعون وظيفة مدير الاوقاف التي كانت تكدر وتجذب الجهد في جباية أموال الاوقاف ، لتبعث بها بعد السلب والنهب وانقاسمة الى العاصمة ، فيفيض السلطان من هذه الاموال على الدجالين من مشايخ الطرق وعلماء الرسوم والرتب والارصمة باسم (احسانات او صدقات سلطانية او فدية عن عافية ذاته الملوكة) و يكثر بدبه بالصرف على علماء

الدين العاملين فساءت لذلك حال — أئمة المساجد وخطباء المنابر والسدنة والمؤذنين والواعظين لفرط التقدير عليهم حتى انحصرت هذه الاعمال في البائسين والكسالى والزمنى .

نقسم الاوقاف الى خيرية واهلية . ونقسم الخيرية الى مضبوطة وملحقة ، نناط الاولى بدائرة الاوقاف مباشرة . وتركبت الثانية لنظارتها مع احتفاظ ديوان الاوقاف بالنظارة العامة عليها ، وللدوان حق السيطرة على الاوقاف الاهلية ولا سيما اذا كانت مختلطة بالخيرية . وهي تنقسم الى جليلة وخفية . فالاولى من متعلقات الاوقاف الخيرية المضبوطة ، وهي نفقات ارباب الشعائر الدينية والاختلاس منها تافه جداً بالنسبة الى نفقات تنوير المساجد والمعاهد وابتياح ما يلزم من الاثاث ، وعوايضاً حقير بالنسبة الى ترميمها وترميم الاعيان الموقوفة عليها . واما الانشاء المحدث او المجدد فلم يكن معمولاً في ذلك العهد لان ديوان الاوقاف يجبي الأموال من الشام لتبعث بها الى العاصمة .

وبالجملة لم تكن وسائل الاختلاس الجليلة شيئاً مذكوراً قياساً مع الوسائل الخفية وهي عديدة : اولها ان كثيراً من المساجد والمدارس والزوايات (زوايا مشايخ الطرق الصوفية او المتصوفة) والمعاهد الخيرية كالمستشفيات او مطاعم الفقراء (النكبابا) ونحوها من الأماكن المضبوطة أوقافها ، كانت مهجورة او مقفلة الابواب لكونها في القرى او في أحياء منزوية عن المدينة ، فكان ديوان الاوقاف يحسب عليها جميع ما تحتاج اليه من النفقات أضافاً مضاعفة كما لو كانت عامرة أهلة مفتحة الابواب ، في حين انها لا تنفق عليها شيئاً سوى مقدار زهيد لقاء تطبيق المعاملة على الاصول المرعية الاجراء ، بالحصول على وثائق وصول النفقات الى البائسين المستعارين الذين يستعيرهم الديوان مقابل توقييع الوقائع والاسناد الكاذبة . والوسيلة الثانية أشد خفاءً من الاولى ، وهي مواطأة دائرة الاوقاف مع نظار الاوقاف الملحقة الغزيرة الربيع على اكل أوقاف المسلمين الكثيرة العدد وهي مما حبسه السراة والامراء والوزراء الاسبقون على ذرارهم ، وعلى المعاهد الخيرية والمعابد ، وجعلوا الولاية عليها في الارشاد على ذريتهم . وذلك ان هؤلاء النظار نظار الاوقاف الخيرية الملحقة كانوا يتقاضون أعشار القرى المضبوطة الوقف من الخزانة العامة باسم الاوقاف الاهلية والخيرية ، على حين درس جل بل كل المدارس والمساجد وأصبحت اسماء لامسيات لها ، درست

وانقلبت حوائيت وفنادق ودوراً وقصوراً ، وسجلات في سجلات التملك ملكاً حراً لهؤلاء النظار المختلسين ، ثم انتقلت لورثتهم ولمن ابتاعها منهم . وكانوا يتقاضون أموال العشر الخاصة لهذه المعاهد ، ويدرجون بكل فحة وجرة مبلغاً وافراً باسم النفقة على ثوبها وترميمها وفرشها وإقامة شعائرها ، ثم يتقاضى ديوان الاوقاف عن محاولة النظار تحويل الاعيان الجارية بملك الوقف الى مرصد ار كردار بدون سبب قوي ثم اغضاه هذا الديوان عن تحويل الاعيان الموقوفة من الوقف المحض او المرصد الكردي الى الملك الصرف ، ثم تسجيل المقارنات الموقوفة على المعابد والمدارس ملكاً صرفاً للنظار المختلسين الى غير ذلك من انواع المواطآت بين ديوان الاوقاف والنظار عليها ، وكلها ترجع الى اختلاس الربع وتغيير الاعيان الموقوفة . وكان ديوان الاوقاف يكتب من حين الى آخر الى وزارة الاوقاف في العاصمة بأنه ضبط مدرسة كان بعض الأشرار اتخذها سكناً فأرجعها معبداً تقام فيه الشعائر والصلوات والاوراد والاذكار والأدعية للخليفة الخ .

اما القلب وأعني به مجلس إدارة الاوقاف الاعلى فقد كان على جانب عظيم على الضعف ، وفقاً لمقتضيات العهد الحميدي التي يرومها عباد المنافع الخاصة واعداء المصالح العامة . واذا كان القلب الذي هو مصدر الحياة ضعيفاً بنعفن حجبرانه المنبعث عن تغلب الجرائم الذريعة الفتك ، فكيف تكون حالة شرايين الجثمان وأعضائه ودورة دمه . لا ريب انها تكون كحال هيكل ديوان الاوقاف وإدارتها ، مادام أعضاؤها عاطلين من الاهلية علماً وخلقاً ، ولا كثرة علائق بوقف خيري او اهلي ، مما هو مخالف للقانون . فهم لا علم ولا نزاهة ولا غير . اما نظار الاوقاف الاقوياء بالمجد الكاذب ، فقد كانوا يتصرفون تصرف الملاك بالاعيان الموقوفة الربع على المعاهد الدينية والخيرية وعلى ذرية الواقفين فضلاً عما يختلسونه من المدارس وأفنية المساجد يتخذون جميع ذلك دوراً وحوائيت وحدائق وينقلونها في سجلات التملك من الوقف المحض الى الملك الصرف . واذا طالب بعض ارباب الغيرة باعادة الاوقاف الى حالها وإجراء امورها على حقيقتها تقام عليهم الدعاوى المزورة ، ونصب لم المكاييد واشراك الانتقام . وكأن لسان حال ديوان الاوقاف ومجلس إدارتها ورئيسه يقول لنظار الاوقاف

المختلسين (سكتنا عنكم لتسكتوا عنا) لات جميعهم باستنزاف الاموال وصحى الضعفاء سواء .

ولقد انتظم ديوان أوقاف الشام في الجملة بعد إعلان القانون الاساسي (١٩٠٨ م) وتسرب اليها شيء من الإصلاح بفضل الخطط التي رسمها وزير الاوقاف العثمانية العربي خليل حمادة باشا ، ولناقص النهب والاختلاس بالنسبة الى العهد المنصرم ، غير ان معاهد البلاد ومعابدها لم تنل حظاً من زيادة الواردات ، لانها كانت تنفذ الى العاصمة فتنفق كغيرها من واردات أوقاف الايالات العثمانية كإنشاء فنادق كبرى للوقف في الاستانة . وظلت قوانين الاوقاف كما كانت في عهد السلطان عبد الحميد حبراً على ورق . ومما يسجل من أعمال الدولة في الحرب العالمية انها انتهكت الحرمات باسم الجهاد المقدس وذلك باتخاذ المعابد وفي مقدمتها الحرم النبوي الشريف ، والمدارس والمعاهد الخيرية وملاجي الاسعاف العام ثكنات لماوى الجنود واصطبلات لربط الخيول ، وحبس الانعام ، ومستودعات لادخار أنواع الذخيرة وضروب الميرة . ولما انجلى الترك آخر الحرب الكبرى عن ربوع الشام ، أثاروا على سجلات الاوقاف ووثائقها وأوراقها الخطيرة ونقودها كما أثاروا على وثائق اغلب الدواوين وسجلاتها ونهبوا نقودها وفي عدادها اموال اليتامى وامانات المصارف الزراعية فأصبحت دواوين الاوقاف من اجل هذا بمصيبة عظيمة .

الاقواف بعد العهد التركي } وفي عهد الحكومة العربية الفيصلية ألف
والى اليوم } ديوان الاوقاف تأليفاً جديداً ، ولم تلبث
ان فاضت واردات الاوقاف عن نفقاتها لات البالغ الباعظة التي كانت ترسل الى العاصمة التركية ظلت في خزانة الدائرة التي شرعت توسع على ارباب الشعائر وتحدث كثيراً من الوظائف . واخذت ترمم المساجد والمدارس والاعيان الموقوفة ونقشي المعاهد كالمدرسة السيمساطية بدمشق التي نقضت من أساسها وأنشئت خلقة جديدة — ومثل ذلك الإصلاح الذي تم في ترميم الاعيان الموقوفة او إنشاء الجديد منها في حلب وغيرها — حتى اذا تقلص ظل سلطان الملك فيصل واحتلت الجيوش

الفرنسية داخلية بلاد الشام أصيب ديوان الاوقاف بتبليبل مالي ، وذلك لاستبدال الورقة السورية بالمصرية ، واتخاذ القرش السوري محور التعامل وحظر التبادل بالقردين الذهب والفضة قبضاً وصرفاً ، في حين ان الورقة السورية كميزان الحرارة لاثبتت على حالة واحدة في اليوم الواحد ، فارتبكت معاملات دواوين الاوقاف بهذا التبليبل وزاد في نضوب خزائنها على الرغم مما زاده القائمون بادارة شؤونها من زيادة الضمان الفاحشة على الديون المؤجلة .

وقضت إرادة المفوض السامي الاول الجنرال غورو ان يتدخل المندوبون في الشؤون الاسلامية المحضة وذلك بالاشراف على اوقاف المسلمين دون اوقاف اليهود والنصارى ، في حين ان الدولة العثمانية الاسلامية لم ت تدخل بشؤون اوقاف اليهود والنصارى المنضوين تحت لوائها سواء أكان ذلك إبان قوتها ، ام ايام ضعفها ، وتركّت إدارتها الى المجالس الطائفية كما ان الدولة البريطانية لم ت تدخل في مصر بشؤون الاوقاف الاسلامية فاستثنت وزارة الاوقاف المصرية من سيطرة الاستشارة وسلطة المستشارين وتركتهما مناطة بشخص عزيز مصر مباشرة .

وقد نهجت ايضاً هذا النهج في فلسطين فتركّت إدارة اوقاف المسلمين وجميع شؤونها الدينية كتنفيذ القضاء الشرعي والفتيا والوعظ والإرشاد والخطابة والامامة الى مجلس ينتخب اعضاءه المسلمون يدعى بالمجلس الاسلامي الاعلى . اما في البلاد المشمولة بالانداب الفرنسي فقد أنشئت المراقبة العامة على شكل مبتدع بين الاشكال الحكومية ، ووضع غريب غير معهود بين الأوضاع الإدارية . وكذلك يقال في مجلس الاوقاف الاسلامية التي قضت بتأليفه ففصلت بذلك دواوين الاوقاف الاسلامية عن الحكومات المسلمة الأهلية ، ووصلتها مباشرة بالمفوضية العليا ، وجعلت لها مستشاراً غير مسلم يتصرف في شؤنها الإدارية والمالية بسلطة واسعة . وكان من إحداث مراقبة الاوقاف إرهاب خزائنها بالرواتب المستحدثة العظيمة ، ولم تأت بعمل بذكر مجازاة لمقنضيات العمران والترقي الحديث استناداً الى قواعد الشرع العامة التي يحظرون الاستنباط منها ، ذلك لان معظم اعضاء مجلس الاوقاف من اعداء التجدد وعشاق الاحتفاظ بالقديم وإبقائه على قدمه ، فقد نقضوا قرار مجلس رئاسة العلماء

المنطوي على ضرورة التذرع باستبدال المساجد الخربة التي لم تعد صالحة للإقامة.
الصلوات مع استناده الى مذهب الامام ابن حنبل بالشروط المنصوص عليها

وسائل اصلاح الاوقاف } ضيق بعض منقبة القرون الوسطى دائرة
الشريعة الواسعة ، وقلبوا يسرها عسرا ،
ومرونتها صلابة ، وصوروها عقبة كؤوداً في سبيل الارتقاء والعمران ، بما ابتدعوه
من القيود المنبثقة عن الجمود ، وبما أقاموه من السدود المنيعة دون دخول منافذ ينابيع
العلم ، وما سدوه من الحجب الكثيفة على نوافذ نور العقل . كما ان فريقاً منهم
احتالوا على الشريعة فاختلقوا باسمها حيلاً نقلوها رأساً على عقب ، انقياداً لاهواء
العلماء والاغنياء بسائق الجشع وحب الجاه ، وافتاتوا على دين الفطرة بمجشواو دس
ما ننبو عنه حكمته واصوله وفروعه التي ترمي جميعها الى السعادة البشرية في الدارين .
فقد قيد المنطعون بالتحريف والتشديد الوقف بقيود وشروط وحدود ، حالت دون
ارتقاء الاوقاف وعمرانها ونمو ثروتها ، وقضت على حكمة الوقف وإرادة الواقفين ، كما
ابتدع المحتالون حيلاً نجم عنها ضياع الاوقاف كالمصد وضروب الكردار حتى آل
حال الاوقاف الى ما آل من المصير الفاجع .

وبعد فالواجب الآن على اهل الحل والعقد تأليف لجنة مختلطة من علماء الشريعة
المجددين وعلماء الحقوق والإدارة والاقتصاد ، ليدون اعضاؤها مجموعة لاحكام الاوقاف
الشرعية على نسق جديد ، مغترفين من بحر الشريعة المحيط ، ومن كل مذهب من
مذاهب الائمة المجتهدين ، ما هو أصح وأضمن لسعادة الاوقاف وارتقائها وإثرائها
وصيانتها من عبث العابثين ، واعتداء المعتدين ، وجمود الجامدين ، وما هو أكثر ملاءمة
لروح الزمان ، ومقتضيات العمران ، وفقاً لما يرمي اليه الشرع وقواعده العامة من ارتقاء
الأصلح وترجيح الأحسن .

ثم ان المحقق بالشعائر الدينية نوعان وهما التدريس الخاص بالمدارس الدينية ،
والإرشاد الدقيق في الزوايا الصوفية . اما الاول فهو تعليم العلماء تلامذتهم العلوم
الدينية ووسائلها ، وجل هؤلاء ان لم نقل كلهم متبرعون فلا تعلق والحال هذه

لدواوين الاوقاف بهم . وانما التذرع باصلاح أساليب تعليمهم واستئصال الفوضى الضاربة أطنابها في هذه المدارس وهذا شأن من يتولى شؤون العلوم الدينية كرئيس العلماء او شيخ الاسلام مثلاً . اما اذا وجدت وظيفة تدريس خاص باحد العلوم في احدى المدارس باجر رتبة الواقف ، وكان صاحب هذه الوظيفة يتقاضى الراتب من خزانة الاوقاف ، فان للدائرة حق النظر فاذا كان صاحب الوظيفة غير قائم بها لعدم اهليته فانه يعزل ، وان كان غير قائم بها كسلاً فانه ينذر . اما النوع الثاني وهو الارشاد الدقيق فقد أجذبت الزوايا الصوفية من التصوف بمعناه الصحيح ، وأفقرت من المرشدين الكاملين والمريدين الصادقين ، وأضحت مقر المشايخ الدجالين المعطلين ، والمريدين الكسالى المعطلين . فأمثال هؤلاء يجب طردهم من الزوايا التي لم ينشئها الواقفون ليأوي اليها الضالون المضلون باسم التصوف والطرق الصوفية ، واذا كان لهم اوقاف يجب تحويلها الى مصارف البر والاحسان والاسعاف العام .

أشرنا الى ما انتاب الاعيان الموقوفة من الدرس والطمس والاختلاس سواء كانت معابد ام مدارس ام مقابر ام ملاجئ اسعاف ام عقارات موقوفة الربيع . وهذا النوع الاخير أضفى من المنعسر ان لم نقل من المنعذر انقاده من الاختلاس بعد مرور الزمن وعدم دلالة الظاهر عليه كدار كانت جارية بملك الوقف ، ثم لعبت بها الايدي ، فانتقلت من ملك الوقف الصرف الى ملك مخلصها المعتدي الاثيم . اما اذا لم يمض عليها مرور الزمن ، وكانت معلومة الحدود والبقعة ، فيجب حتماً على دواوين الاوقاف إقامة الدعوى على المخلص او ورثته ، كما يجب عليها التقيب على ما كان من هذا القبيل . والمرجع في الاهتداء هو سجلات المحاكم الشرعية وكتب الواقفين . والواجب على دواوين الاوقاف الابعاز الى نظار الاوقاف الأهلية والخيرية الملحقة بابرار كتب الواقفين فيما اذا لم يعثر عليها بين سجلات المحاكم الشرعية وانذارهم بوضع اليد على الوقف اذا أبطأوا بالابراز . اما النوع الاول فهو أسهل انقاداً من العقارات الموقوفة الربيع ، لان ما اختلس من نحو المساجد او المدارس او المقابر وانقلب حوانيت ماو دوراً او حدائق او غير ذلك وأضفى ملكاً صرفاً للمختلسين او ورثتهم او المتباعين منهم مضمومة ، لتبديل شكل المدرسة مثلاً بعد اختلاسها وطمس معالمها ، فان كانت

آثارها لا تزال قائمة كالقباب والقبور والمحاريب فعلي دائرة الاوقاف التذرع بالوسائل القانونية لانه نفاذها من المختلسين ، وان تبدل شكلها ومحى رسمها ، وجهلت حدودها ، ومضى عليها مرور الزمن ، وانقطع الامل من إرجاعها فهي برقة مختلسيها . ومصباح الهداية المنير الى المعابد والمعاهد المختلسة والمدارس الدارسة والمقابر المندرسه ، هو كتب توارىخ المدن الشامية والرسائل والاسفار الموضوعة في الخطط والآثار .

وما دعا الى هذا العبث باعيان الاوقاف وربعها الا فقدان وازع بزغ القائلين بهم ، او مؤثر أدبي يردعهم ، او رأي عام يكبح جماحهم ، او مؤاخذة حكومة تضرب على أيديهم . ولم نسمع ولم نشهد في ربوعنا ان ناظر وقف خائن مختلس عوقب بسجن او تعزير وتشهير او بتضمين ومصادرة ، بل جل ما شهدناه في عصرنا الحاضر ان الناظر الضعيف اذا ظهر اثناء محاسبته أدنى شبهة او خيانة ينحى عن العمل ويساق الى المحكمة الشرعية ، وهي اما ان تحكم بعزله ، واما ان تبرئ ساحته وهو الأغلب ، لان مؤثرات الشفاعة والحنان ونحوهما تعمل عملها . واما الناظر القوي فلا يسأل عما يفعل . وربما أعين على ظلمه وخيائنه واختلاسه مع التجبيل والتوقيير ! .

واذا كتب لدواوين الاوقاف حظ من التجدد والاصلاح فالواجب ان تشرع بمحاسبة الناظر ، لنناقشهم الحساب ، فتبدأ بالاقياء منهم ، وتغالب عليهم ، وتكرهمهم على إبراز كتاب الواقف الاصلي المسجل بحكم الحاكم الخالي من شائبات التخريف والتبديل ، الخالي بتوقيع او خاتم القاضي الحاكم بصحته ، فيما اذا فقدت سجلاته ، وان لا تعتبر الصورة المنقولة عن اصله لانها عرضة للتخريف والتبديل كما يقع ذلك من النظر الخائنين . واذا ابرز الناظر على وقف كتاب الوقف الاصلي يهثر ديوان الاوقاف في الأغلب على موارد اموال غزيرة مختلسة ، وعلى مساجد ومعاهد دارسة ومدارس مندرسه ، كما يعثر عرضاً وانفاقاً من يحفر بئر ماء على كنز ثمين او ركاز دفين ، واذا امتنع الناظر من إظهار كتاب الوقف يستفيد ديوان الاوقاف من اعتبار الوقف من قبيل ما انقطع ثبوته ، واشتبهت مصارفه ، وجهلت شرائطه ، لعدم وجوده في سجلات القضاة ، وما كان كذلك يتحول الى الاسعاف العام ما لم يبرهن المرتزقة على استحقاقهم باثبات الوقف وشروط الواقف ونسبتهم اليه او الى الطائفة الموقوف عليها .

وارى ان تخلي المفوضية العليا في بلاد الانتداب الفرنسي من التدخل باوقاف المسلمين بواسطة مستشارها الفرنسي المستمد منها نفوذه مباشرة ، فانه لا فرق بين هذا التدخل وبين التدخل بشؤون الصلاة والزكاة والصيام والحج لان الولاية على الاوقاف الخيرية ولا سيما الدينية المحضة هي من القضايا الشرعية الصرفة ، فلا فرق والحال هذه في الحظر بين إمامة النصراني المسلمين بالصلاة ، وبين ولايته على اوقاف مساجدهم ومعاييدهم . وهذا الحظر غير محصور على الاسلام بل هو من ضرورات جميع الديانات فان النصرانية مثلاً تحظر ان يتعاطى اُحبار المسلمين ومشايخهم ما يتعاطاه أساقفة النصارى وقسيسوهم من التعميد والتكليل والتكريس والحرمان والغفران ، كما تحظر ولاية المسلمين الموحدين على أوقاف كنائس النصارى المثلثين وأديارهم . وهذا سر إجماع الدولة العثمانية المسلمة عن التدخل باوقاف اليهود والنصارى من رعاياها وتركها ادارة أوقافهم والولاية عليها لمجالسهم الطائفية . فالواجب على حكومة الجمهورية الافرنسية الفخمة ان تترك المسلمين في هذه الديار طلقاء التصرف في أوقافهم ونقتصر عنايتهم على الإرشاد في الشؤون المدنية .

ولا أجنح بته الى رأي من يقول بالغاء دواوين الاوقاف الحكومية وإيئادة الولاية على الاوقاف الاسلامية بمجلس اسلامي أهلي ينتخبه الاهلون على منوال مجلس أوقاف فلسطين ، لان المجالس الاهلية مهما بلغت من النظام والانظام لا تضارع دواوين الحكومة المسؤولة والمواخذة قانوناً على الكبيرة والصغيرة . وليسع الشام مايسع مصر والعراق . ومن رأيي ان تربط ادارة الاوقاف بالحكومات المحلية ويجعل لها ديوان خاص يعد في جملة دواوينها . اما أوقاف فلسطين فقد قضت الضرورة إيئادة إدارتها بالمجلس الاسلامي الأهلي . لان البلاد محكومة حكماً مباشراً ، بيد انه قد نشأ من إنشاء هذا المجلس من الشقاق والتخاذل بين الفلسطينيين ما انقسم الناس في الحكم عليه الى مادح وقادح بدافع المؤثرات الحزبية المتضاربة . اما شرقي الأردن او حكومة الشرقي العربي فانها مليئة باوقافها التي انتابها ما انتاب أوقاف بقية الأقاليم من الاختلاس في القرون المظلمة ، وامل الحكومة تؤسس فيها ديوان أوقاف يشرف على ما في صقعها من معاهد وقف ووقوف محبوسة الربع اه .

الحسبة والمديريات



العرب دعاة مدنية } لم تقصر العرب في شأن من شؤون المدنية بالنسبة
لأعصارهم ، فاستنبطوا بعقولهم ، وطبقوا على
شعر يعتهم ، كل ما يعلي أمرهم ، ويدفع عادية الفوضى عن مجتمعهم . وكما ارتقت
حضارة الغرب ، وتوفر العاملون من أبنائه اليوم على استخراج دفائن هذه المدنية
العربية الاسلامية ، نتجلى لنا أمور ما كنا نحن أصحاب تلك المدنية نعلمها ونعمل بها من
قبل . انتقلت المدنية الى العرب من الفرس واليونان والهند . ولكن جاء الاسلام
بما فيه من العوامل القوية ، والنظام المدني البديع الذي استخرجه اهل الصدر الاول
من روح الكتاب والسنة ، باكمل مدنية عرفها البشر اذ ذاك ، وما نظنه معها ارتقى
في الأزمان التالية يخرج عن حدتها كثيراً . ونظام العقل نظامه في كل
دور وطور .

لم يترك العرب باباً من أبواب المدنية الا طرقوه ، ولا علماً من علوم الصناعات
الا برزوا فيه وعانوه . ولقد تجلت مدينتهم باجلى مظاهرها في فارس والعراق ومصر
والشام والاندلس أكثر من غيرها من الاقطار التي هذبها الاسلام ، وكانت العرب
أساتذة أبنائها . والغالب ان قيام دول عظمى اسلامية في تلك الاقطار ، على أسس
مدنيات قديمة كان من أول الدواعي الى تجويد مدينتهم ، ورفع شأنها بين الأمم
على اختلاف القرون والاعصار ، واللاقليم وطبيعته دخل كبير في تثقيف العقول ،
ونبذ الجمود ومنايذة الجمول ، ونعوى القوائح الابداع والاختراع .

ضاعت او كادت وآ آسفاه أوضاع مديننا القديمة ومشخصاتها ، لان العرب تمزقوا
ونفروا بعد استيلاء أناس من الفاتحين على بلادهم ، كانوا دونهم في سلامة الذوق
وجودة الفطرة ، فأفسدوا أخلاقهم بما حملوه اليهم من عاداتهم ونقاليدهم المختلفة ، حتى
أوصلوهم الى درجة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد علي باشا في مصر
وخير الدين باشا في تونس ومدحت في الشام والعراق لاضمحل عمرانهم وباد سلطانهم
الافليلاً .

تعريف الحسبة } وبعد فان الناظر في اصول الحسبة في الحكومات
الاسلامية السالفة ، يعلم ان أجدادنا هيأوا لمذنبهم
ومسكانها جميع ضروب الراحة والهناء ، وحاولوا ان يبعدوا عنها ما أمكن الجور والشقاء .
والحسبة بالكسر الاجر وهو اسم من الاحتساب اي احتساب الاجر على الله ، نقول
فعلته حسبة وأحتسب فيه احتساباً ، والاحتساب طلب الأجر . وكانت الحسبة
وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم
بامور المسلمين ، يعين لذلك من يراه أهلاً له ، فيتمعين فرضه عليه ، ويتخذ الأعوان
على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على
المصالح العامة في المدينة ، مثل المنع من المضايقة في الطرقات ، ومنع الخمارين واهل
السفن من الاكثار في الحمل ، والحكم على اهل المباني المتداعية بهدمها ، وإزالة ما يتوقع
من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدي المعلمين في الكتاتيب وغيرها ، من الايبلاغ
في ضربهم للصبيان المتعلمين - قاله ابن خلدون .

وقال ابن تيمية : وبنو آدم لا يعيشون الا باجتماع بعضهم مع بعض ، واذا اجتمع
اثنان فصاعداً فلا بد ان يكون بينهما ائثار باس ، وثناء عن امر ، واولوا الامر أصحاب
الامر ، وذوو القدرة واهل العلم والكلام . فلهذا كانت اولوا الامر صنفين العلماء
والامراء ، فاذا صلحوا صلح الناس ، واذا فسدوا فسد الناس . كما قال ابو بكر
الصديق رضي الله عنه للاحمسية لما سأله ما بقاؤنا على هذا الامر قال : ما استقامت

لكم أئمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمشايخ واهل الديوان وكل من كان متبوعاً فانه من اولي الامر .

وقال ابن الأخوة : الحسبة من قواعد الامور الدينية ، وقد كان أئمة الصدر الاول يباشرونها بانفسهم لعموم صلاحها ، وجزيل ثوابها ، وهي امر بالمعروف اذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله ، واصلاح بين الناس ، والمحتسب من نصبه الامام او نائبه للنظر في أحوال الرعية ، والكشف عن امورهم ومصالحهم ، وبإيعازهم ومأكلهم ومشربهم وملبوسهم ومساكنهم وطرفاتهم ، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

وكانت الحسبة (المقنيس م ٣ ص ٥٣٧ و ٦٠٩) في الحكومات العربية وحكومات الطوائف ضرباً من ضروب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يكون من تسند اليه الا من وجوه المسلمين ، وأعيان المعدلين ، ولا يحال بين المحتسب وبين مصلحة اذا رآها ، والولاية تشد معه اذا احتاج الى ذلك . وقد قسمت الحسبة الى ثلاثة أقسام : احدها ما يتعلق بحقوق الله تعالى ، والثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين ، والثالث ما يكون مشتركاً بينهما . ويمكن ان تقسم الحسبة الى دينية ومدنية ، فالدينية منها بطل من بلاد الاسلام منذ أصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات . والمدنية أستعيض عنها في القرن الماضي في البلاد العثمانية بالمجالس البلدية ، وبقيت الحسبة معروفة في مصر الى أواسط القرن الثالث عشر . ومصر آخر ما اضمحل من أقطار العرب وادل من نهض .

الحسبة تجمع الشرطة	}	فالحسبة والحالة هذه أشبه بديوان الشرطة
والصحة والبلدية وعملها		والصحة والبلديات لعهدنا ، وكان المحتسب

او صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المنكرة في الدين ، ويجازي عليها في الحال ، فينكر ما يجده مثلاً من المنكرات في الأسواق ، ويشدد على السوق والباعة في صحة القناطر والأرطال والمثاقيل والدرام والموازين والمكاييل والأذرع ، ويجري قواعد الحسبة على الطحانين والعلافين والفرانين والخبازين والشوائين

والنقائيقين^(١) والكبوديين والبواريين والجزاريين والرواسيين والطباخين والشرابيحيين
والهراسيين وقلائي السمك والزلايسة والحلاويين والشرابييين والعطارين والشياعيين
واللبانيين والبزازيين والدلالين والحاككة والخياطيين والرفائيين والقصارين والحريرييين
والصباغيين والقطانيين والكتانيين والصيارف والصاغة والنحاسيين والحدادين والاساكفة
والبيطرة ومماسة العبيد والجواري والدواب والدور والحمامات والسداريين^(٢)
والفصادين والحجاميين والاطباء والكحاليين والمجبريين ومؤدبي الصبيان والقومة والمؤذنين
والوعاظ والمنجمين وعلى أصحاب السفن والمراكب وباعة قدور الخزف والكيزان
والفاخرانيين والغضاريين^(٣) والاباريين والمسلائين والمرادنيين^(٤) والحنساويين
والامشاطيين وعلى معاصر السيرج والزيت الحار والغرابيين والديباغيين والبططيين^(٥)
واللبوديين والحصريين والتبانيين والخشابين والقشاشيين والتجارين والنشاريين والبنائيين
الى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات ، وتدليس ارباب الصناعات والبياعات .

* * *

الحسبة قانون مدني } وكانوا يختصون المحتسب بالنظر في امور احداها
ايراقه الخمر كلها وكسر المعازف وايرصلاح
الشوارع ، وذلك باب كبير فيه مسائل احداها امر الميزاب والاوحال والارداغ
والدكانجة (?) على الباب ، ومنع جلوس الباعة عليها ، ومنع سوق الحمر والبقر للخشابين
والآجر بين ونحوهم ، ومنع ربط الناس دوابهم فيها ، ومنع عمارة الحيطان في شيء
من الشوارع ، ومنع شغل هواء الشوارع بالجناح ويسى (بروت دشت) ، ومنع

(١) النقائقيوت هم الذين يعملون النقائقي اتي المصير المحشو باللحم والقلوب .
(٢) السدارون الذين يطحنون السدر وهو من المطهرات كالصابون اذا غش يضر ولا
ينفع . (٣) الفاخرانيون والغضاريون وهم الذين يصنعون الصحف (الزبادي او
السلطانيات) . (٤) المرادنيون الذين يعملون المرادن ، آلات الغزل القديمة ، تعمل
من خشب السامم او من السنط الاحمر . والمسلائيون صناعات المسلات . (٥) البططيون
كانها نسبة الى بطة والجمع بطط وبطة الدهن قارورته .

المبرز في الجوار ، بحيث تكون ازالة النجاسة منه بالوقوف في الشارع ، ومنع الظلة الى غير ذلك من المصالح ، مثل النظر بين الجيران في التصرفات المضرة ، كالنظر وسد الضوء الا فيما يرجع الى الملك ، كغصب قطعة من الارض ، ومنع اسبال الازار ونحوه على الكعابين ، وزجر الرجال عن التشبه بالنساء ، ومنع النساء عن التشبه بالرجال .

وامر النبولين^(١) بطهارة مائهم ولقمة ثورتهم عن الحصاة ، ومنع الناس عن تطهير الحمام ، ومنع البغايا وتعزيرهن ، ومنع أوليائهن ومواليهن وأزواجهن ، وامر غير المسلمين بتطهير الأواني التي يبيعون فيها المائعات كالدهن والابن ، وامر الفساليين باقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى ، وحفر القبور والحمل ، وزجرهم عن الغلاء في اخذ الاجرة ، ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الامور ، وتفحص الجامع يوم الجمعة ، والمصلي يوم العيدين ، وإخلاؤهما عن البيع والشراء ، ومنع الفقراء عن التخطي ، ومنع القصاص عن القصص المفتراء ، ومنع النساء السائلات عن الدخول في المصلى ، ومنع الصبيان والمجانين منه ، ودفع الحيوانات المؤذية عن العمرات كالكلاب العقور ، والنهي عن النجس والامر بالتنظيف ، ومنع الناس عن الوقوف في مواضع التهم كتحديث الرجال مع النساء في الشوارع ، ومنع النقاشين والصباغين والصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح^(٢) وكبر الصور ، ومنع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الأصنام والمعازف والصنج وبيع النبيذ والبخنج^(٣) .

ومنع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة ، وخروج الناس الى زيارة بعض المتبركين او بعض المساجد ، على مشابهة الخروج الى الحج ، ومنع النساء عن التبرج والتفرج بالخروج الى النظارات وزيارة القبور ، ومنع الناس عن التصرفات في المقابر بلا ملك ،

(١) التامول التانبول ضرب من اليقطين الهندي طعم ورقه كالقرنفل يمضغونه بقليل من كلس وهو مشه مطرب باهي مقوٍ للثة والمعدة والكبد وهو خمر الهند يمازج العقل قليلاً . والنبولي بائع التنبيل . ولكن لا معنى للنورة مع التنبول . (٢) المنهي عنه الصور المجسمة للتعظيم اما الصور النصفية فلا مانع منها . (٣) البخنج كقنفذ عصير مطبوخ واصله بالفارسية مبيخته .

ومنع المطلسة والسحار والكهان عن بدعهم ، ونهي أصحاب الحمامات عن منكراتهم ،
بتطهير المياه وإخلاء الحمام عن الرد ودخول العراة فيه ، وأمرهم باتخاذ الحجب بين
الرجال والنساء ، ومنع الناس عن تعلم علم التنجيم مما لا يحتاج اليه في الدين ، وتصديق
الناس الكهان والتنجمين ، ومنع الناس عن بدعة ليلة البراءة ، ومنع الناس اللعابين
بالنرد والشطرنج ، وتفريق جمعهم واخذ بساطهم وتماثيلهم ، ومنع القوابل عن إسقاط
جنين الحوامل ، ومنع الجراحين عن الجب والخصاء في الناس ، ومنع الناس من
الإقامة في المساجد ووضع الأمتعة فيها ، ومنع الذي أصابه اللأم عن التكلم بالغيب ،
 واجتماع الناس عنده زاعمين انه صادق في إخباره بالغيب ، ومنع الخطاط ومعلم القرآن
ومعلم النحو بأجر عن الجلوس في المساجد ، ومنع المعلم عن اخذ شيء باسم النيروز
والمهرجان ، وينذر المحتسب معلمي الكتائب ان لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا في
مقتل ، وكذلك معلمو العلوم بتحذيرهم من التفرير باولاد الناس ، ويقفون من كان سيئ
المعاملة فينهونه بالردع والأدب .

* * *

عمل المحتسب } وكانت وظائف المحتسب تزيد وتقص بحسب البلد ،
بحسب البلد } ولا يعدو عمل المحتسب الامور المشتركة بين اهل كل
مجتمع . فالمحتسب في بيروت يقضى عليه ان ينظر في امور لا ينظر فيها محتسب دمشق
مثلاً . ففي بيروت يُعنى المحتسب بالاحتساب على السماكين والملح والصير والبوري
وقلائي السمك والطيور وصياديهما ، ونجاري المراكب وتقديرات المراكب . وجميع
المدن مشتركة مثلاً في الحسبة على الصيادلة والعقاقير والأشربة والمعاجين والقلانسجين
والخوازين وصناع الشراك والأساكفة وصناع الخفاف وصناعة السرايات والزفاتين
والنحاتين والدهانين وغشهم والكمكارين وغشهم وكساحي السماد وحمالته والغراييل
ومناخل الشعر والوراقين والمبهرجين ، وفيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع
والدروج وكتاب الشروط ، والولاة والقضاة وتدليسهم ، والميازيب ومضرتها والمراصد
والمراقب وطباخي الولاثم والحامل وصناعها والروايا والقرب الى غير ذلك مما كان
يستدعيه مجتمعهم ودينهم وعاداتهم ومدنيتهم .

وذكر السبكي ان على المحتسب النظر في القوت وكف غمة المسلمين فيما تدعو حاجتهم اليه من ذلك والاحتراز في المشروب ، فلطالما اؤهم الخملوا انه فقاعي او اقسماوي^(١) والمالول ، وطلالما اؤهم الطباخ ان لم الكلاب لحم ضأن فليتنق الله ربه ولا يكن شيء في إدخال جوف المؤمنين ما كرهه الله لهم من الخبائث ، ويحرم عليه التسعير في كل وقت على الصحيح ، وقيل يجوز في زمن الغلاء وقيل يجوز اذا لم يكن مجلوباً ، بل كان يزرع في البلد وكان عند الشتاء . واذا سعر الإمام انقاد الرعية لحكمه ، ومن خالفه استحق التعزير . ومن مهات المحتسب ولا سيما في بلاد الشام امران ارتباطا به احدهما النقود من الذهب والفضة المضروبين . ولا يخفى ان في زغلها هلاك أموال البشر فعليه اعتبار العيار في محك النظر والنثبت في سكة المسلمين ، وثانيها المياه فعليه الاحتراز في سيقاها وقد جرت عادة أناس في الشام ان يشتري بعضهم قدراً معلوماً من نهر ثورا و باناس مثلاً ويتحيل لصحته بان يورد العقد على مقره بما له فيه من حق الماء وهو كذا أصبعاً ، ثم يسوقه ويحمله على مياه الناس يرضي طائفة يسيرة منهم . وكان الشيخ الامام رحمه الله يشدد النكير في هذا وله كتاب فيه سماه (الكلام على أنهار دمشق) . والحاصل ان الخلق في أنهار دمشق سواء يقدم الاعلا منهم فالاعلا ولا يجوز بيع شيء من الماء ولا مقره ولا يفيد رضى القوم ولا كلهم لانهم لا يملكون الا الانتفاع ، بل ولا رضى اهل الشام بحملتهم لان رضاهم لا يكون رضا من بعدهم من يحدث من الخلق اه .

ثلاثة آراء في الحسبة
 } وليس هذا كل ما يُطلب من المحتسب فقد كان يطلب
 منه ان يسيطر على العقول ايضاً . ذكر ابن الاثير في
 المثل السائر من تقليد أنشاء لمنصب الحسبة : واعلم ان الناس قد أماتوا سنناً
 وأحيوا بدعاً ، ونفروا فيما أحدثوه من المحدثات شيعاً ، وأظلم منهم من أقرم على أمرهم ،
 ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ، فان السكوت عن البدعة رضا بمكانها ، وترك النهي عنها

(١) الاقسماوي بائع السويق او المثلجات ولم نعرف المالول .

كلاماً باتيانها ، ولم يأت بنسأ الله الا ليعيد الدين قائماً على اصوله ، صادعاً بحكم الله فيه وحكم رسوله ، ونحن نأمرك ان أنصفح أحوال الناس في أمر دينهم ، الذي هو عصمة مالم ، وأمر معاشهم الذي يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابدأ أولاً بالنظر في العقائد ، واحد فيها الى سبيل الفرقة الناجية الذي هو سبيل واحد ، وتلك الفرقة هي السلف الصالح الذين لزموا مواطن الحق فأقاموا ، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ومن عداهم شعب دانوا أدياناً ، وعبدوا من الاهواء أو ثنائاً ، واتبعوا مالم ينزل به الله سلطاناً ، ولونشاء لأرباكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ، فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفة فاقتله ولا تسمع له قولاً ، ولا تقبل منه صرقاً ولا عدلاً ، وليكن قتله على رؤوس الاشهاد ، مابين حاضر وباد ، فماتكدت الشرائع بمثل مقالته ، ولا تدنس علومها بمثل أثر جهالته ، والمنتمى اليها يعرف بنكره ، ويستدل عليه بظلمة كفره ، وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالابصار ، وتظهر زياتها ونقصها بحسب ما عند رائيها من الأنوار ، وما تجده من كتبها التي هي سمو نافعة ، لا علوم نافعة ، وافاعي ملقفة ، لأقوال مؤلفة ، فاستأصل شأفتها بالتمزيق ، وافعل بها مايفعله الله باهلها من التحريق ، ولا يقنعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها ، والكشف عن مكان أسرارها ، فمن وجدت في بيته فليؤخذ جهاراً ، ولينكل بها إشهاراً ، وليقل هذا جزاء من استكبر استكباراً ، ولم يرج لله وقاراً

ومن أجل الثقايلد تقليد رشيدالوطواط في الحسبة وفيه ان اولى الامور ان تصرف أعنة العناية الى ترتيب نظامه ، ونقصر غايات الهم عن تنمية إتمامه ، أمر يتعلق به ثبات الدين ، وينعطف عليه صلاح المسلمين ، وهو أمر الاحتساب فان فيه تثقيف الزائفين عن الحق ، وتأديب المنهمكين في الفسق ، وثقوية أعضاد أر باب الشرع وسواعدها ، واجراء أعمال الدين على قوانينها وقواعدها ، ونبغي ان يكون منقلد هذا الامر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراصد الريب ، بعيداً عن مواقف التهم والعيب ، لا بساً مدارع السداد ، سالكاً مناهج الرشاد وأمرناه ان يجعل الزهد شعاره ، والتقوى دثاره والعلم معلمه والدين مناره ، ثم بأمر بالمعروف وبنهي عن المنكر ، و يقيم حدود الشرع علي موجب النصوص والاخبار ، ومقتضي السنن والآثار ، من غير ان يتسور الحيطان ،

و يتسلق الجدران ، و يرفع الحجب المسدولة ، و يكسر الابواب المسدودة ، و يسلط الاو باش على دور المسلمين و حرم المؤمنين ، حتى يغيروا على أموالهم ، و يهدوا الايدي الى عوراتهم و أطفالهم ، و يظهروا ما أمر الله بستره و إخفائه ، و نهى عن اشاعته و افشائه ، فان عبادة الاوثان خير من ذلك الاحتساب ، و العقوبة الابدية أولى بمباشرة من الاجر و الثواب .

وقال ابن فضل الله في وصية محتسب : و قد ولي امر هذه الرتبة ، و وكل اليه النظر في مصالح المسلمين حسبة الله ، فلينظر في الدقيق و الجليل ، و الكثير و القليل ، و ما يحصر بالمقادير و ما لا يحصر ، و ما لا يؤمر فيه بمعروف او ينهى عن منكر ، و ما يشتري و يباع ، و ما يقرب بتحريره الى الجنة و يبعد عن النار ، و لو لم يكن قد بقي بينه و بينها الا قدر باع او ذراع ، و كل ما يعمل من المعاش في نهار اوليل ، و ما لا يعرف قدره الا اذا نطق لسان الميزان او تكلم فم الكيل ، و لا يعمل لديه معدلاً لكل عمل ، و عياراً اذا عرضت عليه المعايير يعرف من جار و من عدل ، و ليتفقد اكثر هذه الاسباب ، و يحذر من الغش فان الداء اكثره من الطعام او الشراب ، و ليتعرف الاسعار و يستعلم الاخبار ، في كل سوق من غير اعلام لاهله و لاشعار ، ليقم عليهم من الامناء من ينوب عنه في النظر ، و يطمئن به وان غاب اذا حضر ، و يأمره باعلامه بما أعضل ، و مراجعته مما أمكن فان رأى مثله أفضل ، و دار الضرب و النقود التي منها نذبت ، و قد يكون فيها من الزيف ما لا يظهر الا بعد طول اللبث ، فليتصد لها بصدقه الذي لا يخرج ، و ليعرض منها على المحك من رأيه ما لا يجوز عليه بهرج ، و ما يعلق من الذهب المكسور و يروى من الفضة و يخرج ، و ما اكلت النار كل لحامه و لا بعضه و يقيم عليه من جهته الرقباء ، و ليقم على شمس ذهبه من يرقب منه ما ترقب من اشمس الحرباء ، و ليقم الضمان على العطارين و الطرقيّة في بيع غرائب العقاقير الا من لا يستراب فيه وهو معروف و بخطه مطبب ماهر لم ير بض معين في دواء موصوف ، و الطرقيّة و اهل النجامة و سائر الطوائف المنسوبة الى ساسان ، و من يأخذ أموال الرجال بالخيالة و يأكلهم باللسان و كل انسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا انسان ، امنعهم كل المنع و اصدعهم مثل الزجاج حتي لا يفجر له صدع و صب عليهم النكال و الا فما تجدي في تأديبهم أداة التأديب و الصنع ، و احسم كل هذه المواد الخبيثة و اقطع ما يجر ضعفاء الناس من هذه الاسباب الرثيثة ، و من وجدته قد غش مسلماً او اكل يبطل

درهما ، أو أخبر مشترى بزائد أو خرج عن معهود العوائد ، أشهره في البلد واركب نلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد ، وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وعالمات النساء وغيرهما من الأنواع ممن يخاف من ذنبه العائث في سرب الظباء والجآذر ومن يقدم على ذلك ومثله وما يحاذر ، وارشقتهم بسهامك وزلزل أقدامهم بأقدامك ، ولا تدع منهم الا من جربت أمانته واختبرت صيانتهم ، والنواب لا ترضي منهم الا من يحسن نفاذاً ويحسب لك اجر استنابته اذا قيل لك من استنبت فقلت هذا . ونقوى الله هي نعم المسالك ، ومالك في كل ما ذكرناه بل أكثره الا اذا عملت فيه بمذهب مالك اه .

* * *

الحاجة والحسبة } ولقد حدثنا التاريخ ان الناس كانوا يتولون الحسبة
امس واليوم } بانفسهم عندما تضعف الحكومات لان مصلحة اهل
كل بلد لا تتم الا بدفع الاذى بعضهم عن بعض والتواصي بالحق والجاهل في ذمة
العالم والضعيف من حصة القوي . واهل البلد الواحد متضامنون معنىً وضمناً اذا لم
يتضامنوا هلكوا وهيئات ان تتم للفرد فيه سعادة لا تتناول المجموع . والغالب ان
قانون الاحتساب كان يسد حاجات المجتمعات في هذه الديار . نعم ان تلك الاوضاع
قد بلغت عند غيرنا في هذا العصر مبلغاً عالياً من الرقي بفضل قاعدة توزيع الاعمال ،
وكثرة الاختصاصيين في كل فرع من الفروع التي تشتد حاجة المدينة اليها ، ولكن
ديوان الحسبة وحده كان يقوم باكثر هذه المقومات في المدن الفاضلة فكانت الحسبة
أخذة برقاب المنافع ، دافة أعناق المضار . ومن الغريب ان عصرنا على رقيه لم يصل
في بلادنا الى بعض ما كان يتمتع به أهلها في القرون الوسطى وهذا سرّ الفرق بيننا
فسبحان الملهم العظيم .

* * *

تأسيس البلديات ^(١) } يبدأ عهد الاصلاح في الدولة العثمانية من تاريخ
اعلان المنشور السلطاني الصادر في غرة جمادى

(١) كتب فصل البلديات بقلم الاداري القانوني السيد امين الحشيمي .

الآخرة سنة ١٢٧٢ وفيه القواعد الأساسية التي بني عليها ذلك الاصلاح في الشؤون المختلفة ، وفي جملة المعاهد التي أنشئت ، المجالس البلدية التي أحدثت عقب صدور المرسوم المذكور و وضع لها نظام خاص جرى فيه تعديل بحسب الاحوال .

فان النظام المؤرخ بيوم ٢٣ ربيع الاول سنة ١٢٨٤ الذي يحوي في مطاويه اصول تأليف المجالس البلدية في مراكز الولايات والألوية والاقضية ، قد جرى تعديله فيما بعد كما هو مصرح بذلك في الفصل السابع من قانون ادارة الولايات العمومية المؤرخ بـ ٢٩ شوال سنة ١٢٨٧ و ٩ كانون الثاني سنة ٢٨٦ و يقضي هذا القانون باحداث مجلس بلدي في كل مركز من مراكز الولاية والمتصرفين وقوام المقامات مؤلف من ستة أعضاء ومن رئيس ومعاون ومن طبيب البلدة والمهندس بصفتها عضوين مشاورين وكاتب ومحاسب موظفين . و ينص بان هيأت المختارين (العمدة) والشيوخ في المراكز المبحوث عنها هي التي يحق لها انتخاب الاعضاء للمجالس البلدية من ذوي الكفاءة باتفاق الكلمة او باكثرية الآراء ، وان الحكومة المحلية تصادق على انتخابهم ونصيبهم . اما نصب الرئيس فيجب ان يقره المتصرف والوالي ايضاً ، واما الرئيس والاعضاء فيخدمون مجاناً بلا راتب ، والكاتب والمحاسب يخصص لهما راتب من ربح البلدية ويربط المحاسب بكفالة معتبرة .

وان المجلس يجتمع مرتين في الاسبوع و ينظر في وظائفه المعينة في القانون وأهمها القضايا المتعلقة بانشاء الابنية وفتح الطرق وتوسيع الجادات والأزقة والشوارع وتنظيف البلدة وتنويرها ومراقبة الأوزان والمكاييل وتعديل الاجور والأسعار وتنظيم مجاري مياه الشرب وقنوات المياه المالحة وغير ذلك من الشؤون التي تنفع البلدة في عامة شؤونها .

ثم صدر قانون البلديات المؤرخ في ٢٧ رمضان سنة ١٢٩٤ فعدل كثيراً من مواد الأنظمة السابقة وزاد في اختصاص المجلس والرئيس وغير طريقة الانتخاب فبعد ان كانت منحصرة في الهيأت المؤلفة من المختارين وأعضاء مجالسهم أصبحت شاملة أفراد الامة الذين توفرت فيهم الشروط القانونية وأصبح لكل واحد منهم حق

الاشتراك في الانتخاب بحيث يمكنه ان يكون ناخباً او منتخباً حسب الشروط المتوفرة فيه وزاد في تحسين حالة للدخل وتوفير منابعه واننظام جبايته .

ومنح هذا القانون مجالس الادارة في المدن الكبيرة حق تقسيم هذه المدن الى دوائر متعددة بحسب سعتها ووفرة سكانها وتأليف مجلس بلدي في كل دائرة منها على ان يراعى عدد السكان فلا يقل عن اربعين الفاً في كل دائرة . وأناط بالبلدية وظائف عديدة فوق تلك الوظائف فعهد اليها إصلاح المدينة وترقية شؤونها من كل لوجوه العمرانية والصحية والأخلاقية .

وأوجب الزيادة في عدد الاعضاء فجعلوا اثني عشر عضواً بعد ان كانوا ستة أعضاء فقط على ان تكون تلك الزيادة بنسبة عدد السكان واتساع المحل . وخول الحكومة المحلية حق تعيين الرئيس من الأعضاء المنتخبين براتب ينقاضه من واردات البلدية واما الأعضاء فيبقون يلا راتب كما في السابق على ان يبدل نصفهم في كل سنتين . ثم جرى تعديل هذه المادة بشأن الرئيس فنقرر ان تختار الحكومة لرئاسة البلدية من شاءت من ذوي المقدرة واللياقة سواء كان من الاعضاء المنتخبين او من غيرهم ولكنها بعد التجربة عدلت عن هذه الطريقة وأرجعت المادة الى أصلها .

وفي قانون البلديات ان كل فرد من أفراد الدولة اذا كان يؤدي مائة قرش خراجاً وهو في سن العشرين وغير محكوم عليه بجناية يحق له ان يشترك في انتخاب أعضاء البلدية . واذا كان يدفع مائة وخمسين قرشاً خراجاً وكان عمره خمسا وعشرين سنة وكان غير محكوم عليه بالحبس مدة سنة او بجزاء آخر يعادله وغير تابع للحكومة أجنبية او مستخدم عند احد او في مجلس بلدي آخر او متعهد او كفيل للمتعهدين في دوائر البلدية وكان غير جندي او حاكم في المدينة او القصبة فيحق له ان ينتخب عضواً في البلدية .

وفي هذا القانون ان واردات البلدية عبارة عن الرسوم والضرائب المخصصة لها باذن سلطاني وعن أثمان الفضلات الحاصلة من توسيع الطرق وفتح الشوارع وغيرها وعن الرسوم التي يجب استيفاؤها من أصحاب الاملاك الذين يستفيدون من فتح الجادات والشوارع بسبب التحسن والترقي في عقاراتهم وأملأهم من شرف الموقع

وأحداث البنايات وفقاً لأساليب العمران على الطرز الجديد ومن الجزاء النقدي ورسوم القنطار والكيل والوزن ورسوم الذبجية ورسوم المقاولات المعقودة بشأن الأيجار والاستئجار ورسوم الحيوانات المباعة ضمن حدود البلدية .

وقد خُصص للنويز والتنظيف عشرون في المئة من خراج العقارات والمسقفات وعشرة في المئة من التمتع وهناك رسوم أخرى للبلدية مثل رسم الرخصة عن الأبنية المنشأة حديثاً أو المراد ترميمها وترميمها وعن الألعاب المرتبة في المقاصف ومحلات اللهو والطرب ومثل رسم العجلات والدواب المعدة للركوب والنقل وغير ذلك من الرسوم المتروكة للبلدية ، ومن الهبات والتبرعات ايضاً . وأهم الرسوم المخصصة للبلدية رسم الدخولية المعروف برسم (الاوكتروا) فانه بالنظر لتنوع موارده يكاد يكون الدعامة القوية في اصلاحات البلدية .

ونص قانون البلديات المنو به على وجوب مراقبة الدخل والصرف وتنظيم الموازنة العمومية في كل سنة بصورة سالمة من الشوائب والنواقص ، وقضى بتأليف لجنة من أعضاء المجلس الإداري وأعضاء المجلس البلدي مرتين في السنة تحت عنوان الجمعية البلدية . ويحتم على الجمعية المذكورة ان تلتزم في نيسان من كل سنة فتتظر في نفقات البلدية عن السنة السابقة وفي حساباتها وأعمالها العامة ثم تصادق عليها وان تجتمع مرة أخرى في تشرين الثاني من تلك السنة فتتظم الموازنة العامة للسنة القادمة وتدقق في الأعمال والشؤون التي يجب اجراؤها في السنة المذكورة . ومنح الجمعية المبحوث عنها حق التعديل في أنظمة البلدية والتدقيق - في أحوالها العمومية على ان ترفع مقرراتها بما يتعلق بالتعديل والاصلاح الى المجالس العمومية في مراكز الولايات .

ولما كان توسيع الطرق وتعبيدها وفتح الجادات والشوارع واحداث الأرصفة واصلاح مجاري المياه والجداول وتنظيمها وانشاء المدارس والمستشفيات العمومية والشكنات والمعاقل والقيام بجميع الأعمال المفيدة التي يشمل نفعا السكان على اختلاف طبقاتهم يتوقف على اطلاق يد البلدية في استملاك الأراضي والبنايات اللازمة للاصلاحات المنو بها فان قانون الاستملاك المؤرخ في ٢١ جمادى الاولى

سنة ١٢٩٦ والمعدل بقوانين وأنظمة أخرى قد منح البلديات حق الاستملاك في جميع الاراضي والعقارات بمقابل بدلات معتدلة تقدرها لجان مؤلفة من مخنيين محلفين. من ذوي الخبرة والنزاهة تبعاً لاصول نص عليها القانون المذكور . وهذه الواسطة قد زادت أعمال البلديات تحسیناً واتقاناً وأكسبتها رونقاً وبهاءً فأصبحت موافقة لأساليب العمران ومنطبقة على قواعد الهندسة والفن وحفظت لأصحاب الأملاك والاراضي حقوقهم من الضياع أيضاً .

والنظام الجديد } وأخيراً وضع رئيس الدولة السورية قراراً مؤرخاً في ١٠
حزيران سنة ٩٢٥ بشأن تأسيس البلديات في المدن
التي لا يتجاوز عدد أهاليها عشرة آلاف شخص فغير هذا القرار بعض أحكام القوانين السابقة . وقد نص في على ان المدن التي يتجاوز عدد أهاليها مئة ألف نفس تؤلف مجالسها البلدية من عشرة أعضاء ينتخبهم الاهالي وعضوين يعينهما وزير الداخلية باقتراح الوالي او المتصرف . وان المدن التي يبلغ عدد أهاليها بين خمسين ألفاً ومئة ألف ، تؤلف مجالسها من ثمانية أعضاء ينتخبهم الاهالي وعضوين يعينهما وزير الداخلية باقتراح الوالي او المتصرف . والمدن التي لا يتجاوز عدد سكانها خمسين ألفاً تؤلف مجالسها من ستة أعضاء منتخبين واثنين ينصهم وزير الداخلية .

ونص أيضاً على ان المجلس البلدي يجتمع حتماً يوم الخميس من كل اسبوع ويجتمع فوق ذلك بدعوة من ممثل الدولة المنتدبة او رئيس الحكومة السورية او وزير الداخلية او مستشار البلدية وفي الأحوال المستعجلة يجتمع بدعوة من رئيس البلدية او بطلب من نصف أعضاء المجلس بالأقل .

ونص على كيفية عقد الجلسات والمذاكرة بشأن القضايا المحالة الى المجلس البلدي وتدوين المقررات الصادرة منه بذلك الخصوص وقد فتح مستشار البلدية او المفتش حق حضور الجلسات وابداء رأيها اثناء المذاكرة وجعل اللغتين العربية والفرنسية رسميتين وأوجب تسطير المحضر باللغة العربية و باللغتين معاً كلما سمحت الأحوال . وأجاز هذا القرار لرئيس الدولة حل المجلس البلدي بقرار منه و باقتراح وزير

الداخلية واشترط موافقة المفوض السامي على ذلك الحل ثم ذكر الاسباب الموجبة للحل كما يأتي : (١) اهمال المجلس واجباته المنصوص عليها في القرار المذكور بعد ان يمر على تبليغه (٤٨) ساعة . (٢) مخالفته أحكام المادة ٢٣ من هذا القرار التي تحظر عليه المذاكرة في موضوع خارج عن سلطته او في موضوع لم يذكر في برنامج أعمال الجلسة . والمذاكرة ايضاً في قضية عقد عليها قرار يتعلق بمصلحة بعض الأعضاء الذين اشتركوا في الجلسة ، والمذاكرة باذاعة نشرات او خطب وابداء أمان لها صبغة سياسية او دينية لتتعلق بالادارة العامة . (٣) اهماله المناقشة في احدى القضايا المسجلة بصورة نظامية في بيان أعمال الجلسة الاولى خلال اربع جلسات متوالية . (٤) نقص عدد الأعضاء الى درجة لم يتمكن معها في اربع جلسات متوالية من ادراك النصاب القانوني .

ونص القرار على تأليف لجنة خاصة بقرار من رئيس الدولة تضم خمسة أعضاء للقيام بوظائف المجلس الذي يكون حله قد تم وفقاً للأحكام السابقة ، وصرح بانه يجوز تعيين اثنين أجانبين من دافعي الضرائب في اللجنة المذكورة ، وان هذه اللجنة تقوم بعامة وظائف المجلس ، وانه يُشرع بانتخابات جديدة متى ساعدت الحال على ذلك ، ويُعين تاريخ اجرائها بقرار من رئيس الدولة .

ونص القرار على وظائف المجلس البلدي لجعل انفاذ المقررات المتضمنة للوظائف المذكورة متوقفاً على تصديق وزارة الداخلية وانفاذ غيرها من المقررات مناطاً بوضع اشارة عليها من المستشار . والوظائف المهمة هي : تنظيم الموازنة والتعديل في تقدير الرسوم ومشتري عقارات يزيد مجموع قيمتها عن عشر واردات البلدية ووضع ضرائب استثنائية وعقد قروض (لا بد في هذه من الحصول على اذن المفوض السامي) وبيع أملاك البلدية او مبادلتها وترتيب درجات الشوارع والساحات وتزيينها ، وتحديد الاماكن العامة وتوسيعها او ابطالها ، وإحداث ساحات للاسواق وللصيد والسباق في المواسم وغير ذلك .

وصرح بان هذه المقررات ترفع الى وزارة الداخلية ، فاذا لم يُبد الوزير رأيه

بشأنها خلال ثلاثين يوماً من تاريخ الوصل المعطى منه يحق حينئذ للمجلس البلدي انفاذ أحكامها وإذا رفض الوزير الموافقة عليها خلال تلك المدة فإن للمجلس البلدي حق تمهيزها الى مجلس الشورى ويكون قراره بشأنها مبرماً .

وقد نص ذلك القرار على انه يعين عضو من أعضاء المجلس البلدي رئيساً للبلدية بقرار من رئيس الدولة و بالاستناد الى اقتراح وزير الداخلية .

ثم ان القرار يصرح بان الرئيس يُعين لمدة سنة وانه يمكن تجديد تعيينه لسنة أخرى بعد انقضاء مدة الرئاسة . وانه اذا تغيب الرئيس او وجد سبب آخر يمنعه من الحضور فان اكبر الاعضاء سنًا يقوم مقامه في جميع وظائفه ، واذ تجاوزت مدة غيابه او مدة السبب المانع من حضوره خمسة عشر يوماً فيعين حينئذ وكيل الرئيس بقرار من رئيس الحكومة بناءً على اقتراح وزير الداخلية . واما عزل الرئيس او نفيته عن العمل فلا يكون الا بقرار رئيس الدولة مبني على اقتراح وزير الداخلية ومصادق عليه من المفوض السامي بشرط ان يحوي الاسباب الموجبة للنحية او منعه .

ويتقاضى رئيس البلدية تعويضاً شهرياً يعين بقرار من وزير الداخلية ويتناول الاعضاء في نهاية كل شهر تعويضاً عن الجلسات التي حضرها كل منهم خلال ذلك الشهر على ان لا يتجاوز مجموع التعويض لكل عضو عشرين ليرة سورية صافية .

وقد صرح القرار بوظائف رئيس البلدية فاذا هي اوسع نطاقاً من الوظائف التي خصته بها القوانين السابقة . وتبين ان قرارات رئيس البلدية في دائرة سلطته الخاصة او بالاستناد الى مذاكرات المجلس البلدي ، تعرض فوراً على وزير الداخلية ولا توضع موضع الانفاذ الا بعد مرور خمسة عشر يوماً على تسليمها للوزارة المشار اليها ولكنه يجوز لوزير الداخلية ان يأمر بتنفيذها فوراً في الأحوال المستعجلة فقط اما المقررات التي تتضمن تسوية وقتية فانه لنفذ حالاً بعد نشرها او تبليغها . وفي كل حال لا نسري أحكام القرارات على ذوي العلاقة بها ان لم ننشر وتذع ، هذا اذا كانت أحكامها عامة وعلى وجه الانفراد فيما اذا كانت خاصة .

تأثير البلديات في العمران } للبلديات تأثير عظيم في عمران المدن والقصبات على اختلاف درجاتها لاسيما اذا عهد بادارة البلدية الى رجال كفاءة يحسنون العمل ، ويسلكون طريق النزاهة والنشاط ، ومع ان بلدية دمشق مثلاً وبها نمثل وكلامنا فيها يصدق على اكثر مدن الشام لم تحصل على هذا الشرط الاساسي في ترقية شؤونها الا بعض الاحابين فان تأثيرها في عمران المدينة ظاهر محسوس لا ينكره احد ومنه اتساع الشوارع والجادات وانظمامها ويستثنى من ذلك الأزقة التي ما برحت ماثلة للعيان على الطراز القديم لا يتخللها الهواء ولا ينفذ اليها النور الا قليلاً . ولو اتيج للمدينة حكام وللبلدية رؤساء في الزمان الغابر يقدرون الضرر العظيم الذي يطرأ على الصحة العامة بسبب ضيق المنافذ للهواء والنور لأزالوا تلك الموانع تدريجاً فوسعوا جميع الطرق والأزقة الضيقة وخدموا بذلك عمران المدينة أجل خدمة كما فعل مدحت باشا في سوقه الشهير وكما فعل جمال باشا في زمن الحرب فانهما فتحا الشوارع الكبيرة ومهدا سبل الاصلاح في المدينة وكما يفعل الآن رجال السلطة العسكريين فانهم قد باشروا العمل نفسه بجد ونشاط .

ومن ذلك إحداث المجاري للمياه القدرة وتنظيمها بدرجة تمنع اختلاطها بالمياه الصالحة للشرب . وهذا العمل من أعظم الأعمال المفيدة التي أدخلتها البلدية في برامج إصلاح المدينة ، وصيانة الصحة العامة من الأمراض السارية ، ويليهِ جر المياه من عين الفيجة بقساطل مستورة لتسلم من جراثيم الأمراض . وإحداث البنايات والأسواق على النمط الجديد مما زاد في رونق المدينة وبهائها ، ووضع الخرائط والمصورات التي قيدت أرباب المساكن والبهوت بانشائها وفقاً للفن والهندسة وتوسيع الأزقة تدريجاً ومنع البناء بغير الحجر والآجر . ومنها : إنارة الأزقة والشوارع والساحات العامة وتسهيل المرور ليلاً ورفع المحاذير التي يكثر حدوثها تحت ستار الظلام كالسرقات وغيرها . ولا يزال التنوير مفقوداً في بعض الأزقة ولا سيما الضيقة منها . ومنها إيجاد وسائل للنقل في المدينة مثل قاطرات الترام فانها سهلت انتقال السكان من أقصى المدينة الى أقصاها بالسرعة المعتدلة و باجور خفيفة ووفرت

عليهم الوقت ايضاً . ومن ذلك انشاء المستشفى العام ومدرسة الصناعة ودار الأيتام والعجزة وغير ذلك من المعاهد النافعة التي زادت في تحسين حالة البلدة من الوجهة الصحية والأخلاقية والوجهة العمرانية ايضاً .

ذكرنا أهمات المنافع والفوائد العامة التي حصلت في المدينة بتأثير البلدية وهناك فوائد أخرى ايضاً لا تحفى على ذوي الألباب .

رأي في اصلاح البلدة } ان قوانين البلدية وأنظمتها التي وضعت في زمن الأتراك واستمر العمل بموجبها مع تعديل وتعخير في بعض موادها بحسب الأحوال وإفيسة بالحاجة لإدارة الشؤون . ولذلك اري ان اصلاح البلديات يجب ان يقوم على أساسين متينين بكفيان لتشبيد بنيانه : توفير دخلها وحسن جبايته وانفاقه في سبيل العمران .

ودخل البلدية الآن في دمشق مثلاً وافر لا يستهان به . وكل بلد من بلاد الشام ولاسيما الامهات منها قد زادت مع الزمن واراداتها . وبعض البلديات لا تقوم مداخيلها بنفقاتها المتنوعة من فتح الجادات وتعمير الطرق وتوسيعها فان ريع الفضلات الحادثة من فتح الشوارع وتوسيع الطرق بكفي لتأدية بدلات الاستملاك الى أصحاب الأبنية التي يجب هدمها من جراء ذلك الاصلاح ومع هذا فانه يمكن زيادة الايراد بطرق عديدة . اما الرسوم فانها تباع بطرق الالتزام وتجي بدلاتها وفقاً لنظام الاعشار بنفقات معتدلة وفي زمن قصير . وهذا هو المطلوب في جباية الضرائب ولذلك لانكافها الجباية نفقات باهظة والسلطة المخولة للمجلس البلدي في جباية الرسوم وتحصيل الديون تكفي لحفظ حق البلدية من الضياع والضرر .

بقي علينا صرف الواردات وانفاقها في سبيل العمران واحياء المدينة . فهذه القضية لها علاقة كبرى بانتخاب الرئيس وأعضاء المجلس البلدي لان الايراد مهما كان وافرأ فانه لا يفيد شيئاً اذا لم تكن الأيدي المسيطرة على شؤون البلدية أمينة على العمل منقطعة اليه منقنة اياه .

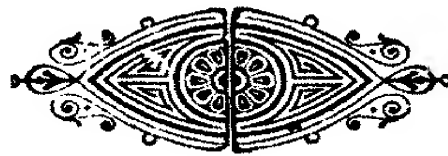
الثاني : يجب ان يكون الرئيس موظفاً نئصبه الحكومة ويشترط ان يكون من

ذوي الدربة والحنكة ومن حاملي الشهادات العالية او المتعلمين بدرجة لا تقل عنها سواء كان منتخباً او غير منتخب ، وان يخصص له راتب وافر لينصرف بكليته الى ايفاء الوظيفة وليحفظ مكانته ووقاره لدى كل الطبقات في المدينة التي يمثلها .

واما الأعضاء فيشتراط في انتخابهم ان يكونوا متعلمين بدرجة مماثلة لحاملي الشهادات من المدارس التجهيزية ويرجح انتقاؤهم من أصحاب اليسار ومن ذوي المكانة ليكونوا في غنى عن انارل الاجور التي يخصصها لهم المجلس البلدي لقاء الكشف والتحقيق عن القضايا المودعة اليهم وينجم عنها ما يسيء سمعتهم ويخل بمكانتهم بعض الاحيان .

وعندي ان حجر الزاوية في اساس الاصلاح انتقاء الرئيس والاعضاء من خيرة الرجال واطلاق أيديهم في العمل ووجود الكفاءة في الوظائف مع غل أيديهم لا يفيد شيئاً . وبصح تطبيق هذه القواعد في مراكز الأولوية والأفضية مع التعديل فانه يختار فيها المتعلمون والمهذبون من ذوي الشأن وأصحاب اليسار والنزاهة والافان تزيد الواردات لا يكفي للاصلاح ، والممول على الأيدي العاملة التزينة النشيطة .

والله الموفق للصواب اه .



الترع والمرافئ والطرق^(١)



ترعة السويس } ينقسم هذا الموضوع الى ثلاثة أقسام : المرافئ
والخطوط الحديدية والكهربائية والطرق المعبدة ،
ولما كان افئساح ترعة السويس بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط من
أهم الحوادث التاريخية ، ومن أعظم العوامل التي أثرت تأثيراً كبيراً في سير
المواصلات البحرية ، وتقريب المسافات الشاسعة بين الشام والبلاد الشرقية الاخرى
كفارس والهند والصين ، وخصوصاً بين الشام وأما جزيرة العرب ، فضلاً عما
أحدثته من تسهيل نقل الحجاج المسلمين الى البلاد الحجازية المقدسة — رأيت ان
أفتح الكلام في القسم الاول بهذه التركة وبما يتعلق بها من الشؤون الفنية والتاريخية
والاقتصادية فأقول :

المواصلات بين البحر المتوسط وبين البحر الأحمر قديمة العهد ، تبدأ من مصر بين
القدماء على عهد امبراطوريتهم الوسطى اي منذ التي سنة قبل الميلاد تقريباً .
فالمسألة اذاً عريقة في القدم ، وقد عرفت لأول مرة قبل اربعة آلاف سنة على
التقريب . وما كانت هذه المواصلات القديمة بين البحرين الا من قبيل المصادفات
ولم تكن غاية ما كان يرمى اليه القدماء . وما كان هؤلاء يتطلبون سوى الحرص على
المواصلات بين البحر الاحمر ونهر النيل ليتمكنوا من وصل أهم طريق لديهم وهو النيل

(١) كتب هذا الفصل المهندس الباحث السيد عبد الوهاب المالكي .

باعظم طريق بحري يؤدي الى آسيا وبلاد الحبشة وهو البحر الأحمر . ولذلك قام
الفراعنة بتخطيط طريق لا شك انها من أهم طرق ذلك العهد ، بين المكاث الذي
قامت فيه الآن مدينة القاهرة وبين السويس ، ليسهل عليهم نقل بعض الأحجار
والمعادن القيئة من جهة سيناء كالفيروز والنحاس والمغنيزيا فحفروا اول قناة بين النيل
وبين البحر الأحمر .

ولما كان النيل يصب في البحر المتوسط أصبح من الممكن إذ ذاك مرور المراكب
بين البحرين الأحمر والمتوسط . ولا تعرف اليوم تلك القناة الصناعية ولا ذلك
الفرع الذي حفرت يد الانسان ، ولا شك انه كان ثمة فرع طبيعي لنهر النيل العظيم
جف ماؤه منذ العصور الجيولوجية اي قبل ظهور الانسان . ويؤكد بعض المؤرخين
ان هذا الفرع كان في زمن رمسيس الثاني وكل من ينظر الى خريطة مصر
يتمثل لعينه هذا الوادي القديم وادي تومات ، وفيه قسم من الاراضي الخصبة
المنبتة بقطعه الخط الحديدي بين الزقازيق والاسماعيلية وهذا الوادي هو الفرع
القديم الجاف لنهر النيل وهو موضع القناة القديمة . فمجرى هذه القناة يتقارب جداً
من القناة الحالية التي تجري فيها المياه العذبة لارواء الاراضي الواقعة بالقرب من
ترعة السويس . ويظهر ان سلسلة البحيرات المنقطعة الواقعة على طريق ترعة السويس
كانت قديماً متصلة بخليج السويس الطويل وكانت يجري اليه فرع النيل الشرقي
القديم المبحوث عنه .

ويظهر من درس الاراضي والارتفاعات والمستحاثات ان أحجار البسوط قد ارتفعت
قليلاً ولا ريب ان المواصلات كانت على أتمها زمن الامبراطورية الوسطى وفي عهد
الامبراطورية الجديدة . فكانت القناة الاولى تصل نهر النيل ببحيرة التمساح ،
وذلك في عهد الأسرة الثانية عشرة الى التاسعة عشرة اي منذ الفين الى الف
ومائتي سنة قبل الميلاد . وان قناة ثانية من عهد الفراعنة ايضاً وفي زمنهم الأخير
المعاصر للفتوحات الفارسية اي منذ خمسمائة وخمسة وعشرين سنة قبل الميلاد ،
كانت تصل نهر النيل ببحيرة المرة الكبيرة بواسطة وادي تومات وهذه هي القناة التي
قام بحفرها واصلاحها بسامتيك ونيخاووس من السلالة السادسة والعشرين وذلك

بين سنة ٦١٠ و ٥٩٤ قبل الميلاد . وكان مشروعه يقضي بتجديد الفرع القديم لنهر النيل المنفصل عنه في منطقة بوباشيس والمار في وادي تومات . ان هذا العمل الذي ذهب بحياة مائة وعشرين الف عامل كما ذكر ذلك المؤرخ الشهير هيرودوتس خلال رحلته الى مصر (اي بعد سنة اربعمائة وتسع واربعين ق م) لم ينجح وترك قبل إتمامه لانه أوحى الى الملك نيكو على ما يقال بان عمله خدمة للبرابرة اي الفرس ولذلك لم تتم هذه القناة الا بعد مائة سنة أنشأها الملك داريوس الاول الفارسي . على ان القناة القديمة كانت أوسع من هذه القناة الحالية . وقد ظهرت آثار القناة القديمة المدرسة في سنة ١٧٩٨ وتظهر الآثار الآن في أماكن عديدة . وقد استعمل قسم منها لمجرى القناة الجديدة المستعملة لإسالة الماء العذب وقد عرفنا من الجدران المائلة والمرنعة ومن الأحجار المنحوتة ان عرض القناة القديمة كان خمسة واربعين متراً في عمق خمسة أمتار . وذكر المؤرخ هيرودوتس ان طولها اربعة ايام وقد كانت معدة اذ ذاك لسير السفن . وتكريماً لانجاز عمل القناة أقام داريوس عدة مسلات تذكرة ومفخرة .

وجاء بعد ذلك البطالسة وقاموا بجهود عظيمة لتجديد عمل هذه القناة وأخذوا يقاومون الطبيعة في العصر الرابع والثالث والثاني والاول ق م . وكانوا يرمون الى المحافظة على طريق نهر النيل الى البحر الأحمر من البحيرة المرة وجعله ابداً صالحاً لمرور الزوارق فيه . كلفهم ذلك جهوداً عظيمة وقاموا باعمال صناعية دقيقة كالسدود والأحواض وأعمال أخرى كانت القصد منها دفع المياه المالحة عن النيل وعن الاراضي المصرية ثم أهمل شأنها في القرن الاول ق م .

وبعد فان تاريخ هذا العمل العظيم اي قناة السويس القديمة ينتهي في عهد الرومانين . وقد كان آخر من قام بحفر هذه القناة القديمة التي امتلأت بالرمال الامبراطور تراجان الروماني بين سنة ٩٨ و ١١٧ بعد الميلاد وقد فتح على عهده نهر تراجان الذي كان يبتدي بالقرب من القاهرة ويمتد الى خليج السويس في البحر الأحمر ولا شك ان هذا النهر هو القناة المبحوث عنها آنفاً . ولكن طمت الرمال

هذه القناة بعد ذلك وارتفع مستوى الارض فضاع أعظم أثر من آثار القدماء وهو يعد من بدائم القرون الغابرة .

ولما افتتحت العرب مصر سنة ٦٤٠ بعد الميلاد لم تكن اذ ذاك قناة النيل والبحر الأحمر الا عبارة عن ذكرى قديمة العهد جداً . ومع هذا يرجع الفضل والشرف في احياء هذه الذكرى القديمة منذ اثني عشر قرناً للعرب الفاتحين وهم آخر من أحيى هذه الذكرى قبل اهل المدينة الحاضرة . وأعظم من هذا انهم هم اول من فكر بالطريقة الحديثة لايجاد قناة بين البحرين المتوسط والأحمر . وذلك لان مملكة العرب كانت متسعة الأرجاء وتحتاج للمواصلات في كل الجهات على العكس في مملكة الفراعنة الذين لم يفكروا الا بما يفيد مصر وحدها . فالحاجة عند العرب كانت ماسة لربط الصلات والمواصلات بين جزيرتهم وما افتتحوا من الممالك الاخرى . وقد قام بهذه المهمة عمرو بن العاص أحسن قيام وتبعه في ذلك الخليفة العباسي هرون الرشيد . ولعدم وسائلهم الفنية الحديثة لم يتمكنوا اذ ذاك من فتح ترعة عظيمة كالترعة الحالية وان كانوا فكروا بها ملياً ولما أشكل عليهم الامر لم يتحجموا عن جعل النيل واسطة الاتصال بين ممالكهم . وكان القصد من استعمال النيل هذه المرة الوصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر . وعلى هذا قاموا باصلاح قناة الأقدمين التي تبثدي من الزقازيق على النيل . وكانوا يأتون في سفنهم من الشمال و يدخلون في بحيرة المنزلة ثم في النيل ومن هناك يتبعون القناة التي أصلحوها الى ان يدخلوا البحر الأحمر ومنه يتجهون نحو جزيرة العرب . وكانوا بهذه الصورة ينقلون من مصر ما يحتاجونه من الحنطة الى جزيرتهم .

ويحدثنا التاريخ ان عمرو بن العاص استعمل هذه التركة لنقل الحنطة من الفسطاط الى القلزم (السويس) ومن هناك الى جزيرة العرب عن طريق البحر الأحمر . وقد بقيت القناة صالحة للسير مدة من الزمن حتى جاء الخليفة ابو جعفر المنصور العباسي وقام بطم هذا الطريق المفيد مخافة ان لنقل الدخائر الى القائم بالعباز اذ ذاك من ارض مصر وذلك في سنة ٧٥٥ ميلادية . وعلى هذه الصورة فقد انقطع حبل الوصل للمرة الاخيرة بين البحرين مدة الف سنة ونيف . على ان فكرة اتصال البحرين

ما زالت باقية منذ ذلك العهد تلك الفكرة التي لم يسبق العرب احد اليها . وكانت من الاعمال التي لامندوحة للمدنية من تطبيقها . وجاء البنادقة وقد فكروا مرات بفتح ترعة لان تجارتهم تضررت كثيراً من افئناح الطريق البحري طريق رأس الرجاء الصالح ولكنهم لم يفلحوا . وفي سنة ١٦٤١ عرض لا بينيس العالم الرياضي الشهير على ملك فرنسا لويس الرابع عشر أقوى ملك في عصره بان يؤلف جيشاً لافئناح مصر وكان من جملة ما طلبه فتح هذه التربة سنة ١٦٧٦ للوصول منها الى الهند ولكن لم يتم شي من هذا كما وقع ذلك للسلطان مصطفى الثالث العثماني الذي فكر ايضاً بفتحها وكان الامر كذلك مع نلي بك زعيم المماليك الذي لم يكتب له النجاح ايضاً . وقد ارتأى فتحها ايضاً كولبر الشهير وكثير من وزراء لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر .

ويظهر مما تقدم ان من حاولوا ربط البحر بين كلهم افرسيون او اصدقاء لفرنسا ، وكلهم منفقون على هذا الامر للفت في عضد انكاثرا التي كانت تحصر طريق رأس الرجاء الصالح . ولما جاء نابوليون مصر نظر في الاعمال الاولى سنة ١٧٩٨ . وقد قام لو پير مهندس بونابارت بدرس هذا المشروع وعمل المصورات اللازمة عملاً باشارة سيده غير انه اخطأ في حسابه خطأ عظيماً اذ وجد ان مستوى الماء في البحر الاحمر اعلى من مستواه في البحر الابيض بنحو تسعة أمتار وتسعين سانتيماً في حين انه لا يوجد فرق بين مستوى البحر بين وبذلك كان لو پير السبب في تأخير هذا العمل مدة طويلة . بقيت المواصلات مقطوعة بالفعل بين السويس والبحر المتوسط مدة الف ومائة سنة اي منذ سنة ٧٥٥ الى سنة ١٨٥٤ ميلادية او من عهد ابو جعفر المنصور الى الزمن الذي قام به بحفر التربة الحالية فرديناند دليسبس الذي برهن على عكس ما ادعاه مهندس نابوليون . وقد قام المهندسون لينان بك واستيفانسون ونيكر بللي وبوردالو بمساحات دقيقة بين سنة ١٨٤٨ و ١٨٤٧ وأثبتوا بصورة نهائية خطأ المهندس لو پير .

أقنع دليسبس الخديوي محمد سعيد بفائدة التربة وأحرز في سبعة أيام موافقته على ذلك . وصدر المنشور الخديوي بفتح التربة يوم ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٥٤ . فعارضت بريطانيا في فتح التربة مدعية انها تريد المحافظة على

كيات الدولة العثمانية من الاخطار التي ستحدثها هذه التربة المشؤومة . ولم يرجع دليسيبس عن مشروعه فأسس شركة وعرض في ٥ تشرين الثاني سنة ١٨٥٨ أسهمها للبيع . وكان عدد هذه الاسهم (٤٠٠٠٠٠) سهم بيع منها (٢٠٧٠٠٠) سهم في فرنسا واشترك في شراء هذه الاسهم جميع الطبقات . اما ما بيع في البلدان الاخرى فلم يتجاوز الثلاثة بالمائة . واكتب الخديوي محمد سعيد باشا لنفسه بما بقي من الاسهم اي بنحو خمسة واربعين بالمائة من مجموعها ووضع تحت إدارة القائمين بالاعمال خمسة وعشرين الف عامل باجرة زهيدة جداً . وأسست هيئة إدارية للقيام بهذا المشروع وجرى الاحتفال بالموضع الذي أنشئت فيه بورسعيد في ٢٥ نيسان سنة ١٨٥٩ وذلك قبل ان نتم موافقة الباب العالي وقبل ان تضع المعارضة البريطانية سلاحها . ومع هذا كانت أعمال الحفر لتقدم بوسائل ابتدائية . وكانت لنقل أتربة الحفريات على ظهور الحمير ولنا ان تقدر الصعوبات التي افترسها القائمون بالعمل اذا فكرنا بان ما كان يحتاجه العمال من الماء للشرب كان ينقل على ظهور الابل وكان يكلف هذا النقل مبلغاً قدره ستة وخمسون الف فرنك في الاسبوع حتى انتهى عمل القناة المعدة لإسالة الماء العذب .

وفي ١٨ تشرين الثاني سنة ١٨٦٢ جرى فتح أول قطعة من التربة وقد ترأس هذا الاحتفال الفخم دليسيبس مؤسس هذا المشروع . وحُطّم السد اثناء الاحتفال فدخلت مياه البحر المتوسط الى بحيرة التماسح فكان هذا الاحتفال فخماً مهيباً . مات الخديوي محمد سعيد باشا فأضاع دليسيبس أكبر نصير له . على ان هذه المصيبة لم تمنعه من الحصول على موافقة السلطان العثماني وذلك في سنة ١٨٦٦ وحيّ يومئذ بالآلات الحفر الضخمة ذات قوة (٢٢) الف حصان واستغنوا عن الادوات الابتدائية .

جرى افتتاح هذه التربة في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٨٦٩ فاجتمع في ذلك الاحتفال خمس وخمسون سفينة أنت من اوربالا لاشتراك بانجاز هذا المشروع وبمن حضره امبراطور النمسا وأولياء عهد بروسيا وهولاندا وغيرهم . وقد اتفق على هذه التربة تسعة عشر مليون ليرة انكليزية . ولما رأت انكلترا

فائدة هذه التبعة ندمت على تباعدها عن مد يد المساعدة لاول الامور وقويت ان تستعير ما فاتها من الوقت . ففي تشرين الثاني سنة ١٨٧٥ تمكن ديونائيل لارير انكترا من ابتياح مائة وستة وحبسين الف سهم التي كانت ملك الخديوي سعيد باشا وذلك بمبلغ اربعة ملايين ليرة انكليزية وفي تسعة ايام دخل ثلاثة أعضاء انكليز في هيئة إدارة التبعة وسقطت تلك المعارضة التي اشتدت بين انكترا وبين شركة التبعة . وفي سنة ١٨٨٢ أممات فرنسا مصالحها في مصر فمستكرت الجيوش البريطانية في القاهرة فاحتج فرديناند دليسبس على خرق حياد التبعة فلم يجد احتجاجه نفعا . وفي سنة ١٨٨٥ وضعت قواعد الاتفاق الافرنسي الانكليزي لإدارة شؤون التبعة . وكان أثر هذا الاتفاق عظيماً جداً وخصوصاً أيام الحرب العامة . فكانت هذه التبعة خندماً حصيناً بيد الحلفاء للمحافظة على مصر . ولما هاجم الترك التبعة سنة ١٩١٥ قام بالدفاع عنها الجنرال مكسويل ونجح على أسروجه . ولم تمض مدة قليلة من الزمن بعد الحروب حتى عادت التبعة الى ما كانت عليه قبلها وهي اليوم احدى الطرق البحرية العظيمة في العالم أجمع . وقد مر منها في سنة ١٩٢٥ (٥٣٣٧) سفينة . وكان مجموع ما تحمله هذه السفن (٦٦٠٧٦١,٩٣٥) طناً . واليك تقسيم هذه السفن :

سفينة انكليزية	٥٩,٩	بالمئة	من المجموع
= هولانديية	= ١٦١	=	=
= المانية	= ٦,٧	=	=
= فرنسوية	= ٦,١	=	=
= طليانية	= ٥,٣	=	=
= يابانية	= ٤,٠	=	=
= اميركانية	= ٣,٠	=	=
= نرويجية	= ١,٤	=	=
= سويدية	= ١,٠	=	=
= أخرى	= ٢,٥	=	=

وغير ذلك فان كثيراً من السفن ترمي في مرفأ بورسعيد ولا تجناز التربة .
ولذلك يعد مرفأ بورسعيد من أكثر مرفأء العالم حركةً واشغالاً .

واصلاح التربة وجمالها صالحة لسير السفن في كل الاوقات عمل شاق يتطلب جهوداً عظيمة . وكانت التربة في بادئ أمرها ذات اثنين وعشرين متراً عرضاً في القمر وثمانية أمتار عمقاً . في حين انها اليوم ذات خمسة واربعين متراً عرضاً في القمر وعشرة أمتار ونصف عمقاً . وهذا مما يدلنا على ان العمل فيها متواصل وان عرضها قد تضاعف . ثم ان عرض التربة على مستوى سطح الماء يختلف بين المائة والعشرين والمائة والاربعين متراً وقد يبلغ المائة والستين وطولها ١٦٨ كيلومتراً .

ونقرر ، وؤخراً ان يجعل عمق الماء ثلاثة عشر متراً وعرض التربة في القمر ستين متراً . ومن جهة أخرى فان النفقات تزداد يوماً فيوماً . وقد بلغ جميع ما صرف على هذه التربة منذ البدء بها في سنة ١٨٥٩ الى يومنا هذا ما يقرب المليار من الفرنكات الذهبية . فكانت ميزانيات هذا العمل في اوله تظهر عجزاً يديماً . وكان ما استحصل من هذا العمل باديء بدء لا يتجاوز الستة ملايين من الفرنكات على الرغم من الرسوم الباهظة الموضوعة على التجارة والبواخر ولكن الحالة تحسنت في العهد الاخير .

وفي سنة ١٩٢٣ بلغت الواردات غير الصافية ٤١٩ مليون فرنك وكان الصافي من الواردات سنة ١٩٢٤ (٢٦٤) مليون فرنك . ان اسم هذه الشركة هو الشركة العمومية لتربة السويس البحرية وهي بموجب نظامها شركة مصرية وبحسب اسمها شركة دولية عمومية . غير ان حقيقةتها شركة افرنسية واكثرية هيأة ادارتها افرنسية ايضاً . وان رئيسها خلف دليسبس هو افرنسي ابدأ . ومركز ادارتها في باريز وقد دفعت هذه الشركة عن سنة ١٩٢١ مبلغاً قدره ١٤ مليون فرنك الى الحكومة الفرنسية ضرائب عن أموالها . ومركز الادارة العامة ايضاً في باريز ونقوم بادارة الثلاث شعب الموجودة في مصر والتي يديرها موظفون افرنسيون . وهذه الشعب هي : ادارة الأشغال ، ادارة المركز ، ادارة سير السفن : ويقوم باعباء هذه الشعب الثلاث ٥٠٠ موظف وربان و ٢٥٠٠ عامل . واذا أضفنا الى هذه الارقام

عيال هؤلاء الموظفين والعمال وأولادهم بلغ عدد النفوس التي تلتحق رأساً بشركة التربة ١٤ ألف نفس .

التربة العظيمة عن } قبل اتفاقية تربة السويس التي تجعل منها تربة على
طريق فلسطين } الحياض لجميع الأمم ، فكر الانكلاز في فتح طريق
بحري يمر بفلسطين . وذلك لضعاف نفوذ الفرنسيين في الشام ونفوذ الروس في
فلسطين فارتأوا وصل البحر الأبيض ببحيرة لوط ومنه الى البحر الاحمر . وذلك
بواسطة قناة تبثدي من مدينة حيفا . فتملاً وادي الغور الذي ينخفض ٣٩٣
متراً عن سطح البحر . ثم تصل هذه القناة الى العقبة الواقعة على شاطئ البحر الاحمر
بعد ان تقطع وادي العربية . وبهذا يكون للانكلاز طريق حربي تبلغ به الهند اذا
أغلق في وجهها تربة السويس وينافس العمل الذي قام به دلبس .

ان سهل يزرعيل لا يرتفع سوى مائة متر عن سطح البحر . في حين ان وادي
العربية بين البحر الميت والبحر الاحمر يرتفع مائتين واربعين متراً . فلو فرضنا انه
أمكن المرور من هذه السهول المرتفعة التي تطلب أعمالاً صناعية دقيقة بتساقط الماء
عما سيكون مصير الماء الجاري من البحرين الى هذه الهوة الطبيعية اي وادي الغور
فانه يشجر في الحال كما هو الشأن بماء نهر الشريعة الذي يصب في بحيرة لوط . فقد
حسب السير اوليفان ان حفرة الغور التي ينخفض قعرها ٤٠٠ متر تقريباً عن
سطح البحر تملاً في خمس سنوات . وقد قدر علماء آخرون بان المدة اللازمة لامتلاء
هذا الوادي لا تقل عن عشرة أمثال المدة التي حسبها اوليفان . ومما تكن هذه
المدة اي مدة امتلاء هذه الحفرة طويلة او قصيرة ، فان عملاً كهذا سيفير انليم
فلسطين حتماً ، ويحصل من جراء هذا العمل الكبير ملجأ جيد جداً للسفن الكبيرة ،
وهذا ما يستبان منه سبب تحمس الانكلاز للقيام بهذا المشروع منذ اربعين سنة .

وطول هذه التربة العظيمة ٤٠٠ كيلومتر من ذلك مقدار ٩٣ كيلومتراً فقط
بقضي حفرها بعرض ٦٠ متراً وبعمق ١٢ متراً . فهنا تكن فكرة فتح هذه التربة
عظيمة ، ومما تكن فكرة الاستفادة من قوة الماء الذي سينصب في وادي الغور

جيدة ، فلا يظهر ان هاتين الفكرتين يتأتى اخراجهما الى حيز العمل دع لك ثروة البلاد المعدنية المشهورة بجوار بحيرة لوط . يصعب ان تذهب هيدراً تحت غمر المياه لها ثم ان نفقات العمل ستكون باهظة وقد قدرت لها اوليفان من مليار الى مليارين من الفرنكات ، وقد تراها غيره بخمسة مليارات ، مما يجلب خسائر ولا يفيد رؤوس الأموال التي ترصد له .

* * *

الترعة بين البحر الأبيض } وهناك مشروع آخر أشد غرابة من هذا
والخليج الفارسي } ألا وهو وصل البحر الأبيض المتوسط بالخليج
الفارسي ، وذلك بواسطة ترعة تتندي من السويديّة وتمر بانطاكية وحلب وياكس علي
الفرات . و يصلح نهر الفرات بحيث يغدو صالحاً لسير السفن حتى شط العرب .
وقد قدرت نفقات هذا المشروع بسبعين مليون ليرة عثمانية ذهباً . فلو فرض بان
الملايين الليرات لا شأن لها فاننا نتساءل عن فائدة هذا الطريق النهري الطويل
الذي لا ينقص طوله عن طول طريق البحر الأحمر ، فضلاً عن ان ارتفاع الارض
في جوار حلب هو ٤٠٠ متر ، مما يجعل هذه الفكرة بعيدة التحقيق ايضاً .

* * *

مرفأ غزة } تبعد مدينة غزة عن ساحل البحر خمسة كيلو مترات ،
وترتفع عن سطح البحر ٥٥ متراً . وتفصل بين المدينة
والبحر تلال قليلة الارتفاع لا يتجاوز أعلاها ١٥ متراً . والساحل مملوء بطبقات
الرمل لا يتمكن البواخر من الاقتراب منه . وقد تكونت هذه الرمال بما نقذفه مياه
النيل من الرمال الى البحر المتوسط فتسوقها الرياح الغربية الى هذا الساحل .
والظاهر ان مرفأ غزة كان في معظم ادوار التاريخ دون سائر مواني الشام ولم يكتب
له ان ينفع به حق الارتفاع الا في اوقات قليلة .

* * *

مرفأ يافا } خربت مدينة يافا في الحروب الصليبية فأصبحت عبارة عن قرية تتألف من بضعة بيوت . وقد بدأت في التجدد في أواخر القرن السابع عشر . وكان المرفأ اذ ذاك غير صالح لارسياء السفن كما هي حالته لهذا العهد . ولذلك كانت ترمي السفن الافرنسية في مرفأي صكا وصيدا . وحصنت يافا في القرن الثامن عشر وأخذت تزداد عمراناً الى ان جاء نابولجون يوناتارت في سنة ١٧٩٩ . وازدادت مكانتها وكثير عدد سكانها لهذا ، وذلك لقرىها من مدينة القدس ومرور الخطوط الحديدية منها ومهاجرة اليهود والالمان اليها . وكان جماع هذه الاسباب العامل الكبير في تقدم هذه المدينة . ومضت أدوار كانت كلمة الذهاب الى يافا يدل عند الغربيين على عمل مخطر . حتى ان بعض التجار كان يراهم الراحلين الى الاراضي المقدسة على ثرواتهم بمعنى ان المسافر يقبض ما يعادل ثروته من التاجر الذي راحته اذا عاد الى بلاده سائماً . كما ان المسافر يترك كل ثروته لهذا للتاجر اذا لم يعد اليها . وهذا مما يدل على ان الخطر في دخول السفن هذا المرفأ كان قاب قوسين او أدنى . وكانوا يعتقدون ان احتمال حدوث الخطر اكثر من السلامة . وتحسنت الحال قليلاً منذ ذلك العهد ، ومع هذا لم يزل نفرغ السفن في سياجل يافا من الامور الصعبة الخطرة .

ان مرفأ يافا صغير وقليل العمق مسدود بخط من الصخور البارزة عن سطح الماء وليس له سوى مدخل صغير بين الشمال والشمال الغربي من المدينة . وقد وقع تجميع هذا المدخل بالنحت ونسف الصخور بالفرقات . وهناك ممر آخر في جهة الشمال في عرض ٢٠٠ متر ليس صالح للارتفاع لوجود طبقات الرمل التي تظمه . وهذه الصخور الممتدة من الساحل الى عرض البحر بمثابة سد طبيعي تكون في طول ٣٠٠ متر . ويكون هذا السد الطبيعي ملجأً أحياناً للسفن الصغيرة الحجم ، ولكن قعر البحر يرتفع يوماً فيوماً لتكون جنس من الحجر المركب من الرمل والأصداف بواسطة نوع من الملاط المترسب من الماء ، فلا يوجد عمق يزيد عن الخمسة أمتار الا بعد ٥٠٠ متر من الساحل بحيث لا يتمكن البواخر الضخمة من الارباء الا بعد مدة من الساحل نحو ٧٠٠ متر مما يجعل نفرغ السفن صعباً جداً . ويكون النفرغ بواسطة

زوارق كبيرة تسيرها نواتية من اهل هذه المدينة بمهارة فائقة . وكثيراً ما يصطدم هؤلاء الرابضة بالصخور من شدة الأمواج العظيمة التي تهب بريح الشمال في فصل الصيف ورياح الغرب في الشتاء . وأصحاب هذه الزوارق يتقاضون أجوراً باهظة من الركاب لكثرة الأخطار التي تحيط بهم . من أجل هذا لا يتيسر للسفن أحياناً تفريغ بضائعها وإزالة ركابها بل تسير بهم الى مرافئ حيفا وبيروت وبورسعيد . ثم ان قعر البحر مركب من رمال ومزيج من الحصى ومواد لزجة أخرى لا تمكن المراسي من مقاومتها عند وقوف السفن . ولذلك تبقى هذه السفن موقدة بخارها خوفاً من مفاجأة الرياح الغربية الشديدة المزعجة . فالخطر والحالة هذه عظيم جداً في إزالة الركاب . فبناء مرفأ على الطراز الحديث هو عمل إنساني مفيد . واول من درس هذا الموضوع الدكتور زامبل ثم أهمل أمره ذلك قبل سنة ١٨٧٥ في الوقت الذي جرى فيه قلع الصخور ونسفها بالمواد النارية . وفي سنة ١٨٨٠ طلب حسن فهمي باشا وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية بناء سد في عرض البحر طوله كيلومتر واحد . وقد قدر نفقات هذا المشروع بأربعة ملايين فرنك . وفي سنة ١٨٩٠ كثر طلب هذا الامتياز . ومن الطالبين شركة ري بساتين البرنقال في يافا ثم شركة بلطجي وحبيب رزق الله من القسطنطينية وشركة سكة حديد يافا ، القدس . والظاهر ان فتح مرفأ جديد كبير يتطلب نفقات طائلة لا تكفي تجارة هذه المدينة لتسديد الفوائد الناتجة عن هذه النفقات .

مرفأ حيفا } تقع مدينة حيفا على خليج صغير يبعد عن عكا جنوباً ثلاثين كيلومتراً ، وكان نزلاً منذ أواخر القرن الماضي نفر من الالمان ، وأسسوا مستعمرات صغيرة ، وأبنية جميلة ، فزادت مكانتها التجارية ، وزادت نفوسها ، ووفرت مرافقها ، وان المرفأ الحالي القريب من سهل كبسون وهو بطائح ومستنقعات يتجه نحو الشمال الشرقي في مأمن من الرياح الجنوبية والغربية . يجبل الكرمل الذي يمتد داخل البحر من الجنوب الى الجنوب الغربي وينتهي فيه عمودياً . ولذلك تبعد السفن من هذا المرفأ عند اشتداد العواصف في البحر المتوسط

إذا تعذر إرساؤها في مرفأ يافا . أما الرياح الشمالية والشمالية الغربية فشديدة جداً في هذا المرفأ ، وعمق الماء فيه لا يتجاوز الخمسة أمتار إلا بعد مسافة كيلو متر واحد في عرض البحر من الساحل كما هي الحالة في جميع السواحل الشامية . ولذلك ترسو السفن الكبيرة في عرض البحر وتفرغ بضاعتها وركابها في الزوارق الصغيرة التي لا تحتاج لعمق عظيم من الماء . وخير طريقة لإنشاء مرفأ مدينة حيفا هو عمل سد في عرض البحر يبتدي من شالي المدينة ويتجه من الغرب الى الشرق بطول كيلو متر ونصف فيبلغ عمق الماء مقداراً كافياً لدخول السفن الكبيرة حتى تقترب من الرصيف فيمكن تفرغها على أيسر وجه ويتأتى ردم البقعة المثلثة من البحر التي تحصل بين السد وبين الساحل بحيث تكون صالحة لتوسيع المدينة وزيادة الأرصفة على عمق كافٍ . وقد أصبح دخول السفن الى المرفأ من المدخل الشرقي سهلاً في كل وقت اذا اضحى المرفأ آمناً من العواصف والرياح الشمالية فعمل كهذا يفيد فائدة عظيمة خصوصاً وان مدينة حيفا متصلة بالبلاد الداخلية بواسطة الخط الحديدي الحجازي . ونفقات هذا المشروع باهظة لا يؤمل تسديد فوائدها في بادئ الامر . وقد فكر الترك في إنشاء مرفأ حيفا بل أعطوا به امتيازاً تحضيرياً فحالت الحرب العامة دون تحقيق المشروع .

ولما دخل البريطانيون فلسطين رأوا ان إيجاد مرفأ للبلاد يجب ان يتم في اول فرصة تسنح ، وكان التنافس واقعاً بين يافا وحيفا لان بقية المرافئ كغزة وعكا وقيسارية ليست الا مرامي بسيطة . ويافا وحيفا هما أهم الموانئ في فلسطين . والقسم الأعظم من البضائع التي ترد الى فلسطين تأتي عن طريقهما . ففي سنة ١٩٢٥ دخلت الموانئ الفلسطينية (٢٤٧٢) سفينة حمولتها (١٨٩٥٠٤٢) طناً . وقد كان نصيب يافا وحيفا منها ما يأتي :

يافا (٧٣٤) سفينة حمولتها (١٦٤١٤) طناً و (٥٠٤) بواخر حمولتها (١١٤٣٤٠٥) أطنان . حيفا (٥٤٢) سفينة حمولتها (٧٥١٢) طناً و (٢٥٠) باخرة حمولتها (٦٨٨١٣٤) طناً . والناظر الى الأرقام يرى يافا أولى من حيفا بالمرفأ الحديث . وصقع يافا من أكثر بقاع فلسطين سكاناً وثروة . ولا ريب في ان

مستقبلها زاهر وفيها عنصر من عناصر ثروة فلسطين وهو البورنقالب وهي متحف
القدس الى البحر . هذه هي كل مزايا يافا . اما عيوبها فضيقة مساكنها ووراءة
مينائها وتعرضها للرياح بحيث تعطل فيها أعمال الشحن من ٨٠ الى ١٠٠ يوم . وفي
العام . اما حيفا فتعد بالنسبة الى يافا مدينة جديدة فلم يكن سكانها سنة ١٩٠٤
يزيدون عن عشرة آلاف فبلغوا في سنة ١٩٢٢ - ٢٥ ألفا وهم اليوم يزيدون عن ٣٥
ألفا . وتعزى هذه الزيادة الى ازدهار الصناعة في جوارها لانصالحا بدمشق وبجذب
الشام بسكة الحجاز . وميناء حيفا جيد بحميه جبل الكرمل في الجنوب من الرياح
ولا ينقطع العمل فيه الا اياما معدودة في العام . وأخيراً قررت حكومة فلسطين
انشاء مرفأ في حيفا على الطراز الحديث وأخذت تضع المصورات والتصميمات ووقع
اختلاف بين فريقين من المهندسين فريق يقول بانشاء المرفأ في شمال حيفا والفريق
الآخر يذهب الى انشائه في الجنوب . ولا تلبث هذه الاختلافات ان تزول ويخرج
هذا المشروع الى عالم الوجود بما اقترحه الحكومة لهذه الغاية من الاموال الطائلة .

* * *

مرفأ عكا } مدينة عكا مفتاح فلسطين كانت ذات مكانة حربية
اعترف بها نابوليون ، وازدادت شأناً منذ فكت حماة
السويس ويرسم خليج عكا قوساً بشكل نصف قطع ناقص محوره الكبير يمر من حيفا
ومن عكا . قامت المدينة في شبه جزيرة تمتد من الشمال الى الجنوب . ولئن كان
البحر محفوظاً من الشمال فهو معرض لرياح الجنوب والغرب . والارضاء اذاً بمرفأ
حيفا أسهل منه في عكا . اما المرفأ القديم فحالته جيدة لمكان السد المتحد من
الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . وقد امتلأ هذا الفوض بالرمال ولم يبق فيه من
العمق سوى مترين فقط . ترمي السفن الكبيرة في عرض البحر ومع ذلك لا تأمن
الأخطار في بعض ايام الشتاء والرياح . اما من جهة انشاء مرفأ جديد في عكا
فتا يذهب عنه . لان ذلك يقتضي نفقات باهظة لا تتناسب مع تجارة هذه
المدينة .

* * *

مرفاً صور } كانت مرفاً صور المشهور في العصور الغابرة في جزيرة
منفصلة عن الساحل اتصلت بالإرض بعد ان أنشأ
الاسكندر طريقاً بينها وبين الساحل ثم اتسع هذا الطريق اتساعاً كبيراً بما كان
يحملة البحر من الرواسب . حتى أضحت الجزيرة جزءاً من الساحل ، ولم يبق في
العهد الأخير من المدينة سوى اسمها حتى ان الرحالة المشهور هاسيل كيست السويدي
لم ير في المدينة غير عشرة أشخاص في القرن الثامن عشر اي بين سنة ١٧٤٩ و ١٧٥٢
وقد خربت كثيراً بزلزال سنة ١٨٣٧ وبعدئذ ابتدأت المدينة تزداد عمراناً ونفوساً .
وبالقرب من المدينة وعلى بعد سبعة كيلو مترات من جنوبها خزانات قديمة من عهد
الفيثيقيين تسمى خزانات رأس العين فهذه الخزانات تسقي المدينة وتروي سهولها حتى
ساحل البحر . وان لصور مرفاًين اثنين . فالاول الصيداوي وهو الى الشمال وهو
المرفاً الحالي ايضاً . والثاني المصري وهو الى الجنوب وهو اكبر من الاول . ولكنه
لم يعد صالحاً لارساء السفن لامتلائه بالرمل . وبصلح المرفاً الصيداوي للسفن
الصغيرة الحجم ويمكن تعميقه بنفقات قليلة . ولا يتأقن للبواخر الارساء بالقرب من
ساحل البحر . وخط العمق ذوالخمس أمتار لا يبعد كثيراً عن مدخل المرفاً الصيداوي
في حين ان هذا الخط يعتمد كثيراً عن بقية نقاط ساحل هذه المدينة .

* * *

مرفاً صيدا } طم الامير نجر الدين المعني مرفاً صيدا خشية مهاجمة الاسطول
العثماني . ولما تولى الحكم احمد باشا الجزار في عكا وقع
بينه وبين القنصل الافرنسي اختلافات عديدة اضطر الافرنسيون من سكان صيدا
ان يتركوا المدينة سنة ١٧٩٠ بدون ان يتمكنوا من أخذ أموالهم ولم يمض ثمانية
أعوام آخر حتى أخرجوا منها مرة ثانية ، ومن ذلك العهد ابتداء شأنها بتضاءل .
واقدم كان لصيدا قديماً مرفاًن كمدينة صور ، الاول في الشمال الغربي ، والثاني في
الجنوب الغربي . ومرفاً الشمال الغربي هو المرفاً الحالي وهو ذو شكل مستطيل تحده
شرقاً قلعة البحر والجسر الموصل بين هذه القلعة وبين الشاطئ . وتحيط بهذا المرفاً
من الشمال والغرب سلسلة من الصخور . ومدخله الغربي المنحوت قديماً في الصخر لم

بعد صالحاً للاستعمال . أما مدخله الشمالي فهو الذي يصلح وحده لاجتياز السفن . ولا يتجاوز عمقه الثلاثة أمتار . فلو نظف هذا المرفأ من الردم والانقاض لعاد صالحاً للرساء البواخر . والسفن الكبيرة ترمي بعيدة عن الشاطئ على مسافة ١٣٠٠ متر . والمرفأ الجنوبي الغربي معرض للرياح الجنوبية الغربية والرواسب المتجمعة من مياه النيل كما مرفأ المصري في مدينة صور .

* * *

مرفأ بيروت } يطلق الانكليز على خليج بيروت اسم سان جورج وهو يتجه نحو الشمال تأمن فيه السفن من الرياح الجنوبية والشرقية .

أما الرياح الشمالية والغربية التي لا تصادف موانع طبيعية فهي تعصف عصفاً عظيماً في الشتاء وتحدث أمواجاً هائلة . وكان الامير فخر الدين المعني ردم مرفأ بيروت انقضاء مداهمة الاسطول التركي . ولما خلفت السفن البخارية السفن الشراعية رأيت البواخر صعوبة حمة في هذا المرفأ وكثيراً ما كانت تضطرب للارساء في عرض البحر كما هي الحال في بقية سواحل الشام ولقد كانت نقضي اليومين والثلاثة لنتمكن من تفريغ شحنتها . وكانت العواصف الفجائية الشديدة التي تكثرت في السواحل الشامية تضطر السفن على الابتعاد عن الشاطئ خوفاً من ان تهطم بصخوره . وقد استمر الحال على هذه الصورة مدة طويلة . ولم يكن الامر خلال ذلك ذا بال لانه لم يكن لمدينة بيروت مكانة في التجارة أحرزتها بعدئذ . فالعلة كانت واحدة في جميع السواحل . ولما استفاضت تجارة بيروت وزادت مكانتها بسرعة غريبة وذلك بعد سنة ١٨٤٠ اضطر ولاية الامر اذ ذاك ان يعيروا النياتهم لمرفأها . ففي سنة ١٨٦٣ تقدمت شركة المساجيري ماريتيم بخارطات لهذا المرفأ للاحمد قيصري باشا حاكم مقاطعة صيدا ، وقدرت نفقات هذا العمل بـ ٣٠٠ ٠٠٠ فرنك . ولم يسفر هذا التذرع عن نتيجة . وفي سنة ١٨٧٩ لم نلوفق بلدية بيروت التي قررت اخذ امتياز هذا المشروع لنفسها ، لان الحكومة لم تصدق على قرارها . وفي سنة ١٨٨٠ وضع وزير الاشغال العامة في الدولة العثمانية حسن فهمي باشا خارطة سنة ١٨٦٣ موضع النظر في تقريره عن الاشغال العامة ، وبالنظر لضرورة هذا المرفأ والمنافع التي ستجنيها عنه والاقتصاد

الذي يتأتى من نهر نبع البضائع فيه تقديم بعضهم للحصول على امتيازهم . ففي سنة ١٨٨٣ ظهر ثلاثة طلاب لهذا العمل ، وفي يد كل منهم الشروط الكافية والضمانات اللازمة ، وكان يظن ان شركة طريق بيروت — دمشق ستتمكن من إجابة طلبها ، ولم تزل هذا الامتياز بل ناله يوسف افندي مطران بارادة سلطانية . مؤرخة بـ ١٩ حزيران سنة ١٨٨٧ لمدة ستين سنة لتنتهي في ١٩ تموز سنة ١٩٤٧ . وقد اشترط على صاحب الامتياز المباشرة بالعمل بعد سنتين وانجازه في خمس سنوات على ان يكون طول الرصيف ١٢٠٠ متر وان ينشأ سدان كبيران يحيطان بالمرفأ ويبقى بين هذين السدان مدخل في عرض ٢٠٠ متر وعمق ثمانية أمتار وان تكون مساحة هذا المرفأ السطحية على وجه التقريب ٢٣ هكتاراً . وقد يتأتى توسيعه في المستقبل .

واحتفظت الحكومة بحق ابتياع هذا المشروع بعد ثلاثين سنة ، واشترط المنشور السلطاني على السفن الداخلة الى المرفأ أداء رسوم الدخول والرصيف او دفع نصف الرسوم اذا كانت السفن تدخل المرفأ ولا تقترب من هذا الرصيف . وبعد هذا تم الاتفاق بين شركة طريق دمشق — بيروت وصاحب الامتياز . وقد تلكت هذه الشركة في طلبها امتياز هذا المشروع رأساً . وفي سنة ١٨٨٨ تألفت الشركة العثمانية للمرفأ والأرصفة والمخازن في بيروت برأس مال خمسة ملايين فرنك تقسم الى عشرة آلاف سهم باعتبار كل سهم ٥٠٠ فرنك . وكانت هذه الشركة افرنسية بجته فأشاع الانكليزان هذا المشروع عقيم جداً لعدم وجود خط حديدي بين بيروت ودمشق ، وان هذا الخط لا يمكن عمله لشدة الميل في جبل لبنان والجبل الشرقي لعدم وجود خط حديدي لنقل المحصولات بين المرافئ الشامية وبيروت . وقد بوشر بالإعمال سنة ١٨٨٩ وقامت بانجازها شركة موزي وطون ولوزي . واستخرجت مواد البناء اللازمة لهذا المشروع من نهر الموت نقلت على خط حديدي طوله ثلاثة كيلو مترات و٦٠٠ متر على ساحل البحر وسارت الاعمال اذ ذاك ببطء لمرض المال بالمرض الوافس اذ ذاك . وأضررت الأمطار والسيول فأحدثت خسائر عظيمة . وقد جرى اتفاق جديد بين شركة المرفأ وشركة الخط الحديدي بين بيروت ودمشق وهوران سنة ١٨٩٢ على ان تقرض هذه الشركة الأخيرة خمسة ملايين فرنك بفائدة مقررة

لشركة المرفأ . ورهنت هذه الشركة مقابل القرض جميع أبنيتها وأملاكها وآلات المرفأ وأدواته جميعها . وهناك شروط أخرى اشترطتها شركة الخطوط على الشركة المدينة ضماناً ، وكانت اذ ذاك شركة الخطوط نفشي^١ خطوطها مما وسع مجال الآمال في نجاح المشروعين معاً . وبعد انتهاء عمل المرفأ سنة ١٨٩٤ ومد الخطوط الحديدية لم تمض مدة وجيزة حتى ذهبت تلك الآمال فظهر نقص عظيم في تجارة بيروت . وأسباب هذا النقص عديدة ، منها الاختلافات التي وقعت بين شركة المرفأ ووزارة البحرية العثمانية على مسألة دخول البارج الحربية العثمانية الى المرفأ ، ومنها الاختلافات التي وقعت بين شركة المرفأ وإدارة الجمارك بشأن رسم الجمالين والمخازن وتعيين حدود منطقة لشركة المرفأ ، ومنها زيادة رسوم الدخول للمرفأ بمادعا الى تحويل قسم عظيم من الصادرات والواردات الى بقية المرافئ الشامية القريبة ، ومنها بعد المسافة بين منتهى الخط الحديدي دمشق - بيروت وبين المرفأ .

دُرست مصورات هذا المرفأ سنة ١٨٨٩ على طول كيلو متر واحد من الساحل بين رأس الشامية ورأس المدور فاستطاعوا اقتطاع اراض واسعة من البحر مما ساعد على إنشاء رصيف يختلف عرضه بين ١٠٠ و ١٥٠ متراً . وبدأ احد السدين من رأس الشامية ويمتد في عرض البحر مسافة ٨٠٠ متر . وينتهي آخره بسد صغير عمودي على هذا السد متجه نحو رأس المدور . واما السد الثاني فيبدأ برأس المدور ويتجه نحو السد الصغير المذكور فيقترب منه على مسافة ٢٠٠ متر . ويرتفع السد الاول وهو الاعظم طولاً وارتفاعاً خمسة أمتار عن سطح البحر . واما السد الصغير والسد الثاني فيرتفعان مترين عن سطح البحر . تقدر الزاوية التي تحدث بين السد الاول واستقامة الشاطئ بـ ٤٥ درجة تقريباً ، واما الزاوية الكائنة بين السد الثاني وذات الاستقامة فتقدر بـ ٦٠ درجة والعمق في منتصف المدخل ١٤ متراً ويتناقص بصورة غير محسوسة من منتهى السد الاول الى مبدئه اي يتناقص من ١٦ متراً الى اربعة أمتار ويختلف العمق قرب الرصيف بين ثلاثة وخمسة أمتار . وفي قرب السد الثاني بين ثمانية واثنى عشر متراً . حتى لقد تمكن المراكب الكبيرة من الدخول الى هذا المرفأ دون ان تستطعم تفريغ شحنها على الرصيف رأساً . ومساحة

المرفاً الذي تم عمله ٢٠ هكتاراً لا ٥٣ كما جاء في شروط الامتياز ولا يستوعب سوى ١٢ باخرة كبيرة في آن واحد .

فرضنا جونبة وجبيل } ان مدينة جونبة على عشرين كيلو متراً نقر بها
من شمال بيروت آخذة بالارتفاع وقد قامت
داخل خليج كبير يصلح ملجأ للمراكب السريعة بل للسفن الكبيرة ايام اشتداد الانواء
ولهذه المدينة مرفأ صغير يمكن توسيعه بنفقات قليلة .

اما مدينة جبيل فهي في تأخر مستمر ولكنها ذات مكانة أثرية اكثر منها
تجارية وما استخرجه علماء الآثار من الغربيين من مطاوي ارضها من العاريات النفيسة
دليل على ما كان لها في العصر الخالية من المكانة البحرية .

وقد حاول اللبنانيون اواخر الحكم العثماني ان يجعلوا من جونبة او البترون
او غيرهما من المنافذ البحرية في لبنان مرفأ يستغنون به عن بيروت فلم يفلحوا . لان
ما وراء هذه المواني الصغيرة من القرى لا شأن له في استهلاك المتاجر ولا اتصال له
بمدن كبرى في الداخلية .

مرفأ طرابلس } ان مرفأ طرابلس غير صالح لارساء البواخر الفخمة لذلك
تبقى فيه بعيدة عن ساحل البحر نحو ١٢٠٠ الى ٢٠٠٠
متر . وقد بنت شركة الخطوط الحديدية مرفأ صغيراً قرب المحطة محفوطاً من جهة
البحر ومدت عليه خطوطها وانشاء مرفأ كبير في طرابلس من المسائل القديمة
العهد . لان شكل المدينة ملائم كثيراً لهذا العمل لوقوعها على الطريق بين جبال
لبنان والعلوين . تلك الطريق التي تمر منها سكة الحديد التي تصل طرابلس بحمص
وداخل الشام بصورة سريعة وسهلة مما لا مثيل له في بقية السواحل كبيروت مثلاً
لانها منفصلة عن الداخل بسلسلة جبال شامقة لا يمر لها الا من شواقي عظيمة .

تتألف مدينة طرابلس من قسمين الاول المدينة وهي تبعد عن الشاطئ ثلاثة
كيلومترات والميناء وهذا هو مرفأ المدينة . والسهل بين هذين القسمين غير صحي

وينجيه مرفأ الميناء نحو الشمال . وهناك جزيرتان صغيرتان تحفظان هذا المرفأ من الرياح الغربية ، والغربية الجنوبية . والسد القديم الممتد من الشرق الى الغرب يحفظه من الرياح الشمالية ايضاً . فموقع المرفأ اذاً يوافق إرساء السفن في كل وقت واذا اشتدت الانواء تجدد هذه السفن ملجأً نيميماً تأوي اليه . اما البواخر والبواخر التي تحتاج لعمق كبير فانها تضطر للإرساء في عرض البحر بعيدة عن هذا الساحل .

مرفأ اللاذقية } يقع مرفأ اللاذقية في سهل خصيب على مسافة نصف ساعة من البحر ، وهذا السهل غير صحي . وينجيه خليج اللاذقية نحو الجنوب فيرسم قوساً في شكل نصف دائرة وهذا القوس ينتهي من جهة الغرب بالرأس المسمى رأس اللاذقية . فمرفأ هذه المدينة معرض للرياح الجنوبية والغربية ، ويتأتى لهذا المرفأ ان يكون ملجأً صالحاً للسفن لو لم يكن مطموراً بالرمال ، وقد ضاق مدخله كثيراً بسبب انقباض قصر قديم كان مشيداً هناك ، فالسفن العظيمة ترسو في عرض البحر والصغيرة التي لا تتجاوز حمولتها ال ٣٠٠ او ال ٣٥٠ طن تدخل المرفأ بسهولة وسط أعمدة من الرخام والمحجب من أطلال الآثار الغابرة . ولا يأتي انشاء فرصة لمدينة اللاذقية على طراز حديث بالفائدة المتوخاة لان عملاً كهذا يتطلب نفقات باهظة ، فالرسوم التي يقتضي وضعها واستيفائها لتسديد فوائد تلك النفقات تكون سبباً لتحويل قسم عظيم من تجارة هذه المدينة الى المدن الأخرى المجاورة لها . وعلى هذا فبناء المرفأ يأتي بنقص كبير في تجارة المدينة ويؤدي الى عكس الفائدة المطلوبة . وكانت الحكومة العثمانية وضعت خارطة بهذا المشروع وقد عارضها نفر كبير من الاهالي . ونرى ان انشاء طريق بين اللاذقية وحماة أجزل فائدة من إنشاء مرفأ اللاذقية .

مرفأ الاسكندرونة } تضرب الامثال بقذارة مدينة الاسكندرونة ومع هذا فقد اتخذت هذه المدينة منذ القرن السابع عشر قاعدة ومرفأ لتجارة حلب وما جاورها من البلدان وذلك لاستبعاد

بعض حكام طرابلس في ذلك العصر ، وليست مدينة اسكندرونة بالبلد الزراعي ولا الصناعي ويعيش الاهلون من نقل البضائع .
 يدخل خليج الاسكندرونة في اليابسة ثلاثين ميلاً في عرض عشرين ميلاً وموقعه الجغرافي يدعو الى تأسيس مرفأ بحري يكون من أعظم مرافي البحر المتوسط .
 فالاسكندرونة بموقعها لها محسنات عظيمة . ومما اشتدت الرياح الهوج في عرض البحر فالامواج فيها خفيفة ثم ان الرياح الغربية قليلة الهبوب لكان الجبال المرتفعة التي تعارض هبوبها . وشكل الارض في قاع البحر ملائم لان الخطوط المنحنية التي تمر من عمق ثلاثة واربعة وخمسة أمتار تحت سطح البحر يتباعد بعضها عن بعض بميل خفيف لذلك تصلح لتوسيع اراضي المرفأ . والمسافة بين المنحنى المرسوم من عمق ٥ الى ١٥ تكفي لانشاء عامة لوازم المرفأ باحسن الشروط . ومواد البناء قريبة وكثيرة في أطراف المدينة . وفي مقالع الاسكندرونة كمية عظيمة من الاحجار الصالحة لبناء الاحواض في البحر ، والمدينة قابلة على أيسر وجه ان تصبح من كبريات المدن ويصلح الجبل المجاور لها لتأسيس مصايف جميلة وهناك عيون كثيرة تفيض ثرة ويقل مثيل لها في غيرها من المصايف الجميلة .

والاسكندرونة هي المرفأ الوحيد لمدينة حلب ، انطاكية ، كليس ، عينتاب ، مرعش ، اورفة ، البيرة ، ديار بكر . ولجميع مدن شمال الجزيرة حتى مدينة الموصل . وهذا المرفأ اكبر مرفأ في الشام لانه يمكنه إرساء البواخر والاساطيل الضخمة . وكان وزير الاشغال العثمانية حسن فهمي باشا قدّم تقريراً لاصلاح هذا المرفأ وانشائه ، وقدر النفقات بمليون فرنك ذهبي . على ان عمل مرفأ في الاسكندرونة بقرض من انجازها وتخفيف المستنقعات المحيطة بالمدينة معاً وكانت قدر المتاراليه نفقات هذا العمل اي تخفيف المستنقعات المذكورة بنصف مليون فرنك ذهبي .

ان انشاء مرفأ عظيم مجهز باحدث الآلات في مدينة الاسكندرونة لا يفيد الفائدة المطلوبة الا بربطه بخط حديدي كثير الحركة يمكن بواسطته الاتصال مع لداخل الواسع الى ديار بكر فالموصل فبغداد قايران . ولذلك اقتضى ان يكون هذا لمرفأ هو الطريق الطبيعي للتجارة مع اوربا والبحر المتوسط . ويقوم الخط الحديدي

الذي أنشأته شركة سكة حديد بغداد بين الاسكندرونة وطوبراق قلعة المتصل بالخط الاسامي بتسهيل المواصلات مع قليقية . وستحول تجارة هذه البلاد عن مرسين للاسكندرونة اذا جهزت هذه المدينة بفرضتها البحرية الحديثة . وستظل المواصلات مع حلب وما وراءها صعبة لان عمل سكة حديد بين الاسكندرونة وحلب عن اقرب طريق يقتضي له المرور من اعالي جبل أمانوس وجعل الميل شديداً على مسافة طويلة . واذا أريد تخفيف الميل يقتضي اطالة مدى الطريق فلا تختلف اذ ذاك المسافة بين الاسكندرونة وحلب في هذا الطريق الجديد عن طريق طرابلس ، حمص ، حلب من حيث المسافة عدا ان هذا أسهل من الاول . بقيت هناك طريقة أخرى للقيام بهذا المشروع وهي خرق الجبال التي تفصل بين الاسكندرونة وحلب بنفق لا يقل طوله عن عشرة كيلومترات تحت مضيق مدينة بيلان (بغراس) وهذا يستلزم نفقات كثيرة ربما زادت عن الفائدة المطلوبة الا وهي ربط حلب وضواحيها بالساحل البحري عن اقرب طريق . اما اذا نظرنا الى الاسكندرونة بصفتها مرفأً خاصاً لحلب فقط بل كما ذكرنا أعلاه للعراق وايران فتكون النفقة حينئذ مناسبة مع عظمة المشروع .

* * *

الخطوط الحديدية } لقيت شبكة الخطوط الحديدية الشامية بأسرها
صعوبات حمة فلم يتيسر اكثار عددها والاتساع
نطاقها . فسليلة جبال لبنان تقضي باستعمال الخطوط المسننة . وهبوط اراضي الغور التي أنحدر بصورة شديدة تقرب من الشافولية وتجعل منها حفرة عميقة تمنع سهولة المواصلات بين الساحل وشرقي نهر الأردن . فهذه الموانع الطبيعية في صورة الجبال اضطرت القائمين باعمال هذه الخطوط ان يعتمدوا الى الخطوط الضيقة ذات الميل الشديد ، مما أدى الى كثرة النفقات في الانشاء وزيادة المنفق على الاستثمار في إنشاء هذه الخطوط . فالخطوط الحديدية في الشام التي تمكنا من الحصول على بعض الوثائق عنها وعن نبذة من تاريخها والشؤون المتعلقة بها هي على الصورة الآتية :

اولاً طريق بيروت - دمشق ، وبيروت - المعاملتين ، ودمشق - المزرب ،
ورباق - حلب ، وحمص - طرابلس الشام .

خط بيروت - دمشق } لما كثرت حركة التجارة والنقل على طريق بيروت
لم تعد تكفي المركبات (الكارات) ولا الحوافل
(الداليجانس) مع ما هي عليه من الانظام والسرعة فدعت الضرورة الى انشاء سكة
حديد بين هاتين المدينتين ، ولكن مشروعا كهذا يصعب تنفيذه لانه تفصل دمشق
عن بيروت سلسلتان من الجبال الشاهقة لبنان الغربي ولبنان الشرقي وذلك بصورة
متعامدة على الخط الواصل بين المدينتين . وهذه الجبال ترتفع عن سطح البحر الى
١٤٠٠ أو ١٥٠٠ متر على الاقل وبينهما سهل البقاع الذي يرتفع هو ايضا من ٨٠٠
الى ١٠٠٠ متر عن سطح البحر فيظهر مما تقدم شدة الصعوبات الكثيرة التي تعترض
سير الخط قبل وصوله الى دمشق المرتفعة ٦٩٠ مترا عن سطح البحر اذ يقتضي على
هذا الخط قطع هذه العوارض والسهول . وفي حزيران سنة ١٨٩١ استحصل السيد
حسن بيهم امرا سلطانيا بامتياز خط حديدي بين دمشق وبيروت . وفي هذا الامتياز
رخصة باستعمال بعض الاراضي مجانيا ، واعفاء جميع مواد البناء اللازمة من رسوم
المكوس والضرائب بانواعها . ومن جهة أخرى فقد اشترط على صاحب الامتياز
استعمال اللغة التركية وحدها ، واستخدام الرعية العثمانية ، ونظر الحاكم العثمانية في كل
اختلاف يحدث خلال العمل . والحكومة العثمانية تحفظ لنفسها بحق شراء هذا
المشروع بعد ثلاثين سنة ، ودفع ثمنه أقساطا على ان لا تكون قيمة القسط أقل من
خمسين بالمائة من وصلي الواردات غير الصافية للخمس سنوات الأخيرة ، كما أوجبت
على صاحب الامتياز ان يؤسس شركة مساهمة عثمانية خلال ستة أشهر ، وان يتفق
مع شركة طريق بيروت - دمشق للتخلي عن حقوقها وان يدفع عربونا للحكومة
مقابل هذا الامتياز . وفي العشر سنوات الاولى من مدة الامتياز يرجع صاحبه
على سواء لانشاء ترامواي على مسافة ثلاثة كيلومترات من طريق الخط الحديدي

او تأسيس ادارة لتسيير عجلات او سيارات بين محطات الخط الحديدي والبلدان القريبة من هذا الخط .

وفي ١٨ نيسان سنة ١٨٩٠ حصل يوسف افندي مطران على امتياز خط حديدي بين دمشق وهوران . ولما لم يتم بتقديم مصورات المشروع خلال المدة المعينة سقط حقه من ذلك الامتياز . غير انه استعاده بعدئذ وأسس شركة بلجيكية باسم شركة ترامواي دمشق وخط دمشق — حوران برأس مال قدره اربعة ملايين فرنك ذهبي تقسم على ثمانية آلاف سهم ، سعر كل سهم منها ٥٠٠ فرنك . ومن جهة أخرى فان الشركة التي أسست للحصول على الامتياز الممنوح للسيد حسن بيهم سميت باسم الشركة المساهمة العثمانية لخط بيروت — دمشق الاقتصادي . وقد رأّت هاتان الشركتان من الضرورة الماسة ان تندجبا معاً ولا سيما لما أحرزت شركة انكليزية امتياز خط حيفا — دمشق وذلك دفعاً للخطر المحتمل حدوثه من هذا الامتياز الاخير . وقد طلبتا الموافقة على ذلك الاندماج من الحكومة العثمانية التي قبلت بذلك بالمرسوم السلطاني المؤرخ في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٨٩١ الذي مدّد مدة امتياز هاتين الشركتين الى ٩٩ سنة اعتباراً من ٣ حزيران سنة ١٨٩١ . وعلى هذه الصورة جعلت مدة الشركتين واحدة . وسميت الشركة الجديدة باسم شركة الخطوط الحديدية العثمانية الاقتصادية لبيروت — دمشق — حوران في سورية . واعتبر تأسيسها نهائياً في صورة عثمانية اعتباراً من ٤ حزيران سنة ١٨٩٢ . وقد باعت شركة طريق بيروت — دمشق جميع حقوقها المحررة بالمرسوم السلطاني المؤرخ بـ ٢٠ تموز سنة ١٨٥٧ من هذه الشركة الجديدة . وذلك بتاريخ ٢ كانون الثاني سنة ١٨٩٢ وقد خُصص لكل ذي سهم واحد في شركة الطريق سهان في شركة الخطوط . واستحصلت شركة المرفأ على مقعدين في مجلس ادارة شركة الخطوط للمنافع المتبادلة بين الشركتين . وصدرت ارادة سلطانية في ٢٥ تموز سنة ١٨٩٢ بتمديد ٤٩ سنة مدة امتياز شركة المرفأ وذلك لجعل مدة الشركات الثلاث متساوية . ولم تمض مدة قليلة حتى تبدل اسم الشركة للمرة الثالثة وذلك في الجلسة العامة المنعقدة في ١٣ تموز ١٨٩٣ والسبب في ذلك ان يوسف افندي مطران صاحب امتياز خط

دمشق — حوران قد حصل على امتياز جديد خط دمشق — حمص — حماة — حلب — البيرة (بيره جك) . وعرض على الشركة هذا الامتياز الذي كانت تحلم به فصدرت ارادة سلطانية - في ٣٠ أيار ١٨٩٣ تمنح يوسف افندي مطران انشاء الخط المذكور واستثماره لمدة ٩٩ سنة . وعلى ذلك أصبح اسم الشركة الشركة المساهمة العثمانية لخطوط بيروت — دمشق — حوران — البيرة على الفرات وجُمعت مدنها ٩٩ سنة لتنتهي في حزيران ١٩٩٢ وجرت مراسم افتتاح خط بيروت — دمشق في ٣ آب ١٨٩٥ .

هذا الخط هو من الخطوط الضيقة عرضه متر وخمسة سانشيمترات . وهو يقطع جبال لبنان بواسطة الخطوط المسننة على مسافة ٣٤ كيلومتراً ، وطوله ١٤٧ كيلومتراً اما ميله فيصل الى سبعة بالمائة أحياناً ، ويحتوي على اربعة أنفاق (تونيل) لا يتجاوز أطولها الـ ٣٥٠ متراً فاستعمال الخطوط المسننة قد أبطأ سير القطارات ابطاءً غربياً ، مما جعل السرعة الوسطية لا تتجاوز الـ ١٦ كيلومتراً في الساعة ، ويقطع قطار الركاب المسافة بين بيروت — دمشق في تسع ساعات ، وتجتاز قطارات الشحن ذات المسافة في ١١ ساعة في حين ان الحوافل كانت تجتاز هذه المسافة ايضاً بـ ١٣ ساعة . وخط بيروت — دمشق يربح نفقات الاستثمار مع فائدة رأس المال .

واليك جدولاً يحتوي اسماء المحطات ومقدار المسافات مع ارتفاع هذه الخطوط عن سطح البحر .

اسماء المحطات	المسافات كيلومتر	الارتفاعات متر
بيروت	٠	٠
الحدث	٧	١٥٠
بعيدا	٩	٢٤٢
جمهور	١٢	٣٨٠
عاربيا	١٧	٣٨٠

الارتفاعات	المسافات	اسماء المحطات
متر	كيلومتر	
٧٥٠	٢١	عاليه
٧٥٠	٢٧	يحمדות
١٢٩٥	٣١	عين صوفر
١٤٨٧		« رأس جبل لبنان »
١١٥٠	٤٤	المريجات
٩٥٠	٤٧	الجديدة
٩٥٠	٥٦	المعلقة
٩٠٠		« سهل البقاع »
٩٠٠	٦٦	رياق
١٣٢٨	٧٨	يحفوفا
١٤٠٥		« رأس جبل لبنان الغربي »
١٣٧٠	٨٧	سرغايا
١٢١٣	٩٨	الزبداني
١٢١٣	١١٥	سوق وادي بردى
١٢١٣	١١٩	دير قانون
١٢١٣	١٢٣	عين الفيجة
١٢١٣	١٣٠	الجديدة
٧٤٠	١٣٤	الهامة
٧٢٥	١٣٧	دسر
٦٩٠	١٤٤	دمشق — برامكة
٦٩٠	١٤٧	دمشق الميدان

خط بيروت — } يسير هذا الخط الحديدي على شاطئ البحر ويمر بطريقه
المعامتين } على بعض القرى الساحلية وأهمها بلدة جونبة ، وكان
القصد من انشائه وصل مدينة طرابلس ببيروت ، ولكنه لم يتم منه سوى ١٩ كيلومتراً
عند قرية المعامتين وهو ملك لشركة الترامواي اللبناني .

* * *

خط دمشق — حوران } جرى انشاء خط دمشق — حوران باهتمام
وسرعة زائدة وقد تم عمله سنة ١٨٩٣ وبوشر
باستثماره في أواسط سنة ١٨٩٤ ، ولم يصادف صعوبة عظيمة في انشائه فال ١٠٣
كيلومترات المتألف منها هذا الخط تمر في سهل خفيف التموج بين دمشق — المزيريب
والميل الاعظم فيه لا يتجاوز الاثنین بالمئة ، وهو من الخطوط الضيقة كخط بيروت —
دمشق اي في عرض متر وخمسة سنتيمترات .

وكان لا يحصل الا على نفقات الاستثمار فقط اي انه كان لا يؤدي فوائد رؤوس
الاموال . ومن العوامل التي دعت الى عدم نجاحه بعد مرفاء بيروت عن منتهى الخط
الحديدي مسافة ٢٤٠٠ متر ولكن شركة الخطوط الحديدية انفقت مع شركة المرفاء
وشركة الترامواي اللبناني على وصل الخطوط الحديدية بارصفة المرفأ وذلك بتاريخ
٤ شباط ١٨٩٧ وجرى بالفعل ذلك الوصل وبوشر باستثماره في سنة ١٩٠٣ وبلغ
طول هذا القسم ٢٢٠٠ متر وهو ابضاً من الخطوط الضيقة وقد كلف عمله جهوداً
عظيمة ونفقات باهظة . اما خط دمشق — المزيريب فقد اقتلعه القائد العثماني جمال
باشا اثناء الحرب العامة لاستعمال قضاياه في إنشاء الخطوط اللاتينية العسكرية
ولذلك أصبح هذا الخط من الخطوط التاريخية لانه لم يجر الى يومنا هذا إرجاء ،
الى ما كان عليه حتى أن الشركة الفرنسية صاحبه لا تفكر بارجاعه على ما نظرت .
بعد ان وضعت يدها على ادارة الخط العجازي . ولا يعقل بقاء خطين متوازيين
في منطقة واحدة .

* * *

خط دمشق — حلب } كتب وزير الأشغال العامة في الدولة العثمانية
في تقريره سنة ١٨٨٠ لوصول مدينة حلب بديار
بكر يخطط حديدي ماراً ببيره جك واورفة . وكتب المهندس برسيل ايضاً في تخطيط
الطريق الحديدي ما يقرب من خطط الوزير العثماني على ان يكون في طول ٤٢٠
كيلومتراً وفي عرض (١,٤٤) اي من الخطوط الاعتيادية . وفي تقرير الوزير
العثماني ايضاً خط حديدي يبتدي من حلب الى حماة فحمص فدمشق فحوران .
وكان قد رُفقت كل كيلومتر واحد اذ ذاك بـ ١٣٠ الف فرنك ، وطلبت امتياز
هذا الخط شركة البانينيول وأرسلت مهندسينها لوضع التصميمات اللازمة له . وفي
سنة ١٨٩٢ طلبت شركة عثمانية مؤلفة من اعضاء مسلمين امتياز هذا الخط من وزارة
الحربية وذلك لانشاء خط عسكري بدون ضمانات كيلومترية . ولكن صدرت الارادة
السلطانية بتاريخ ٣١ ايار ١٨٩٣ باعطاء الامتياز لـ يوسف افندي مطران وكيل
الشركة الفرنسية لخط بيروت — دمشق — حوران وعقدت المقابلة مع الوزير حسين
توفيق باشا و يوسف افندي مطران . وقد ذكر بصراحة في اول مادة لهذه المقابلة
ان القصد من عمل هذا الخط هو عسكري بحت . وعلى صاحب الامتياز ان يسير
حسب ما قرره وزارة الحربية من التخطيط وان ضابطاً من اركان الحرب سيقوم
بدرس هذا المشروع مع اللجنة المختصة لدرسه . وجُمِلت مدة الامتياز ٩٩ سنة
على ان يكون عرض الخط اعتيادياً (١,٤٤) وان يكون مفرداً و يضاف اليه خط
ثاني في المستقبل . وفي الامتياز شروط أخرى تُذكر عادة في المقاولات من
هذا النوع . كاعفاء المحروقات وادوات الخط جميعها من المكوس ووضع عربون في
خزينة الدولة مقداره ٢٢٥ الف فرنك . وانه يحق للدولة اشتراء هذا الخط ودفع
ثمنه أقساطاً على ان لا تكون قيمة القسط أقل من خمسين بالمائة من وسطي الواردات
غير الصافية للخمس سنوات الاخيرة وان لا يكون المبلغ المدفوع أقل من سبعة آلاف
فرنك عن كل كيلومتر واحد . وقد ذكر ايضاً اربعة شروط أخرى ذات مكانة
عظيمة نذكرها فيما يلي :

(١) ان الشركة قد حصلت على حق استئجار المعادن الواقعة في طرفي الخط على

مسافة ٢٠ كيلومتراً من الجانبين ٠ (٢) حصلت الشركة على ضمانات كيلومترية مضمونة بأعشار البلاد التي يمر منها هذا الخط ٠ وهذا عكس جميع الخطوط الشامية ٠ وان لا تكون هذه الضمانات أقل من مائة بالمائة من رأس المال الموضوع للتأسيس وان لا تكون أكثر من ١٢٥٠٠ فرنك عن كل كيلومتر واحد ٠

وبما ان هذا الخط الذي أخذ امتيازاه ولم يجر انشاؤه يبلغ طوله أكثر من ٥٠٠ كيلومتر فأعظم ضمانات يقتضى على الحكومة العثمانية دفعها لتجاوز السبعة ملايين و ٢٥٠ ألف فرنك ولما كانت النفقات قليلة على بعض نقاط هذا الخط فتتضرر الحكومة لدفع هذا المبلغ برمته نقر بياً ٠

(٣) بحق للشركة ان تمتد خطوطها الى الشمال لنقطة واقعة بين بيرة جك حتى تتمكن من وصلها بخط بغداد (المادة ٣) ٠ (٤) ترجع الشركة على مساها للحصول على امتيازات جميع الخطوط التي تقرر الحكومة تمديدتها بين الخط الامامي والسواحل الشامية بشروط متساوية (المادة ٣٥) ٠ وأخيراً وضع وزير المالية مبلغ مليون و ٨٠٠ ألف فرنك بين يدي اللجنة الدولية للديون العامة لتأمين الضمانات الكيلومترية ٠ وذلك في سنة ١٨٩٦ ٠ وفي ١٢ تشرين الاول ١٨٩٦ انفقت الشركة والحكومة العثمانية على تأجيل إنشاء هذا الخط مدة خمس سنوات ٠ وتعهدت الحكومة بدفع تقسيط سنوي مقداره ٣٣ ألف ليرة عثمانية ذهباً اي ٧٥٠ ألف فرنك الى الشركة مقابل العطل الذي يصيبها من هذا التأجيل ٠

ومع هذا لم يتم إنشاء هذا الخط الا لمدينة حلب فقط وجرى عمله على قسمين : الاول رياق — حماة ٠ والثاني حماة — حلب ٠ وطول القسم الاول وهو خط رياق — حماة ١٨٩ كيلومتراً بوشر باستثماره سنة ١٩٠٢ وعرضه متر واربعه واربعون سائمتراً ونصف ، وميله الاعظم اثنا عشر بالالف ، وفي رياق مخزن كبير للفحم ، ومعمل لاصلاح أدوات الخطوط والقاطرات ويعمل هذا الخط في بعلبك ١١٢٠ متراً عن سطح البحر ٠ ثم يهبط الى حماة المرتفعة ٣٠٧ متراً ٠ اما القسم الثاني وهو خط حماة — حلب فيبلغ طوله ١٤٣ كيلومتراً جري استثماره سنة ١٩٠٦ وعرضه متر واربعه واربعون سائمتراً ونصف ، وميله الاعظم اثنان في المئة ٠ وقد كان

القصص تمديده الى مدينة بيردجك كاتقدم ولكن اعطاء امتياز خط بغداد الى الشركة الاناضولية حال دون تمديده الى الشمال .

خط حمص - طرابلس } طول هذا الخط ١٠٢ كيلو مترين ، وقد
 شرع باستثماره سنة ١٩١١ ، وعرضه متر
 واربعة واربعون سائمتراً ونصف ، وميله الاعظم اثنان بالمئة ، واقتطعت قضبانه اثناء
 الحرب الكونية العامة واستعملت في تمديد خط بغداد - نصيبين ، وخربت كثير من
 المحطات وبعض الجسور خلال هذه الحرب ، وأعيد الخط الى ما كان عليه قبلاً
 سنة ١٩٢١ وبلغت نفقات إعادته احد وعشرين مليون فرنك . وقد بلغت نفقات
 استثمار خطوط شركة دمشق - حماة وتمديداتها عن سنة ١٩٢٦ ، ١٤٢ ، ٣٤٧٥٩ ،
 فرنكاً والواردات ٣٢٥ ، ٧٥٩ ، ٥٧ .

طريق الحج وسبب إنشاء الخط الحجازي } كان المسلمون يلاقون صعوبات ومشقات
 في ذهابهم وإيابهم الى البلاد المقدسة لاداء
 فريضة الحج في كل سنة ، فكان يستغرق سفر الحاج الشامي اربعين يوماً من دمشق
 الى المدينة المنورة وعشرة ايام من المدينة الى مكة المكرمة . خمسون يوماً بقضيتها الحاج
 بين دمشق والمدينة فمكة وعشرون يوماً على الاقل يمضيها في القيام بالمناسك وزيارة قبر
 النبي المعظم صلى الله عليه وسلم ويقضي خمسين يوماً في عودته . فهذه اربعة أشهر كاملة
 للحج الشامي . اما التركي والایراني وغيرهم من اهالي الممالك الاسلامية النائية فقد كان
 يحول الحول على أحدم دون الوصول الى بغيته . وناهيك بما يعترض الحاج من مشاق
 الأسفار وأموالها وما يضطر لصرفه من النفقات الباهظة في هذه السبيل . وكانت
 كثير من الأغنياء يتقاعدون عن القيام بهذه الفريضة لعدم توفر الوسائط اللازمة
 لراحتهم . فعمل خط حديدي الى البلاد المقدسة كان من الضرورة بمكان .
 كانت الحجاج المسلمون يأتون الوفا من جميع الأقطار الاسلامية الى دمشق
 ويجمعون فيها انتظاراً لسفر موكب الحج وكان يتألف هذا الموكب في دمشق وبسبر

منها منجهاً نحو البلاد المقدسة تحت إدارة حاكم عثماني بقلب بامير الحج . ان قافلة كهذه يصعب جداً سيرها بدون انتظام شديد وكانت تتألف من مشاة وفرسان وهجانة وحمارة يقدر عددها بعشرة آلاف نسمة وعشرين ألف دابة على الأقل . ولذلك كانت طاعة امير الحج واجبة على جميع الحجاج ليسهل عليهم قطع هذه الطريق المملوءة بالأخطار والمصاعب دون ان يتركوا احداً على الطريق أو أسيراً بين ايدي البدو . وكان هؤلاء يثورون على الحكومة من وقت الى آخر ، وبواسطة الهدايا التي كانت يرسلها السلطان لقبائل البدو والعطايا التي يمن بها على شيوخهم كانت أطراف دمشق آمنة سالمة ، وكان لا يخشى وقوع حوادث بالقرب منها ، ولذلك كانت القافلة غير مضمونة الانتظام الا بجوار بلدة المزيريب في حوران .

وكانت العادة ان يرحل امير الحج من دمشق في الخامس من شهر ثوال في ركب مؤلف من جيش صغير مجهز بالأسلحة الكاملة والمدافع الصغيرة ويتبعه الحجاج زرافات ووحدانا . والمدمشقيون يقومون بتشيعهم الى قبر احمد باشا في الميدان اي الى جامع العسالي ، وتجري المراسم العسكرية والاحتفالات تكريماً لهذا الركب العظيم ، وكانت الحكومة في دمشق تهتم اهتماماً زائداً بتشيعه ، ويسير الموظفون وأصحاب الرتب العالية بالبستهم الرسمية أمام المحمل الشريف تحيط بهم صفوف الجند وهجانة البدو حتى نهاية طريق الميدان ، وكانت الموسيقى تصدح اثناء الموكب والمدافع تطلق حين خروجه وعند وصوله الى القدم والكل فرحون مسرورون من هذا اليوم العظيم .

وبعد ذلك يسير الركب من القدم الى الكسوة وهناك يجذ ماء صالحاً للشرب ثم يسير الى المزيريب فيبقى فيها اربعة او خمسة ايام وعندئذ يتألف الركب عسكرياً وعلى رأسه امير الحج فيسير قسم من الجيش في المقدمة والقسم الآخر يقوم بحفظ جناحي الركب . وفي كل صباح ومساء تطلق ثلاث طلقات نارية اعلاماً بوقت المسير والوقوف وكثيراً ما كان يبلغ طول هذا الركب ثلاثة او اربعة كيلومترات . واما الدرب الذي كان يسير عليه فهو عبارة عن عدة طرق صغيرة حفرتها ايدي الابل والدواب طول السنين ولا يوجد طريق مرسوم على الطريقة الفنية الحديثة المعروفة اليوم .

وكانت المسافة بين دمشق ومكة المكرمة تقدر بأربعمائة وتسعين ساعة واربعين مرحلة منها ٩٠ ساعة من المزيريب الى معان .

و يجناز الركب من المزيريب الى المفرق وعين الزرقاء والبلقاء والقطرانة وهنا يشتد عليه الدرب صعوبة و يدب الرعب والخوف في قلوب الحجاج ذلك لانه كانت المضائق غاصة بعصابات من اللصوص . والماء الشروب قليل . وكثيراً ما كانت السيول تجرف الركب باجمعه فلا ينجو منه الا الحجاج فقط ، فاذا بلغ الركب مدينة معان يستريح فيها قليلاً ويتابع سيره فيقطع العقبات المؤدية الى النفود ، وهذا المضيق الصعب يبعد ثلاث عشرة ساعة عن معان ، فيترجل الحجاج عن دوابهم و يسرون مشاةً أمام امير الحج الذي يصعد على رأس جبل صغير و يجلس مشاهداً الجموع تمر أمامه . وبعد ذلك يسير الركب ولا يشاهد في طريقه سوى الرمال في سهل النفود القاحل حتى مدائن صالح مدة ١١٤ ساعة . وكثيراً ما يشاهد الحجاج سراب هذه الرمال الجميلة عن بعد . ففي هذه الطريق الصعبة وبين هذه الرمال المحرقة يسرع الركب تخلصاً من النصب والتعب ، فيوزع امير الحج على الحجاج المياه للشرب مجاناً و يستأجر مئات من الجمال لتقوم بهذا العمل الخيري ، وكل ذلك لم يكن يجدي نفعا . ولطالما حدثت اختلافات بين الامير والبدو فنقع المصيبة على رأس الحجاج والركب معاً على ما وقع ذلك كثيراً فيملاً الخوف والرعب قلوب الحجاج طول الطريق فيحدثون بهذه الحوادث الخيفة التي وقعت في السنين الماضية و يعلم بعضهم بعضاً بمحالها ومواقعها و يذكرون ما كان يتنبعها من أعمال السلب والنهب .

ان مدائن صالح أخف صعوبة من البلاد التي قبلها وأقل خطراً منها . وفيها كثير من الآثار القديمة النبطية . فمنها يسير الركب الى المدينة المنورة وبعدها الى مكة المكرمة واكثر الاراضي الحجازية مؤلفة من جبال وأودية وقليل من الواحات فالطريق التي يتبعها الركب هي طريق صعبة . وفيها آبار منقطعة وليست بجيدة . وهناك ايضاً درب آخر يقال له الدرب السلطاني وهو الدرب الأقصر طولاً ولكنه أشد خطراً . فالحجاج يعرضون عنه حينما تبلغهم ثورة البدو على الحكومة . هكذا

كانت حالة الطريق المؤدية الى البلاد المقدسة وهذه هي المشقات التي كان يلاقيها الحجاج في طريقهم .

انشاء الخط الحجازي } وهذا مادعا الحكومة العثمانية في ضرورة اتخاذ التدابير اللازمة لإزالة هذه الصعوبات والحيلولة دون الاسباب التي كانت تفاق راحتها في الداخل وتظهرها بمظهر العاجز في الخارج أمام دول الغرب . لاسيما وان السلطان عبد الحميد الثاني كان حريصاً جداً على توسيع نفوذه المعنوي في جميع الممالك الاسلامية خدمة للاسلام وتوصلاً لغاياته السياسية لذلك فقد قرر سنة ١٩٠٠ مد خط حديدي يصل الشام بالحجاز ويسهل السفر على الحجاج وبأني بالنفقات المادية والمعنوية على البلاد والدولة . على ان هذه الفكرة لم تكن بنت وقتها وليست وليدة رأس عبد الحميد فقد سبقه اليها الدكتور زامبل الاميركي الالماني الاصل فاقترح سنة ١٨٦٤ على الحكومة العثمانية مد خط حديدي بين دمشق وساحل البحر الأحمر .

وفي سنة ١٨٨٠ صحت عزيمة وزير الاشغال العامة في الاستانة على تمديد هذا الخط الى الاراضي المقدسة . ولكن اكثر المهندسين والجغرافيين كانوا يقولون بتعذر تنفيذ هذا المشروع . لان البلاد التي يجنازها هذا الخط ينزلها قبائل من البدو الرحالة الذين اعتادوا السلب والنهب . وسهولة المواصلات بالوسائل البحرية ورخصها اكثر من البر . وقالوا ان الراجح الذي يحصل من نقل الحجاج اثناء الموسم لا يكفي للقيام بجميع النفقات السنوية لهذا الخط العظيم . ولكن كانت هذه الصعوبة في نظر السلطان عبد الحميد أخف مما يتصور . فادارة الحج ونفقات السفر كانت تستنزف من موازنة الحكومة مبلغ ١٥٠ الف ليرة عثمانية على الاقل . والهدايا التي ترسل الى البدو تقوم بـ ٦٠ الف ليرة عثمانية . وكان السلطان عبد الحميد يأمل من جهة أخرى وصول مبالغ عظيمة من الامم الاسلامية اعانة لهذا المشروع الاسلامي ولم تبدأ الحكومة بالعمل الا بعد ان أعلنت عزمها على ذلك في جميع الاقطار الاسلامية مما هو داخل تحت سيطرتها او خارج عنها . وأبانوا ما ينتج عن ذلك من التسهيل لرواد

الحج واستمطرت أكف المسلمين تعضيداً لهذا المشروع الديني المحض . فتمتقي أمل
السلطات وبدأت الاكتنابات ترد من جميع البلدان الاسلامية وقد افتتح هو نفسه
هذه الاكتنابات بـ ٣٢٠ الف ليرة عثمانية ، وتابعه في ذلك الملوك والامراء
المسلمون . فشاء العجم أرسل ٥٠ الف ليرة عثمانية وخديوي مصر تعهد بارسال كمية
عظيمة من مواد البناء والانشاء . وألفت في البلاد الاسلامية الخارجية عن حدود
الدولة العثمانية كثير من الجمعيات لجمع الأموال ، فألف الهنود ١٦٦ جمعية وأهالي
لكنو وحدهم أرسلوا ٣٢ الف ليرة عثمانية وكذلك أهالي رانكون ومدراس أرسلوا
ايضاً ٢٣ الف ليرة ، وأرسل الميرزا علي احد أغنياء كلكتا خمسة آلاف ليرة
وأرسل مدير جريدة الوطن في لاهور ٥٠٠٠ ليرة وذلك من الاكتناب الذي فتحه
في جريدته واشترك فيه الهنود والترانسفاليون والصينيون . ولم تنقطع الاعانات
مدة انشاء الخط مما دل على مريان روح التضامن في الشعوب الاسلامية .

والاغرب من هذا ان احداً الخمس بين دفع ٢١٠٠ ليرة عثمانية ليحصل على لقب (باشا) .
وقد جعلت شارات وأوسمة لمن يدفع الاعانات . فالدرجة الثالثة لمن يدفع من ال ٥
ليرات الى ٥٠ ليرة . والدرجة الثانية لمن يدفع من ال ٥٠ الى ١٠٠ ليرة . والدرجة
الاولى لمن يدفع اكثر من ١٠٠ ليرة ذهبية . وهذه الطريقة كانت نافعة لولا ان
هذه الرتب والوسمة كانت تباع في الاستانة باقل عما تقتاضاه دوائر الخط الحجازي .
ثم وضعت بعض الضرائب لاعانة الخط ونزل الموظفون عن راتب شهر كامل في بادئ
الامر ثم أكره الموظفون على دفع عشر راتبهم الشهري في السنة مرة واحدة . وحدثت
طوابع الخط الحجازي وبعض الضرائب الجمركية لمنفعة هذا الخط كما جمعت ادارة
الخط جلود الاضاحي من الناس تباعها وترافق بثمنها . مما دعا قنصل انكلترا الى ان
يصرح سنة ١٩٠٤ قائلاً : يظهر لي ان احتمال اكمال الخط الحجازي هو أعظم
مما كنت أنصور قبل سنة او سنتين . والحقيقة ان اكثر الناس كانوا اذ ذاك
وخصوصاً المطلعين على هذا الامر يظنون ان عملاً كهذا هو أقرب الى الخيال منه الى
الحقيقة . واذا لم يتم هذا المشروع الى مكة المكرمة ووقف عند المدينة المنورة فذلك
لم يكن منبعثاً من قلة المال لان المال أصبح وافرأ بعدما كان يخشى من قلته و يظهر ذلك

من الاطلاع على موارد هذا المشروع . فالأخصائيون لا يظنون الآن ان النفقات العامة تتجاوز ١٢٥ مليون فرنك اي خمسة ملايين ونصف ليرة عثمانية . في حين انه كان يظهر في بادئ الامر ان هذا المبلغ هو الحد الاصغر لهذا العمل . فقد جمع من الاعانات في البلاد الاسلامية ٢٥٠ الف ليرة عثمانية اي ١٧ مليون فرنك . والضرائب التي وضعت تضمن مورداً قدره ٢٥٠ الف ليرة سنوياً . فهذا المبلغ يسد نفقات الانشاء . والاعانات تساعد على شراء المواد اللازمة اه .

وسيفي الواقع انه لم يكن احد يتصور ان النتيجة ستكون قرينة الشاغل بهذه الصورة وان العمل سيتم على هذه السرعة وهذا النظام لطول المسافة ، وفقدان المياه ، ووعورة المسالك ، وفقر الدولة وضعفها الاداري ، ولكن المشيئة الالهية قد ذلت كل هذه الصعاب ووفقت الى انجازه ليكون نقطة اتصال بين الاقطار العربية الاسلامية وواسطة مباركة لتوفير راحة الحجاج وتسهيل مسالك الحج والزياره .

كان استعمال الاعانات منظماً تنظيمياً حسناً ، فقد وزعت الاجور على العمال والرواتب على الموظفين بصورة منظمة ، ودفع ثمن الادوات ومواد الانشاء في الحال . مما دعا الناس ان يؤمنوا بانجاز هذا المشروع . وقد كان سير العمل سريعاً . فكانوا يمدون مائة كيلومتر في كل عام . بهذا ان احد المقربين من السلطان عبد الحميد احمد عزت باشا العابد مع لجنة الحجاز كانوا يديرون الأموال على طريقة غير مرضية فتسربت الملايين الى جيوب اللصوص والخونة ، فأدى سوء الاستعمال في مواد الانشاء لاضاعة كثير منها . وكان هؤلاء المقربون يحمون بعض رجالهم الذين يتقدمون في صورة ملتزمين وينقدونهم الأموال الزائدة ويعينون بعضهم في وظائف في الادارة .

شرع بانشاء الخط الحجازي في شهر ايلول سنة ١٩٠٠ مبتدأ به من المزيريب لان بين دمشق وهذه القرية سكة حديد افراسية يمكن نقل الحجاج من الشام الى المزيريب عليها لا سيما وان امتياز هذه السكة لا يجيز انشاء سكة أخرى تحاذيها ، وما كادت الحكومة تمضي في عملها حتى بدأت المنافسة نشدت بين الادارتين فشعرت الحكومة العثمانية حينئذ بشدة الحاجة الى اتصال الخط الحجازي بمدينة دمشق .

وقررت انشاء خط درعا — دمشق وبوشر بالعمل من دمشق والمزيريب دفعة واحدة .
وفي سنة ١٨٩٣ نالت الشركة الافرنسية امتيازها ولم يكن السلطان عبد الحميد
الثاني يفكر في خطه المقدس . ولذلك كان سمح لها بوضع سكة حديد بين دمشق
والمزيريب وبوشر باستثمارها منذ سنة ١٨٩٤ فانشاء سكة حديدية موازية لخطها من
دمشق الى درعا يجعل المنافسة على أشدها ولذلك احتجت الشركة على هذا العمل فتمكنت
من نيل امتياز خط حلب مع الضمانة الكيلومترية وذلك في شباط سنة ١٩٠٥ .
وقد افتتح القسم الاول من الخط الحجازي اي دمشق — درعا في ايلول ١٩٠٣
وبعد ذلك بشهر واحد افتتح قسم درعا — عمان وتيسر لادارة السكة الحجازية في
أقل من ثلاث سنين مد ٢٢٣ كيلو متراً .

يتجه الخط الحديدي الحجازي بعد خروجه من واحة دمشق نحو الجنوب الشرقي
في اسنقامة سهل حوران فيمر بالمسمية أهم قرى اللجاة ثم يقطع هذا الخط سهل حوران
الخصيب برمته وهو يمتد الى سفح جبل الدروز و يصل الى محطة درعا الواقعة في وسط
السهل وهي على ١٢٣ كيلو متراً عن دمشق ومن درعا يفرع فرع حيفا متجهاً صوب
الغرب فيصل البحر ، واما الخط الاساسي فيهيئ مستمراً في طريقه نحو الجنوب .

من أهم الفوائد التي جنبت من امتداد هذا الخط ان كثيراً من البدو سكنوا تلك
الربوع بالقرب من مخافر الجنود العثمانية وامتلك عدد عظيم من مهاجري الشركس
الذين كانوا تائهين في شمالي الشام بعض الاراضي هناك وأسسوا القرى والمزارع
فيها . وكل هذا العمل لم يكلف أموالاً باهظة بالنسبة لغيره من المشاريع . وكانت
القاطرات في نهاية سنة ١٩٠٣ تسير الى مسافة ٣٠٠ كيلومتر من دمشق وبلغت
اكلف الكيلومتر الوسطي حينئذ ٢٠٠٠ ليرة عثمانية ذهبية . ولما بدأت المنافسة بين
السكة الحجازية والسكة الافرنسية شعر السلطان عبد الحميد ومهندسوه بشدة الحاجة
الى اتصال الخط الحجازي بمرفاء بحري يستمد منه لوازمه وأدواته ويكون منفذاً
للاقطار الواسعة التي سيتم فيها فقرر انشاء خط حديدي جديد بين حيفا ودرعا .

والناظر الى خارطة البلاد الشامية يرى لأول نظرة مكانة خليج عكا فسليلة
الجبال الممتدة من مصب نهر العاصي الى ترعة السويس وهي بمثابة سد عظيم بين

الساحل والداخل وليس فيها سوى بعض منحدرات كسهل طرابلس وبيروت ومصب
الليطاني اي القاسمية وخليج عكا . وأعظم هذه المنحدرات وأهمها الانخفاض الواقع
قرب عكا . ان سلسلتي لبنان الغربي والشرقي المتوازيتين تمنعان المواصلات مع
الداخل منعاً بته لا ارتفاعها . وبالطرق الفنية انصلت دمشق ببيروت وهكذا الشأن
في الانخفاض في جوار بحر لوط فانه يعوق المواصلات مع الداخل ايضاً . فلم يبق
إذا سوى سهل عكا الذي يسهل المرور منه الى الداخل . ولذلك كانت عكا وحيفا
في العصور القديمة والقرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر مرفأين طبيعيين لحوران
ودمشق . وقد رأى كثير ممن بعينهم الامر وصل دمشق وحيفا بخط حديدي
لسهولة هذا الطريق كما بيناه آنفاً . وكان الانكايز أشد الناس رغبةً بنيل امتياز
هذا الخط وخصوصاً بعد احتلالهم جزيرة قبرس . وقد تمكن أبناء مرسى من أعيان
بيروت من استصدار منشور سلطاني يخهم حق انشاء خط حديدي بين عكا — دمشق .
ولكنهم لم ينجحوا إذ ذاك في عملهم لتمذر معاونة أرباب الأموال في انكلترا .
فخسروا العربون الذي دفعوه الى خزانة الدولة وقدره خمسون الف فرنك .

وفي سنة ١٨٨٩ طلب (م . ف . الياس) رأس المهندسين في لبنان هذا
الامتياز مجدداً مع تمديد الخطوط الى حوران فلم يفلح ايضاً . وقد انقضت المدة ولم
يُعمل عمل بهذا الشأن الى ان نال الامتياز المهندس اللبناني والمستر بيلانغ من التبعة
البريطانية وأسس شركة الخطوط الحديدية الثمانية للشام برأس مال قدره ٦٠٠
الف ليرة انكليزية . وبوشر بالعمل سنة ١٨٩٢ ثم توقفت الاعمال بعد الكيلومتر
التاسع لان أفكار أرباب الاموال من الانكليز كانت متجهة نحو معادن الذهب .
فجاءت حرب الترانسفال وانصرفت أفكار الانكليز كل الانصراف اليها مما أدى
الى ترك العمل بته .

فلما قرر السلطات عبد الحميد وصل الخط الحجازي بمرفأ حيفا كما ذكرنا قبلاً
رأى من الضرورة استرجاع هذا الامتياز وذلك في تشرين الثاني سنة ١٩٠٢ .
وتمكن مهندسو عبد الحميد من عمل خط حينا والخط الحجازي بعد استلامهم
الأعمال التي تركها الانكليز . بيد انهم لم يتخذوا الخط الانكليزي أساساً لم بل تركوه

وشأنه وجمالوا خطهم الجديد خطأ ضيقاً كالخط الحجازي وتمكنوا من الوصول الى درعا نقطة اتصال هذين الخطين باقل من ثلاث سنوات بالرغم مما اعترضهم من الصعوبات العظيمة أثناء عملهم . وقد كلف هذا الخط من سبعة الى ثمانية أضعاف المعدل المتوسط لنفقات الخط الحجازي . وحقاً ان هذا القسم كان أهم قسم من الخط الحجازي وأحسنه من الوجهة الفنية اذ كانت لنخله صعوبات فنية لا توجد في سواه . ويتبدى هذا الخط من حيفا على ساحل البحر فيرتفع ٨٠ متراً في مرج ابن عامر بعد سير ٤٠ كيلو متراً . ثم يهبط من اعلى هذا السهل الى أسفل وادي الشريعة ليمر فوق جسر ينخفض مقدار ٢٢٦ متراً عن سطح البحر . وذلك بعد قطع مسافة ٤٥ كيلو متراً . ثم يعود فيصعد من جديد الى ارتفاع ٣٧٦ متراً وذلك بعد مسافة ٤٠ كيلومتراً . ثم يصل الى سهل درعا المرتفع ٥٣٠ متراً عن سطح البحر . فكل هذه التمرجات من الصعود والهبوط قد انقضت قطعها على مسافة ١٦٨ كيلومتراً . فالتضعية صعبة بنفسها وخصوصاً ان وادي اليرموك الواقع في الجهة الشرقية من نهر الشريعة كان شديد الخطر وليس من ممر سواه في تلك البقاع . وبذلك تمكن السلطان عبد الحميد ومهندسوه من الخلاص من شركة بيروت — دمشق — حوران وأصبح لهم مرفأ خاص وهو حيفا التي أصبحت تبعد عن درعا ٣٢٣ كيلومتراً بالقطار . وبين درعا وحيفا ستة جسور حديدية اثنان منها بطول ٥٠ متراً والاربعة الآخرون بطول ١١٠ أمتار . ويوجد سبعة أنفاق يختلف طولها بين الـ ٤٠ والـ ١٧٠ متراً . والخط يقطع نهر الشريعة على جسر من الحجر جميل المنظر والصنع طوله ٦٠ متراً وهو ذو خمس قناطر .

وفي الوقت الذي نجح فيه خط حيفا — درعا تم القسم الثالث من الخط الحجازي الواقع بين عمان — معان . ففي اول ايلول سنة ١٩٠٤ المصادف للعيد الثامن والعشرين من الجلوس السلطاني ذهب وفد برئاسة طرخان باشا وزير الخارجية العثمانية للاحتفال بافتتاح الخط الحجازي بين دمشق ومعان وطول هذا القسم ٤٥٩ كيلومتراً . وكان هذا الوفد مؤلفاً من عظماء رجال الدولة العثمانية .

ان الخط الاسامي بعد محطة درعا يسير نحو الجنوب الشرقي ثم نحو الجنوب

مباشرة فيمر من سهل قاحل تنزل فيه عشيرة بني صخر المؤلفة من ٢٠٠٠ بيت و ٢٠ ألف نسمة وبعد ان يقطع « الحجاد » اي السهل المنبسط يمر بالقرب من أطلال الحصون الرومانية القديمة التي يسميها العرب اليوم قلعة المفرق وقلعة السمرة .

اما بقايا مدينة جرش القديمة وآثارها وسورها فتبقى في غربي الخط الحجازي . وهذه الآثار هي أكمل وأعظم ما يوجد في تلك البقاع من نوعها . وفي القرب من قلعة الزرقاء الرومانية يقطع الخط وادي نهر الزرقاء على جسر مرتفع جميل الصنع . ثم يصعد الخط في وادي نهر الزرقاء ويصل الى عمان بالقرب من نبع هذا النهر وذلك بارتفاع ٧٣٧ متراً عن سطح البحر وعلى ٢٢٣ كيلومتراً عن دمشق .

وبعد الخروج من عمان يتجه الخط نحو الجنوب صاعداً سهل الصحراء المائل فيمر من نفق طوله ١٤٠ متراً ويترك بجانبه كثيراً من الآثار القديمة منها المعبد اليوناني في قصر السهل . والمدينة القديمة في أبن وكذلك الخزان الروماني والقصر العربي في الجيزة او قلعة الزيزاء . وقبل ان يصل الخط الى قلعة ضبعة يميل نحو الشرق ويلتف باطراف وادي الموجب وبعد ذلك يتجه ايضاً نحو الجنوب فيمر من خان الزيت وقلعة القطرانة وقلعة الحسا وجروف الدراويش التي تحتوي على قصر روماني بديع ومن قلعة عنزه التي تقطن فيها أحياناً قبيلة عنزة المؤلفة من ٧٠٠٠ نسمة . وبعد قلعة الحسا تبدأ الارضون التي تنزل فيها قبيلة الحويطات . ثم يصل الخط الى معان المرتفعة مقدار ١٠٧٤ متراً عن سطح البحر . وهذه المدينة هي النقطة الوسطى للخط الحجازي لانها تبعد عن طرفيه على أبعاد متساوية والمحطة تبعد كيلومترين عن مدينة معان . وفي هذه المحطة أبنية عديدة للسكة الحجازية . وبفضل وصول الخط الحديدي الى تلك البقاع استتب الامن فيها وبدأت الحياة الزراعية تظهر شيئاً فشيئاً . وقد تجفّر قسم من البدو وأصبحت تلك الديار في قبضة الحكومة العثمانية بعد ان كانت تابعة لها بالاسم فقط بحيث ان احد شيوخ البدو المدعو محمد جهل كتب الى بيلرلوي الكاتب الفرنسي المشهور سنة ١٨٩٤ « بسم الله الذي هو الكل ولا باسم سلطان القسطنطينية الذي ليس بشي » .

وكان قصد القائمين بهذا المشروع الجليل انشاء فرع للخط بين مدينة معان

والعقبة لتقريب المواصلات بين البحر الأحمر والبلاد المصرية من جهة وبين الخط الحجازي من جهة أخرى، ولكنهم لم يرغبوا في ذلك الحين في صرف جهودهم إلا للخط الأساسي لأن غايتهم كانت الوصول إلى البلاد المقدسة في أقرب وقت .

وبعد معان فالخط الحجازي يتجه نحو الجنوب الشرقي فتلنف حوله الصحراء من جديد وابتعد عن البحر الأحمر ثم يصعد العقبة المسماة بالعقبة الحجازية أو الشامية المرتفعة ١١٥٠ متراً عن سطح البحر . وهذه النقطة هي المفرق الطبيعي للمياه التي تسيل إلى البحر الأبيض والبحر الأحمر . ثم يهبط الخط نحو ملعب بطن الغول المحفور في الصخور الرملية ذات الألوان العديدة المختلفة . وهذه البقعة هي من أجمل البقاع الطبيعية . وقد بضع السكان هذه الرمال الملونة في القوارير وبيعونها من الحجاج تذكراً لهذه البقاع وبعد ذلك يصل الخط إلى محطة المدورة فننتهي حدود قبيلة الحويطات . وتبتدي منازل قبيلة بني عطية . وكان وصول هذا الخط إلى هذه البلدة سنة ١٩٠٦ وهي تبعد مقدار ١١٤ كيلو متراً عن معان . وكان قسم من الخط أيضاً على وشك الانجاز بين المدورة وتبوك وهو على مسافة ١١٧ كيلو متراً وفي ١ ايلول سنة ١٩٠٧ تم القسم الرابع من الخط الحجازي وهو القسم الواقع بين معان وتبوك الذي يبلغ طوله ٣٣١ كيلو متراً فبوشر باستثماره .

وقد جرى في التاريخ نفسه الاحتفال بافتتاح قسم جديد بين تبوك ومدائن صالح التي تبعد ٩٥٥ كيلو متراً عن دمشق بحضور الجنرال اولير باشا الألماني من قواد الجيش العثماني . وفي هذا القسم جسر حجري ذو عشرون قنطرة يبلغ طوله ١٤٣ متراً وكانت الارضون فيه قاحلة ولكنها سهلة وأقل عوارض طبيعية من غيرها وكان يكفي ان توضع القضب الحديدية على الارض حتى يصلح السير عليها وذلك على مسافة كيلو مترات كثيرة .

وبعد مدائن صالح يصل الخط إلى العلا التي تبعد ٩٨٠ كيلو متراً عن دمشق . فالعلا مدينة صغيرة يقطنها قوم من الزراع يقدر عدده من ثلاثة آلاف إلى أربعة ونقع في واحة جميلة . ويسير الخط بينها وبين المدينة المنورة على طريق القوافل لان المياه كثيرة في هذه الطريق ومرار الخط في سهل وادي العلا يرتفع ٧٩٠ متراً

عن سطح البحر وذلك بين الزمرد والبئر الجديد ثم يهبط إلى بلدة الهدية المرتفعة ٣٤٥ متراً عن سطح البحر وهي التي كان يؤمها سابقاً حجاج أفر يقية من مرفأ الوجه على شاطئ البحر الأحمر . وبعد الهدية يصعد الخط إلى اصطبل عنتر وبئر عثمان ومنها إلى المدينة المنورة التي ترتفع ٧٠٠ متر عن سطح البحر وتبعد ١٣٢٠ كيلومتراً عن دمشق . وقد وصل أول قطار إلى المدينة المنورة في ٢٢ آب سنة ١٩٠٨ ولكن الاحتفال جرى في أول أيلول المصادف ليوم عيد الجلوس السلطاني فكانت الحفلة عظيمة الشأن ذات أهبة وجلال . وجرى فيها أيضاً افتتاح المحطة التي شيدت خارج أبواب المدينة وقد أنيرت المحطة بمصابيح الكهرباء . وكان مرور أهاليها عظيماً جداً حتى أنهم رفعوا على أكتافهم المشير كاظم باشا رئيس هذه الحفلة مع رئيس المهندسين مختار بك . وقد طلب أهالي المدينة إعادة هذه الأفراح والأعياد بمناسبة وضع أول حجر لبناء جامع الحميدية قرب هذه المحطة . وعلى ذلك فقد أعيد الاحتفال بحضور ثلاثين ألف شخص . ودُعي لهذه الحفلة ممثلو الصحف الأجنبية وكثير من الأجانب في حين أن هذا الأمر لم يسبق له نظير في الاحتفالات الماضية غير أن ذلك جرى بمناسبة الانقلاب السياسي الذي وقع حينئذ في الاستانة .

ولما كان القصد من إنشاء الخط الحجازي خدمة الحجاج وتسهيل المواصلات بين الحجاز وبقية البلاد العثمانية اقتضى الوصول به إلى عاصمة الاسلام مكة المكرمة ومد فروع منه إلى جدة وبعض البلاد العثمانية الأخرى أتمياً للفائدة ، وكانت الحكومة مصممة على ذلك . وبإعلان الحكم الدستوري في البلاد ، وخلع السلطان عبد الحميد الثاني موجد هذه الفكرة ومؤسس هذا العمل الكبير ، توقف ورود الإعانات من الأقطار الاسلامية . وهذه الأسباب حالت دون الوصول إلى هذه الامنية وأخرت اتمام هذا المشروع العظيم .

وحاولت بعد ذلك حكومة الاتحاديين أن تواصل العمل فلم توفق فأعادت الكرة قبل إعلان الحرب العامة بيسير وأرسلت من القضب الحديدية والآلات والادوات اللازمة الشيء الكثير ، وكادت إدارة الخط تبدأ بالعمل فأعلنت الحرب العامة وصرفت الوجوه عن جميع أعمال الإصلاح ومنها هذا العمل الجليل .

وهذا لا يمنعنا من البحث عن الطريق المناسب لمد الخط الحديدي بين المدينة المنورة ومكة المكرمة ، عسى ان تنهض البلاد العربية من كبوتها فيقوم ابناءؤها باتمام هذا المشروع الحيوي لبلادهم المحبوبة .

ان الطرق الممتدة بين المدينة المنورة ومكة المكرمة التي يصلح السير عليها هي ثلاث او ثلثان اذا اعتبرنا الثالثة فرعاً للثانية . فالطريق الاول هو الشرقي الذي يصل المدينة المنورة بمكة المكرمة رأساً وهو بعد ١٥٠ كيلومتراً عن شاطئ البحر الأحمر وهو يمر من أعالي الجبال بين موانع عديدة يصعب سير الدواب المحملة عليها ولذلك فان قوافل الحجاج لا ترجح المسير عليها وان كانت أقصر الطرق . واما الطريق الثانية فهي السلطاني الذي ينخفض من المدينة المنورة نحو ساحل البحر الأحمر الى صرفاً رابع ومنه يعود فيصعد الى مكة المكرمة . و يوجد طريق آخر بين المدينة ورابع ينقص طوله ٦٠ كيلومتراً عن الطريق السلطاني و يسمى الطريق الفرعي لانه لم يخرج عن كونه قسماً من الطريق الثانية .

ان قوافل الحجاج ترجح السير على الطريق السلطاني لمكانته الرسمية والتاريخية ولسهولة المواصلات عليه وعلى هذا فالخط الحديدي المنوي انشاؤه بين المدينتين المقدستين لا يصلح عمله الا بالقرب من الطريق السلطاني وعلى طوله صرفاً رابع الذي يقع على شاطئ البحر الأحمر يسكنه ٣٠٠٠ نسمة وهو على مسافة ١١٢ كيلومتراً من شمالي جدة . وليس ثمة من صعوبة في انشاء هذا الخط لعدم وجود موانع طبيعية كما ان المياه غزيرة على طول الطريق على العكس في الطريق الشرقية . بقي مبدأ الخط الحجازي حتى سنة ١٩٠٨ في منتهى محلة الميدان بدمشق بالقرب من قرية القدم . وقد بُنيت بعد هذا التاريخ محطة القنوات الواقعة في غرب مدينة دمشق على طراز عربي حديث وبشكل جميل يتناسب مع عظمة هذا الخط المقدس ، ومهندس بناء هذه المحطة هو المهندس المعمار الشهير السيد داراندا قنصل اسبانيا وهولاندا في دمشق وهو صاحب الايادي البيضاء على تزيين المدينة وعمرانها . وبالقرب من محطة القدم معمل كبير خُصص لاصلاح القاطرات والشاحنات وصب الآلات الحديدية وأعمال النجارة والتدهين . فالأبنية الخاصة

بالعمل والمخازن تشغل سطحاً من الأرض تبلغ مساحتها ١٠٦٠٠ متر مربع . وقد بلغت نفقات إنشاء هذه الابنية مليون فرنك . وبُنيت في محيط تبلغ مساحتها ٥٣ ألف متر مربع . أنيرت جميع هذه الابنية مع الساحة بالأنوار الكهربائية .

الخط الحجازي في عهد
العثمانيين وبعدهم } كان الخط في عهد الحكومة العثمانية بدار في جميع أدواره بموازنة مستقلة عن موازنة الحكومة باعتبار أنه وقف اسلامي . وكان في البدء مرتبطاً بلجنة عليا في الاستانة يرجع اليها في شؤونه العامة ، ثم طرأت على ادارته طواري عديدة غيرت من أوضاعه على ما عرضنا لذلك سابقاً . ثم استقر مرتبطاً بإدارة الاوقاف عملاً بالقانون الصادر في هذا الشأن . أما حالته بعد انتحاب الدولة العثمانية من الشام ودخول جيوش الحلفاء فانه كان تام الاجزاء من حيث وضعه الاحامي ولم يطرأ عليه الخراب سوى في الجهات البعيدة بعض البعد عن العمران . ويمكن اعتبار مبدأ التخریب من بعد المحطات التي تلي محطة عمان جنوباً على ان هذا التخریب يكاد ينحصر في الجسور والمحطات والمصانع والمستودعات وغير ذلك من المباني والمحال التي كان يسهل نسفها . أما الخطوط الحديدية فظلت سليمة على الجملة سوى نقاط قليلة يسهل اصلاحها وتشبيدها .

هكذا كانت حالة هذا الخط عند دخول الحلفاء الشام ، وأما حالته من حيث الآلات والأدوات ومعامله وقاطراته ومركباته وشاحنتاته وغير ذلك من لوازم التعمير ووسائل سيره فقد بلغت من الجودة درجة ينسدر وجود نظيرها لدى أغنى الشركات في البلاد التي خاضت غمار الحرب العامة طول هذه المدة .

واليك مقادير الآلات والادوات المختصة بقسم السير والجر وهي ١٢٠ قاطرة بخارية و ١٢٠٠ شاحنة و ١٠٠ مركبة ركاب من صنوف مختلفة و ٢٠ شاحنة بريد . عدا ما هنالك من عدد كبير من شاحنات الماء (الصهاريج) وأشياء فنية كثيرة . وأما المعامل فمنها ما كان في القدم جنوبي دمشق وهو معمل مجهز بأحدث الآلات الفنية وكذلك مستودع صغير للتعميرات وصنعها . وفي درعا مصنع صغير ومستودع وفي سمخ مستودع وفي عمان مستودع وفي معان مستودع ومصنع مختصر وفي بئوك

مستودع وفي مدائن صالح مستودع ومصنع صغير وفي المدينة المنورة مستودع وفي حيفا مستودع ومصنع صغير .

تقسيم الخط الحديدي } قسم الخط في بدء الاحتلال ثلاثة أقسام :
الحجازي } استولت بريطانيا العظمى على قسم فلسطين وسلمته الى إدارة الخطوط بفلسطين . واستلمت الحكومة العربية الفيصلية قسم سورية واما القسم الثالث فقسم الحجاز وهو أطول مسافات الخط وهو قسم غير مثمر لوقوعه في البادية وخراب جسوره واكثر محطاته . وقد قسمت ايضا المعامل الصناعية والآلات والادوات الفنية الى ثلاثة أقسام وقسمتها تابعة للمصادفات فكان اهل كل قسم من هذه الاقسام اذا وقعوا في منطقتهم على شيء او ظفروا بشيء وضعوا أيديهم عليه . فالمصانع التي كانت داخل المنطقة الشرقية الفيصلية بقيت لحكومتها ومثلها المعامل الصناعية في فلسطين والحجاز . ورجع ما في فلسطين لحكومة فلسطين وسلمته هذه الى شركة الخطوط بفلسطين . وما في الحجاز الى حكومة الحجاز . وكذلك القاطرات والشاحنات والمركبات وشاحنات البريد ومسائر اللوازم فقد قسمت على الطريقة عينها ولكن كان حظ الحجاز منها قليلاً جداً فان جميع ما بقي على الخطوط ووضع اليد عليه لا يتجاوز عدد الأصابع واكثرها مخرب لانها كانت طول هذه المدة عرضة لهجمات النازيين . وكذلك الشاحنات والعربات وشاحنات البريد فقد كان عددها لا يكاد يذكر بالنسبة الى ما استولت عليه فلسطين وسورية . في حين ان اكثر الخط من حيث الامتداد بيد الحجاز .

وقد جرى اصلاح الخط على عهد الحكومة العربية بصورة سطحية وعلى اثر هذا الترميم وصل القطار من المدينة المنورة الى دمشق في أواخر سنة ١٩١٩ وهي اول مرة دخلها بعد انتهاء الحرب العامة ولم يتيسر تسخير القطارات بانظام كما كانت تسير قبلاً لعدم إتمام العائر بصورة فنية تبعث على الطمأنينة ولعدم وجود رأس مال كافٍ لهذه الغاية . وبقي الحال على هذا المنوال حتى سقوط الحكومة الفيصلية في سورية ودخول الجيش الافرنسي اليها .

حالة الخط بعد دخول فرنسا دمشق } ولما دخل الفرنسيون دمشق في شهر تموز ١٩٢٠
تركوا إدارة العجّاز تسير الى ما كانت عليه
في عهد الحكومة العربية حتى آذار سنة ١٩٢٤ وألغيت بعد ذلك وأحيلت ادارة هذا
الخط الى شركة دمشق - حماة وتمديداتها الافرنسية .

* * *

الخط العجّازي في شرقي الأردن } ببتيدي هذا الخط في هذه المنطقة من محطة
نصيب و ينهي بمعان التي كانت من عمل العجّاز
على مسافة ٣٢٣ كيلو متراً . وكان في هذه المنطقة مستودعات عديدة وفيها الشيء
الكثير من آلات الخط وأدواته وقد سلمتها جميعها حكومة شرقي الأردن الى ادارة
خطوط فلسطين مقابل مقابلة معقودة بينهما .

* * *

الخط العجّازي على عهد الحكومة الهاشمية } أراد جلالة الملك حسين تعمير الخط العجّازي
ليتسنى له استثماره ويصل مملكته بمملكة ولده
الامير عبد الله فأصدر امره خلال سنة ١٩٢٢ بتأليف لجنة بعهد اليها النظر في
شؤون الخط وترميمه فألفت لجنة للقيام بهذه المهمة في شرقي الأردن وأرسل اليها
الملك حسين اربعة آلاف جنيه مصري للترميمات الضرورية فقط . فقررت المباشرة
باصلاح الجسور والمنافذ وفرضت اعانات تقطع من رواتب الموظفين وكذلك من
واردات الطوابع العجّازية التي تستوفي داخل المنطقة فبلغ مجموع ما دخل عليها من
هذه الموارد خلال مدة التعمير اربعة آلاف جنيه والمجموع ثمانية آلاف جنيه
مصري في حين ان الترميمات والاصلاحات التي كان يقتضي اجراؤها لاثم باقل من
١٠٠ الف جنيه ليتمكن اعادة الخط سيرته الاولى .

وقد أتمت اللجنة انشاء الخط حتى المدينة المنورة على صورة ساذجة موقفة لقلة
الاموال التي تمكنت من جمعها وبدأ سير الخط رسمياً . وقد نقل خلال استثماره
في تلك الحقبة القليلة اكثر من اربعة آلاف زائر الى المدينة المنورة ذهاباً وإياباً
وبلغت واردات الخط من الزوار والنقلات التجارية اربعين الف جنيه مصري .

المخطط الحجازي في } عقدت معاهدة لوزان بين تركيا والحلفاء في سنة
المؤتمرات } ١٩٢٣ ولم يقرر المؤتمر شيئاً في مصير الخط الحجازي
ثلاثت الافرنسيين والافكليز كانوا متفقين على تأليف لجنة ادارية عليا من المسلمين
يكون مقرها المدينة المنورة لتظر في شؤون الخط وتسمى لاصلاحه . واقد نصت
المعاهدة التي عقدت بين تركيا والحلفاء في لوزان سنة ١٩٢٣ على عقد مؤتمر في
الاستانة - مؤلف من ممثلي الدول التي انفصلت عن تركيا ومن ممثلي مجلس الديوت
العامة لمعرفة واردات تلك الدول . وفي عام ١٩٢٤ عقد هذا المؤتمر فتكاث فيه
مندوبون عن المناطق المنفصلة عن تركيا . وعند تعيين مقادير الواردات والتفاسيط
السوية تقرر تقسيم الخط الحجازي وتجزئته واعتبار كل قسم ملكاً للمناطق التي
يجنازها هذا الخط . وقد ثبت الحكم المعين وفقاً لقرار جمعية الامم في جلساته الحكومية
في جنيف مبدأ اعتبار واردات الخط الحديدي الحجازي على النسبة الكيلومترية
لاحق نسبة ما تستفيد منه كل مقاطعة من الخط الذي يمر منها .

ثم ان المادة ١١٨ من معاهدة لوزان نص على عقد مؤتمر في باريس بعد مرور
شهر من صدور حكم الحكم الذي عهدت اليه جمعية الامم النظر والحكم في اعتراضات
الدول ذات العلاقة بالديون العثمانية العامة . وقد ضربت الحكومة الفرنسية موعداً
للمعقد هذا المؤتمر في اول تموز سنة ١٩٢٥ بباريز ودعت اليه جميع الدول ذات العلاقة
بالديون ودعيت الحكومة الحجازية لارسال مندوب ينوب عنها في شهود هذا المؤتمر
ف فعلت ذلك ولكن لتحتج على ما لحق بالملكة الحجازية من الخيف .

المخطط الجنوبي اليوم } بعد اتحاق معان والعقبة لشرقي الاردن وخلال
سنة ١٩٢٥ تسلمت ادارة نخطوط فلسطين الخط
الحجازي الجنوبي حتى المدورة الواقعة في الكيلومتر ٥٧٧ وبما ان طول الخط الاصلي
من دمشق الى المدينة المنورة عبارة عن ١٣٠٧ كيلومترات فيكون ما يعود امر ادارته
من هذا الخط الى الحكومة الحجازية الحاضرة ٧٣٠ كيلومتراً .

نفقات الخط الحجازي } بلغت نفقات الخط الاصلي وفروعه حتى سنة ١٩١٨ وهي السنة التي خرجت الدولة العثمانية فيها من الشام ٣٩٨، ١٢، ٥ ليرة عثمانية ذهباً . فهذه القيمة قليلة جداً بالنسبة لطول الخط وللبنوادي الشاسعة الفاحلة التي قطعها . ولولا ان الحكومة العثمانية كانت تستخدم الجنود باجور زهيدة للغاية لما تيسر لها انشاء هذا الخط ولكانت اضطرت لائتفاق ضمني هذا المبلغ على أقل تقدير . والحق يقال ان هذا الخط مدين بانشائه للجنود العثمانية التي بذلت في سبيله الجهود العظيمة ، بل النفوس الكريمة ، وعدا ذلك فان المبيعات المحلية والنقلات على اختلاف أنواعها جرت بصورة معتدلة للغاية . وكان معظم الناس يعتقدون ، وهم على صواب في اعتقادهم ، ان تقديم الاعانات الى الخط وبذل المعاونات في سبيله من أعظم المقويات . وبدافع هذه الثقة قدم كثيرون أشياء ثمينة ذات قيم كبيرة كالأخشاب والأحجار والأراضين . فلا بدع اذا قلنا ان هذا الخط ثمره جهود الامة الاسلامية في مشارق الارض ومغاربها ، ومأثرة غراء من مآثرها الخالدة في هذا العصر ، عصر النور والعرفان .

* * *

إصلاح الخط } وخلاصة القول ان إصلاح هذا الخط امر ضروري
الحجازي } حيوي بالنسبة للبلاد العربية لما له من العلاقات بجميع أقطارها . فمن الواجب على الحكومات العربية ان تسعى كل السعي لإرجاع الخط الى حالته الاولى ، وتعمل في سبيل تحسين شؤونه اكثر من قبل . وهذا الإصلاح لا يتم الا بإيصال هذا الخط الى مكة المكرمة عاصمة الاسلام ، وربطه بخطوط فرعية مع السواحل كمكة المكرمة بمكة والمدينة المنورة بينبع ومعان بالعقبة فيصبح بهذه الفروع الممتدة الى سواحل البحر الأحمر والبحر الأبيض من اكبر العوامل لانعاش التجارة في البلاد التي يمر بها ، ويتسم نطاق العمران والتحضير في الصحاري والسهول العربية . ومن جهة أخرى يضمن بهذه الطريقة ايضاً نقل الفحم الضروري لاستثمار الخط على أبسر وجه وباقل كلفة . وقضية الفحم قضية ذات شأن في حياة الخط ، وكان يبلغ ما يستهلكه من الفحم الحجري مقدار ٣٠،٠٠٠ طن في السنة ولا يبعد ان

ياقوت يوم تمكن فيه الاستغاثة من شلالات زيزون وتل شهاب لتوليد الكهرباء فتسير
القطارات حينئذ بهذه القوة فقل نفقات الخط السنوية وتصبح الاجور أقل مما هي
عليه الآن فتكثر المراكب . وليس ذلك اليوم بعيد ان شاء الله .

انفقتم البلاد المربية الى رجال الفن وأرباب الصنائع الإحصائية الذين يعملون
عاجهم في إصلاح البلاد ونسبهم شؤونها الفنية . في حين لا تنقص فيها المقدرة
والاستعداد للقيام بأصعب الأمور فيما اذا قبض الله لها من أبنائها من يرشدوها ويحسن
إدارتها . ولقد برهنت على ذلك في كثير من أدوار تاريخها المجيد ، وخصوصاً بما قامت
به أخيراً من الأعمال أثناء إنشاء الخط الحجازي ، وما بذلته من الجهود في سبيله
مما جعل مدير هذا الخط المعروف المسيو ديكان الألماني ان يعرج بشهادته الطيبة
لأبنائها في تقريره الذي رفعه للحكومة الفيصلية العربية : انني عاجز عن وصف مساهمته
من الموظفين والعملة العرب الذين كانوا في إدارتي ، لما هم عليه من حب العمل
والنظام وما اتصفوا به من شدة الذكاء والمقدرة ، كما شأدت ذلك في صفوف
موظفي المحطات والقطارات والسواق والسير ، وكنت أجد سروراً خاصاً عند النظر
في أمورهم لما هم عليه من النشاط في كل امر .

الخطوط الحديدية الفلسطينية
خط يافا — القدس
كانت مدينة يافا في كل أدوارها مرفأ
لاتزال الزوار القاصدين مدينة القدس .
ولذلك كانت فكرة إنشاء خط حديدي بين المدينتين من الأمور المنطقية على صحتها وجلالة
شأنها . ولكن بعض المشتغلين بهذه القضايا كان يعتقد صعوبة تنفيذها ، ويرجع
إنشاء خط نواصير لقلة المواصلات التجارية في فلسطين . ذلك لان كثرة الزوار
لا تكون الا في مواسم معينة من السنة . وكان اول تخطيط (مرسوم) قدم للحكومة
لعمل سكة حديدية في سنة ١٨٦٤ قدمه الدكتور زامبل الاميركي الألماني . ومنع
امتياز هذا الخط الى يوسف نافون افندي في ٢٨ تشرين الاول سنة ١٨٨٨ لمدة
٧١ سنة مع احتمال تمديد هذا الخط الى غزة ونابلس . ثم الى دمشق اذا دعت
الضرورة الى ذلك في المستقبل . وقد بايع صاحب هذا الامتياز امتيازته من شركة

الخطوط الحديدية العثمانية ليافا — القدس وتتمددانها الأفرسيقة المؤسسة حيف باريز في شهر كانون الاول سنة ١٨٨٩ بمبلغ مليون فرنك . وقد جوسر بانشاء هذا الخط في نيسان سنة ١٨٨٩ فصادف المهندسون صعوبات حمة في طريقهم ، خصوصاً في القسم الواقع بين عرنوف والقدس لان الارض صخرية جبلية وقد اضطر في هذا العمل ست سنوات بالنظر لهذه الصعوبات . انتهى العمل منه في ايلول سنة ١٨٩٢ وافتتح في ٢٦ ايلول سنة ١٨٩٢ بحضور بعض الحكام الثنائيين . وطول هذا الخط ٨٧ كيلومتراً ، وهو خط ضيق منفرد وعرضه متر واحد يتجاوز مائة بوصة وسبعين جسراً سبعة منها حديدية . وأطول هذه الجسور لا يتجاوز الثلاثين متراً وأنصرحنا سنة أمتار . وقد تجنب القارئون بالاعمال فتح الأنفاق مما زاد في احوال الخط وكثرة العزبات الناشئة عن ذلك . فالخط يجاذي وادي حمرار ويخطه في محلات متعددة . واختلعت إدارة الخطوط الحديدية العثمانية في الحرب العامة قسماً من هذا الخط بين بافالولد اي على مسافة ١٩ كيلومتراً واستعملت فضبه في إنشاء الخطوط العسكرية التي كانت نشأ اذ ذاك في فلسطين ولم تقطع بقيته لانها استعادت منه ووصلته بخط العفولة — القدس من لدن وادي حمرار اي مسافة ١٨ كيلومتراً .

* * *

خط حيفا — دمشق { أملت قبلاً الى ان جبال لبنان الشاهقة وماوراءها من الجبال الشرقية تمنع سهولة المواصلات بين دمشق وبيروت وتواف سداً منيعاً بين داتين المدينتين ، ولذلك رأى من يهمهم الامر منذ زمن بعيد وصل دمشق بنقطة من الساحل تكون خير مدينة بيروت . فكانت الانظار تنجبه ابدأ الى مدينتي عكا وحيفا . لان الخط الذي يصل دمشق بهاتين المدينتين يسهل عمله لوجود سهل يزرع عبل الذي ذكرنا شيئاً عنه آنفاً . وكانت بريطانيا تحلم كثيراً بالحصول على خط حديدي يسير بين احدي المواني الشامية والخليج الفارسي . وخصوصاً بعد احتلالها جزيرة قبرص في البحر المتوسط . ففي سنة ١٨٨٢ نال السادة أبناء سرقس مشوراً سلطانياً يخولهم حتى انشاء خط حديدي بين عكا ودمشق آملين إدخال التعسين على أملاكهم الواسعة في مرج ابن عامر واجلين معاونة

البريطانيين . وكانت فكرة إنشاء خط حديدي في ذلك الحين سائدة بينهم . بيد أنهم لم ينجحوا بعملهم وقد خسروا عربونهم البالغ ٥٠ ألف فرنك الموضوع في خزينة الدولة العثمانية .

وفي سنة ١٨٨٩ طلب يوسف الياس افندي رأس مهندسي لبنان الى الحكومة العثمانية اعطاء امتياز هذا الخط مع فرع الى حوران . وانقضت المدة المضروبة للمباشرة بالعمل ولم يتمكن هو ايضاً من القيام بهذا المشروع . وفي ٣٠ ايلول سنة ١٨٩١ أعاد الكرة يوسف الياس افندي ونال هذا الامتياز مجدداً بالاشتراك مع المستر هالانغ الانكليزي . واشترطت الحكومة عليهما في هذا الامتياز إنشاء فرعين لهذا الخط الاول من قرية نوى الى بعصرى في حوران . والثاني من نهر الشريعة الى حاصبيا . وبوشر بالاعمال في ١٢ كانون الاول سنة ١٨٩٢ في الوقت الذي باشرت به باعمالها شركة بيروت دمشق في ٨ كانون الاول سنة ١٨٩٢ . ولم تمض مدة حتى توقفت الأعمال على خط جيفا — دمشق ولم يتم منه سوى ثمانية كيلومترات . لان الشركة التي أسست للقيام بهذا المشروع لم تحصل على المعاونة المالية اللازمة لها في أسواق لندن . وكانت المدة المضروبة لانتهاء العمل تنتهي في شهر تشرين الاول سنة ١٨٩٥ وعلى هذا أنذرت الحكومة العثمانية الشركة في أوائل سنة ١٨٩٥ بوجوب الاسراع بالعمل وبعد إلحاح المساهمين وافقت الحكومة على تمديد المدة ثلاث سنوات أخرى . وبالرغم من هذه التسهيلات لم تقم الشركة باتمام عملها . وفي سنة ١٨٩٦ أصبح القسم الممدد من الخط في حالة يرثى لها بعد تركه طوال هذه السنين الأخيرة . ثم ظهرت فكرة إنشاء الخط الحديدي الحجازي لدى السلطان عبد الحميد وربطه باحد فُرُص البحر المتوسط فقام اذ ذاك باسترجاع امتياز خط حيفا — مدميداً من ذلك التأخير الذي وقع في أعمال الشركة كما ذكرنا ذلك في عرض الكلام عن الخط الحجازي .

الخطوط العسكرية { لم تحل الحرب العامة دون الادارة العسكرية
العثمانية التي تولت السيطرة على الخط الحجازي
الفلستينية
اذ ذاك وتمديد مئات الكيلومترات من الخطوط الحديدية بين فلسطين والحدود

المصرية داخل فلسطين ايضاً . وهذه الخطوط وان لم يكن لها شأن يذكر بجانب الخط الاصيل فقد أحببنا ان نذكر شيئاً عنها نتمياً للفائدة .

ان إدارة الخط الاصيل أنشأت لها فروعاً في سورية وفلسطين . ومنها فرع حيفا — عكا وهو ١٧ كيلومتراً وفرع درعا — بصرى وهو ٢٧ كيلومتراً وفرع العفولة — القدس الذي بوشر فيه سنة ١٩١٢ ووصل الى قرية السيله عند اعلان الحرب العامة وهو ٤٠ كيلومتراً . ومن المسائل التي تستحق الذكر ما أجرته إدارة الخط من الاعمال في اثناء الحرب العامة ذلك ان حملة السويس لما أخفقت أدركت قيادة الجيش العثماني ضرورة تمديد الخط الحديدي حتى السويس بأسرع ما يمكن . وكان القائل بهذه الفكرة جمال باشا الذي تمكن على الدوام من اعطاء المال والرجال لاجراء الاعمال المطلوبة وقد جيء في ذلك الحين بميسر باشا المهندس الالماني من بغداد لاستلام أعمال الانشاء وكان هو مهندس الخط الحجازي عند تأسيسه من سنة ١٩٠٠ الى ١٩٠٨ .

كان قسم العفولة — القدس الذي شرعت فيه ادارة الاستثمار وصل نابلس في شتاء ١٩١٤ و ١٩١٥ . وكانت الفروع المصرية التي بدأت الادارة بانشاءها من المسعودية في خط العفولة — نابلس تمتد وتسير في بطاح سارهن حتى القدس وليس فيها كثير من الموانع والحوائل الطبيعية . ودعت الضرورة الى جعل الخط بعيداً عن الساحل ليكون بآمن من نذائف السفن الحربية . وفي شهر تشرين سنة ١٩١٥ تمكنت الادارة من انشاء ١٦٥ كيلومتراً وسلمتها للاستثمار حتى بئر السبع . وهذا العمل بالظر لما صودف في تنفيذ من المصاعب بعد من الاعمال العظيمة .

وقد استفادت ادارة الاعمال من خط يافا — القدس الافرنسي الموجود سابقاً بين محطة لدة ووادي الصرار اي مسافة ١٨ كيلومتراً كما ذكرنا ذلك آنفاً وأدخلت هذا القسم بخط العفولة — القدس الذي نحن في صدد الكلام عليه ولكنها اضطرت لتربيضه لان عرضه كان متراً واحداً فجعلته متراً وخمسة سانشيمترات كبقية الخطوط الحديدية الحجازية . وكانت الادارة لا تملك عند اعلان الحرب سوى ٣٠٠ كيلومتر من قضبه الحديدية و ٥٠ كيلومتراً من العوارض الحديدية فقلعت من خط يافا — القدس قسم يافا — لدة اي ١٩ كيلومتراً وخط حيفا — عكا ١٧ كيلومتراً وخط

دمشق — المزيب ١٠٣ كيلومتراً وقد أحضر قسم كبير من السوارض من أخشاب
الاولكالبوس النابتة في بطاح شاربين ومن شجر الصنوبر في جبل لبنان .
وبني ما قام الخط الى السويس في قلب صحراء سيناء قبل ان تم انشاء قسم بئر
السبع . ولكن عمليات الانشاء لم تتقدم بسرعة كما جرى في قسم مسعودية — بئر
السبع لان قلة الامداد للجيش كان من الاسباب الداعية لعدم سرعة العمل . ومع
ذلك فقد انشيء ٦٢ كيلومتراً نحو السويس من بعد بئر السبع في صيف ١٩١٦ وكانت
الحفلة النهائية في القسمية وعندما جلا الجيش الى جهة غزة في ربيع سنة ١٩١٧
اضطرت الادارة الى رفع الاقسام الجنوبية من بئر السبع . ثم بديء بانشاء فرع من
الخط الى ديرسند — بيت حانون ومن ديرسند الى الهوج ومسافتها ٥٣٥ كيلومتراً
وبني أيضاً فروع عسكرية ليضمن معها نقل محروقات الخط وهي طواكرم — كفر قزح
٢٤ كيلومتراً . وفرع جليفا — خضرا ستة كيلومترات . وغزة — الهبشة ٢٨
كيلومتراً . القصر — الهرمل ١٩ كيلومتراً . ومن هذا كله يتضح انه قد انشيء في
اثناء الحرب من الخطوط ٤٣٧ كيلومتراً وكانت كلها فروعا للخط العجازي وذلك
رغم الصعوبات الكثيرة التي كانت تظهر في تدارك اللوازم الضرورية .
ولما سقطت جبهة غزة واضطر الجيش للجلاء حتى أواسط فلسطين تركت أقسام
الخط في جنوب طواكرم في تشرين الثاني سنة ١٩١٧ في حين ان الانكليز كانت
تسرع اثناء الحرب بانشاء خط ساحلي من بورسعيد الذي خصص لمدد الجيش
الانكليزي . ولما استولت على فلسطين شرعت بتهديد هذا الخط من فلسطين أيضاً
في ايلول سنة ١٩١٨ وأوصلته الى حيفا عند جلاء الجيش العثماني عنها . وهذه
الواسطة تم اول اتصال بين الخطوط المصرية والعجازية . ولا شك ان هذا الاتصال
يفيد المبلدين فائدة اقتصادية عظيمة لانهاء زالا منذ الازمان القديمة صربطين احدهما
بالآخر ارتباطاً قوياً ، مادياً وأدبياً .

بدأ الانكليز حقبة استيلائهم على فلسطين بتحريك الواسائط والطرق اللازمة
لانشاء خط كبير يخترق البلاد العربية من الغرب الى الشرق و يربط حيفا بالخليج
الفارسي وسيكون طول هذا الخط تقريباً ١٥٠٠ كيلومتراً ولكن بعد ان تمسكت

السيارات من اختراق الصحراء والوصول الى القطر العراقي بسهولة تأخرت فكرة انشاء هذا الخط في الوقت الحاضر .

ان مجموع الخطوط الحديدية في فلسطين وشرق الأردن ٧٠٨ و ١٤٠٥ كيلومترات منها ٨٣٤ ٧١٥ كيلومتراً من الخط العربي و ٨٧٤ ٦٨٩ كيلومتراً من الذي عرضه ١٠٥ سائمترات وهذه التفاصيل :

كيلومترات

خطوط فلسطين الأصلية	٣٧٤	٢٢٣
خطوط فلسطين الجانبية (المحطات) والجوانب مقصات ونقر بنغ	٩٨	٢٩١
المجموع	٤٧٢	٧١٤
خطوط سيناء العسكرية الأصلية	٢٠١	٨٨٥
خطوط سيناء العسكرية الجانبية ٠٠٠	٤١	٢٣٥
المجموع	٢٤٣	١٢٠
خط الحجاز في فلسطين الأصلي	٢١٢	٠٤٠
خط الحجاز الجاني ٠٠٠	٣٠	٥٤٦
المجموع	٢٤٢	٥٨٦
خط الحجاز الشرقي الأصلي	٤٣٦	٣٤٣
خط الحجاز الشرقي الجاني ٠٠٠	١٠	٩٤٥
المجموع	٤٤٧	٢٨٨

ثم انشئ فرع جديد من حيفا خاصاً بمعمل نيشر طوله سبعة كيلومترات .

عدد

القاطرات	١٣٠
مركبات الركاب	١٠٧
قاطرات وشاحنات	٢٢٥٩

«الواردات عن سنة ١٩٢٥ والنفقات»

الواردات	٦٠٤٥٧٩
النفقات	٤٣٨٥٠٤

الباقى وهو الربح السنوي ١٦٦٠٦٥

وقد اشترت حكومة فلسطين جميع الخطوط العسكرية والفرنسية وأصبحت ملكاً لها.

خط بغداد { جرى البحث كثيراً في الاندية الانكليزية منذ سنة ١٨٣٤ الى سنة ١٨٤٥ بشأن الملاحة في نهر الفرات ، فاتجهت الافكار نحو آسيا العثمانية ، وتألّفت شركة في سنة ١٨٥١ لانشاء خط حديدي بيندي^١ من السويدية في خليج الاسكندرونه وينتهي بالكويت في الخليج الفارسي . وكان يرأس هذه الشركة الجنرال سير فرنسيس شيزني وقد نالت الامر السلطاني بامتياز هذا الخط مع وعد الحكومة العثمانية بان تعطي الشركة ضمانه تضمن لها فائدة ستة بالمائة لرأس المال ، ولكن هذه الضمانه لم يتأكد اعطاؤها . ولما رأى الشعب الانكليزي عدم اهتمام حكومته بهذا المشروع بصورة رسمية خاف من إخفاقه فلم يكتب باسهم الشركة . ولذلك لم تتمكن الشركة من نيل المعارنة المالية اللازمة فسقط امتيازها . وبعد سنة ١٨٦٩ راجت من جديد فكرة انشاء خط السويدية — الكويت . وفي سنة ١٨٧٢ جبذ هذا المشروع كثير من النواب البريطانيين . وكانت 'نقدر نفقات هذا الخط بعشرة ملايين ليرة انكليزية . ومضى زمن وفكرة هذا المشروع لتخبط الى ان حدثت امور مهمة حولت الرأي العام الانكليزي عنها بتاناً . وبعد افتتاح ترعة السويس اقترح بعضهم وصل الاسماعيلية بالكويت بخط حديدي . ولكن هذا المشروع الجديد لم يجد أنصاراً ولم يرج الراج المطلوب في الرأي العام الانكليزي . وبعد ذلك تألفت جماعة من الروسبين واقترحت طريقة جديدة وهي وصل طرابلس الشام بالخليج الفارسي بخط حديدي ، بفرع منه فرع الى كربلاء ، ولكن هذه

الفكرة كانت عقيمة لا تستحق الاهتمام لان خطأ حديدياً كهذا لا يجوز تمديده في تلك الصحاري القاحلة .

و بالتزام الذي حدث بين الدول الغربية لنيل امتيازات في البلاد العثمانية كان الالمانيون آخر من تقدم وذلك في سنة ١٨٨٨ فجاءوا بأفكار جديدة . فكان الانكليز والفرنسيون ممن يهتمون بالخطوط الحديدية العثمانية . وكانوا لا يفكرون بغير وصل السواحل بالبلاد الداخلية وذلك لترويج صنائعهم وتجارتهم . لذلك لم ينشئوا سوى خطوط صغيرة كإيافا — القدس — حيفا ودمشق — بيروت وطرابلس — حمص السويدية او الاسكندرونة — حلب ومرسين — أذنة واذاليا الخ . فكل هذه الخطوط كانت تبتدي من السواحل وتنتهي بمدن الداخل . وخلافاً لهذه الخطة الغربية تقدم الالمانيون بطريقة جديدة لتتفق مع المصالح العثمانية اكثر من الاولى . ففي سنة ١٨٧١ ارتأى فون برسيل المهندس الالماني ان يجعل الاستانة مركز الخطوط الحديدية الاوربية والآسيوية ، فبدلاً من ان يكون للبلاد العثمانية عشرون خطاً صغيراً لا يرتبط الواحد بالآخر اقترح ان تنشأ في البلاد خطوط أساسية لتقطعها عرضاً وطولاً فتكون واسطة جيدة بيد الحكومة من الوجهة الادارية والعسكرية . وتصل جميع الاقطار العثمانية بعضها ببعض واول خط من هذه الخطوط التي اقترح عملها المهندس برسيل كان خط الاستانة — بغداد .

وبناء على اقتراحه هذا ووفقاً للخطط التي رسمها شرعت الحكومة العثمانية باشاء خطها العظيم الملقب بقاطع آسيا الصغير . وكان القصد من هذا الخط ان يبتدي من مرفأ حيدر باشا على ساحل البوسفور وينتهي بالكويت على ساحل الخليج الفارسي ماراً بزميد مجنازاً مضائق نهر سقاريا المعوج فيصل اسكيشهر ومنها يتجه شرقاً نحو انقره — يوزغاد — سيواس — عريـكـير — خربوط — دياربكر — ماردين — الموصل — بغداد ومن هذه يسير موازياً لدجلة وشط العرب حتى خليج فارس . ودعوا هذا التخطيط بالخطط الشمالي وكان هذا التخطيط أقصر الطرق وأقلها نفقة وبلغ طوله ٣٥٠٠ كيلومتر . قامت الحكومة العثمانية في سنة ١٨٧١ بم ٩٢ كيلومتراً من حيدر باشا الى ازميد بمعرفة المهندس برسيل ولكن الثورات والحروب المتتابعة

في اوربا العثمانية وكذلك التدخلات الاجنبية قد أوقفت استمرار العمل بهذا المشروع مدة ست عشرة سنة . وفي سنة ١٨٨٨ تمكن المصرف الالماني « دو يتش بنك » من الحصول على امتياز هذا الخط حتى مدينة انقره مع الوعد بتحديد بقية أقسامه الى مدينة بغداد بضمانة كيلومترية ١٥ الف فرنك . وقد وقعت الارادة السلطانية التي منحت امتياز الخط باسم المصرف الالماني في تشرين الاول سنة ١٨٨٨ . و باشر الالمات عملهم في شباط سنة ١٨٨٩ . وفي سنة ١٨٩١ تمكنوا من إتمام ٣٠٠ كيلومتر . وفي سنة ١٨٩٣ وصل خطهم الى انقره اي انه مد منه ٥٧٨ كيلومتراً . كانت مدينة أنقرة بلدة صغيرة قبل جعلها عاصمة الدولة التركية وهي واقعة باعالي الجبال ترتفع ٩٢٠ متراً عن سطح البحر . وعلى اثر وصولهم اليها طلبوا من الحكومة العثمانية امتياز الاقسام الاخرى من هذا الخط ، على ان يجري تعديل في استقامة الخط ، فبدلاً من ان يسير الخط من أنقرة الى بوزغاد وسيواس ، طلبوا تحويله من أنقرة الى قيصرية . وحصلوا في اول سنة ١٨٩٣ على امتياز قسم قيصرية اي مسافة ٣٢٠ كيلومتراً مع ضمانة كيلومترية قدرها ١٧٦٥٠ فرنكاً وقد سمي هذا التخطيط الجديد بالمخطط الوسطي غير ان هذا التخطيط لم يرق في عيني روسيا التي كانت تخشى تقدم الالمان في الولايات الشرقية فلعبت السياسة ألاعيها بين ليننغراد و برلين فقبل الالمان أخيراً تغيير استقامتهم فتركوا أنقرة وشأنها وطلبوا من الحكومة اعطاءهم امتياز قسم جديد بين أسكيشهر وقونية وقد حصلوا على ذلك في سنة ١٨٩٣ وسمي هذا التخطيط بالمخطط الجنوبي مع ضمانة كيلومترية قدرها ١٥ الف فرنك . غير ان هذا التخطيط الأخير لم يرق ايضاً في أعين الانكليز والافرنسيين الذين كانوا يرجون نيل امتيازات في تلك البقاع التي لم فيها مصالح وخطوط . فاحتجوا لدى الباب العالي وقدموا شروطاً أحسن من شروط الالمات وقد دعمت الحكومة الافرنسية طلب المالبين الافرنسيين وتمكنت من اخذ امتيازات الخطوط الحديدية السورية بين دمشق وحلب .

وصل الخط الحديدي الى قونية في أواخر سنة ١٨٩٥ وبعد ذلك شعر الالمان بضرورة الاتفاق مع بعض المالبين من الامم الاخرى فأشركوا معهم الافرنسيين ونالوا امتياز

خط قونية — بغداد في كانون الثاني سنة ١٩٠٢ مع ضمانات كيلومترية قدرها ١٦٥٠٠ فرنك ومن اشترك مع الالمان من الفرنسيين بهذا المشروع شركة خط ازميز — قصبة وشركة المصرف العثماني . وقد اشترط الفرنسيون مقابل دخولهم في هذه الشركة ان يكون لهم اربعون بالمائة من الاسهم واربعون بالمائة للالمان وعشرون بالمائة لروسيا وان تكون جميع الحقوق متساوية بين الالمان والفرنسيين كإدارة المشروع وتقديم الادوات ولم يتم هذا الاتفاق لاسباب سياسية ، ولذلك لم تقبل فرنسا ادخال أسهم هذا المشروع في بورصة باريز . وفي شباط سنة ١٩٠٣ كلف الالمان حكومة لندن تأليف شركة جديدة تكون الاسهم فيها متساوية بين الالمان والانكليز والفرنسيين اي ثلاثون بالمائة لكل منهم وعشرة بالمائة تبقى للروسين اول للحكومات الصغيرة كالبلجيكا وهولاندا وضو يسرا فلم تنجح هذه الطريقة لحل المشكلة القائمة بينهم . وبقي الالمان مدة يساومون الدول الغربية بذلك يهددون الروس تارة بتكليف مخططهم الشمالي المنهي بانقرة ، وطوراً يهددون الانكليز والفرنسيين باتمام مخططهم الجنوبي المنهي في قونية . وفي ٥ آذار سنة ١٩٠٣ قررت الحكومة العثمانية اعطاء امتياز خط قونية — بغداد والبصرة لشركة خطوط الاناضول . وفي ٣٠ تموز من هذه السنة صدر المنشور السلطاني بذلك . واشترط فيه إتمام هذا الخط في ثمانية أعوام اي في سنة ١٩١١ . فباشرا الالمان عملهم وأتموا قسم قونية — بلغورلو وقد أمنتهم الحكومة على الضمانة الكيلومترية لهذا القسم وبعد هذا القسم تأتي جبال طوروس الشاهقة . وفي هذه الجبال وادي عظيم كان الطريق الوحيدة لجيوش الفاتحين من الأقدمين وهو خط الاتصال بين قليقية وصحراء الاناضول . وهذا الوادي لا يزيد عرضه عن العشرة أمتار في كثير من النقاط ، والجبال ترتفع حفافيه أكثر من مئتي متر . وكان الاسكندر الكبير والرومان والصليبيون والعرب والسلاجقيون والمصريون يقطعون هذه الجبال ويمتازون هذا الوادي . وقد فكر الالمان ان يمدوا خطوطهم على هذه الطريق بعد ان يعرضوها ويجعلوها صالحة للسير وبعد ان بينوا عليها الجسور اللازمة والاتفاق الصغيرة . ولكنهم عدلوا عن هذه الفكرة لشدة الصعوبات في تنفيذها وكثرة النفقات وخصوصاً نفقات الترميم الدائمة التي تكون باهظة وفوق هذا لا يكون الخط في مأمن

من الأنواء الجوية فضلاً عن ان بلدة بلغورلو ترتفع عن سطح البحر ١١٥٠ متراً والوادي المذكور يرتفع ١٤٥٠ متراً وان مدينة أذنة هي واقعة على سفح الجبل من الجهة الثانية ولا ترتفع شيئاً يذكر عن سطح البحر . فهذه التمججات بالارتفاعات تجعل الطريق المذكورة صعبة جداً ويتعذر مد الخطوط فيها . ولذلك عوّل الألمان على درس طريق ثانية . فبعد ان بحثوا في الجبال عن أقل الطرق كلفةً وأسهلها عملاً لم يروا سوى طريقة واحدة وهي عمل نفق حلزوني لا يقل طوله عن اثني عشر كيلومتراً ولكن عمل نفق كهذا هو أيضاً من أصعب الأعمال حتى في بلاد الغرب التي هي بالقرب من معامل الحديد ومناجم الفحم ووجود أحدث الآلات . فكيف اذاً يمكن القيام به في هذه البلاد القاحلة المتأخرة في ميدان المدنية . وبذلك تكون نفقات هذا القسم باهظة . والضمانة الكيلومترية المقررة له وهي ١٥٥٠٠ فرنك عن كل كيلو متر لا تكفي لسد فوائد رأس المال ، ولكن مع كل ما ذكرناه من الصعوبات لم يضعف هذا من عزيمة الشركة فتأبرت على عملها وافتتحت كثيراً من الاتفاقيات في جبال طوروس وجبال أمانوس وقد كلفها ذلك مبالغ عظيمة . ولما كان عمل الاتفاق أمراً شاقاً وكان يحتاج لمدة طويلة من الزمن لم تر هذه الشركة بداً من ان نباشر بعملها ايضاً من حلب ومن نقاط أخرى . فكان الراكب الآتي من الاستانة مثلاً مضطراً للنزول من القطار في محطة بوزنتي والركوب على الدواب او بالسيارات حتى بلدة اصلاحية التي كانت اتصلت بمدينة حلب بخط بغداد الحديدي . وفي سنة ١٩٠٦ اشترت شركة بغداد خط مرسين - طرسوس - اذنة .

جاءت الحرب العامة فازدادت الشركة همّة ونشاطاً في اتمام ما بقي من الخط بين بوزنتي واصلاحية وذلك بضغط الحكومة على الشركة لانها كانت مضطرة لنقل جنودها وذخائرها وعنادها في القطارات طلباً للسرعة واتصال المواصلات . وقد سبب تأخير حفر الاتفاقيات تعذر نقل الفحم الى الخطوط الشامية التي كانت تستعوض عن الفحم بحطب الأشجار المثمرة فنتج عن ذلك أضرار عظيمة للشام . وتمكنت الشركة بما أبدته من النشاط والهمة في فتح الاتفاق من تسخير القطارات رأساً بين الاستانة وحلب وذلك في سنة ١٩١٧ - ١٩١٨ اما هذا الخط فهو من

المخطوط بالعريضة وعرضه متر و٤٤ سانتيمترًا ، ونصف القطر الاصغر لمعطفت المخطط خمسمائة متر في حين لا يتجاوز هذا النصف القطر الثلاثمائة متر في بقية المخطوط العثمانية ووزن القضب الحديدية أكثر من وزن قضب المخطوط الاخرى . لان القصد من ذلك تزييد السرعة على هذا الخط وجعلها ٧٥ كيلومترًا في الساعة . وتبين من الاحصاءات التي أجراها المسيوري مدير خط سلانيك - الاستانة ان المعدل المتوسط لسعر الكيلو متر في المخطوط الحديدية العثمانية هو ١١٠ ١٨٩ فرنكات يدخل في هذا المبلغ ثمن القاطرات والعجلات والشاحنات والانشاء ونفقات التأسيس وفوائد رأس المال وكل ما يتعلق بالمخطوط من النفقات . غير ان هذا المبلغ قليل بالنسبة لخط بغداد لان نفقاته كانت أكثر من غيره فيقضي والحالة هذه ان يقدر المعدل المتوسط لسعر الكيلو متر بمائتي الف فرنك اي تسعة آلاف ليرة عثمانية ذهبًا .

* * *

الخطوط الحديدية { كانت وصل البلاد الشامية بمصر موضوع اهتمام
بين الشام ومصر { المفكرين في كل الأديار ، لما بين القطرين من
العلاقات المادية والمعنوية . وقد فكر في هذه القضية وزير الاشغال العامة في الدولة
العثمانية وأشار اليها بنقريره لسنة ١٨٨٠ والى ضرورة تمديد خط حديدي من
القدس الى العريش طوله ١٥٠ كيلومترًا ، وقدر نفقات هذا المشروع بعشرين
مليون فرنك . وفي سنة ١٨٩١ طلب انطون بوسف لطفي بك الى الحكومة العثمانية
منحه امتياز خط حديدي يبتدي من العريش على حدود البلاد المصرية ويمر بغزة -
يافا - حيفا - عكا - صور - صيدا - بيروت ، وينتهي بطرابلس الشام حيث
يتصل بمخطوط الشركة الافرنسية . وكان الانكليز يحبذون هذا المشروع
ويوافقون عليه . غير انه لم يتم تنفيذه ولم تحصل بنا الاسباب التي حالت دون اخراجه
الى حيز العمل .

وفي غضون الحرب العامة وبعدها ، وعقب انسحاب الأتراك من البلاد واحتلال
السلطات الانكليزية والافرنسية لها ظهرت فائدة هذا المشروع وبوشر بتنفيذه

اذ ذاك حتي تم الاتصال بين حيفا والبلاد المصرية كما انه سيتم عما قريب تمديد هذا الخط حتى مدينة طرابلس فينصل بالخطوط الافرنسية .

الكهرباء وخطوط الترام في دمشق { تم الاتفاق في ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٧ وفي ٧ شباط سنة ١٣٠٥ (ش) بين وزير الاشغال العامة في الدولة العثمانية وبين يوسف افندي مطران على إنشاء خطوط ترامواي في مدينة دمشق يتفرع من مركز المدينة ويتجه نحو باب مصر (بوابة الله) في منحنى محلة الميدان والى جامع محي الدين بن عربي في محلة الصالحية والى الباب الشرقي ومسجد الاقصاب ومن الباب الشرقي الى دوما ومن باب مصر الى المزيريب على ان تكون الخطوط الخمسة الاولى تيجر مركباتها بواسطة الخيل والخط الاخير اي خط المزيريب تيجر مركباته بالبخار . وقد منح يوسف افندي مطران بموجب هذا الاتفاق امتيازاً مدته ستون سنة وتعهده بالمباشرة بالعمل خلال سنة اعتباراً من تصديق مقابلة امتيازته وان يتم العمل خلال سنتين ونصف . وقد قبلت الحكومة باعفاء جميع الآلات والادوات والدواب ولوازم الانشاء من رسوم الجمرك اثناء العمل وأعفت الاراضي والاعمال مدة الاستثمار من الضرائب . وقد أذن لصاحب الامتياز بتأسيس شركة مساهمة عثمانية في خلال سنة اعتباراً من تاريخ صدور الامر العالي على ان تبقى جميع الخطوط والمعامل والادوات الثابتة ملكاً للدولة عند انقضاء مدة الامتياز . اما الآلات والادوات المتحركة كالمحلات وماسواها فالحكومة تقوم بشرائها بواسطة مخنيين . وقد اشترطت الحكومة على صاحب الامتياز تعمير الطرق التي تمر منها خطوط الترامواي بعرض تسعة أمتار وكذلك أرصفتها ومجاري المياه فيها . وقد حددت اجور الركوب بثلاثة ارباع القرش الفضي للموقع الاول ونصف القرش للموقع الثاني . وعلى ما نعلم ان يوسف افندي مطران لم يتم بتنفيذ مقاولته هذه مدة طويلة من الزمن . وبعد ذلك تقدم الامير محمد أرسلان الى الحكومة العثمانية طالباً اعطائه امتيازاً بتوليد القوة الكهر بائية واستثمارها وتم الاتفاق بينه وبين وزير الاشغال العامة بتاريخ ١٨ المحرم سنة ١٣٢١ على تنوير مدينة دمشق وضواحيها بالكهرباء اي مسافة عشرة

كيلومترات عن المدينة لمدة تسع وتسعين سنة ، وتعهد صاحب الامتياز بتنظيم الخرائط للمشروع وتقديمها في ثمانية عشر شهراً اعتباراً من تاريخ صدور المنشور العالي وبالمباشرة بالاعمال في ستة وثلاثين شهراً بعد المصادقة على المساولة وبانتهاء الاعمال في اربع سنوات اعتباراً من تاريخ تصديق الخرائط على ان تعفى مواد الانشاء واللوازم والآلات والادوات من رسوم المكس الى انتهاء أعمال الانشاء وابتداء الاستثمار وان تعفى ايضاً جميع البناءات والتاسيسات والادوات مدة الامتياز من الرسوم . ويتقاضى صاحب الامتياز أثمان النوير بحسب النعرة المقررة طيلة الامتياز . واما ما يتعلق بشأن النوير العمومي للمدينة فيجب عليه ان يجري تزيلاً يتناقص كلما زادت كمية الكهرباء المصروفة ويحسم ايضاً عشرة بالمائة للنوير دوائر الحكومة والجوامع والكنائس والشكنات العسكرية والمستشفيات ويُسمح لصاحب الامتياز بتأسيس شركة عثمانية خلال سنتين اعتباراً من تصديق المساولة وذلك للقيام بتعهداته وتحفظ الحكومة بحق شراء الامتياز في كل حين بعد انقضاء ثلاثين سنة وتقوم بتخمين قيمة جميع الآلات والادوات والابنية والاراضي والمؤسسات التي دخلت في ملك صاحب الامتياز وتشترىها منه وعند انقضاء مدة الامتياز يجب على صاحبه تسليم عامة البناءات والمؤسسات والآلات والادوات بلا بدل الى الحكومة واذا لم يباشر أعمال الانشاء خلال المدة المعينة بدون ان تكون هناك أسباب قاهرة تمنعه عن مباشرة العمل او اذا لم ينجز الاعمال بتمامها او يعطل أعمال النوير او لم يقم بتعهداته في المساولة يسقط حقه من الامتياز وتضع الدولة يدها على الاعمال وتقوم بعمل ما يلزم من التدابير الموقفة لتأمين الاستثمار . وكذلك تعين البلدية بالاتفاق مع صاحب الامتياز عدد المصابيح ومواقعها ويختص بيع النوير وبيع القوة الكهربائية بصاحب الامتياز مدة امتيازها سواء كان ذلك للأفراد او لوسائط النقل العامة ويكون حق الترجيح لصاحب الامتياز بتأسيس التلفون اذا قبل بذات الشروط التي يقدمها طالبو هذا المشروع وتحدد التعرفة العظمى بثمانية قروش عن كل (كيلواتور) اي ما يعادل بارة واحدة عن كل شمعة بالساعة ولا يمكن زيادة التعرفة المقررة بدون موافقة الحكومة . وبعد ذلك توفق الامير محمد أرسلان باخذ امتياز آخر يقضي عليه بتقديم

القوة الكهر بائية اللازمة لتسيير حواقل (الترام) على الخطوط الممنوح امتيازها قديماً الى يوسف اخندي مطران وعلى الخطوط التي يمكن للدولة ان تمنح امتيازها لشخص آخر وذلك داخل منطقة تبعد حدودها مسافة عشرين كيلو متراً سيف كل جهة من وسط مدينة دمشق على ان يكون امتيازها تابعا لقوانين الدولة . و يقضى ايضا من جهة ثانية على صاحب امتياز الترامواي الخليلي وعلى جميع الشركات التي تؤسس لتسيير الحواقل الكهر بائية داخل المنطقة المبينة آنفاً بمراجعة الامير محمد أرسلان لاستحصال القوة الكهر بائية اللازمة لهم اذا أرادوا تسيير حوافلهم بالقوة الكهر بائية . وقد حددت مدة هذا الاتفاق بنسبع وتسعين سنة ابتدي من تاريخ صدور المنشور العالي وأعطيت مدة سنتين لصاحب الامتياز لتأسيس شركة مساهمة عثمانية تقوم بتنفيذ الشروط . كما احتفظت الحكومة لنفسها بحق شراء الامتياز في كل آن وذلك بعد مضي ثلاثين سنة من مدته . اما ما يحدث من الاختلافات بين الحكومة وبين صاحب الامتياز فيرجع في فصله الى مجلس شوري الدولة . وقد صدر المنشور العالي بهذا الامتياز في ٢٥ المحرم سنة ١٣٢١ وعلى ذلك فقد تأسست بتاريخ ٢٣ شوال سنة ١٣٢٢ وفي ١٧ كانون الاول سنة ١٣٢٠ (ش) وهـ كانون الاول سنة ١٩٠٤ شركة بلجيكية مساهمة باسم الشركة العثمانية السلطانية للتوزيع والجر الكهر بائي بدمشق وحصلت على جميع الامتيازات المتعلقة بهذا الشأن . ومن الشروط التي تعهدت بها هذه الشركة انشاء خطوط إجبارية من دار الحكومة الى باب مصر (بوابة الله) بمنهى محلة الميدان ومن دار الحكومة الى جامع محيي الدين بن عربي في محلة الصاحية وننوير المدينة وفقاً لشروط المفاوضات المنعقدة والمصدقة في المناشير العالية بتاريخ ١٠ رجب سنة ١٣٠٧ و ٢٧ المحرم سنة ١٣٢١ ، وكان رأس مال هذه الشركة ستة ملايين فرنك قسمت على اثني عشر الف سهم وجعلت قيمة كل سهم ٥٠٠ فرنك . وكانت تدبر أعمال الشركة لجنة منتخبة من الهيئة العامة . ومن جملة اعضاء اللجنة في السنوات الاولى عزت باشا المعابد .

وباشرت الشركة العمل باقامة الابنية والمعامل ومد خطوط الترام وأسلاك الكهرو باء خلال سنة ١٩٠٤ . والخطوط التي مدتها الشركة ثلاثة ابتدي الاول من

ساحة الشهداء (المرجة) وينتهي في باب مصر في منتهى محلة الميدان وطوله ثلاثة كيلومترات ونصف كيلومتر وهو خط مزدوج . اما الخط الثاني فيبتدي أيضاً من ساحة الشهداء وينتهي في حي المهاجرين في الصاحية وطوله ثلاثة كيلومترات ومائتا متر وهو مزدوج حتى الجسر الأبيض والباقي منه حتى المهاجرين خط منفرد . واما الثالث فيبتدي من الجسر الأبيض فالصاحية وينتهي عند جامع محي الدين بن عربي وطوله كيلومتر واحد وهو مزدوج وعرض هذه الخطوط متر واحد وخمسة سانتيمترات كعرض الخطوط الحديدية الا فرنسية الضيقة والخط الحجازي وقد انتهت الشركة من مد الخطوط في ١٢ شباط سنة ١٩٠٧ وبدأت تسير حوافل الترام على الخطوط الممدودة وبدي أيضاً بتوفير المدينة منذ شهر نيسان سنة ١٩٠٧ .

جاءت الحرب العامة وقطعت المواصلات بين الغرب والبلاد الشرقية وبقيت الشركة تحت سلطة الحكومة العثمانية فانقطع ورود البترول من الخارج وأصبحت أكثر المدن في الدولة العثمانية مظلمة الا مدينة دمشق فقد ظلت تنار بمصابيح الكهرباء وذلك بفضل نهر بردى الذي لا يزال يفيض الخيرات على دمشق . ومن هذا تظهر فائدة استعمال القوى الطبيعية في البلاد . وقد كانت السلطة العسكرية تسفيد من الكهرباء في محطة اللاسلكي وفي كثير من معاملها التي كانت تشتغل في إحضار العتاد والذخائر الحربية .

وفي ٢٩ ايار سنة ١٩٢٣ عقد اتفاق بين الشركة والمفوضية العليا حددت بموجبها أثمان القوة الكهربائية واجور الركوب في حافلات الترام وأدخلت شروط جديدة لإصلاح الاسلاك الكهربائية وتمديد خطوط جديدة واستمر العمل بهذا الاتفاق مدة سنتين . وفي ١٣ آب سنة ١٩٢٥ جرى تعديل مقالة الامتياز القديمة تعديلاً مهماً وذلك بموجب البروتوكول الثاني عشر الملحق بمعاهدة لوزان واليك خلاصة ما جاء في هذه المقالة الجديدة .

انه يحق للبلدية ان تطلب من الشركة انشاء خطوط جديدة واذا لم يتم الاتفاق بينها خلال سنة يحق للاولى ان تفتح الخط الجديد لشخص آخر على ان تبقى الارجحية

لشركة اذا تساوت الشروط وقد حددت التعرفة العظمى بموجب هذا التعديل على الوجه الآتي :

« الدرجة الثانية »

« الدرجة الاولى »

الكيلومتر الاول	٣٠٠ قرش سوري ذهب	الكيلومتر الاول	١٣٠ قرش سوري ذهب
= الثاني	٢٩٧	= الثاني	١٩٢
= الثالث	٢٧٤	= الثالث	١٧١
= الرابع فما فوق	٢٥٠	= الرابع	١٥٠

على ان تضاعف التعريفات للحافلات التي تسير ليلاً . وتعفى الاراضي والأبنية والمصانع والآلات والادوات الثابتة والمتحركة مدة الامتياز من الضرائب والرسوم . وتعفى ايضاً من الرسوم الجمركية والدخولية جميع المواد اللازمة للمعامل والمصانع وترفع الاختلافات التي تحدث بين صاحب الامتياز والحكومة على تفسير مواد المقولة وانفاذها أمام مجلس الشوري السوري . وتنتهي مدة هذا الامتياز بتاريخ ٣١ كانون الاول سنة ١٩٦٠ .

فللشركة الحق باثاء المعامل المولدة للقوة الكهر بائية واستثمارها ما أنشي منها وما سينشأ على نهر بردى بين التكية وعين الفيجة وبتوزيع القوة المستحصلة توزيعاً عاماً لجميع المحلات على مسافة خمسة عشر كيلومتراً لكل جهة من قلب مدينة دمشق (ساحة الشهداء — المرجة) وبتقديم القوة الكهر بائية كقوة محركة لوسائط النقل العامة على مسافة عشرين كيلومتراً لكل جهة من وسط مدينة دمشق كما لها الحق ايضاً باستعمال الطرق العامة من ملك الدولة او البلديات لتمكين من القيام بالنوير الخاص وبتقديم القوة الكهر بائية لجميع الاعمال . وقد حددت التعرفة العظمى :

البيع بالعداد للنوير بسعر الكيلواتور ٤٠٠ قروش سورية ذهبية

لباقى الاستعمالات = ٣ = =

البيع المقطوع ١٥ سانتياً من القرش السوري الذهبي عن كل شمعة في الساعة

للتقليات العامة سعر الكيلواتور ٣ قروش سورية ذهبية

ونقرر ان يحسب النوير العمومي بالعداد مع تخفيض ٢٥ بالمائة وان يحسب كذلك

لتوفير الدوائر العامة والبلدية والمعابد والمستشفيات مع تخفيض عشرة بالمئة من التعرفة وكذلك قبلت الشركة بان تنير قصر الحكومة مع دائرة البلدية مجاناً أربع مرات في السنة في ايام الاعياد التي تعينها الحكومة . وان تنير الجامع الأموي وبعض الجوامع الاخرى مجاناً ايضاً . وتنتهي مدة الامتياز بتاريخ ٣١ كانون الاول سنة ٢٠٠٢ وعند انتهاء مدته تستلم الحكومة جميع ما أنشأته الشركة بدون بدل ويحق للدولة في كل حين شراء الامتياز وذلك اعتباراً من تاريخ ٣١ كانون الاول سنة ١٩٦٥ .

وبعد المصادقة على هذا الاتفاق اخذت الشركة تقوم بتحسين النور فبدلت الجري الكهر بائي بمجري دائم الى مجري مثناب وغيرت درجة التوتر في بعض الاحياء فجعلتها ١١٠ بعد ان كانت ٢٢٠ وقد أسست مراكر لتحويل درجة التوتر في كثير من الاحياء لتوزع منها النور على المشتركين بصورة منظمة بعد ان يكون وصل الكهر باء الى هذه المراكز بخطوط ذات توتر عالٍ تمدد تحت الارض وهي لا تزال تعمل بهذه الاصلاحات يجد ونشاط .

منحت الحكومة العثمانية امتيازاً قبل الحرب العامة لرجل
 يدعى عثمان بك من أترك الاستانة لتوفير مدينة حلب
 بالكهر باء مع انشاء خطوط ترامواي فيها . وكانت مدة هذا الامتياز اربعين سنة .
 ولم يتمكن عثمان بك من القيام بتنفيذ امتياز به بسبب الحرب . وبعد الهدنة طرحت
 الحكومة العربية هذا المشروع في المناقصة فتقدمت في سنة ١٩١٩ شركة بلجيكية
 وأرسلت مندوبها الى حلب مع تقديم شروطها . فجاء هذا المندوب ودخل في مفاوضة
 مجلس بلدية حلب اذ ذاك . وقد نظم مشروع مقابلة وشروط امتياز على أساس
 الشروط والمقابلة التي منحتها الحكومة العثمانية الى عثمان بك ولم يبق لتحقيق المشروع
 الا تصديق هيئة ادارة الشركة عليه في بلجيكا . فرأت هذه الهيئة ان الشروط التي
 نظمت بمدينة حلب مجحفة بحقها . وعلى ذلك أرسلت تعلم بلدية حلب بعدم قبولها
 الا اذا زادت التعرفة المحددة في المشروع مع زيادة مدة الامتياز . فحبط هذا

المشروع ولم يتحقق . وفي سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ اي بعد دخول فرنسا الى الشام تقدمت لطلب هذا الامتياز ثلاث شركات الاولى شركة وطنية وعلى رأسها كريم افندي بالي احد تجار حلب . والثانية شركة بلجيكية . والثالثة شركة المشاريع الافرنسية . وكل من هذه الشركات قدمت شروطاً تختلف عن الاخرى . وبما ان شركة كريم افندي بالي الوطنية لم تقدم الضمان اللازم لم تنجح بطلبها . وبعد ذلك تألفت لجنة لدرس الشروط المقدمة ووضع تقرير فيها . وعقبى مذاكرة طويلة رأت هذه اللجنة ان الشروط المقدمة من الشركتين المذكورتين لا توافق مصلحة البلدية كل الموافقة وعلى ذلك نظمت شروطاً خاصة ومقتبسة من شروط الامتيازات القديمة الممنوحة من الدولة العثمانية لشركات كهربائية أخرى ومن الشروط التي قدمتها الشركات ان المار ذكرهما وقد طلبت اللجنة في تقريرها اعلان ذلك ودعوة الشركات للمناقصة فلم يقدّم احد .

وفي سنة ١٩٢٤ عرض على بلدية حلب مشروع امتياز جديد من شركة المشاريع الافرنسية لا يختلف كثيراً عن مشروعها الذي قدمته للمرة الاولى وطلبت المصادقة عليه وأخيراً تمكنت البلدية من تحديد الضمانة الغير المحدودة والمطلوبة من الشركة عن الخسارة مسانحة بمبلغ ٢٠ الف ليرة سورية ورقاً . اي ان الخسارة التي تقع بأكثر من هذا المبلغ المحدد تكون على الشركة . وأهم الشروط في هذا الامتياز ان مدته سبعون سنة . وان التعرفة تعين سنوياً بعد اجراء حساب الدخل والخرج والفائدة والاستهلاك . وان جميع الاراضي والمقالع اللازمة للانشاء والتأسيس تشترى البلدية على حسابها الخاص وتسلمها للشركة . وان الخسارة اذا تجاوزت العشرين الف ليرة سورية ورقاً تكون على البلدية . وكذلك تقسم الارباح ٣٥ في المئة للبلدية وما بقي للشركة . وحق النفيس والفسخ يرجع فيهما للمفوضية العليا ويكون جميع مأموري الشركة من السوريين ما عدا الاخصائين الفنيين . وتحل الاختلافات التي تحدث بواسطة التحكيم . كما ان الشركة مضطرة ان تدرس على حساب البلدية مشروع جلب الماء الى حلب خلال خمس سنين على الاكثر ثم تقدمه للبلدية حتى اذا وافقها تمنح امتيازها للشركة المذكورة . ونسكه الشركة على اخذ هذا الامتياز . وقد بدأت الشركة بالعمل أوائل سنة ١٩٢٦ وأنجزت حتى الآن من

الاشغال بناء الادارة والمستودع وتركيب الآلات . وقد قلعت بلاط الطريق القديم وبدأت تمتد القضب الحديدية وافرش الزفت وبدلت البلدية البلاط الاسود به . وامتد الشارع خطين للترام ، الاول يقطع مدينة حلب من الغرب الى الشرق و ينتهي من محطة دمشق وينتهي بمحطة القصيلة وطوله خمسة كيلومترات تقريباً . واما الخط الثاني فيقطع المدينة من الشمال الى الجنوب و ينتهي من محطة الحميدية وينتهي عند شارع خان الحرير وطوله ثلاثة كيلومترات ونصف تقريباً وعرض هذين الخطين متر واحد وخمسة سانتيمترات كعرض خطوط ترام دمشق .

* * *

خط الترام في طرابلس الشام { خط الترام الممتد بين مدينة طرابلس ومينائها هو خط تجر حافلاته على الخيل . والميناء هي صرفاً المدينة تبعد عنها ثلاثة كيلومترات . وقد منح امتياز هذا الخط في سنة ١٨٧٨ لشركة وطنية برأس مال يبلغ مائتي الف فرنك اي تسعة آلاف ليرة عثمانية وهو ينقسم الى الف سهم بقيمة مائة فرنك لكل سهم منها وقد أحسنت هذه الشركة إدارته واستثماره مما جعل الربح يختلف بين الاربعة عشر والستة عشر فرنكاً لكل سهم . اما ما يتعلق بخطوط الترام في سائر بلاد الشام الاخرى فمن دواعي الاسف اننا لم نقف على الوثائق المتعلقة بها ولذا لم نتمكن من ذكر شي عنها .

* * *

الطرق العامة { تتألف الشام من ثلاثة دروب موازية لساحل البحر في الشام { تفصل بعضها عن بعض سلسلتان من الجبال الشاهقة تمتد الواحدة منها من صور الى الاسكندرونة بلا انقطاع فيها الا في نقطتين . والثانية تبتدي من الجنوب وتنتهي بالقرب من حمص فيتلاقى الدربان درب البقاع مع درب دمشق وتحصل منها سهول حماة وحلب العظيمة الممتدة حتى الفرات . فالسلسلة الاولى تتألف من جبل لبنان وتلعاته العديدة الشاهقة المرتفعة عن سطح البحر ما ينيف عن الالف متر والحد الاعظم ٣٠٦٣ . ويمتد هذا الجبل ثلاثين كيلومتراً في الشمال الغربي لطرابلس . وهناك بنخفص عند فوهة حمص ثم يرتفع مجدداً باسم

جبل النصيرية المرتفع ١٥٠٠ متر عن سطح البحر وجبل الأفرع وجبل كامبوس المرتفع ١٨٠٠ متر عن سطح البحر . وبعد ذلك تمتد السلسلة حتى نهر العاصي الذي يقطعها بانخفاض عظيم وبعرض قليل . ثم تمتد هذه السلسلة حتى جبل اللكام وتدخل في بلاد الترك حتى ترتبط بجبال طوروس . فهذه السلسلة تمتد غرباً الدرب الاول الذي هو عبارة عن الساحل . وكثيراً ما يقرب الجبل من البحر ويسقط فيه كما هو الحال بين صور وحيفا . ولا يوجد في هذا الدرب ارضون سهلية الا بالقرب من حيفا وبيروت وطرابلس واللاذقية ولكنها قليلة المساحة . وقد أنشئت المدن المذكورة في هذه السهول . اما السلسلة الثانية الموازية للاولى فتبتدي بجبل الشيخ (حرمون) بارتفاع ٢٨٠٧ أمتار وتصل بالجبل الشرقي بارتفاع ٢٠٠٠ متر . وبين هاتين السلسلتين سهل البقاع الذي يبلغ عرضه ١٥ كيلومتراً ويمتد طوله بين الجبلين على مسافة عظيمة . ان هذا السهل ينحدر على طرفيه من نقطته العليا الموجودة بالقرب من شمال بعلبك ويقطع هذا السهل النهران العظيمان نهر الليطاني الذي ينبجس من بعلبك فينحدر جنوباً ثم غرباً حتى البحر . والنهر الثاني هو العاصي القريب من نهر الليطاني ينساب شمالاً ماراً بحمص وحماة وانطاكية بين جبلي الامانوس والأفرع ثم يصب في البحر المتوسط في السويدية و بشرق السلسلة الثانية يقع الدرب الثالث وهو سهل دمشق الذي تجري اليه مياه الجبل الشرقي التي تروي الصحراء . وهناك جبل حوران المعروف بجبل الدروز الممتد شرقاً نحو الصحراء وهو واقع كجزيرة منفصلة عن بقية البلاد فهذه الدروب هي التي تقع فيها جميع البلدان الشامية وليس لهذا الجبل ارتباط بالسلسلتين المذكورتين ولذلك فمسألة الطرق ننحصر في ثلاث نقاط :

(اولاً) طرق المواصلات بين المدن الواقعة في درب واحد . (ثانياً) الطرق الموصلة بين المدن الواقعة بين دربين متوازيين وذلك بواسطة طرق عرضية اي (شرقية — غربية) . (ثالثاً) الطرق المتشعبة كالشرايين في سهل دمشق وحلب . هذا هو الوضع الجغرافي للبلاد الشامية ذكرناه توطئة للبحث ومنها يتمكن القاري من متابعتها للوقوف على أكثر الطرق .

طرق الشام { كانت الطرق ووسائل النقل والمواصلات مفقودة في
الزمن الغابر بل وفي القرون الأخيرة في جميع بلاد الترك
عموماً وفي الشام خصوصاً مما سبب تأخر دخول المدنية الغربية الى هذه البلاد مدة
طويلة من الزمن . غير ان الدولة العثمانية في المدة الأخيرة من حكمها الشام اي في
سنة ١٨٦٢ كانت أقرت برنامجاً للطرق ووضعت قانوناً لانشائها واعمارها
ومحافظتها فمن ذلك التاريخ أخذت الأحوال تتبدل وبدأت المشاريع تظهر في ديار
الشام بصورة جيدة . وكان القانون العثماني يقضي على كل شخص ان يقوم اربعة ايام
في السنة بعمارة الطرق مدة عشرين سنة او ان يقدم ضريبة قدرها ريال مجيدي
واحد . وكانت هذه الضريبة تجبي بمعرفة لجنة قوامها بعض الموظفين الاداريين وموظفي
المصارف الزراعية . ولكن هذا القانون لم يراع في كثير من الاحوال وكانت الاموال
التي خصصت لعمل الطرق تذهب لنفقات الدولة العامة . وقد بقي العمل بهذا
القانون مدة قليلة لان الظروف والأحوال السياسية حالت دون اتمام البرنامج المذكور
ولذلك بقيت سورية محرومة من الطرق وكثيراً ما كان يرجع المار على الطريق ان
يتبع الاراضي المجاورة له لصعوبة السير عليه .

اما الحالة في لبنان فقد كانت على غير ذلك . لانه منذ نال لبنان استقلاله الاداري
سنة ١٨٦٠ ازدادت نفوسه ونجح عن ذلك ان ظهرت حركة المهاجرة التي ما فتئت تزداد
من ذلك الحين . فاللبنانيون المهاجرون كانوا لا ينسون الذين تركوهم في الوطن بل كانوا
يرسلون لهم الأموال بكثرة من مخرجهم اميركا . كما ان الكثير من هؤلاء كان يرجع الى
بلادهم بعد حصوله على ثروة لا تمام بقية حياته فيها . وان قسماً عظيماً من هذه الثروة التي
كان يجمعها اللبناني المهاجر كان ينفقه باعمار بيوتهم او لانشاء بيوت جديدة بطراز
حديث . وبهذه الصورة تمكن الجبل بمدة قليلة ان يرتدي ثوب العمار بالحصول على
قرى جميلة كثيفة بالنفوس تحتاج للمواصلات مع السواحل ولا سيما بيروت وطرابلس
الشام وصيدا . وقد انفق حينئذ الاهلون ان ينشئوا كثيراً من الطرق باموالهم الخاصة .
فكان عدد الطرق لا يتناسب مع الفائدة المطلوبة منها بل ولا مع ثروة القرية التي تنتهي
فيها هذه الطرق . فكثيراً ما نرى طريقين او اكثر تمتدان الى قرى قريبة بعضها

من بعض على هضبة واحدة الا ان سكانهما الاغنياء صرفوا على إنشاءهما المباني اللازمة . ومن جهة أخرى ترى بعض القرى الفقيرة محرومة هذه الحالة فلا يصل اليها طريق .

الطرق العامة { أولاً : الطرق الطولية — من الجنوب الى الشمال .
(١) طريق الساحل — يبدأ من بئر السبع جنوباً وينتهي بالاسكندرونة شمالاً ويمر من بئر السبع — غزة — بينة — يافا — طولكرم — حيفا — عكا — صور — صيدا — بيروت — طرابلس — طرطوس — اللاذقية — جسر الشغور — جسر الحديد — بكي شهر — بكي كوي — الاسكندرونة .
(٢) الطريق الثاني — يبدأ من بئر السبع جنوباً وينتهي في كليس شمالاً ويمر من بئر السبع = الخليل = القدس = البيرة = رام الله = نابلس = جينين = الناصرة = طبرية = الجاعونة = مرجعيون = قرعون = سفبين = عمةيق = قب الياس = شتورة = المعلقة = بعلبك = القصير = حمص = الرستن = حماة = معرة النعمان = سراقب = نفنناز = اوروم الصغرى = حلب = كليس .
(٣) الطريق الثالث — يبدأ من بئر السبع جنوباً وينتهي بحمص شمالاً فيلنقي بطريق حماة وحلب . ويمر من المدن المذكورة أعلاه في الطريق الثاني حتى الجاعونة حيث يفصل منها فيمر من جسر بنات يعقوب = الفنيطرة = وادي الحجم = دمشق = دوما = القطيفة = النبك = قارة = حسيبة = حمص . ويمتد بعد ذلك الى حلب كما هو مذكور في الطريق الثاني .

(٤) الطريق الرابع — يبدأ من القدس جنوباً وينتهي في دمشق شمالاً فيمر في القدس = أريحا = الصلت = عمان = الرمتا = درعا = شيخ مسكين = غباغب = خان دنون = انكسوة = دمشق .

(٥) الطريق الخامس طريق البادية — يتندي من دمشق جنوباً وينتهي بدير الزور بعد ان يتصل بطريق الموصل شمالاً ويمر في دمشق = القطيفة = جبرود = القرين = تدمر = السخنة = دير الزور = الصوار = البيضاء على الحدود

التركية . وفرع يبدأ من دير الزور ايضاً الى الصوار ومنها الى نصيبين حيث الاراضي الداخلة في حدود تركيا .

- ثانياً : الطرق العرضية من الغرب الى الشرق . (١) غزوة = بئر السبع .
 (٢) يافا = الرملة = القدس = عماث .
 (٣) يافا = قلقيلية = نابلس = الناصرة = طبرية = مبخ .
 (٤) حيفا = الناصرة = طبرية = الجاعونة = جسر بنات يعقوب .
 (٥) حيفا = الناصرة = جينين = نابلس = أريحا .
 (٦) صيدا = مرجعيون = بانياس = القنيطرة = ازرع = السويداء =

صرخد .

- (٧) درعا = بصرى = صرخد .
 (٨) بيروت = دمشق = بغداد .
 (٩) طرابلس = حمص = تدمر = بغداد .
 (١٠) اللاذقية = جسر الشغور = ادلب = حلب = دير الزور .
 (١١) السويدية = انطاكية = جسر الحديد = حارم = حلب .
 (١٢) الاسكندرونة = قرق خان = بكي شهر = اوروم الصغري = حلب .

اولاً — طريق الساحل : يبلغ طول هذا الطريق وصف حالة الطرق { ٢٧٠ كيلومتراً اعتباراً من بئر السبع الى عسكا ورأس الماقورة . ومن رأس الماقورة حتى مدينة اللاذقية ٤٠٠ كيلومتر وهو طريق معبّد من أحسن الطرق السامية . وطريق اللاذقية حتى بكي كوي وطوله ١٧٠ كيلومتراً قيد الانشاء ولا يزال في حالة تمهيدية . ومن بكي كوي الى الاسكندرونة طريق معبّد وطوله ٥٠ كيلومتراً و يبلغ مجموع طول هذا الطريق ٨٤٠ كيلومتراً وان المبالغ المنفقة عليه من عام ١٩٢٠ الى عام ١٩٢٧ لا تقل عن ثلاثمائة الف ليرة ذهبية تقريباً .

ثانياً — الطريق الطولي الثانية : ان هذا الطريق يبدأ من بئر السبع الى طبرية

والجاعونة وطوله ٢٩٠ كيلومتراً وهو معبد ٠ ومن الجاعونة الى سغبين وطوله ٨٠ كيلومتراً كانت بوشربة في زمن الحرب ولما يتم تعبيده ٠ ومن سغبين الى شتورة والمعلقة وبعلبك وطوله ٦٠ كيلومتراً وهو معبد ايضاً ٠ ومن بعلبك الى حمص فان الطريق لم يجر انشاؤه حتى الآن ٠ وقد كانت الحكومة العثمانية باشرت بانشاء بعض الجسور فيه ولكنه لم يتم عمله ٠

اما القسم الواقع بين حمص وحماة فطوله ٤٧ كيلومتراً فانه كان معبداً حيث كانت شركة الحافلات (الداليجانس) الوطنية قد أنشأته قديماً وبعد انشاء الخطوط الحديدية أهمته الحكومة فتخرب خلال الحرب العامة بسبب النقلات العسكرية بالسيارات الضخمة وحتى الآن لم يجر تعبيده ٠ ولم يكن طريق حماة - حلب وطوله ١٥٠ كيلومتراً معبداً من قبل وليس ثمة سوى طريق القوافل القديمة على ان ادارة النافعة في حلب باشرت بانشائه منذ ثلاث سنوات نقر بيباً واتخذت طريقاً جديداً يبدأ من حلب الى نفنناز باستقامة طريق ادلب - جسر الشغور - اللاذقية ومن نفنناز يتجه نحو بلدة خان شيخون الواقعة على حدود اراضي حلب ودمشق ماراً بسراقب ومعرّة النعمان ٠ وقد تمت تسوية الطريق الداخل في منطقة حلب وبوشر بتعبيده وسينتهي في عام ١٩٢٨ وكذلك باشرت ادارة النافعة بدمشق بتسوية القسم الداخل في منطقتها وسينتهي تسويته في أوائل عام ١٩٢٨ ٠ وقد بلغ ما صرف على هذا القسم من سنة ١٩٢٥ حتى سنة ١٩٢٧ ما يربو على اربعين الف ليرة ذهبية ٠ والطريق من حلب الى نفنناز على طول خمسين كيلومتراً معبداً ٠ وجرت تسوية الطريق من نفنناز الى خان شيخون على طول سبعين كيلومتراً ٠ وتم بناء الأعمال الصناعية من جسور وفناطر وهو يجري تعبيده الآن ٠ وبوشر بتسوية طريق خان شيخون الى حماة على طول ثلاثين كيلومتراً والطريق معبد منذ القديم من حلب حتى كليس وطوله ستون كيلومتراً وقد جرى اصلاحه مجدداً ٠

ثالثاً - الطريق الطولي الثالث : يبتدي هذا الطريق من بئر السبع الى الجاعونة وجسر بنات يعقوب وطوله ٣٠٠ كيلومتر وهو معبد ٠ والطريق معبد من جسر بنات يعقوب الى القنيطرة ووادي العجم ودمشق وطوله تسعون كيلومتراً ٠ وكانت الحكومة

العثمانية باشرت بانشاءه منذ عشرين سنة ولما يتم عمله . وقد أنفق على انشاءه من سنة ١٩٢٠ الى ١٩٢٧ ما يربو على ثلاثين الف ليرة ذهبية .

اما طريق دمشق = النبك = حمص وطوله ١٦٠ كيلومتراً فقد كانت الحكومة العثمانية باشرت بانشاءه قبل ثلاثين سنة وتم قسم كبير من نسويته بهدائه لم يتم عمله . وهناك قسم منه وطوله ثلاثون كيلومتراً يقع بين النبك وقارة والبريج لم ينشأ فيه شيء ايضاً ولا يزال بحالته الطبيعية وتعمل حكومة قضاء النبك على إصلاحه أحياناً وتزيل الحجارة منه وتردم الحفر التي تنشأ بمرور العجلات والسيارات . وتفكر الحكومة الآن بتحويل هذا الطريق الى قرية ديرعطية بدلاً من قرية قارة التي كانت دائماً المركز الطبيعي للمواصلات بين دمشق وحمص . ولقد هجرت الحكومة العثمانية هذا الطريق اثناء الحرب العامة لفقد الامن فيه وكثرة اعتداءات العشائر والجنود الفارين من الزحف وكانوا يلجأون الى هذه المنطقة ليعتاشوا . وصرفت حكومة دمشق مبالغ كبيرة لانشاء هذا الطريق ولم ينه الى الآن . وقد بلغ ما أنفق عليه من عام ١٩٢٠ الى ١٩٢٧ ما يربو على الخمسين الف ليرة ذهبية .

رابعاً - الطريق الطولي الرابع : يبدأ هذا الطريق من القدس ويتجه صوب أريحا والصلت وعمان والرمثا وإربد ودرعا . وكان شرع بتعميد هذا الطريق منذ ثلاثين سنة ولم ينه ولم تزل على ما كانت عليه . وجرت فيها بعض الاصلاحات في جهة القدس والصلت وعمان . وما يرح من درعا حتى دمشق على حالته القديمة ولم يدخل عليه سوى بعض الاصلاحات بين دمشق وخان دنون وتعمل حكومة دمشق على إصلاحه وقد حال فقدان المال دون إنجازهم .

خامساً - الطريق الطولي الخامس : يبدأ هذا الطريق الذي يجتاز البادية من دمشق الى القطيفة وهو معبد وطوله ٤٠ كيلو متراً . ومن القطيفة الى جبرود افتتح طريق جديد وجرت نسويته بتسخير الاهالي بالعمل فيه . ولم يجر شيء من الاصلاحات من جبرود الى القريةتين وتدمر ودير الزور حتى البيضاء . وبلغ طول هذا الطريق من دمشق الى تدمر ٢٥٠ كيلو متراً ومن تدمر الى دير الزور ٢٢٠ كيلو متراً ومن دير الزور الى البيضاء في حدود الموصل ١٥٠ كيلو متراً فيكون مجموع طول هذا

للطريق ٦٢٠ كيلو متراً ولم يعمل فيه سوى جسر الصوار المعلق وفوهته خمسون متراً . وقد بنت نافعة حلب هذا الجسر مؤخراً وأُنقِ على ١٥ الف ليرة ذهبية . وبني الآن سيف دير الزور جسر كبير معلق يبلغ طوله ٢٥٠ متراً وسيتم بناؤه قريباً وتقدر نفقاته بستين الف ليرة ذهبية .

وأما الفرع الثاني الذي يتفصل من الصوار الى الحسجة ونصيبين وطوله ١٩٠ كيلومتراً فإنه طريق طبيعي لم يعمل فيه شيء منذ القرون القديمة . و يبدأ طريق بغداد من دير الزور ماراً بالبصرة والبيادر والبوكمال و يبلغ طوله حتى حدود العراق ١٤٠ كيلومتراً . وتفكر ادارة النافعة في حلب باجراء بعض اصلاحات فيه وهي تقوم باشاء جسر على نهر الخابور في البصرة . وكذلك تعمل على تعبيد القسم المار في ارض صخرية وطوله ١٥ كيلومتراً . وهذا القسم الاخير هو جزء من الطريق الذي يبدأ من حلب الى دير الزور وينتهي الى بغداد .

ثانياً = الطرق العرضية من الغرب الى الشرق : (١) أنشيء طريق غزنة = بئر السبع وطوله ٤٢ كيلومتراً في زمن الحكومة العثمانية وهو معبد .

(٢) أنجزت الحكومة العثمانية بعض أقسام طريق يافا = الرملة = القدس = الصلت = عمان وطوله ١٦٠ كيلومتراً والبعض الآخر منه لم يتم . وقسم يافا = القدس وطوله ٦٠ كيلومتراً معبد والباقي قيد الانجاز .

(٣) تم في العهد الاخير تعبيد طريق يافا = قنيطرة = نابلس = الناصرة = طبرية = سمخ = وطوله ١٥٠ كيلومتراً .

(٤) تم انشاء طريق حيفا = الناصرة = طبرية = الجاعونة = جسر بنات يعقوب وطوله ١١٠ كيلومتراً . وكانت الحكومة العثمانية أنشأت بعض أقسامه .

(٥) ونصف طريق حيفا = الناصرة = جينين = نابلس = أريحا وطوله ١٥٠ كيلومتراً معبد والنصف الآخر لم يتم تعبيده .

(٦) طريق صيدا = مرجعيون = بانياس = القنيطرة = الشيخ مسكين = ازرع = السويداء = صرخد وطوله ١٨٠ كيلومتراً . وكانت الحكومة العثمانية باشرت انشاء قسم الشيخ مسكين الى ازرع والسويداء حتى صرخد وذلك بعد حروب جبل الدروز

لتموين الجيش ولم يتم اذ ذاك فتم مؤخراً تعبيد القسم الواقع بين ازرع والسويداء وطوله ٣٧ كيلومتراً . و باشرت حكومة لبنان تعبيد طويق صيدا ٠ مرجعيون ٠ بانياس وطوله ٤٠ كيلومتراً ولم ينته حتى الآن . ونقوم ادارة النافعة بدمشق بتعبيد القسم الواقع بين بانياس والقنيطرة و يبلغ طوله ٣٤ كيلومتراً . وسينتهي في اول صيف عام ١٩٢٨ . وندرس هذه الادارة ايضاً مشروع انشاء طريق من القنيطرة الى الشيخ مسكين فازرع وسينشأ هذا القسم خلال ثلاث سنوات . ونقدر نفقات انشائه بنحو مائة الف ليرة ذهباً .

(٧) = لم يتم تعبيد طريق درعا ٠ بصرى ٠ صرخد وطوله ٦٠ كيلومتراً وكانت الحكومة العثمانية باشرت بانشائه .

(٨) = طريق بيروت ٠ دمشق ٠ بغداد وطوله من بيروت الى دمشق ١١٢ كيلومتراً نالت امتيازها شركة افرنسية في سنة ١٨٥٧ و باشرت بانشائه في سنة ١٨٥٩ وقد ترأس اعماله الكونت دي تويري وكان رأس مال هذه الشركة افرانسياً بحتاً . وكان السير عليه صباحاً ومساءً من الجهتين بواسطة الحوافل (الداليجانس) ونقطع هذه الحوافل المسافة بين بيروت ودمشق في ثلاث عشرة ساعة ووضعت الحكومة العثمانية اذ ذاك لهذه الشركة نظاماً وأسعاراً لنقل الركاب والبضائع والحيوانات . وامتنع بعض الاهالي من السير عليه بسبب غلاء الاسعار فكانوا يسرون بالقرب منه على طريقين متوازيين له . وقد كانت هذا العمل من ارجح الاعمال التي قامت برؤوس أموال افرانسية وكان الكل مجمماً على ان هذا المشروع أفاد الاهالي والبلاد واصحاب الاسهم فائدة عظيمة وقد ربحت الشركة ارباحاً طائلة منه . اذ كان الربح الصافي سنوياً يقدر بخمسة الف فرنك . واستمرت هذه الشركة على اعمالها مدة ثلاثين سنة حتى انحلت سنة ١٨٩٢ ابان اشتراك مع شركة خط بيروت ٠ دمشق ٠ حوران الحديدي . واذ ذاك استلمت الحكومة العثمانية الطريق وأهملت محافظته حتى قبل الحرب العامة . فأصبح السير عليه صعباً لعدم اصلاحه وتعميره . غير ان الاتراك اهتموا باصلاحه في الحرب العامة . وبعد الحرب قامت الحكومات السورية واللبنانية

باصلاحه فصلح السير عليه وتيسر ان تستعمل السرعة عليه باجناس السيارات والدراجات على اختلاف أنواعها . .

وبعد دمشق فينتجه الطريق شمالاً على طريق النيبك وبعد عشرين كيلومتراً بئجه شرقاً على طريق الصحراء ماراً بجوار قريني العدراء وضمير الى الرحبة نقطة الحدود السورية العراقية . و يبلغ طول الطريق من دمشق الى بغداد ٧٧٠ كيلومتراً منه عشرون كيلومتراً على طريق النيبك يسير في طريق معبدة والباقي ٧٥٠ كيلومتراً طريق طبيعي قد مهدته السيارات في الصحراء . ولهذا الطريق مكانة كبرى في التجارة والسفر بين دمشق والعراق وبلاد فارس .

ومن دمشق الى بغداد طريق ثالث وهو الطريق الذي يمر بالقطيقة وجيروود والقربتين وتدمر وظوله ٨٥٠ كيلومتراً ، فانه يزيد طوله عن الطريق الاول ٨٠ كيلو متراً و يبلغ طوله من دمشق الى القطيقة ٤٠ كيلومتراً وهو جزء من طريق النيبك المعبد وهو بحالة حسنة . وقد جرى فتح طريق القطيقة = جيروود مجدداً على طول ١٥ كيلومتراً ولم يعبد بعد غير انه سهل المرور . ومن جيروود حتى القربتين وتدمر وبغداد فان الطريق طبيعي لم تعمل بدا الانسان فيه شيئاً . ويرجع شأن هذا الطريق لاجتيازه البلدان العامرة والقرى الآهلة على طول ٢٥٠ كيلومتراً بين دمشق وجيروود وتدمر وعلى الاخص لمروره بمدينة تدمر التاريخية .

(٩) = طريق طرابلس = حمص تدمر = بغداد . كانت تستثمر طريق طرابلس = حمص شركة وطنية كما كانت تستثمر طريق بيروت = دمشق شركة افرسية وكان ذلك قبل ان تؤسس شركة الخطوط الحديدية الافرنسية . والمسافة بين طرابلس وحمص ٩٤ كيلومتراً وبين حمص وحماة ٤٧ كيلومتراً فيكون المجموع ١٤١ كيلومتراً كانت كلها موضوعة تحت تصرف الشركة الوطنية المذكورة وكان رأس مالها ٢٨ الف ليرة عثمانية ذهبية . ويقسم رأس المال الى سبعة آلاف سهم وقيمة كل سهم اربع ليرات عثمانية ذهبية . وكان ربح كل سهم من هذه الاسهم ليرة واحدة في السنة . ومدة الامتياز خمسون سنة . واجرة الراكب في الحوافل (الداليجانس) نصف ليرة من طرابلس الى حمص . وبعد انحلال هذه الشركة هجرت

الحكومة العثمانية هذا الطريق حتى خربت وتداعت جميع جسوره اثناء الحرب العامة وزادت السيول في تخريبه حتى أصبح في عام ١٩٢٥ بحالة لم يبق معها صالحاً للسير عليه . وقد بوشر بتعبيده في آخر عام ١٩٢٦ وانتهى في النصف الاول من عام ١٩٢٧ . واما طريق حمص — حماة فلم يزل على ما هو عليه ايام الحرب العامة . وشرعت الحكومة السورية باصلاح بعض الاقسام فيه وسيتم انشاؤه في نهاية عام ١٩٢٨ . والطريق من حمص الى تدمر في بغداد يمر بالصحرَاء على طريق طبيعي مهدته السيارات و يبلغ طوله ٧٥٠ كيلومتراً . وكانت السيارات تمر على هذا الطريق اثناء انقطاع السبل بين بيروت ودمشق وبغداد .

(١٠) — طريق اللاذقية — جسر الشغور — ادلب — حلب — دير الزور . وقد افتتح القسم الواقع بين اللاذقية وحلب في آخر عام ١٩٢٦ ولم يزل العمل فيه مستمراً وسيُنهي تعبيده في عام ١٩٢٨ و يبلغ طوله ١٩٠ كيلومتراً وطول المعبود منه الآن مائة كيلومتر . وفي اللاذقية يتصل هذا الطريق بالطريق العام الواصل بين اللاذقية وطرابلس وبيروت ورأس الناقورة فيتمكن المسافر من حلب ان يقطع هذا الطريق على متن السيارة من حلب حتى اللاذقية وبيروت بسهولة . واما من حلب الى دير الزور فالطريق صعب جداً ونقوم ادارة النافعة بحلب باصلاح الاقسام الاكثر صعوبة منه و يبلغ طوله ٣٢٠ كيلومتراً وهو مار بجوار مسكنة والرفة و ينتهي في بلدة دير الزور حيث ينفرع منها ثلاثة طرق طريق الموصل وطريق بغداد وطريق تدمر — دمشق .

(١١) — طريق السويفية — انطاكية — جسر الحديد — حارم — حلب . افتتح هذا الطريق حديثاً في آخر عام ١٩٢٦ ولم يزل العمل فيه مستمراً . وسيتم انشاؤه في نهاية عام ١٩٢٨ و يبلغ طوله ١٤٠ كيلومتراً . وافتتح القسم الواقع بين السويفية وانطاكية في الجبال والادوية وبنى عليه عدة جسور ذات شأن عظيم وستكلف نفقات باهظة وطول هذا القسم ٣٥ كيلومتراً . ومن انطاكية الى جسر الحديد حتى حارم يمتاز الطريق في ارض طينية لا يمكن المرور فيها في فصل الشتاء . واما بين حارم وحلب فالطريق معبدة وطولها ٧٠ كيلومتراً وتسير عليها السيارات بسرعة .

(١٢) — طريق الاسكندرونة — قرقي خان — بكي شهر — اوروم الصغرى —

حلب . نقضي كثرة المعاملات بين حلب والاسكندرونة بان تكون المواصلات بين هذين البلدين سهلة ولكن لم يعمل في زمن الحكومة العثمانية ما من شأنه ان يضمن النجاح في هذا الشأن . وكان التجار الانكليز في القرن السابع عشر يشكون من الصعوبات الجمة التي كانوا يلاقونها حين ذهابهم من حلب الى الاسكندرونة . وكانت الحكومة العثمانية أنشأت طريقاً في سنة ١٨٧٠ في الحدود الشمالية من ولاية حلب تضمن به المواصلات بواسطة البحر الى جهات كليس وعينتاب وبيرجهك والبلاد التركية الاخرى . وكان القصد من انشائه وصل الاسكندرونة بالبلاد التركية وقد وصلت الحكومة العثمانية هذا الطريق بفرع بين قطمة وحلب اقتصاداً من انشاء طريق ثانٍ خاص بحلب فأصبح هذا الطريق بعد طريقاً لحلب . ثم تخرب في سنة ١٨٨٠ وكان كلف الحكومة مبلغاً كبيراً لو أنفق على انشاء خط ترامواي لما كان كلف اكثر من ذلك . وكانت القوافل تتبع طريقاً أقصر طولاً منه باربعين كيلومتراً وهو الطريق الذي انشأته الحكومة السورية حديثاً . وكانت القوافل تنجنب المرور في مسقطعات نهر عفرين التي يمر منها الطريق القديم . وعلى هذا فقد بقي هذا الطريق مخرباً الى سنة ١٨٩٠ حتى اتفق ان مر احد الولاة في حلب عليه فتخطمت عجلته وعلى اثر ذلك قررت الحكومة تعميره وخصصت لهذا العمل سنوياً مبلغاً قدره ثلاثة آلاف وثلاثمائة ليرة للاستمرار على ترميمه واصلاحه . وبعد جلاء الاتراك بقي هذا الطريق مهجوراً من غير اصلاح او ترميم الى ان تخرب . ورأت حكومة سورية أخيراً تركه لطول مسافته وكثرة نفقات اصلاحه ولبعده عن مراكز البلاد الواقعة بين الاسكندرونة وحلب . ففكرت بعد انشاء طريق حلب حارم ان تنشئ فرعاً بين بكي شهر و بكي كوي للاتصال بين الاسكندرونة وحلب . وقد تم فتح هذا الفرع بتمهيدته ولم يعبد بعد . وقد أصبح طول هذا الطريق الجديد بين حلب والاسكندرونة ١٢٣ كيلومتراً بعد ان كان طول الطريق القديم ١٦٣ كيلومتراً وصارت المسافة بالطريق الجديد أقصر منها في الطريق القديم باربعين كيلومتراً .

هذا مجموع الطرق الاساسية العامة ببلاد الشام وهناك طرق فرعية كثيرة ممتدة كالشرايين تصل القرى بعضها ببعض ثم تربطها بمراكز الاقضية كما انها لتصل بالطرق

العامة . وكان أنشيء قسم من هذه الطرق الفرعية قديماً وافتتح القسم الآخر حديثاً بطريق السخرة غير ان أكثر هذه الطرق ان لم نقل كلها تحتاج الى الاصلاح والتعميد لتسهيل المواصلات بين القرى والبلدان ولتتمكن السيارات من السير عليها على أيسر صورة وتصبح حركة النقل سريعة لا كما هي عليه الآن في أكثر هذه الطرق من البطء الظاهر وحينئذ تزداد موارد البلاد ويسهل نقل البضائع الى المدن والسواحل ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد العظيمة لانعاش حياة البلاد الاقتصادية . ومن جهة أخرى فأن وجود طرق صالحة في البلاد يزيد عدد السياح والمصطافين الذين يرتادونها وهذا أيضاً له شأنه في تقدمها وعمرانها .

وقد اخذ عقب انتهاء الحرب العامة سوق السيارات على اختلاف أنواعها وأصنافها تروج رواجاً كبيراً في بلاد الشام حتى أصبح منها عدد غير قليل يستخدم لنقل الركاب والبضائع في جميع أنحائها . وقد تبين من الإحصاء الرسمي لغاية ايلول سنة ١٩٢٧ ان مجموع عدد السيارات التي سجلت رسمياً في البلاد الشامية ٦٦٢٢ منها ٦٥٣ في دمشق و ٦٢٩ في حلب و ١٠١ في حمص و ٩٣ في حماة و ٤١ في دير الزور و ٢١٥ في بلاد العلوبين و ٤٨٩٠ في لبنان . واذا فرضنا ان عدد السيارات في فلسطين نحو ثلاثة آلاف فيكون مجموعها في بلاد الشام ما يقرب من عشرة آلاف سيارة مختلفة الشكل والصورة . وقد اضرت هذه السيارات بمصلحة بعض السكك الحديدية ففترت أعمالها بعض الشيء لرغبة الناس في السرعة الزائدة . انتهى ما كتبه السيد عبد الوهاب المالكى .



البرق والبريد والهاتف (١)



منشأ البرق «التلغراف» { لم يكن الى الربع الاخير من الحكم التركي بالشام برق ولا بريد ولا هاتف منظم . وضع نظام البرق في ٢٧ ربيع الاول سنة ١٢٧٦ هـ ونظام البريد في ٢٦ المحرم سنة ١٢٨٦ هـ . وكان يتبادل بريد الحكومة على عهد الحكومات السابقة بواسطة السعاة والنجايبين او بواسطة حمام الزاجل . وتستعمل اشارات الضياء (الفوانيس) ابان الحروب عوضاً عن الاشارات البرقية السلكية واللاسلكية والهوايستة المستعملة الآن . واصطلح على استعمال كلمة برق عوضاً عن كلمة تلغراف اليونانية المركبة من كلمتين تل — غراف والاولى بمعنى بعيد والثانية الكتابة اي الكتابة عن بعد ، منذ نحو اربعين سنة واستعملت كلمة الهاتف على عهد الحكومة العربية عوضاً عن كلمة تلفون اليونانية المركبة من تل وفون اي الصدى البعيد .

وللبرق ثلاثة فصول : الشبكة والآلات والادوات المستعملة وشكل الادارة والمخابرة واقتصرت شبكة البرق بدمشق على العهد التركي حتى سنة ١٨٩٩ على الاسلاك الممتدة منها شمالاً الى حلب وجنوباً الى القنيطرة، الصلت، حوران وشرقاً دوماً وغرباً بيروت ، حاصبياً ثم توسعت هذه الشبكة في سنة ١٩٠٠ بتمديد الخط البرقي الحجازي من الصلت حتى المدينة المنورة وامتد فرع منه بين معان والعقبة البحرية . ولللك البرقي الحجازي عمود تذكري ركزي في ساحة الشهداء بدمشق .

(١) أخذت معلومات هذا الفصل من إدارة البريد والبرق في دمشق .

وتفرع من السلك الشمالي فرع امتد بين حمص ، طرابلس الشام وحمص ، بعلبك وحماة ، سلمية وحماة ، العمرانية ومن السلك الجنوبي الى جبل الدروز وبصرى . وعلى أثر جلاء الجيش التركي ودخول جيش الحلفاء أواخر سنة ١٩١٨ خربت هذه الشبكة ثم أعيد انشاؤها على عهد الحكومة العربية على ما كانت عليه قبلاً الى ان انسحبت منطقتا فلسطين وشرقي الأردن وحكومة جبل الدروز عن جسم الشام . وظلت هذه الشبكة البرقية في الشام بطول ١٥٧١ كيلومتراً .

وقد أنشأت الحكومة التركية اثناء الحرب العامة المخبرات اللاسلكية بدمشق وحلب واستعملت الاشارات الضيائية والبصرية بالاعلام والسواعد ضمن قطعات الجيش فقط .

* * *

الآلات والادوات { كانت الآلات والادوات البرقية المستعملة على
والمخابرة { العهد التركي حتى سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٩ م مخصصة

في نوع سميس ومورس الاوربي ثم عدلت هذه الادوات في مصنع البرق الذي أحدث في نظارة البريد والبرق في الاستانة بشكل جمع بين النوعين المذكورين بجعل ابرة الكتابة بآلة الاخذ للمفاوضات البرقية ان لنقش الاشارات الرمزية ١٠٠ — [— — — — — — — — — —] على شريط الورق بصورة ناشفة بدلاً من نقشها بالحبر كالآلات السابقة ثم ألغت النظارة المذكورة استعمال الابرة والسلك على أثر ترقى الموظفين بتلقي نقرات المخابرة سماعاً وأصبحت الآلات المذكورة من نوع البارلور الذي هو عبارة عن الآلة الآخذة ، وتمد وفرت على الادارة ثلاثة أضعاف ما كانت تكلفها قبلاً بوجود أقسام الكتابة . واستمر الحال على استعمال هاته الآلة حتى نشوب الحرب العامة فأحدثت الماكينات المضاعفة (دبلكس) الالمانية والانكليزية التي سهلت المخابرة اخذاً ورداً في آن واحد على خط واحد كل حدثاها ماكنات الهوك المفردة والمضاعفة التي لنقل المخابرات البرقية على السلك الورقي حروفاً هجائية اخذاً ورداً .

وكانت المفاوضات البرقية على العهد التركي حتى سنة ١٩٠٠ في أكثر المراكز

تُحصر باللغتين الشرقيتين التركية والعربية ولا تُنعدى البلاد العثمانية عدا بضعة مراكز كدمشق وبيروت وما يماثلها من مراكز الولايات وبعد ذلك أُحدثت المفاوضات الغربية بين المراكز العثمانية وأوروبا .

أحدث الهاتف في الشام بعد اعلان القانون الاساسي في تركيا خلال ١٩٠٨ / ٣٢٤ { احداث الهاتف «التلفون»

وكان منحصراً بالدوائر الرسمية الملكية والعسكرية ورخص بتحديد الاسلاك الخصوصية في مسكن كل مشترك وحانوته او مشترك آخر في بلدة واحدة تحت إشراف ديوان البرق الملكية . واستمرت هذه الشبكة الهاتفية بشكائها حتى نشوب الحرب العامة فألغيت منها الاسلاك الخاصة وانحصرت بالاسلاك الرسمية التي تجاوزت نفس دمشق وتوسعت الى مناطق الجيوش ومواقع الحرب حتى اذا انجلت الحكومة العثمانية عن البلاد ودخل الجيش المحتل استلمها وأسس على أنقاضها شبكة خاصة عسكرية وعممها الى جميع مناطق الأندلس الرئيسية كدمشق وحمص وحماة وحلب والاسكندرونة الخ .

وسمح للسكان وتجار هذه البلاد بالاشتراك والارتباط والمكالمات بها . مقابل اجور مقطوعة على كل ثلاث دقائق تمر اثناء المخاطرة . وارتبطت الحكومات الوطنية في كل من هاته البلدان بدوائرها المركزية هاتفياً واستقلت الدرك بشبكة خاصة مع مخافرها .

اما الهاتف اللاسلكي الرسمي فانحصر والحالة هذه بمصلحة الراديو العسكري اخذاً ورداً والهاتف اللاسلكي التجاري سمح به في قسم الاخذ منه تحت إشراف إدارة البريد والبرق دون استعمال آلة الراداي الاصدار .

البريد كلمة فارسية مختصرة من كلمتي بريد منشأ البريد «البوسطة» { ذنب اي مقطوع الذنب . والسبب بهذا

الاصطلاح الغير المأنوس هو ان الفرس كانوا يقطعون أذنان الحيوانات التي تنقل بريد الحكومة تمييزاً لها عن بقية الحيوانات التي تستخدمها لركوب الدرك والجبابة .

فحذفت العرب كلمة الذنب واقتصرت على كلمة البريد والجمع منها برد (ارجع لتاريخ الطائر البريد في وصف البريد) على ما جاء في تاريخ البريد التركي تأليف مدير بريد الاستانة محمد علي بك . ولم يكن قبل القرن السابع عشر اثر للبريد على ما ورد في مجموعة البرق والبريد التركية .

كان شكل وإدارة البريد وسيره من حيث النقل حتى تاريخ تمديد السكة الحديدية المصادف لسنة ١٣٠٧ هـ ١٨٩١ م بين بيروت ودمشق — المزيريب أنحصر الى بيروت بمركبات شركة الحوافل المملوكة بعد سيرة السكة المذكورة . واما باقي الجهات فكانت شمالاً حتى حلب فالاستانة تسافر براً مع التاتار اي مع سعاة البريد الموظفين ينقلونه على ظهور الخيل وشرقاً بين دمشق والعراق — بغداد على ظهر الهجن (الذلول) وجنوباً بواسطة السعاة المأجورين وبحراً بواسطة بيروت وهو عبارة عن تبادل الكتب والصحف والملفات والنماذج دون القيمة والصرر ذات القيمة مع البلاد العثمانية وعلى الكتب والصحف والملفات مع البلاد الاجنبية .

وقد بدأ يتطور شكل سيرة البريد نقلاً وإدارة ومعاملة من سنة ٣١٦ — ١٩٠٠ فألغيت سعاة التاتار سنة ١٩٠٢ بين دمشق وحماة وسنة ١٩٠٥ بين حماة وحلب وسنة ٣٣١ — ١٩١٥ من حلب وأذنة فقونية . وأصبح نقل البريد حتى الاستانة براً بالسكة الحديدية التي أنشئت شمالاً كما انها احدثت نقلات البريد حتى الحجاز اي المدينة المنورة بالسكة الحجازية التي كان بدياً بانشائها سنة ١٩٠١ — ٣١٧ وانتهت بسنة ١٩٠٨ — ١٣٢٤ . وتبدلت نقلات البريد تدريجاً بين البلاد الشامية من وسائل الحيوانات الى متن السيارات . واما فيما له شأن بالمعاملات فقد احدثت على التدرج واعتباراً من سنة ١٩٠٠ أنشئت الحوالات البريدية فالبرقية والطرود العادية فالمشروطة التأدية والمكاتيب ذات القيمة المقدرة بين الممالك العثمانية والشام . وفي سنة ١٩٠٢ بدأت هذه المعاملات الجديدة مع الممالك الاجنبية في اوربا وآسيا وافريقية . ودامت على هذا التوسع التدريجي حتى نشوب الحرب العامة فانقطعت عندئذ مع الدول المعادية لتركيا واقتصرت على البلاد المنفقة معها الى ان جلت الحكومة المذكورة عن هذه البلاد الشامية وانقطعت المواصلات البريدية اثناء

احتلال دول الاندلس بلاد الشام ثم عادت المواصلات الى سيرها السابق فتكاملها
اللاحق بكل فروعها وذلك بمعاونة الحكومة المندوبة هذا سدا عن انقطاع السكة الحجازية
الذي لم يصل والحالة هذه بين الشام والحجاز اي المدينة المنورة بعد الاحتلال
البريطاني لفلسطين وشرقي الأردن الخارج عن حدود الدولة السورية .

مراكز البريد والبرق { دمشق مركز البريد ، دمشق باب توما ، دمشق
في الشام { الميدان ، عفرين ، حلب ، اعزاز ، الباب ،
بصري ، دير الزور ، درعا ، جرابلس ، جسر الشغور ، دوما ، أريحا ، ازرق ، حماة ،
حارم ، حمص ، خربة الغزالة ، ادلب ، قطنا ، القنيطرة ، القطيفة ، معرة النعمان ،
منبج ، النبك ، عمراغا ، الرقة ، سلمية ، السويداء ، بئرود ، الزبداني ، الاسكندرونة ،
انطاكية ، آرسوز ، بيلان ، قريق خان ، الريحانية ، السويدية ، كسب ، بلودان .

هذا في دولة سورية ، وهذه مراكز البريد في لبنان :

بيروت ، جديدة المتن ، جونيه ، جبيل ، بترون ، أنفة ، طرابلس ، زغرتا ،
عكار ، غزير ، أميون ، بشري ، الدامور ، صيدا ، صور ، تبنين ، بنت جبيل ،
جزين ، نبطية ، مرجعيون ، حاصبيا ، بعبداء ، عاليه ، دير القمر ، بعقلين ، بيت صهي ،
برمانا ، بكفيا ، بيت شباب ، شوير ، بسكنتا ، بجمدون ، صوفر ، حمانا ، زحلة ،
رياق ، بعلبك ، الهرمل ، جب جنين ، مشغرة ، حصرون ، أهدن ، دوما لبنان ،
حدث الجبة ، عين زحلنا ، سوق الغرب ، سير ، قرطبا ، الشوبقات .

وهذه اسماء مراكز البريد في بلاد العلويين :

بانياس ، جبلة ، القدموس ، القرداحة ، اللاذقية ، المشي ، الممرانية (مصيف) ،
أرواد ، صافيتا ، صهيون ، طرطوس ، تل كلخ .

واليك اسماء مراكز البريد والبرق في فلسطين :

عكا ، العفولة ، بئر السبع ، يديسان ، غزة ، حيفا ، يافا ، جنين ، القدس ،
لد ، المجدل ، نابلس ، ملبس ، الرملة ، ديران ، سمخ ، صرند ، تل أبيب ، طولكرم ،
زمارين .

وقد أصبحت فلسطين في عهد الانتداب الانكليزي مربوطة كلها حتى قراها بشبكة من سلك الهاتف فنازع الهاتف البرق في هذا القسم الجنوبي من ارض الشام وأصبحت المواصلات فيه سريعة للغاية .

وهذه جريدة اسماء مراكز البرق والبريد في شرقي الأردن :

اربدة ، ام قيس ، دير ابو سعيد ، الحصن ، الرمتا ، الزرقا ، الصلت ، الطفيلة ، عجلون ، عمان ، القطرانة ، الكرك ، مادبا ، معان ، جرش .

اما مراكز البرق خاصة في بلاد الانتداب الافرنسي في الشام فهي كما يلي :

(سورية) : حلب ، الاسكندرونة ، انطاكية ، آرسور ، اعزاز ، الباب ،

بيلان ، بلودان ، بصرى ، دمشق ، دير الزور ، درعا ، جرابلس ، جبرود ، جسر الشغور ، دوما ، ربحا ، ازرع ، حماة ، حارم ، حسيه ، خربة الغزالة ، حمص ، ادلب ، قطنا ، قرق خان ، القنيطرة ، القطيفة ، معرة النعمان ، معبطل ، منبج ، النبك ، عمر آغا ، الرقة ، الریحانية ، سلمية ، السويداء ، السويدية ، الزبداني ، بربود .

(لبنان) : عكار ، عاليه ، أميون ، بعبدا ، بعقلين ، بعلبك ، البترون ،

بشري ، بيت شباب ، بيت مري ، بيروت ، بمحمدوت ، بجنس ، بنت جبيل ، بسكننا ، بكفيا ، برمانا ، الدامور ، دير القمر ، ظهور الشوير ، جزين ، جب جنين ، جبيل ، جونيه ، اهدن ، انفة ، غزير ، حمانا ، حاصبيا ، حصرون ، الهرمل ، قب الياس ، مشغرة ، مرجعيون ، النبطية ، راشيا ، رياق ، صيدا ، صوفر ، تبنين ، طرابلس الشام ، ميناء طرابلس ، صور ، زحلة ، زغرتا .

(العلويون) : بانياس ، جبلة ، حفه ، القدموس ، القرداحة ، اللاذقية ،

مصياف ، المشتى ، أرواد ، صافيتا ، طرطوس ، تل كلخ .

فمجموع المراكز ٤٥ في لبنان و ٤٠ في سورية و ١٢ في العلويين .



المصانع والقصور



نقاسيم المصانع وعظمتها { ان قطراً كهذا القطر البديع ، نماغب الحكم عليه الحثيون والمصريون والبابليون والاشوريون والفرس والفينيقيون والاسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترك والنتر والشركس ، وأعجب الفاتحون بجيرانه ، واغتبطوا بالاستيلاء عليه ، لموقعه الممتاز بين لافطار والقارات ، فجملوه محط رحالهم ، ومجازاً الى فتوحهم ، لا يستغرب منه اذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيها بسلامة الذوق ، وجودة الابداع ، وعظمة الباني .

ان الشعوب التي أنشأت مصانع وادي موسى وجرش وعمان ومادبا وبعلبك وتدمر والرقه وأقاميا ودمشق وحلب والقدس كانت ولاشك ذات معرفة بالهندسة ، لا نقل عن اهل هذا العصر بها ، لان ما شادوه صارع الايام وصرعها ، وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم والتخريق ، بايدي المخربين ، من الظالمين والمظلومين ، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية .

ننقسم مصانع الشام الى قسمين : مدني وديني ، فالمدني كالفلاع والحصون والابراج والناور والمراصد والقصور والجسور والسكرور والقنوات والمواني والطرق والدور والقبور والمستشفيات . والديني كالمعابد والبيم والاديار والكنائس والجوامع والمساجد والمدارس والرُّبُط والخانقاهات والملاجي وما شاكلها .

مصانع الامم القديمة ، { ومن أقدم مصانع الشام ما وجد في قرية الحصن من عجولون وهي أنصاب (Dolmens) يبلغ عددها المئتين على ما قال مالون ، وهي عبارة عن ثلاثة أحجار عادية ضخمة احدها طويل منبسط ، يبلغ طوله ثلاثة أمتار في عرض مترين ، يركز أفقياً فوق حجرين آخرين مربعين مستطيلين . ومنها ما يبلغ علوه ٨٠ سم ومنها ضعف ذلك . وقد زعموا انها كانت مذابح دينية وانها هي المشارف التي تكرر ذكرها في الاسفار المقدسة . والرأي المرجح انها كانت قبوراً ، ولا يعرف لها تاريخ اكيد . والعلماء يعملون عليها في الطور المعروف بطور الظران . وربما كانت أقدم عاديات الشام .

ومن اقدم مصانع الحثيين قلعتهم التي أنشأوها على الفرات في كركيش (جربلس) فبقيت حسكة في حلق نينوى الى نحو سنة ٧١٠ قبل الميلاد حتى استولى الاشوريون عليها . وبنوا اسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطعمهم سوى آثار ضئيلة . واهم ما بقي من آثارهم ، معبدهم في القدس او معبد سليمان الذي جمع اليه الصنائع والمهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ قبل الميلاد ، وقد حُرق هذا المعبد فور غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ قبل الميلاد ولما عاد اليهود بعد اثنين وخمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الاول في الجملة ، وكانت دثرت محاسنه الاولى ، ثم وقع ترميمه في أدوار مختلفة ولم يُصب هذا المعبد باذى على عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني في الشام ، ولا في زمن بومبيوس الروماني ، لانه كان من عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان ، ان لا يقاتلوا الامم التي يدوخونها على أربابها . وربما اقتبسوا ممن غلبهم على امرهم عباداتهم من غير تكبر .

وسع هيرودوس ملك اليهود الذي نصبه الرومان معبد سليمان ، وانتهى على عهد نيرون ، وكان عمل فيه الف كامن والوف من العملة دهنراً طويلاً . وقد قيل ان سليمان خزن من غنائه لبناء معبده مئة الف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة ، قدرت بسكة زماننا بثمانمائة وتسعة وثمانين مليوناً ونصف مليون جنيه ، وذلك ما عدا الحديد والنحاس والخشب . فكل بناؤه سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد وكان نجر اورشليم ، وأجمل بناء في العالم . وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري اي العمدة ،

فأدار الملوك المتأخرون هذا الرواق حول جميع البناء ، وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة الى ان خربه ملك بابل . وتحيط بالهيكل الذي رمه هيرودوس في محل الحرم الشريف عدة دور ، منها دار الام وهي الدار الخارجية ، ثم دار النساء ، ثم دار اسرائيل ، ثم دار الكهنة ، ثم الهيكل . وقد هدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠ م .

ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون يتقنون عن كل ماله علاقة بهذا المعبد ، وكان غاصاً بالخشب الثمين الذي جيء به من أرز لبنان وغيره ، مموهاً بالذهب والفضة ومحلى بالعاج والاحجار الكريمة ، وفيه من الاواني الثمينة والمُددى والاحواض وادوات البيوت ، ما صَحَّ ان يعدَّ خلاصة علم الفينيقيين بالصنائع النفيسة . والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل .

* * *

هندسة الفينيقيين { لم يشتهر الفينيقيون بانهم عُنوا بالبناء والهندسة
وآثارهم { عنايتهم بالربح والكسب وارتداد القاصية ، ومع هذا
أعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب التجارية التي أقامها الفينيقيون في شواطئ يونان
وايطاليا وصقلية وغاليا وابيريا وافر يقية . بيد ان هذا الشعب لم يخلف من آثار
مدنيته ادنى ما خلفته الشعوب القديمة . وربما كان الباقي منها بل ما ثبت قيامه على عهد
حضارتهم ، أقل مما خلفته تدمر والبراء . ولم يثبت ان بقي للفينيقيين معبد من معايدهم
الى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ .

اما آثار الفينيقيين المدنية كالحصون والقبور وغيرها ، فان الباقي من أساس حصن
صور الذي أعجز اقتحامه قدماء الفاتحين كسراغون وميخنصر والاسكندر ، لا يدل
على كبير امر ، وقد بني الاسكندر بين البر والجزيرة فيها سدَّ الغريب ، وكان بناء
صور الى عصر ابن بطوطة « ليس في الدنيا أعجب وأغرب شأنًا منه » وقال ابن
جبير : انه يضرب المثل بمصانمتها ، وذلك انها راجعة الى بابين ، احدهما في البر
والآخر في البحر ، وهو يحيط بها من جهة واحدة ، فالذي في البر يُفضى اليه بعد ولوج
ثلاثة أبواب او اربعة ، كلها في ستائر مشيدة محيطة بالبواب ، اما الذي في البحر فهو
مدخل بين برجين مشيدتين الى ميناء ليس في البلاد البحرية أعجب وضعًا منها ، يحيط

بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحديق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجلس . وكانت بيوت صور كبيوت طرابلس ذات طبقات ست وسبع وثمان على عهد الفينيقيين . ولا يزال سور بانياس بين طرطوس واللاذقية قائماً ، ولا يعرف اذا كان من صنع الفينيقيين او البلاسجيين ، لانه أشبه بعمل البلاسجيين سكان ايطاليا و يونان القدماء . وهكذا يقال في أسوار بيروت وصيدا وجزيرة أرواد وعمر بت ومعبد هذه على رأي «رنان» أقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار المنصر السامي . اما قبور الفينيقيين فهي أهم ما اكتشفت في بلادهم ، وكلها نقر بيا نقرت في الصخر وهي مثلها في بلاد يهوذا والعرب ، اي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواويس لأسرة برأسها . والقبور التي ظهرت في عمر بت هي أهم ما عرف من نوعها وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما النواويس الاربعة التي وجدت في هذه المدينة ، ولا تزال محفوظة في متحف فروق .

بحث الاثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الاكثر ، وامتدوا في حفر ياتهم الى بلاد العرب للعثور على مدنية يعتد بها سبقت الرومان واليونان . وكل ما عثروا عليه تافه في الحقيقة . وقد تبين لهم ان البيوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين : دائرة الرجال او الثوي وهو المكان المعد للضيف « السلامك » ، ودائرة الحرم ، شأن قصور الشرق الاسلامي لهذا العهد . وما قصر هر كان في عراق الامير ، وحصون القدس ، و برج انطونينا ، الا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية . ونقل في فلسطين وشمال غرب بلاد العرب القبور التي يرد عهدها الى الزمن الذي يسبق العصر اليوناني . وقبور مدائن صالح التي فحنت في الصخر ، لا يستدل منها الا انها مثال من أمثلة البناء الاشوري . وقد اختلفت الظنون في هذا الشأن ، والاثريون يوالون النبش ليكشفوا شيئاً يستدلون منه على مدنية أقدم أمة تزلت الارض المقدسة .

أقيمت عدة أنصاب في الشام للملوك الرومان منها ما عثر عليه الاثريون . ذكر وادنكتون كتابة وجدما في عادات الرومان {

السويداء كأنها كتبت تحت نصب أقيم لاحد ملوك الرومان فيه « للملك اليوس قيصر أدريانوس انطونينوس ييوس المعامل » ووجدت كتابة في قرية ام الجمال في حوران كتب فيها « للمعامل القيصر مرقس اورليوس انطونينوس اغسطس قاهر الازمن والبرتهين » . ولهذا القيصر كتابة أخرى في سهوة الخضر من جبل حوران ، وأخرى في الشهباء المسماة فيليبولي نسبة الى الملك فيلبس العربي ، ووجدت في السويداء ايضاً كتابة يونانية مؤذنة باقامة اثر تكرمة للملك كومود ، أقامه له دوميتيوس بروكستر والي العربية ، ذكرى جلب الماء الى المدينة وضواحيها سنة ١٨٧ ، ووجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عُدوة النهر الكبير كتابة تدل على محطة عسكرية . وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر كتابة فيها « بسلامة مولانا القيصر لوستيوس - بتيوس ساويروس برتينكس اغسطس ، أقام هذا النصب بوميبابوس اينجيوس نذراً للمشتري » .

يصعب الحكم على كل أثر بعينه ، ونسبة كل بناء الى الامة التي أقامته ، وكل واحدة منها تركت على الأغلب في هذا القطر أثراً مخدداً متلدأً تفاخر به . فالطرق الرومانية التي أنشئت من القدس الى بلاد النبط جنوبي بحيرة لوط ومن شمالها ، وطريق مادبا الى البتراء والعقبة حتى البحر الاحمر وطريق جرش وداي موسى ، والطريق المبلط شرقي صرخد الممتد الى العراق ، وكان يسمى بالرصيف ، هي من الآثار المهمة كالمعسكر الروماني في أذرح ، وآثار قنوات وشهبة وسالة ودامة العليا ولبن .

عادت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها
بضروب مرافقها ، ومنها الهياكل الجليلة ،
والدور الفخمة ، والاندية والمجالس والقصور ، والحمامات والمسارح والمدافن والمسلات ،
وقد رأى فيها « دومازفسكي » آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية والشامية .
ومعلوم ان اهل البتراء عرب من النبط شيدها حوالي القرن السادس قبل الميلاد ،
وارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى ان زاحمتها تدمر في القرن الثالث للميلاد .
ومن أجل ما في وادي موسى اليوم خزنة فرعون وهي دار الحكم تقرت في الصخر

وجملت ثلاث قاعات وبهواً . وهذا القصر الفخم الذي يسميه الناس خزنة فرعون كان في الغالب معبداً لـ لايزيس ، أنشئ على عهد الامبراطور ادريانوس سنة ١٣١ وفي واجهة هذا النصر رواق يتقدمه بضعة أعمدة كبرى وفوقها ثلاثة أعمدة أصغر منها ونقوش وتيجان ، وربما كان يصعد الى العلبة بلواب من الصخر بدليل ما يشاهد في الحائط من اثر الادراج . واذا دخلت هذا الرواق ترى على اليمين قاعة كبرى تلع أحجارها وتتموج كأنها خرجت الآن من يد نقاشها . وفي الجهة اليسرى قاعة مثلها ، وفي الصدر القاعة الكبرى او الردهة المدمشة . وكل هذه السواري والتيجان والقاعات والرواق محفور في الصخر او في هذا الجبل قطعة واحدة فكأن الحجر كان بيد صانعي هذا الهيكل وغيره من الهياكل والنواويس والقصور كالطين يعملون منه ما يشاؤون . والذي يزيد في الدمشة ان الحجر أحمر في هذه الجبال او من نوع الحجر الرملي ولكنه بمتانته كالصخر الاصم . ثم ترى فيه ذاك اللعان ، فن موجة حمراء الى أخرى زرقاء ، الى مثلها بيضاء الى جانبها دكناء . فسبحان من أنشأ هذا الصخر هنا منقطع النظير ، ورزق بانيه بدأ صناعاً لفنن في تقطيعه ، ونقره بما فاق به البناء في سائر عاديات الشام . فان كانت قلعة بعلبك لنم عن ذوق سليم وعلم واسع في النقش وجرا لا ثقال . فان هذه العاديات الازلية لنادي بلسان حالها . هذه عظمة الديان الى جانب فنن الانسان .

وفي هذا الجوار أقدم النواويس وأهمها وبعد ذلك يجيء قصر البنات وهو بناء من الحجر رصفت حجارته كما ترصف الابنية الضخمة من قلاع وأبراج وأسوار ونحوها . والغالب انه كان للنأخرين شبه دار للحكومة وهو مما عمر قبل عهد الاسلام . وهناك ولا سيما في خربة الساري آثار بعض أديار يدل اسمها ورسمها انها من عمل المسيحيين عندما كانت لهم حكومة هنا على عهد الرومان واليونان . وعلى مقربة من تلك الجبال الشوامخ والمنفرجات والادوية بعض نواويس وآثار ولكنها دون آثار البتراء في المكانة . وفي جبل الصبر ملعب او صورة تمثل قتالاً بين سفن حربية .

و يقول بعض علماء الآثار ان معظم القبور التي حفرت كانت على مثال قبور الحجر ، يرد عهدها الى الحارث الرابع احد ملوك البتراء اي ٩ و ٣٠ قبل المسيح وبعده .

وليس في وادي موسى أعمدة من قبل الحكم الروماني عليها . وان ما يشاهد من صور
ابي الهول وايزيس ورؤوس الحملان يدل على ان هذه البلاد تأثرت بالمدينة المصرية .
والمسلتان الموجودتان في النجر تمثل ربي النبطيين اللات والعزى ، وانها كانت مركز
عبادة النبط قبل العهد اليوناني بستة قرون على الاقل ، وان المدينة اليونانية دخلت
البثراء على عهد البطالسة فاختلفت العنصران المصري والشامي ، وظل القول الفصل
فيها للمدينة اليونانية الى عهد الحارث الرابع . وفي البثراء ٨٥١ مصنعا من القبور
والمعابد والمذابح .

وعدوا من مفاخر وادي موسى الملعب العظيم المنحوت في الصخر ، قطره ١٧١ قدما
وفيه ٣٣ صفقا من المجالس يسع من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ من المتفرجين . والملعب الروماني
في عمان (ربة عمون) اكبر الملاعب في الشام . وهو مركب من ثلاث مراتب ،
جعلت المرتبة الاولى خمسة صفوف من المقاعد ، والمرتبة الوسطى اربعة عشر صفقا ،
والمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفقا من المجالس . وهو يسع اربعة آلاف ناظر ايضا .
وفي أسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الاسود والنمورة والخمسين .

و يرد تاريخ ارتفاع جرش الى القرون الاولى للمسيح ، وتاريخ اُبنيتها الى امبراطرة
القرنين الاول والثاني ، وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الاصقاع البعيدة .
وكانت جرش من جملة المدن المهمة للغاية من بين مدن بلاد العرب ، وعمدها المائلة
للعيان ومنها ما بلغ طوله ١٤ متراً وقطره خمسة أقدام ، وملاعبها وهياكلها وصاحاتها
وحماماتها تُذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض البلاد المهمة التي تولوا الحكم عليها .
وصف شيخ الربوة خرائب جرش وعمان في القرن الثامن بقوله : « ذكروا ان
بدمنة مدينتي عمان وجرش بالشام ملعبين ، فاما جرش فمنها تلال وجبال وحجارة
منقولة ، وبعض بناء أبوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً ، وبهذه البدمنة موضع
كصورة نصف دائرة مقطوعة بحائط وذلك الحائط به مجلس للملك ، واما النصف
المستدير فانه مدرج درج بعضها فوق بعض ، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية أوسع
من السفلى ، وبين هذه الدرج الدائرة ابواب ومسالك ، وكل درجة عليها مرتبة من
الناس ، وكلهم ينظرون الى الملك وهو ينظر اليهم كلهم لا يحبون عنه ولا يحب

عنهم في ذلك المجلس وكأنما هو ليوم الحكم الامام فقط ، و بالقرب من هذا الملعب ايضا ملعب وفيه عمد طوال قائمات ، وفي كل منهن بكرة ، وهن مستديرات المراكز كهورة دائرة ، وكأنما كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود الى عمود وفوق ذلك ابنية لاهلها وآثار شاهدة ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة بعلبك وباب البربد بدمشق اه » .

وصف المحدثين { تبدأ خرائب جرش من الجنوب بيباب النصر المسمى خرائب جرش باب عمان وهو بناء عرضه ٢٥٠٣٠ م والشق الاوسط منه ٦٤٧ على ١٢ متراً من الملو ، وله من كل جهة باب وهذا البناء أشبه بقوس النصر المنسوب لتراجان في مدينة رومية . ولذلك يظن ان البناء يرد عهده الى القرن الثاني للميلاد . وفي غربي هذا الباب سطح واسع فيه محلان ، وفي الاسفل مسرح لتمثيل الحروب البحرية ، وله بحيرة طولها ١٥٥٠ م وعرضها ٥٥ متراً ، وله اربعة سدود من جنوبها وعمقها ٤٧٠ م ومقاعد المنفرجين على طول المحل . وهذا الحوض متصل بقناة مع العين . ويفصل الحائط الشمالي المسرح بملعب كبير قطره ٩٠٠٥٥ م لا تزال ترى فيه اربعة صفوف من الدرجات وعلى مقربة من الملعب بقايا مدفن كبير . وعلى بضع خطوات من الغرب بقايا معبد طوله ٣٠ متراً وعرضه ٣٠٠٢٠ ، وكان للبناء المحيط به عمد منفردة احد عشر عموداً من الشمال ومثلها من الجنوب ، وثمانية أعمدة من الشرق ومن الغرب . وكان للدهليز صفان من الاعمدة وله تيجان قورنثية وعرض الرتاج ٤٧٠ م . وغرف المنفرجين التي مازالت جدرانها الجنوبية سليمة الى عشرة أمتار كان طولها ٢٥ متراً وعرضها ١٥ . وقد فقدت تيجان القواعد المركبة (الركائز) المبنية من الصخر المحكم الوضع وقام في العالي طنف بسيط قليل البروز . ومجموع البناء حسن للغاية . وقام مسرح الجنوب المتصل بالجهة الغربية من هذا المعبد على سور المدينة . ولا يزال ٣٢ صفاً من المقاعد سليماً . ومعظم قطر المسرح ٨٧٠٢٦ م . وهناك ممشى على شكل نصف دائرة يتصل مع الاسفل بخمسة سلالم ومع الاعلى بنسعة ، ونقسم هذه الدرجات الى قسمين وله اربعة دهليز من جهة الجنوب .

ويمتد في الشمال الشرقي من المعبد والمسرح ميدان ممدد تحيط به عمد لطيفة ،
تؤلف نصف دائرة مفتحة نحو الجنوب الغربي . ولا تزال معظم السوراري وعددها ٥٦
محفوظة بحالها ، وهي من الطراز اليوناني يتصل بعضها بالآخر من سطوح الاعمدة .
وفي الشمال الشرقي من الميدان تبدأ سلسلة أعمدة مستقيمة الاضلاع تجتاز المدينة
كلها وطولها ٨٠،٣ مترات وعرضها ١٢،٦٠ متراً والمسافة بين الاعمدة الموضوعة ثلاثة
أمتار . ولم يبق من ال ٥٢٠ عموداً سوى ٧١ عموداً قائمة الى اليوم . اما الاخرى
فقد تداعت بالزلازل او هدمتها يد الانسان في العهد الحديث ، لان هذه الخرائب
أصبح اكثرها مقالع لاهل القرية بأخذون من أبنيتها الجميلة حجارة لبنائهم . وعلو هذه
الاعمدة من ٦،٥٠ م الى ٩ م يدخل في ذلك الاساس والتاج . اما العمدة القائمة وسط
الشارع فهي من الطرز القورنثي ، وتيجانها من أرقى ما صنع الصانعون . وما كان منها
بالقرب من الميدان وعلى نحو الباب من الشمال فهو من الطراز اليوناني .

و يرى الناظر من جانبي الشارع بقايا صف آخر من الاعمدة ربما كانت مجازات
بين الاعمدة على طول الدور . وهناك جسر يجتاز القناة على خمس حنايا وعرض
الاطسب منها ١١،٤٠ س . وثم بقايا بناء عظيم منقوش كان يتخذ محكمة جمل على
شكل نصف دائرة ، نصف قطر دائرتها عشرة أمتار ولها فوارة . وعلى مقربة من
هذا خرائب أروقة المعبد الكبير الضخمة العظيمة . وقد تهدم جزء من سطح أعلى الباب
الاعظم وهو مجنح بفرج لنوافذ مثلثة الشكل منقوشة أجمل نقش . والنقوش السالمة
التي تزين الواجهة الغربية هي من طراز رائق بديع . وهذه الاروقة تؤدي الى معبد
عظيم يدعى عادة معبد الشمس وهو في مستوي طوله ١٦٠،٦٥ م وعرضه ١٠٤،٨٥ م تحيط
به ٢٦٠ عموداً . وطول المعبد ٢٦،٧٠ م وعرضه ٢٠ . ويتألف رواق المعبد من
صفيين من الاعمدة احدهما من ست والآخر من اربع . وزيادة على ذلك عمود من
كل جهة من الحواجز البارزة من المعبد . وفيه تسع سوار علوها ١٣،٨٠ م وعرض
الزجاج خمسة أمتار وعرض المجالس ١١،٢٠ م وطولها ١٧،٨٠ م . وفي جنوبي المعبد
كنيسة كاتدرائية ذات ثلاثة صحنون . وفي الجنوب الغربي كنيسة أصغر منها .
ويظهر ان كنيسة ثالثة في شرقي الاروقة كانت من جملة الاجزاء المتممة لمعبد الشمس .

ومن هناك ننتسب شوارع أخرى ونلقاطع الطرق ، وكانت مزينة بتأثيل ونصب وعمد وسوار لا يزال بعضها أثراً شاهداً على العظمة الماضية .

أما ملعب الشمال الذي كان خاصاً على ما يظهر بقتال الحيوانات والصراع ، فكان له ١٧ صفاً من الادراج ومجموع علوه ١٢ م وفي محيط الدائرة منها بين الصف الثامن والتاسع خمسة معابر أو مماش ترى بين كل واحد منها كوة عظيمة وثنتين أصغر حجماً على شكل الصدف . والحمامات العامة عبارة عن مجموع غرف وعقود يطلق عليها اسم الخاف . ومدخلها بناء سلم يرمته من عوادي الايام تعلوه قبة ومساحته ١٦٧٠ متراً مربعاً . وهناك سلم يوصل الى محل الحمامات الحقيقي مؤلف من ارض مساحتها ٦٧٧٠ م طولاً و ٣٠ عرضاً ولها جناح مصاقب لها من الجنوب طوله ٤٢ م وعرضه ١١٧٠ م . وبالقرب من جامع القرية بناء آخر قديم كان حماماً ايضاً وعلى الشاطئ الشرقي من النهر تشاهد حيطان سور كنيسة رابعة طولها ٦٠ متراً وعرضها ٦٠٣٦ م وحنية المحراب مزدانة بكوى على شكل صدف لم يبق من سواربها سوى تسع قواعد يونانية وبعض اسطوانات . وكان هذا المعبد في الاصل مدفناً للربة نيميزيس ويرد عهدها الى الامبراطور تراجان .

* * *

عاديات تدمر { ذكر بعض الاثر بين ان مدينة تدمر بناها سليمان ليأمن على طريق التجارة ، وقد أصبحت في اوائل الصراينة

احدى المدينيتين اللتين جمعتهما بين تجارة اوربا وآسيا وأعني البتراء وتدمر . قال ياقوت واهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان بن داود عليهما السلام بأكثر مما بيننا وبين سليمان . ولكن الناس اذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا بانيه وأضافوه الى سليمان والى الجن . قلنا وكانت القدماء يعتقدون ان بعض مدن ساحل الشام بناها الآلهة قال المعري :

وقد كان ارباب الفصاحة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن وقال النابغة الذبياني :

الا سليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحدها عن الفند

وأخيراً الجن التي قد أمرتهم بنون تدمر بالصّفايح والعمد
خربت آثار تدمر سنة ٢٧٣ م على يد اورليانوس الروماني لما قهر زينب ملكيتها .
ولما انتقض أهلها عليه عاد فافتحها عنوة ، وأعمل في أهلها السيف أياماً متوالية حتى
كلت أيدي جنوده من القتل والذبح . ثم أمر فبمئرت الابنية ، وقوضت الهياكل ،
ودكت الأسوار ، وهدمت القلاع . فأصبحت تلك المدينة الزاهرة قاعاً صنفصفاً
وظلت على هذه الحال قرية حقيرة الى عهد ديوكليتيانوس استخدمها الرومان لرد
غزوات البادية وغيرها .

وصف عادات { وبعد^(١) فان كل مادونه مؤرخو العرب في تدمر وما
تدمر { وصفها به رحلتهم مختصر جداً لا يستفاد منه الفسائدة
العلمية اللازمة و يتعذر علينا من النصوص التي اتصلت بنا ان ندرك حقيقة حالة تدمر
وعمرانها حين فتحها المسلمون . والمعروف ان تدمر لم تستعد مكانتها ولا بعضها منذ
استيلاء اورليانوس عليها في سنة ٢٧٣ م . يوم دك معاقلها وهدم دورها ودرس
قصورها فأخذت تدمر حينئذ بالانحطاط الى ان ما وصلت الى ما هي عليه اليوم .
ان اتصل بنا تاريخ هدم تلك المدينة فاننا نجعل ما انساب البقية الباقية من عمرانها
بعد ذلك العهد حتى منتصف القرن الثامن عشر . ايام نزها في سنة ١٧٥١ المهندس
الانكليزيان وانكس وود فرسما مخططاً لتلك الخرائب ونقلنا الى بلادهم جملة رُقم
تدمرية و يونانية تمكن بفضلها سو ينثن و برتليي من قراءة حروفها وتفسير معانيها .
ومنذ ذاك العهد اشتهرت تدمر في بلاد الغرب ولا سيما عند علماء الآثار وغوانها
فكثرت شدة المرحال اليها وزاد زوارها في السنوات الاخيرة خاصة وذلك بالنظر لسهولة
المواصلات وتوفر أسباب الراحة فيها . وبالرغم مما انتاب تدمر من عوامل الهدم
والتخريب فان القسم القليل الذي سلم من كوارث الايام واحداث الدهر يني بجمال
عظمتها وجلال قدرها . فلا يتأتى لمن يقف وسط تلك الاطلال و يتأمل هذا الانقار

(١) كتب وصف تدمر الباحث الاثري الامير جعفر الحسني .

ان لا تأخذه حيرة في دهشة او رعشة في وحشة لهذا الابداع المعجب ودقة الصنعة وناسب الجمال والعظمة . فكل جزء منها شاهد على سلامة ذوق مخططها ومهارة عمالها وصناعها . فقد جمعت بين الابداع والاعجاز حتى يتساءل المرء وهو في القرن العشرين ان كان هذا ثمرة جهود الانسان او عمل من صنع الجان .

تعد خرائب تدمر اليوم من اكبر خرائب الشام وأهمها وتنقسم بناياتها الى ثلاثة أقسام : الهياكل والبلدة والمدافن . ولم يبق من الهياكل سوى الهيكل الكبير وهو هيكل بعل والهيكل الصغير وهو هيكل بعلشاميم . والاول هو اكبر بنايات تدمر وأهمها ويقع الى الجهة الشرقية من البلدة . وهو عبارة عن فناء واسع مربع الشكل يبلغ طول كل من أضلاعه ٢٣٥ متراً يحيط به جدار ذو نوافذ ارتفاعه نحو من ١٥ متراً . ومدخله من الغرب . وهذا المدخل يؤدي الى دهليز قام على عمد يبلغ ارتفاع كل منها ١٤ متراً ومنه تيجناز الواجهة الداخلية وتعتبر هذه من أبداع مصانع تدمر وألقبها صنفاً . ويحيط بهذا الهيكل من داخل الجدار رواق كان قائماً على ٣٩٠ عموداً تهدم اليوم معظمها . وقد شيد في وسط هذا الفناء الهيكل الاصلي وطوله ٦٠ متراً وعرضه ٣١ متراً ونصف . وأقدم كتابة وجدت داخل هذا الهيكل مؤرخة بسنة ١٧ م . ويرجح ان هذا الهيكل بني في أوائل العهد المسيحي .

والهيكل الثاني الى شمالي البلدة ومدخله من الشرق وهو أصغر حجماً من الاول وأقل كلفة . ومجموعه الخارجي يكاد يكون سالماً ومع بساطته تجيد إنقائاً في بنائه ودقة في نقوشه وقد تم بناؤه في النصف الاول من القرن الثاني للميلاد .

ان ما بقي من آثار البلدة هو أروع شيء في خرائب تدمر وأعظم منظراً . ومنها تلك الاروقة التي كانت تمتد من جانبي أهم شوارع البلدة فهي أبهج منظراً لعظمة تلك المدينة وأطول هذه الشوارع هو الذي يخترق البلدة من الشرق الى الشمال ويقسمها الى منطقتين وطوله ١٢٠٠ متر وعدد أعمدة كل صف يبلغ ٣٧٥ عموداً ارتفاع كل منها ١٧ متراً وقد تهدم معظمها فلم يسل منها سوى ١٥٠ عموداً . ويخترق هذا الشارع من منتصفه شارع آخر على شاكلة وعند ملتقاهما يؤلفان مصلباً وكان على مقربة منه تمثالاً أذينة وزنوبياً . وفي منتصف كل عمود ركيزة قامت عليها تماثيل

مشاهير حكامها والصالحين من رعيتهما . ولم يزل مدخل المدينة الشرقي قائماً وله منظر رائع ومرأى جميل . وما خلا ذلك من الانقراض المتراكمة الباقية والأعمدة والاحجار المنحوتة مبعثرة مشتت عرف بفضلها أصحاب الهندسة تخطيط أبنية المدينة وهندسة شوارعها وأزقتها .

ان قبور تدمر مبعثرة حول البلدة ومعظمها في الجهة الغربية في وادي يعرف بوادي القبور لكثرتها فيه . وهي على نوعين : منها ما هو قائم على شكل أبراج مربعة في ثلاث او اربع طبقات منقسمة حجراً وفي جدرانها القبور . والنوع الثاني كهوف نقرت في الصخر على سفح الجبل وهي ذات ابوابين او ثلاثة ومن القبور ما هو في الجدر ومنها ما هو على شكل النواويس ويختلف عدد القبور في كل مدفن بين العشرين والسبعين وهو ملك أسرة واحدة او أكثر . وكان لابناء الأسرة في تدمر عناية خاصة بمدافنهم يتنافسون بانقانها وزخرفتها ومنها ما هو أشبه بقصور منها قبور . وكل هذه العناية لحرصهم على راحتهم في دار البقاء كما ننص على ذلك رُقمهم القبرية اه .

أقام الرومان بين دمشق وتدمر الى الفرات اثنين وخمسين حصناً او قلعة . وبعد كل منها عن الاخرى ثلاث ساعات . ولا شك في ان الحرس الروماني كان في بعضها . وبني الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عبث البادية . وطريقاً من صرخد الى البصرة . وطريقاً من حوران الى البلقاء الى عقبة أيلة وما اليها . وكان ذلك في ايام عظمتهم . قال احد علماء الهندسة من الفرنج : ان الرومان لما أصبحوا سادة الارض وامسى معهم جميع الشعوب بمثابة العبيد عدلوا وهم في اوج عزهم عن أعمال في العمران كان فيها عزهم ونجاحهم واستسلموا الى الكسل وإضاعة الاوقات .

وبعد ان فتحت زينب او زونوبيا سلطنة تدمر المشهورة القطر المصري عمرت الابنية التي جلبت اليها الام من اقطار الارض ولا سيما اليونان . ولما جاء يوستينيانوس سنة ٥٢٧ جدد بناء الاخرية في تدمر وشيد أبنية أخرى فيها وجعل لها سوراً . ثم سطت عليها الزلازل كثيراً . وما يرى اليوم من الاثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد على ما كان هناك من عمران ممتد الرواق . وما استخرج ولا يزال يستخرج من ارضها من التماثيل والانصاب والشواهد يدل على فضل ذوق وحسن هندسة .

ومن كل أنواع الانام مصور
ومجلس أنس يفسح الطرف ملؤه
وصرعى وقتلى في قتال عساكر
فمن جانب أضحت تُصب مدامة
خليطات هذا للقراع معبس
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم
وكل يُعاني شغله غير انه
ملاعب فيها الملك رام بطرفه
وعاشوا طويلاً ثم فرق شملهم
فلولا مكان الدين قلّ لفقدهم
ملوك أقاموا ما أقاموا أعزة
وخيل للرأي ليذكر عهدهم
خيال لم يهدي الى كل أمة

شباب وشمط يرحون وشيب
قيان تغني وسطه وشروب
تحول حصون دونهم ودروب
ومن جانب أضحت تُشب حروب
يصول وهذا للسماع طروب
بين لنا بشر بها وقطوب
على فمه دون الكلام رقيب
وكل ابن دنيا ان نظرت لعوب
زمان اكل للانام شروب
بكاء لنا في إثرهم ونجيب
وقد شعبتهم بعد ذاك شعوب
خيال لعمرى ان رأيت عجيب
لقصد اعتبار ان رآه لبيب

* * *

عاديات بعلبك { ان بقايا هيكل الشمس او المشتري وهيكل الزهرة
امس واليوم { وهيكل باخوس ودار المذبح او البهو الكبير الماثلة الى
اليوم في قلعة بعلبك لا كبر دليل على ارتفاع فن الهندسة حتى في العصور التي سبقت
الرومان واليونان . وقد عدت أحجار بعلبك ومنارة الاسكندرية (الاسكندرونة)
من جملة عجائب الشام . فقد قال الهمداني في أحجار بعلبك ان فيها حجراً على خمسة عشر
ذراعاً اقل او اكثر ارتفاعه في السماء عشرة أذرع في عرض خمسة عشر ذراعاً في
طول خمسة واربعين ذراعاً . هذا حجر واحد في حائط . واما منارة الاسكندرية
فانه يصعد اليها رجل على برذون حتى يبلغ اعلاها وهي مبنية على سركان من زجاج .
وفي بعلبك هيكلان كبيران طول أصغرهما ٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً
وكان محاطاً بأعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها ٤٥ قدماً وطول هيكل الشمس
٣٢٤ قدماً وكان محاطاً بأربعة وخمسين عموداً يبلغ قطر الواحد منها ٧ أقدام وعلاه

من قاعدته الى قمته ٨٩ قدماً وقد بلغ طول بعض الحجارة المبنية منها الهيكل ٦٤ قدماً وسمكه ١٢ . قالوا وكانت هياكل بعلبك تضاهي هياكل المليونان بعظمة بنائها ولكنها دونها بالترتيب والزخرفة . ذكر ابن حوقل ان قلعة بعلبك الحصينة الجميلة من أجل مباني الارض . وانما بنيت قلعة دمشق على مثالها ، وهيئات لا تعد من أمثالها . اين قلعة دمشق من قلعة بعلبك وحجارتها تلك الجبال الثابتة ، وعمدها تلك الصخور النوايت .

قد يبعد الشيء من شيء يشابهه ان السماء نظير الماء في الزرق قال شيخ الربوة وبقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعاً وهو من كل جهة ثلاثون ذراعاً وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارش أجنحته . وفي اربع قرن السقف اربعة أصنام واسماؤها ودّ وسواع ويغوث ويعوق . وبمقطع الحجارة حجر رابع للثلاثة التي بالقلعة متروك الى وقتنا هذا والى ما يشاء الله مثلاً للناس . يعني ان من ههنا حملنا الاحجار الثلاثة المبنية بالقلعة — وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الحبل — وبالحصن ايضاً عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعاً وفي الارض منها نحو اربعة اذرع ودوره نحو ذراعين واكثر عددها نحو ستين عموداً وكان على رؤوسها عتبات وفوق العتبات البناء المحكم اه .

وان آثار بعلبك بما فيها من العمد الضخمة ومنها من النوع المعروف بالحبيب (غرائث) الذي جلب من بلاد السودان على ما يظهر تدل دلالة صريحة على ان كل هذا من صنع الرومان وبايدي مئات الالوف من العملة المستخرين المستعبدين . وهكذا قامت جميع آثار الرومان بارهاق الانسان للانسان . بيد انهم خلفوا عادات عظيمة أعلت بين الامم القديمة ذكرهم . وجعلتهم موضع الاعجاب على توالي الأحقاب .

و يصدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في اهرام مصر انها صبرت على ممر الازمان بل على ممرها صبر الزمان . فانك اذا تجرعتها وجدت الازهان الشريفة قد استهلكت فيها . والعقول الصافية قد أفرغت عليها مجهودها . والانفس النيرة قد أفاضت عليها أشرف ما عندها لها . والملكات الهندسية قد أخرجتها الى الفعل مثلاً هي غابة إحكامها حتي انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بجلالم وتنتطق

عن علومهم وأذهانهم وثرهم عن سيرهم واخبارهم . او ، اناله في براقي مصر : فالحكاية
عن عظمها واتقان صنعتها وإحكام صورها وعجائب ما فيها من الاشكال والنقوش
والتصاوير والخطوط مع إحكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر .
ومن أجل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة :

خرب حارت البرية فيها	فئة السامعين والنظار
معجزات من البناء كبار	لأناس ملء الزمان كبار
البستها الشموس نفويف در	وعقيق على رداء نزار
وتحلت من الليالي بشاما	ت كنتقيط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع	شربتها ظوامي الانوار
زادها الشيب حرمة وجلالا	توجتها به يد الأعصار
رب شيب أتم حسنا وأدلى	واهن العزم صولة الجبار
معيد للأسرار قام ولكن	صنعه كانت اعظم الاسرار
مثل القوم كل شيء عجيب	فيه تمثيل حكمة واقتدار
صنعوا من جماده ثمرا يجي	ني ولكن بالعقل والابصار
وضروبا من كل زهر انيق	لم نفتها نضارة الازهار
وشموسا مضبنة وشعاعا	باهرات لكنها من حجار
وطيوراً ذواهباً آيات	خالدات الغدو والابكار
في جنات معلقة زواه	بصنوف النجوم والانوار
وأسوداً يخشى التحفز منها	ويروع السكوت كالتزار
عابسات الوجوه غير غضاب	باديات الانياب غير ضواري
في عرائنها دخان مثار	وبالحاظها سيول شرار
نلك آياتهم وما برحت في	كل آن روائع الزوار
ضمها كلها بديع نظام	دق حتى كأنها في انتشار
في مقام للحسن يعبد بعد ال	مقل فيه والعقل بعد الباري
منهي ما يجاد رسماً وابي	ما تهب القلوب في الانظار

انطاكية وحصن وأقامية { هذا إجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار
والبارة ودهشقي } وهندستها ، ومن أهم آثارها انطاكية التي
بناها انطيوخوس وأكمل زخرفها سلوقس سنة ٣٠٠ قبل الميلاد . وكان فيها من
عجائب الهندسة اليونانية ما لم يكتب ليونان ان تعمل مثله في أرضها ، ولولا ان الزلازل
تخيفتها في أديوار مختلفة لكنت اليوم من أهم ما يقصد للزيارة . وكانت انطاكية
عاصمة الشرق أيام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب . ومن يدخل
انطاكية ويذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والهياكل والحمامات والقنوات
ودور التمثيل يبكي لبلد انفتحت الآفات السماوية والأرضية على تخريبه ، ولم يبق من
عظمته التاريخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة .

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية أو اليونانية بحيرة قدس أو خزان حصن وقناة
سلمية وجسر قنوات وآثار سبسطية ومنها مدافع حلب ، وهي صورة تامة من نشوء
الهندسة ، وقد غنيت هذه المدينة الأخيرة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية
والمدينة وما برح معظمها بحاله . ومن أهم ما في شمالي الشام ملعب أقامية (قلعة المضيق)
وملعب دفنة وكان فيها معبد أبولون رب الشمس والنور والصنائع والآداب والطب
عند قدماء اليونان ، ونصب فيها بربا كسيس المهندس الآثيني تمثالاً للرب اشتهر
بين العارفين بالصنائع الجميلة ، وهو قابض بيده على قيثارة ، وقد صورت صورته على
نقود انطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرهما من الأرباب .

وكانت مدينة أقامية على عهد السلافة خلفاء الاسكندر من المدن الكبرى
بدليل ما ذكره الحمداي من انه كان فيها ملعب يعد من البناء المذكور في العالم .
وكانت مستقراً للجيش الرومي . وفيها زرائب واصطبلات تؤوي ٣٠٠ فيل و ٣٠٠
جاموس و ٣٠٠٠٠ حصان تروى في سهلها الخصب وترد ماءها العذب النخيل . وقد دك
حصنها بومبيس وكان من أمنع الحصون . وفيها الى اليوم آثار شارع يمتد من الباب
الشمالي وعلى جانبيه سوار وعمد مختلفة الاشكال والحجوم وتبلغ نحو ١٨٠٠ سارية
يرد عهدها الى أواخر حكم الرومان . ولا يزال كثير من الأرتبة والابواب قائماً
وهناك خرائب أخرى لم نعلم ماهيتها .

ومنها خرائب البارة في الشمال غربي العاصي . وخرائبها واسعة ومهمة وشوارعها العديدة وبيوتها « على رواية فان برشم » لا تزال محفوظة . منها بقايا خمس اوست كنائس وبيع . وفي ضواحيها بيوت مهمة عملت من الحجر الصلد يكفي ان تسقف بالخشب حتى تسكن وهي خالية . وان ما هنالك من مصانع ومعابد وبيع وقصور وكلها نقر بيا من العهد المسيحي قد لا يخلو من نقوش ، ويرد عهدا على الاغلب الى القرن الخامس والسادس ، وفي قلعتهما من أحجار البناء ما يبلغ طوله المترين والثلاثة وعرضه ٧٥ م زبرت عليها حروف يونانية . وأغرب ما في عاديات هذه القرية ان خرائبها الواقعة على اربعمائة متر نقر بيا ما زالت بحالها تذكر المرء بآثار بومبيه ومساحتها السطحية اربعة كيلومترات مما دل على عظم المدينة في القديم . وقد قام بين المحلتين قصر ذو طبقتين محفوظ في الجملة اسمه دير سوباوط فيه آثار ونواويس وأبواب أزرية . وقد وجد على احد ابوابها كتابة يونانية معناها « ليحفظ المولى من ملكك ومخرجك الآن وفي المصور المقبلة آمين » وكانت هذه المدينة في سعة حلب كما يفهم من خططها .

ومن أهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يخرقها من الشرق الى الغرب اي من الباب الشرقي الى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقان من العمود وهو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور والخوانيت . وكان مقسوما الى ثلاثة اقسام الوسط للدواب والمجلات والرصيفان بجانبه للذاهبين والجائين . والباب الشرقي اليوم على ما يرى هو احد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك ان الشارع لم يكن عرضه اقل من خمسة وثلاثين متراً . ومن العاديات القديمة في دمشق مدخل الكنيسة ولا سيما من الغرب وهي التي أصبحت في الاسلام الجامع الأموي .

* * *

حوران ولبنان { ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران ، واحصن
وأفامية وغيرها { مدن باشان ومعقل الرومان ، شاهدة بما كان في تلك
المدينة من الفخامة والعظمة . وكان طولها داخل السور كما قال بورتير ميلاً وربع
ميل وعرضها ميلاً ، ويحيط بالسور ربض كثير المباني ، ومحيطها خمسة أميال لها
سور عالي الجدران ، وثيق البنيان ، وقلعة لأحصن منها في عامة بلاد الشام . ويقطع

المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه وشوارع رحبة وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة ، وبدائع البناء ، واساليب النقش في الهياكل والكنائس والقبور والمذابح ، وركام الأنقاض وبهوت الاقدمين . وقوس نصر أقيم للقائد فيليبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى . والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية . وفيها مشهدان وستة هياكل وعشر كنائس اذ عشرة مساجد ، عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات وأقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة وبعضها ما يصلح ان تزدان به اعظم عواصم اوربا الآن .

ولقد شوهد في معظم المدن التي بناها الرومان في هذه الديار وفي غيرها انها متشابهة في مرافقها الا قليلاً . ففي كل مدينة ساحة عامة (فوروم) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكابول او معبد المشتري وجونون ومينرفا (ربة الحكمة والفنون والحرب) . وكانت في المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية في مدن اوربا الحديثة . وفيها أسواق ذات نضائد من الحجر وفوارات ومقاسم ماء ذات قنوات لا تزال ترى الى اليوم آثارها . ومراحض عامة وخاصة . واما كن للاستحمام فيها مغاطس باردة وحارة وبهوت للتعريق . وناغات للرياضة والمحاذثة ومماش للتنزه . وأفران وأقواس نصر وأبواب تغلق ليلاً ودور تمثيل لا يزال في اكثرها مصاطبها المدرجة ومساكن خاصة .

ومن أهم مصانع الشام عاديات قنوات في جبل حوران وصفها بطورثربقوله : بلغنا أكمة تطل على قنوات فرأبنا على اليسار وادياً عميقاً ، وعلى جانبه الناري خرائب المدينة القديمة وسورها يتبع الشواطي مسافة ميل ثم ينعطف متعرجاً . فيكتنف ارضاً عرضها نصف ميل فيها القصور والهياكل والكنائس والمشاهد وما ماثها من المباني المخمة قائمة بعضها بازاء بعض على نسق بديع يدهش الابصار . ووراء السور في اسفل الوادي وعلى الجبال المحيطة به في القنن الشاهقة وبين حراج البلوط ، اعمدة رفيعة ، وابراج مشيدة ، ومدافن عالية . واسمها عند اليونان قناتا وسمها العرب قنوات بلغت اوج مجدها على عهد الرومان . وكانت من اعظم المدن شرقي الاردن . وفي عهد

النصرانية لنصر أهلها وحولوا هياكلها كنائس لكنها خربت بعد الفتح الاسلامي وقتل سكانها او هجروها فلم يُعن المسلمون بجعل كنائسها مساجد كما فعلوا في غيرها من مدن الشام .

ثم ذكر انه لم ير في مدينة أخرى من مدن فلسطين ما رآه في هذه المدينة وبينها تماثيل اسود وفهود وكلاب، وفيها رأس عظيم للربة عشتاروت امام هيكل صغير ، وامام القصر ساحة فسيحة تحتها صهر يمج كبير سقفه ممدود ، كانت المياه تجري اليه بقناة منحوتة في جانب الوادي ، فيجتمع فيه ما يكفي المدينة فصل الصيف . وغربي المدينة على ربع ميل منها هيكل جميل يحيط به رواق من العمد الكورنثية ، وهو قائم على اكمة صناعية وقد سقط اكثره وتصدعت الجدران ، وفيها برج مستدير وآثار سور . وفي بطن الوادي مماش مدرجة وفساقى منسقة وكرامى التماثيل وهيكل صغير وملعب فحنت مقاعده في الصخر . وفوق دكته كتابة يونانية كبيرة الحروف يقال فيها ان مرقص لوسياس بناء على نفقته ووجهه لابناء وطنه . ويصعد من هذا الملعب بسلم منحوت في الصخر الى البرج المستدير وهو ضخيم الحجارة قديم البناء لم يبق منه الا ما ارتفاعه عشرون قدماً وعلى مقربة منه بقايا قصر مبني بحجارة كبيرة منحوتة واغلاق أبوابه وكواه من الحجر كله وهي كثيرة النقش عليها اكاليل بارزة من الأزهار والأثمار .

ومن أهم الآثار في الشام جسر المعاملتين وجسر جبيل بين البلدة ومدافنها القديمة ومنها قناتان تمتدان بين نهر الكلب وجونية والثانية القناة الكبرى التي كانت لنقل مياه الجبل الى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة . ومنها هيكل دير القلعة بالقرب من بيت مري في لبنان وهيكل انقا عند منبع نهر ابراهيم وهيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذيبان في سفح جبل صنين . وفي لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل زبزا وناوس في جهات أميون قرب طرابلس وتماثيل كثيرة مبعثرة وفي البترون حصن منبع وملعب وفي بيروت مسرح . ومن قلاعهم قلعة صربا ويحمور . ومن أجمل حماماتهم حمام شهبة الذي يذكر بخرائبه الفخمة كما قال ري بحمامات كارا كالا في رومية . وكنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في

رومية . قال ولا شك انها اجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع بلاد حوران .

الهندسة الشامية والكنائس
والهياكل { قال احد علماء الآثار : ان في الشام
الوسطى مجالاً واسعاً للأبحاث العلمية ودرس
العاديات ، فان فيها ما لا يحصى من الابنية العادية كالهياكل الوثنية والكنائس المسيحية
ودور الخاصة والاندية العمومية من أواخر القرن الاول قبل المسيح والقرن السابع
للميلاد ، ولاكثرها كتابات تاريخية تزبل الريب في زمانها . وهذه الآثار تنو الى سنة
بعد سنة حتى لو جعلت على سياق متواصل لما وجدت عشرة أعشار من السنين خالية
من آثار او آثار .

وقد عدّ ابن خرداذبة من عجائب البنيان ملعب فامية وتدمر وبعبك ولد وباب
جيريوت قال والروم تقول : ما من بناء بالحجارة ابهى من كنيسة الرّها (اورفة)
ولا من بناء بالخشب ابهى من كنيسة منبج لانها بطاقات من خشب العناب ولا بناء
بالرخام ابهى من قسيان انطاكية ولا بناء بطاقات الحجارة ابهى من كنيسة حمص .
وبعده القسيان في انطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على
أساطين وكان بدور الهيكل اروقة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس ، وعلى
احد ابواب هذه الكنيسة فنيجان للساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثنتي عشرة ساعة وفي
اعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات وبساتين ومناظر حسنة تنحدر منها المياه
وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزّع . وكنيسة
حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة وهي احدى عجائب العالم . وكان في مادبا
من عمل البلقاء آثار مهمة اكتشفت مثل سوق طوله ١٤٠ متراً له عمد على
الجانبين . ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطراييلها اي صوامعها . وفي
كتاب لبنان ان من الآثار اليونانية البيزنطية في لبنان كنيسة مشنقة ومعبد ناوس
فوق شبطين ومعبد كفر شليان وكنيسة حدثوث وكانت مبلطة بالفسيفساء تمثل
رسوماً وتصاوير جميلة ومن الفسيفساء امثلة جميلة في بعض الكنائس القديمة في لبنان

كفيسفاس كنيسة القديس جاورجيوس في مسرح وكنيسة كور القديمة وما وجد في النبي يونس من دائرة فيها كأس حوله طيور كالطاووس والحجل وبعض الحيوانات الرمزية تاريخها سنة ٥٥٢ م . وكان في بيروت عدة كنائس بيزنطية . ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير في القرن السادس ان لها عند الروم في دمشق شأنًا عظيمًا وليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها . وسنعرض للكلام على بتمية الكنائس والاديار في الفصل الخاص بها من هذا السفر .

آثار العرب قبل الاسلام { كان العرب قبل الاسلام يخلفون الى بلاد الشام بل كانت النبط وهم عرب هم الذين أنشأوا آثار جرش والبتراء . والفسانيون واليهيم تنسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر النعمان بن المنذر في السويداء وفي حارب . وبني جفنة اول ملوكها جلق والقرية وعدة مصانع . وبني ابنه عمرو دير حالي ودير ابوب ودير الدهناء . وبني ثعلبة بن عمرو عقة وصرح الغدير في أطراف حوران مما يلي البلقاء . وبني جبلة بن الحارث من ملوكهم القناطر وأذرح والقسطل . وبني الحارث بن جبلة وكانت مسكنه البلقاء الحفير في البلقاء ، ومصنعه بين دعبان وقصر ابير . وبني المنذر بن الحارث صربا ورزقا قريباً من الغدير . وبني جبلة بن الحارث قصر حارب . وبني الاليهم بن الحارث من الاديار دير ضخم ودير البوة وسعف . وبني عمرو بن الحارث قصر الغضا وصفاء العجلات وقصر منار . وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب عين اباغ . وأصلح النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة . وكان بعض ملوك ظلم خربها .

وحكم التنوخيون شمالي الشام قبل ان يجيئها جيوش العرب بقرون ولمنعرف للضياع والتنوخيين آثاراً تذكر . وآثار الصفا ولقتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ وآثار بني ميمدع العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك . وأقدم اثر عثر عليه العلماء الآن وكتب بالعربية كتابة وجدت في زبد للجنوب الشرقي من حلب وأخرى في حران جنوبي دمشق من أعمال اللجاة في حوران . الاولى مثلثة اللغات عربية وسريانية

وبونانية يرتقي عهدها الى سنة ٥١٢ ب ٥٠ م والثانية بالعربية واليونانية تاريخها سنة ٥٦٨ ب ٥٠ م . بيد ان الاثري دوسوا اكتشف كتابة عربية مكتوبة بالحرف النبطي في حرّة وادي السوط على مسافة كيلومتر من النخلة في حوران الى جنوبها الشرقي وتاريخ هذه الكتابة سنة ٢٢٣ لبصرى الموافقة لسنة ٣٢٨ للمسيح فتكون هذه أقدم كتابة عربية . وفي الكتابة المذكورة تاريخ وفاة احد ملوك عرب الشام واسمه امرؤ القيس بن عمرو ملك بني أسد . وزار احد عمال القياصرة في بادية الشام هذه الكتابة واوها : « تي نفس (هذا قبر) امرؤ القيس بن (بن) عمرو ملك العرب كله ذو (الذي) امر التاج وملك الاسدين وتزار وملوكهم الخ » . ونسب دوسو عدة ابنية في سيف البادية الى الفسانيين .

ولقد أخطأ الاثري كلرمون غانوف في قوله ليست المدنية العربية الا كلمة خداعة لا وجود لها اكثر من فظائم الفتح العربي ، وان المدنية العربية آخر أنوار المدنية اليونانية والرومانية طفت بايدي خرقاء ولكنها محترمة وهي الاسلام . ليست الحضارة ثمرة جيل بذاته ولا هي مما يرتجل ارنجبالا كالارث لا يكون ابن يومه بل هو عبارة عن مجموع ارثي من القوى الحية . هو كنز من التوفير انت عليه مئات من السنين قد يستطيع احد اللصوص ان يضع يده عليه ويزدّ فيه يوماً ولكن حيانه بأمرها لانكفي للايجاد فقد احترمت هاته الامة الحديثة النعمة ما وجدته من الادارات والمعارف والفنون على حين لم يكن وراءها ماضٍ تعتز به واقتصرت ان تميل كل شيء الى منفعتها وبلغ بها الحال ايضاً ان جعلت لدى ميسس الحاجة امتيازات للقائمين على احتكار هذه الفضائل العقلية وهي امتيازات جادت بها ، ونار التعصب يحرقها ، فتساهلت معها نساءهلاً دينياً عجيباً اه . نعم أخطأ في حكمه على العرب وعجيب بعد ان كان للعرب من البنيان قصر غمدان وكعبة نجران وقصر مأرب وقصر مارد وقصر شعوب والابلق الفرد وقصر المشقي والفدين وغيرها من المصانع والقصور التي سنعرض لها في هذا البحث كيف يسلمهم كلرمون غانو ابداعهم المجمع عليه .

قصور العرب { كان جمهور من الروم في دمشق تخلوا عن دورهم في
في الاسلام { الفتح ولحقوا بهرقل فنزلها الفاتحون ، ثم اخذوا في كل بلد
ينزلونه يرمون ما عور من بنائه ، وربما بنوا بالمدر اي باللبن والطين اولاً ، ولكن
عادوا الى استعمال الحجر . فقد روي ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه ان
سعداً وأصحابه بنوا بالمدر كتب : أكره لكم البنيان بالمدر فاما اذا فعلتم فعرضوا للحيطان ،
وأطيلوا السمك ، وقاربوا بين الخشب . وقد كان لبعض الصحابة الكرام ممن فتحوا
دمشق دور وقصور منتشرة في انحاء المدينة مثل دار ابي عبيدة بن الجراح وخالد بن
الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وابي العزيز الازدي ووابصة بن معبد
وطلمحة بن عمرو وخالد بن اسيد والنعمان بن بشير الانصاري ووائلة بن اسفم وهبار بن
الاسود وعمرو بن العاص وادس بن اوس ويزيد بن نبيشة وعبد الله بن عامر الى
امثالهم . ولا نعرف الا مكان دار ابي عبيدة وكان في محلة حجر الذهب اي المحلة التي
تعرف اليوم بالبنارستان وكانت أجمل حي في دمشق وقد أقام بعضهم مساجد
في جوارهم .

وكان معاوية يقيم أحياناً في غوطة دمشق وينصب الابنية والاروقة والفساطيط
وزعم اليعقوبي ان معاوية كان اول من بنى وشيد البناء وسخر الناس في بنائه ولم
يسخر احد قبله . ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء ، لقبة خضراء بناها
عليها ، عرفت الدار بها ، وذلك قبلي الجامع الاموي دخلها وفد الروم فقالوا : ما احسن
ما بناها للعصافير وفي رواية اما علاها فللعصافير واما اسفلها فللنار فهدمها وبناها بالحجر .
والغالب انها ظلت عامرة الى القرن الخامس وفيها دار الامارة . واحترق سنة ٤٦١
وبادت على ما نقل البرزالي . وقرأ المقدسي في بعض الكتب ان ما أنفق على الخضراء
ثمانية عشر حمل بغل ذهب . ولما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن
يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الامارة بدمشق فاشتراها باربعة الف دينار
واشترى منه اربع ضياع باربعة أجناد الشام اختارهن فاختار من فلسطين عمّواس
ومن الأردن قصر خالد ومن دمشق الاندرومن حمص ديزكا .
وبني الأمويون بعده بيتاً لهم كانت بجوار الجامع ومنها دار عمر بن عبد العزيز

مكان المدرسة السيمساطية الآن ، ودار هشام مكان تربة نور الدين ، وقصر سليمان ابن عبد الملك مكان سقاية جيرون ، ودار مسلمة بن هشام بباب البريد . قال الذهبي : بنى سليمان بن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز وكان لعائكة ابنة يزيد بن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق . وقال ابن عساكر : كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي . وقصر حجاج منسوب الى الحجاج بن عبد الملك بن مروان . وقال ابن شاكر وكان قبله ايضاً معروفاً بالحجاجية ملكاً للحجاج ابن يوسف الثقفي فلما ولد لعبد الملك بن مروان ابنه الحجاج المذكور وكانت امه بنت محمد بن يوسف اخي الحجاج بن يوسف الثقفي سمته باسم عمها الحجاج ففعله الارض المذكورة وبني له القصر فعرف به ونسب اليه . وقال آخر ان الحجاج بن يوسف وهب للحجاج بن عبد الملك داراً بدمشق تعرف بدار الحجاج . واسم قصر الحجاج ما زال دائراً الى اليوم دون القصر الذي دثر .

وقد بنى الأمويون قصوراً لهم في الغوطة وكانوا يملكون جانباً عظيماً منها ولكن لم يظهر لها أثر ولا خبر . قال ابن حزم وكانت دولة بني مروان على علاتها دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لانفسهم انما كان سكناهم كل امير منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة . ومن قصور الأمويين في حمص قصر خالد بن يزيد بن معاوية جدده في زمن العباسيين عامل تلك المدينة الفضل بن قارن الطبري وتحصن به لما وثب به اهلها .

* * *

عناية الأمويين { وفي ايام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تشكلم في
وافتنهم { البنائات والعمائر لزيادة رغبته في البناء فبنت الناس
المجالس الحسان وذلك لان الخليفة كان يرغب في البنائات وانقان المصانع وفي عهده
دخلت دمشق في طور العواصم والناس على دين ملوكهم . قال احد المؤرخين :
وكان الوليد عند اهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء ، عمر الضياع ووضع
النار في الطرقات ، وأعطى الجزئين وأفردهم ، وقال لا تسألوا واخدم كل مقعد
خدماً ، وأعطى كل ضرير قائداً ، وكتب الى جميع البلاد بهدم المساجد والزينة

فيها ، وتسهيل الطرق وحفر الانهار ، وان تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها المرضى وهو اول من فعل ذلك وهو اول من أجري على القراء وقوام المساجد الارزاق .

قال ابن ابي عيلة رحم الله الوليد ، وابن مثل الوليد ، افنتح الهند والاندلس ، وبني مسجد دمشق ، وكان يعطيني قصاع الفضة أقسمها على قراء (فقراء) مسجد بيت المقدس .

وعدّ المقدسي من أمصار المسلمين في الشام او من المدن التي عمرها المسلمون وبعبارة أخرى الأمويون ثم العباسيون على قلة ، انطاكية ، بالس ، المعرتين ، منبج ، قنسرين ، سلمية ، تدمر ، اللاذقية ، جبلة ، جبيل ، انطرسوس ، بانياس ، اللجون ، جوسية ، حماة ، شيزر ، وادي بطنان ، داريا ، بانياس ، صيدا ، بيروت ، عرقة ، طرابلس ، الزبداني ، كامد ، عرجوش ، بيسان ، أذرعات ، قدس ، كابل ، عكا ، صور ، الفرازية ، بيت جبريل ، غزة ، عسقلان ، يافا ، أرسوف ، قيسارية ، نابلس ، اريحا ، عمان ، ديلة ، عينون ، مدين ، اذرح ، مآب ، معان .

المسجد الأقصى { ومن أهم الآثار التي نتم عن ذوق عربي في هذه
والجامع الاموي { الديار المسجد الأقصى ، وقد جرى ترميمه في اوقات مختلفة ، والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب وتصويرهم يدل على ما كان هناك من فكرة وقادة ، ويد صنع . وقد غشّى الوليد قبة الأقصى بالنحاس اخذه من كنيسة في بعلبك ، وكذلك فعل مروان في قبة الصخرة مدة ولايته ، وكان صنّاع هذه القبة من الروم . فهندسة الجامع الاموي والمسجد الأقصى مقتبسة اذاً من الهندسة اليونانية وممزوجة باشياء اسلامية .

بعث ملك الروم الى الوليد كثيراً من البنائين والمقدّرين اي المهندسين مع ما بعث اليه من المفصص اي القسيساء والذهب قال المقدسي : ان الوليد جمع لبنائه 'حذاق فارس والهند والمغرب والروم . وروي ابن شداد : ان الوليد اقتلع من كنيسة أنطاكية عمداً عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر الى ساحلها . ولما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ ان نقول انه جمع اهل ما في الهند وفارس وآثينة ورومية . اما طرز البناء فالغالب ان بعض الجدر بقيت يخالها

كما كانت يوم ككونها بيعة أو معبدًا للصابئة . ومساجد الشام ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ اوسابيوس انها ذات أفنية وازاوين وفسافي ومساكن للقسس .

ولقد بلغ من تفنن الوليد بزخرفة الجامع الاموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير : ان ارض الجامع الاموي كانت مفصصة كلها وان الرخام كان في جدرانها الى قامات، وفوق ذلك كرمة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحر والزرق والبيض وسقفه قرنص بالذهب والسلاسل المعلقة فيه من ذهب وفضة . وقد أنفق فيه خراج الشام سنين وفي رواية اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار . وكان خراج الشام على عهد بني أمية الف الف دينار ومائتي الف دينار . وذكر بعضهم ان الوليد اخذ ربع أعطيات اهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة واربعين الفا يستعين بها على عمارة جامع دمشق . قال المقدسي : والجامع جامع دمشق أحسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع اكثر منه ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزع كل شامة الى اختها ولو ان رجلاً من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لافاد كل يوم صنعة .

وقد غلب جب البناء على بني أمية فكان منزل سليمان بن عبد الملك قبل الخلافة الرملة وهو أنشأ مستجد جامعها ونقل الناس اليها من لدن وكانت المدينة التي ينزلها الناس فاخذ بهدم منازلهم بلد البنيان بالرملة وعاقب من امتنع من ذلك وهدم منازلهم وقطع الميرة عنهم حتى انقلوا وخرب لدن . دخل المأمون مرة جامع دمشق ومعه اخوه المعتصم ويحيى بن اكثم فازدادوا عجباً فقال المأمون لهما : اي شيء يعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم : ذهبه فاننا نضعه في قصورنا فلا تمضي عليه عشرون سنة حتى يحول ، وهذا بجماله مع طول الزمن ، كأن الصانع فرغ منه الآن . فقال المأمون : ما اعجبني هذا . فقال يحيى بن اكثم : الذي أعجب امير المؤمنين تأليف زخارفه فان فيه عقوداً ما يرى مثلاً . فقال المأمون : كلا بل أعجبني انه بني على غير مثال شوهد .

اما المسجد الاقصى في القدس فقد كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب يجمعون على انه احسن من جامع دمشق عمره عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم

والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على أسلوب جميل لم يسبق اليه . قال بعضهم ان شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنيسة التي كان شيدها يسننيانس وبني موضعها المسجد الاقصى ، وثبوت في نتيجه واكمل البناء سنة ٧٢ وقالوا ان اساس المسجد الاقصى من عمل داود وهو على غاية الحسن والايحكام كما قال ياقوت مبني على الاعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا احسن منه لا جامع دمشق ولا غيره . وروى ابن العديم ان جامع حلب كان يضاهي جامع دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء وان سليمان بن عبد الملك هو الذي بناه وتأنق في بنائه ليضاهي به ما عمله اخوه الوليد في جامع دمشق .

تاريخ الحرم { شيد المسجد الاقصى وقبة الصخرة في مكان تل موربا ، وهي منزلة دينية سامية قدسها الوثنيون واليهود والمسيحيون والمسلمون ، وربما كانت بيدراً لاحد البوشرين سكان فلسطين القدماء ، وقد بنى فوقها داود بعد فتحه البلاد مذبحاً تقدم فيه القرابين . وامر سليمان سنة ١٠١٣ ق م بانشاء قصر له مكان المسجد الاقصى وهيكل نغم حيث قبة الصخرة . وقد دمره الكلدانيون سنة ٥٨٨ ق م وفي السنة العشرين قبل الميلاد شرع هيرودس الكبير باقامة هيكل و برج عال في المكان نفسه ولم يتمه ، ودمره جنود الرومان سنة ٧٠ لما استولى طيطوس على بيت المقدس . وبني الامبراطور ادريانوس سنة ١٣٠ م مدينة ايلياء وامر بتشييد زون كبير للمشتري اله الحرب اثنا عشري الشكل (Dodecastyle) فنصب فيه صنماً للمشتري وآخر لدبوسقورس او صنم التوامين (كاستور وبلكس) وأقام تمثالاً لنفسه بالقرب من الصخرة المباركة . وقضى الفرس على بيت المقدس لما اكتسحوها سنة ٦١٤ .

ولما وافى عمر بن الخطاب القدس ذهب ترواً الى مكان الحرم الشريف وأزال ما كان فيه من الأقدار ، ولما افضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان وحيل بينه وبين الحرمين الشريفين لقيام عبد الله بن الزبير خليفة في الحجاز امر بانشاء المسجد الاقصى وقبة الصخرة في بيت المقدس ورصد لذلك خراج مصر سبع سنين ففرغ في

سنة ٧٢ هـ وكتب اسمه منقوشاً بالفسيفساء عند مدخل الصخرة من الباب الجنوبي « بني هذه القبة عبد الملك ٠٠٠ امير المؤمنين في سنة اثنين وسبعين ثقب الله منه ورضي الله عنه آمين » . وسقط شرقي المسجد وغربه سنة ١٣٠ بالزلازل وكذلك في سنة ١٥٨ فجدد في سنة ١٦٩ في خلافة المهدي ، وقد أنقص من طوله وزيد في عرضه ، وجدد عمارة قبة الصخرة في ايام المأمون (٢١٦) وزلزات الارض ثلثة (٤٠٧) فتهدمت قبة الصخرة وبعض الجدران ، فجدها الظاهر لاعزاز دين الله العاطمي (٤١٣ هـ) وزيد فيه في زمن الفاطميين البناء المسمى اليوم بجامع النساء . ولما احتل الصليبيون بيت المقدس حولوا قبة الصخرة الى كنيسة ، والمسجد الاقصى الى منزل لسكنى ملكهم . ولما استعاده صلاح الدين بن ايوب أعاد الحرم الى ما كان عليه وامر بترميم محراب الاقصى وكتب عليه بالفصوص المذهبة ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . امر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الاقصى الذي هو على التقوى مؤسس عبد الله ووليه يوسف بن ايوب ابو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهو يسأل الله اذاعة شكر هذه النعمة ، وإجزال حظه من المغفرة والرحمة » .

وفي سنة ٦٣٤ عمر في المسجد الملك المعظم عيسى . وفي سنة ٦٨٨ رُمَّ المسجد والصخرة الملك الظاهر بيهرس . وفي سنة ٦٨٦ عمر فيه المنصور قلاوون الصالحى ورم فيه العادل كتبغا والملك المنصور لاجين والناصر قلاوون في سلطنته الثالثة وفي ايامه عمر فيه ايضا الامير نكز الناصري . ثم جدد الملك الاشرف شعبان (٧٦٩) والملك الظاهر برقوق (٧٨٩) والملك الظاهر جقمق العلأئي وفي سنة ٨٧٧ جدد فيه الملك الاشرف ابو النصر . وفي ايام العثمانيين تمت في الحرم عدة عمارات منها ما جده السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٩ ومنها ما جدد في سني ١٢٣٢ و ١٢٥٦ و ١٢٩١ وبعدها .

المسجد الاقصى	{	هو اولى القبليتين وثالث الحرمين الشريفين ، ووقع
اليوم		الحرم على مساحة مربعة طول الجهة الغربية منها ٤٩٠

متراً والشرقية ٤٧٤ متراً والشمالية ٣٢١ متراً والجنوبية ٢٨٣ متراً يحيط بها سور يختلف ارتفاعه بين ٣٠ متراً و ٤٠ . و يبلغ طول بعض الحجارة فيه خمسة أمتار طولاً في أربعة أمتار عرضاً . وحول السور من جهة الغرب والشمال أروقة فسيحة معقودة يخللها بعض ابواب الحرم وهي ١٤ باباً . وقد قام جامع الصخرة الشريفة في فناء مربع مفروش بالبلاط النخيت طوله من القبلة الى الشمال اكثر من عرضه من المشرق الى المغرب وارتفاعه ثلاثة امتار يصعد اليه بادراج من الجهات الاربع ، وعقد على كل درج من اعلاه قناطر هيفاء دعمتها عمد من الرخام . والقبة على بناء فخم مثن الشكل ، ذرع كل ثمانية منه ٢٩ ذراعاً وثلاث ذراع (٤٠ / م ٢٠) . وقد كسي القسم السفلي من ظاهر بالرخام الابيض المشجر ، والقاشاني البديع الذي يترقق فيه ماء الالوان المتزاوجة ، من لازوردي صاف ، واخضر قاتم ، وابيض ناصع ، يعلو ذلك شبه افر يز رسمت عليه آي القرآن . وضع هذا القاشاني في ايام السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٩ هـ وتحتوي كل ثمانية من البناء على سبع طائفات للتي لا باب فيها وعلى ست للتي لها باب . والطائفات المحاذية لاطراف الثمانية مسدودة كلها ، والاخرى مركب عليها الزجاج والشبابيك الحديد . والجامع الصخرة اربعة ابواب مزدوجة داخلاً وخارجاً مربعة الشكل بعقود مقوسة ، وامام الباب الاخير من الخارج رواق مفروش بالرخام عليه سقف مكسو بالقاشاني في وسطه قنطرة معقودة والسقف محمول على ثمانية أعمدة من الرخام مختلفات في النوع واللون ، وللباب المذكور مصرعان ملبسان بالنحاس الاصفر المقوش عليها اقنال نفيسة بمنقنة الوضع .

و يبلغ دور البناء من الداخل ٥٣ متراً وهو مقسم الى ثلاث دوائر يفصل بعضها عن بعض صفان مستديران من الاعمدة والاركان يتألف الاول منها من ثماني سوار سدسة الاضلاع و ١٦ عموداً منها « ابيض وازرق » عشرة و « اخضر مرسيني » ثلاثة و « شحم لحم » ثلاثة ، والصف الثاني مؤلف من اربع سوار مربعة الاضلاع واثنى عشر عموداً منها سبعة « اخضر مرسيني » وخمسة « شحم لحم » . والسواري ملبسة بالرخام المشجر والملون البديع ، والاعمدة قديمة جداً واكثر تيجانها تدل على انها من الطراز الروماني او البيزنطي القديم ، ويربط اعمدة الصف الاول بعضها ببعض

وبالسواري بسائل ملبسة بالنحاس الاصفر المنقوش المذهب . وتحمل هذه الاعمدة مع جدار الجامع سقفاً مائلاً بعض الميل مدهوناً بأنواع الدهان قائماً على قناطر مرصعة بالنص المذهب متصلاً طرفه الاعلى بكرسي القبة . ويزين باطن القبة مجموعة لانظير لها من الفصوص الملونة تمثل ٦٤ شكلاً من الزخارف على نحو ما كانت يصنعه فنانون البيزنطيين ، وهي مركبة على سطح موشى بالذهب وفي كرسي القبة ست عشرة طاقة زجاج مذهبة يعلو كلاً منها طبقة من الجبس ، مقسمة عيوناً مغطاة بقطع الزجاج المختلفة الألوان والاشكال ، تنفذ منها اشعة الشمس صافية ، ملطفة بفضل الواح الزجاج الخارجية والمشبكات المصنوعة من القاشاني ، وعلى هذه الطافات نقوش تدل على انها صنعت في زمن السلطان سليمان سنة ٩٤٥ هـ كما ان المرمر الذي يكسوها ركب في زمن السلطان صلاح الدين وجرى في ايام السلطان سليمان القانوني .

والصخرة الشريفة قائمة درايزين من خشب منقوش مدهون بأنواع الاصباغ طولها ١٧٫٧٠ متراً وعرضها ١٣٫٥٠ متراً وارتفاعها عن الارض يبلغ نحو ١٫٢٥ متر الى مترين ، وينزل الى المغارة التي تحتها باحدى عشرة درجة من جهة القبلة ، وعند باب المغارة قنطرة معقودة بالرخام العجيب على عمودين وباطنها محرابان كل محراب على عمودي رخام لطيفين وأمام المحراب الايمن صفة تسمى مقام الخضر يواجهها عمود رخام قائم للسقف وآخر راقد وفي الركن الشمالي منها صفة تسمى باب الخليل وجميع باطن ارض الصخرة والمغارة مفروشة بالرخام وفي وسط المغارة بلاطة مستديرة ينبعث عنها اذا نقر عليها رنين عجائب اصداؤه مما يدل على خلوا تحتها . وحول الدرايزين الخشب مصلي للنساء وهو محاط بالقضب الحديدية من جميع جهاته وله ابواب اربعة لا يفتح منها عادة الا الباب الغربي الموازي لباب النساء وهو من عمل الصليبيين ابان اجتلالهم بيت المقدس .

يقع المسجد الاقصى جنوبي جامع الصخرة وطوله ٨٠ متراً	{	صفة المسجد
وعرضه ٥٥ متراً عدا ما أضيف اليه من الابنية واول		الاقصى

ما يقابلك من هذا المسجد عند مدخله من الجهة الشمالية رواق كبير أنشأه الملك المعظم

عيسى صاحب دمشق سنة ٦٣٤ هـ وجدد من بعده وهو مؤلف من سبع قناطر عقدت على ممشي ينتهي الى سبعة ابواب، كل باب يؤدي الى كور من اكوار المسجد السبعة . وللمسجد عشرة ابواب والبناء قائم على خمسة واربعين عموداً . والغالب ان هذه الاعمدة قديمة نقلت من أنقاض ابنية متنوعة أقدم عهداً من الحرم . وفوق الاعمدة قناطر يربط بعضها ببعض أخشاب ضخمة مستطيلة وفوق القناطر صفان من الطاقات وباطن السقف مكوت من عوارض كلها من الخشب . وعدة ما في المسجد من السواري اربعون ، وهي ضخمة مربعة الشكل مبنية بالحجارة . وباقي الباب من جهة الجنوب، قبة مرتفعة مزينة بالفصوص الملونة المذهبة . وهي مما رمه صلاح الدين الايوبي (٥٨٤ هـ) كما رمى اكبر جناحي المسجد، والقبة والجناح على الغالب انما صنعها - في خلافة الممدي بعد تهدم المسجد بفعل الزلازل ، وهي كقبة الصخرة من خشب مكسوة بصفايح الرصاص من ظاهرها وبالفص المذهب من باطنها ، ومجدد هذه التزيينات هو الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٨ هـ وهناك آيات قرآنية كتبت بخط كوفي على جانبي المحراب . والمحراب قائم على أعمدة لطاف من المرمر وبجانبه المنبر وهو من الخشب المرصع بالعاج والآل بنوس عمل في عصر نور الدين زنكي ويقابل المنبر دكة المؤذنين وهي على عمد من رخام .

ومن داخل المسجد من جهة الغرب جامع النساء او الجامع الابيض ، وهو عبارة عن عشر قناطر على تسع سوار في غاية الاحكام بناء الفاطميون ، ومن جهة الشرق جامع عمر وهو معقود بالحجر والجير ، سمي بذلك لانه بقية من الجامع الذي بناه عمر رضي الله عنه حين الفتح . والى جانب هذا البناء ايوان كبير معقود يسمى مقام عزيز وبه باب يتوصل منه الى جامع عمر ونجوار هذا الايوان من الشمال ايوان لطيف به محراب يسمى محراب زكريا وهو يجوار الباب الشرقي . وفي صحن المسجد الاقصى شمالاً بركة مستديرة من رخام سورت بالقضب الحديدية يقال لها الكأس يأتيها الماء بانابيب خاصة من عيون جارية بالقرب من برك المرجيع المسماة ببرك سليمان اهمها عين عطاب ووادي الآبار . ومن الآثار المهمة في الحرم البناء السفلي المعقود بالحجر معروف عند الافرنج باصطبل سليمان وهو عبارة عن مهك عيسى ومحراب مريم

والعمود الواسعة التي يقوم عليها المسجد الاقصى . وكذا البراق الشريف وهو في السور الغربي وجامع المغاربة والمدرسة النخوية المعظمية وفيها اليوم دار كتب المسجد الاقصى وهي من ابنية الملك المعظم (٦٠٤ هـ) ومنبر القاضي برهان الدين بن جماعة ومحرابه . وقبة السلسلة وهي شرقي قبة الصخرة وعلى شكلها صنعت في ايام عبد الملك بن مروان . وقبة المعراج سنة ٥٩٧ هـ . وسبيل قايتباي (٨٨٧ هـ) وما يحيط بالحرم من المدارس القديمة . هذا حاضرمسجد الاقصى وما اليه وقد أثرت فيه عوامل الطبيعة كالمطر والشمس والثلج والأعاصير الشديدة فنقبت ما يكنها من صفائح الرصاص ونخرت ما قامت عليه من الأخشاب منذ زمن بعيد ، فبادر المجلس الاسلامي الاعلى الى الكشف عن البناء فتبين انه يحتاج الى مئة وخمسين الف جنيه على أقل تعديل . وألفت لجنة لعمارته برئاسة المماري الشهير كمال الدين بك واستصرخ الام الاسلامية لمعاونته فجمع زهاء ثمانين الف جنيهه ، وشرع حالاً بما كان احكم بناؤه من حجر منقوش او مرمر مسنون او خزف مصقول او خشب منجور او صخر مطلي بالفضة او مكسو بالذهب ، اوفص مذهب مزين ملون مشجر مزهر مرصع موشى منقح ، وبوشك بفضل الله ان يعود الى ما كان له من بهجة في الأعصار السالفة .

وصف المقدسي للمسجد { وصف المقدسي للمسجد
الاقصى في القرن الرابع }
قرنة البلد الشرقي نحو القبلة أساسه من عمل داود ، طول النجر عشرة اذرع وأقل ، منقوشة موجهة مؤلفة صلبة ، وقد بنى عليه عبد الملك بحجارة صفار حسان وكان أحسن من جامع دمشق ، لكن جاءت زلزلة في زمن بني العباس فطرحت المغطى الا ما حول المحراب فلما بلغ الخليفة خبره ، قيل له لا ينبغي برده الى ما كان بيت مال المسلمين ، فكتب الى امراء الأطراف وسائر القواد ان يبني كل واحد منهم رواقاً فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان ، وبقيت تلك القطعة شامة فيه وهي الى حد أعمدة الرخام ، وما كان من الاساطين المشيدة فهو محدث ، والمغطى ستة وعشرون باباً ، باب يقابل المحراب يسمى باب النحاس الاعظم مصنح بالصخر المذهب ، لا يفتح مصراعه الا رجل شديد الباع قوي الذراع ، عن يمينه سبعة

أبواب كبار في وسطها باب مصفح مذهب ، وعلى اليسار مثلن ، ومن نحو الشرق احد عشر باباً سواذج ، وعلى الخمسة عشر رواق على أعمدة رخام احده عبد الله بن طاهر وعلى الصحن من المئنة أروقة على أعمدة رخام وأساطين وعلى المؤخر أروقة آزاج من الحجارة وعلى وسط المغطى جبل عظيم خلف قبة حسنة والسقوف كلها الا المؤخر ملبسة بشقاق الرصاص والمؤخر مرصوف بالفسيفساء الكبار والصحن كله مباط وسطه دكة مثل مسجد يثرب يصعد اليها من الاربعة جوانب في مراق واسعة ، وفي الدكة اربع قباب : قبة السلسلة ، قبة المعراج ، قبة النبي صلى الله عليه وسلم . وهذه الثلاث لطاف ملبسة بالرصاص على أعمدة رخام بلا حيطان وفي الوسط قبة الصخرة على بيت ثمن باربعة أبواب كل باب يقابل مرقاة ، باب القبلي ، باب اسرافيل ، باب الصور ، باب النساء ، يفتح الى الغرب جميعها مذهبة في وجه كل واحد باب ظريف من خشب الثوب مداخل حسن امرت بهن أم المقتدر بالله . وعلى كل باب صُفحة مرخمة بالثوبية تطبق على الصفرية من خارج . وعلى أبواب الصفاف ابواب ايضاً سواذج داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معجونة أجل من الرخام وأحسن لا نظير لها قد عقدت عليها أروقة لاطية ، داخلها رواق آخر مستدير على الصخرة ، لا ثمن على أعمدة معجونة بقناطر مدورة فوق هذه منطقة متعالية في الهواء فيها طيقات كبار ، والقبة من فوق المنطقة طولها عن القواعد الكبرى مع السفود في الهواء مائة ذراع ، ترى من البعد فوقها سفود حسن طول قامة وبسطة . والقبة على عظمها ملبسة بالصفر المذهب ، وارض البيت وحيطانه مع المنطقة من داخل وخارج على ما ذكرنا من جامع دمشق . والقبة ثلاث سافات الاولى من الواح مزوقة والثانية على أعمدة الحديد قد شبكت لثلاثيها الرياح ثم الثالثة من خشب عليها الصنائع وفي وسطها طريق الى عند السفود يصعد بها الصنائع لتفقدوا ورمها ، فاذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة وتلا لأت المنطقة ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أر في الاسلام ولا سمعت ان في الشرك مثل هذه القبة ويدخل الى المسجد من ثلاثة عشر موضعاً بعشرين باباً اه .

اصل الجامع { كان الجامع الاموي على ما ذكر المؤرخون معبدًا قبل
 الاسلام ، قال البيروني : ان من آثار الصابئة القبة التي
 فوق المحراب عند المقصورة ، وكان مصلاهم ايام كان اليونانيون والروم على دينهم ثم
 صار في ايدي اليهود فعملوه كنيسة ثم تغلب عليها النصارى فصيروها بيعة الى ان
 جاء الاسلام واجله فاتخذوها مسجداً . وقال البرزالي : وبني اليونان والكلدان هذا
 المعبد ، وكانوا يصلون الى جهة القطب الشمالي وكانت محاربه تجاه الشمال وبابه
 يفتح الى جهة القبلة خلف المحراب ، وهو باب حسن عن يمينه ويساره بابان صغيران
 بالنسبة اليه ، وكان غربي المعبد قصر منيف جداً تحمله هذه الاعمدة التي بباب البريد
 وغربيه قصر جيرون ، داران يكونان ان يملك دمشق قديماً ، فهو أقدم معبد . وقال
 شيخ الربوة ان له نحو اربعة آلاف سنة وهو معبد . ولما فتح المسلمون دمشق اخذوا من
 النصارى النصف الشرقي من هذه الكنيسة التي كانوا يسمونها كنيسة ماريوحنا ، وكان
 المسلمون والنصارى يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الاصيل في القبلة فينصرف
 النصارى الى جهة الغرب والمسلمون الى الشرق . وكان لا يستطيع اهل الانجيل ان
 يجهروا في قراءته بكنائسهم ولا يضربوا بناقوسهم لإجلالة للصحابة . فلما اخذت أصواتهم
 ترفع في صلواتهم أحب الوليد ان يبعدهم عن المسلمين فعوضهم عنه اربع كنائس اخرى .
 وقيل انه بذل للنصارى فيه اربعين الف دينار فلم يريدوا ان يأخذوها فأخذها كما
 قال ابن العميد . واحتاج الوليد الى صنائع كثيرة فوجه اليه ملك الروم بمائتي صانع .
 وحكي الجاحظ في كتاب البلدان انه كان مبنياً على الاعمدة الرخام طبقتين الطبقة
 الثمانية أعمدة كبار والتي فوقها صفار في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في
 الدنيا بالفسيفساء الذهب والاخضر والاصفر ، وفي قلبه القبة المعروفة بقبة النسر
 ليس في دمشق شيء اعلى ولا أبهى منظراً منها ، ولها ثلاث منائر احداها وهي الكبرى
 كانت ديدباناً للروم وأقرت على ما كانت عليه وصيرت منارة . وروى البرزالي انه
 كان ابتداء عمارة جامع دمشق في أواخر سنة ست وثمانين وتكامل في عشر سنين .
 وكان الفراغ منه سنة ست وتسعين وفيها توفي بانيه الوليد بن عبد الملك وقد بقيت
 فيه بقايا من الزخرفة فكلها اخوه سليمان بن عبد الملك وجددت فيه اشياء أخرى ، فمن

ذلك القبلة الغربية التي في صحننه ويسمىها الناس قبة عائشة ، وغالب ظني انها بنيت في سنة ستين ومائة في ايام المهدي المنصور ، واما القبلة الشرقية التي في صحننه تجاه مشهد علي بن الحسين فعمرت في ايام المستنصر العبيدي في سنة خمس واربعمائة وكتب عليها اسمه واسم الائمة الاثني عشر .

وذكر ابن جبير ان طول الجامع من الغرب الى الشرق مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وذرعه في السعة من القبلة الى الجوف مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث مستطيلة من المشرق الى المغرب سعة كل بلاطة منها ثمان عشرة خطوة ، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عموداً منها اربع وخمسون سارية ثمانية ارجل جصية تختلها واثنان مرخمة ملصقة معها بجدار الذي يلي الصخرة ، واربعة ارجل مرخمة أبدع ترخيم مرصعة بفصوص من الرخام ملونة ، وقد نظمت خواتيم ، وصورت محاريب ، وأشكالاً غريبة ، فائمة في البلاط ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهانه سعته عشر خطاً ، وعدد قوائمه سبع واربعون منها اربعة عشر رجلاً والباقي سوار . وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص واعظم مافيه قبة الرصاص المتصلة بالمحراب وهي سامية في الهواء عظيمة الاستدارة ، وقد استقل بها هيكل عظيم هو عماد لها يتصل من المحراب الى الصحن والقبلة ، وقد اغصت الهواء فاذا استقبلتها رأيت مرأى مائلاً .

وذكر الباحثون من الفرنج ان طول الحرم الاصلي من الشرق الى الغرب ١٣٠٠ قدم وعرضه من الشمال الى الجنوب ١٠٠٠ فهو ربع مساحة دمشق كلها . وكانت أمام جدرانها الاربعة من الداخل صف من الاعمدة على دائرة كهشف علماء الآثار بعضها ، والجامع في وسط هذا الحرم قائم على أسس الكنيسة التي كانت قبله ، وهي قائمة على أسس الهيكل الذي كان قبلها او على بعضها ، والجدار الغربي من الجامع قديم كله ، ما عدا باب البريد في وسطه فانه من زمن العرب ، وفي الجدار الجنوبي انواع البناء كلها ففيه جانب من البناء الشامي اليوناني ، وجانب من البناء المسيحي في عهد ثيودوسيوس واركاديوس من القرن الرابع والخامس للميلاد ، وجانب من البناء العربي من زمن الوليد في القرن الثامن ، وتجديدات أخرى بعدما احترق في قرون متعددة .

وقال ابن حوقل ان الوليد جعل ارض الجامع رخاماً مفروشاً وجعل وجه جدرانه رخاماً مجزئاً وأساطينه رخاماً موشى ومعاقده رؤوس أساطينه ذهباً ومحرا به مذهب الجملة مرصعاً بالجواهر ودور السقف كله ذهباً مكتوباً عليه كما يطوف بترايع جدار المسجد واذا أرادوا غسل سقفه بثق الماء اليه فدار على رقعة المسجد باجمعه حتى اذا فجر منه انبسط عنه وعن جميع الاركان بالسوية . وأبوابه الاربعة كانت أبواب الكنيسة فبقيت على حالها وفيه ثلاث مقاصير مقصورة معاوية احدها سنة ٤٤ لما وثب عليه بعضهم ليقتله كان في جدار الصحن القبلي من الجامع حجر مدور على ما روى القزويني شبه درقة منقطة بآبيض واحمر بذل الفرنج اموالاً فلم يجابوا اليه . وقد كان عزم عمر بن عبد العزيز ان يعمد الى ما في الجامع من الفسيفساء وهو النقش المفصص والرخام فيقلعه وينزع السلاسل الذهبية وكانت ستمائة سلسلة ويجعل مكانها حبالاً وينزع غيرها من ضروب الزينة ويبسها ويجعلها في بيت المال فارجمه اهل دمشق عن فكره . وذكروا له ما قام به اهل الشام من بنائه على هذه الصورة .

ووصف ابن جبير قبة الرصاص في الجامع الاموي فقال : انها من أعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغربية وهما كلها المائلة البنيان قال : انها مستديرة كالكرة وظاهرها من خشب قد شد باضلاع من الخشب الضخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف كل ضلع عليها كالدائرة وتجتمع الاضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منظم بعضها ببعض قد اتصل اتصالاً عجيباً وهي كلها مذهبة بابدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين ، بدبعة القرنصة ، وفي الجدار حجارة يزن كل واحد منها قناطر مقنطرة ، لا ننقلها الفيلة فضلاً عن غيرها ، فالعجب كل العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من ألهم عباده الى هذه الصنائع العجيبة اه .

ومن أجل ما وصف به جامع دمشق قول ابن منقذ الكنفاني من قصيدة :
 وكانت جامعها البديع بناؤه ملك يميز من المساجد جمحفا
 ذو قبة رفعت فضاهت قلة ومنابر بنيت فخاكت معقلا

تبدو الأهلة في أعاليها كما
ويربك سقفاً بالرصاص مدثراً
قد آلف الأقوام بين شكوله
لم يرض تجليلاً بجص فانبرى
يغشى سوام اللحظ في أرجائه
فاذا تذر الشمس فيه تخاله
فكأنما محرابه من سندس
وتخال طاقات الزجاج اذا بدت
تبدو القباب بصحنه لك مثلاً
وعلت به فؤارة من فضة
وبابه حركات ساعات اذا
ويربك باريها وكل قد رمى
من فيه بقذفه بصيب سجنجلا

وظل الجامع بحاله بهجة النظار والسفار ، ومنخر دمشق على غابر الاعصار ، والملوك
حتى من العباسيين برثون فيه الى ان وقع فيه الحريق الاول سنة ٤٦١ هـ فذهبت
محاسنه ، وذلك في حرب مصر بين المغاربة اي الفاطميين مع العراقيين ، فأحرقوا داراً
بجاورة للجامع فتعلقت النيران به فدمرت محاسنه وتشوه منظره واحترقت سقوفه
المبطنة بالذهب وفصوصه وسقطت القبة كما قال الذهبي فأعيد الى ما كان .
واحترق ثانية سنة ٧٤٠ وكان الاصل فيه كما قال ابن مفلح من النصارى بدمشق ،
واشتهر ذلك عنهم وكتب عليهم محضر به ونقضت مأذنة عيسى وجددت من أموالهم
لكونهم اتهموا بحريقها باقرار بعضهم . وهذا الحريق عم جميع الجامع وما حوله من
الأسواق . وفي سنة ٧٥٣ كان ثالث حريق وذلك انه وقع حريق عند باب
جيرون فأنصل بالباب النحاس الأصفر فتزعوه وكسروا خشبه وكانت من نحاس
دمشق ومعاملها . وكانت في سنة ٧٩٥ حريق سوق الدهستان وسوق الوراقين
والساعات ونصف المعزبة من شرقي الجامع ثم أعيد الى ما كان عليه . ورابع

حريق كان في سنة ٨٠٣ عند حضور تيمورلنك وحرقت خزانة المصاحف والكتب فأعيد سنة ٨٠٥ الى قريب ما كان عليه وخامس حريق كان سنة ٨٨٤ .
وأصيب بالزلازل مرات وتعطلت جوانبه ونداعت بعض سقوفه ومنها الزلزلة سنة ٥٩٧ فرمي بعض المنارة الشرقية وسقط ١٦ شرفة وتشققت قبة النسر وآخرها زلزال سنة ١١٧٣ فخربت قبة النسر والرواق الشمالي وأعيد بناؤهما من قابل . حتى اذا كانت سنة ١٣١٠ سرت النار الى جزوع سقوفه فالتهمت بها في أقل من ثلاث ساعات فدثر آخر ما بقي من آثاره وأثاثه ورياشه ، وحرق فيه مصحف كبير بالخط الكوفي كان جيء به من مسجد عتيق في بصرى ، وكان الناس يقولون انه المصحف العثماني ، وجمعت أموال من إعانات وغيرها فنجز القسم الشرقي في سنة ١٣١٧ وفي سنة ١٣٢٠ فنجز القسم الغربي وظل العملة في بنائه الذي أرجع الى ما كان عليه بالجملة عشر سنين وصرف عليه ستون الف ليرة عثمانية ذهب عدا من تطوعوا للعمل فيه بلا أجر . ولم يبق من محاسن الجامع القديمة الا جدرته وبعض كتابات من عهد السلجوقيين والايوبيين والمالليك على بعض سواريه . وفي دار الآثار بدمشق ايضا حجران كتب بالخط الكوفي بعمارة قسم من الجامع في القرن الخامس وصورتهما :

الاول - (بسم الله الرحمن الرحيم) : شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم ان الدين عند الله الاسلام .
امر بعمارة هذه القبة وانقصورة والسقف والطافات والاركان في خلافة الدولة العباسية ايام الامام المقتدي بامر الله امير المؤمنين ، وفي دولة السلطان المعظم شاهنشاه الاعظم سيد ملوك الامم ابي الفتح ملك شاه بن محمد وايام اخيه الملك الاجل المؤيد المنصور تاج الدولة وسراج الملة شرف الامة ابي سعيد نقش بن ملك الاسلام ناصر امير المؤمنين وفي ايام وزارة الشيخ الاجل نظام الملك أتابك ابي علي الحسن بن علي الوزير الاجل السيد نضر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين ابو نصر احمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب الله عز وجل في شهور خمس وسبعين وربعمائة .

الثاني - (بسم الله الرحمن الرحيم) : لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا فريحا . أمر بعمل

هذه المقصورة وترخيم الاركان في خلافة الدولة العباسية ايام المقتدي بامر الله ابي القاسم عبد الله امير المؤمنين وفي دولة السلطان المعظم شاهنشاه الاعظم سيد ملوك الامم مولى العرب والعجم ابي الفتح ملكشاه بن محمد بن دارد امين امير المؤمنين وايام اخيه الملك الاجل تاج الدولة وسراج الملة وشرف الامة ابي سعيد نقش بن ملك الاسلام ناصر امير المؤمنين الوزير الاجل السيد نجر المعالي ناصح الدولة عميد الحضرتين ابو النصر احمد بن الفضل من خالص ماله ابتغاء ثواب الله عز وجل في شهر سنة خمس وسبعين واربعمائة « اه .

دور الامو بين ومصايفهم
ومشاتهم { وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن
عبد الملك بدمشق فقال : دخلتها فاذا هي دار
محصنة حيطانها وسقوفها ، وفيها وصفاء ووصائف عليهم ثياب صفر وحلي الذهب ،
ثم ادخلت داراً اخرى فاذا حيطانها وسقوفها خضر ، واذا وصفائها ووصيفاتها عليهم
ثياب خضر وحلي الزمرد ، وان ولي العهد قاعد على سرير معه امرأته . ووصف
حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك في دمشق فقال : انها دار قوراء مفروشة بالرخام ،
وهو في مجلس مفروش بالرخام ، وبين كل رخامتين قضيب من ذهب ، وحيطانه
كذلك ، وهشام جالس على طنفسة حمراء ، وعليه ثياب حمر من الخز ، وقد تضخخ
بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مفتوت في اواني ذهب ، يقلبه بين يديه فنفوح رائحته ،
وفي المجلس جاريثان لم ير مثلهما قط اه . والله اعلم اكان ذلك حقيقة ام خيالاً .

وقد ادعت ميس بل انه لولا حوادث القرن السابع اي لولا دخول العرب
الفاحين لبلغ الشاميون طريقة في هندسة الابنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم ، وان
امتزج بها شيء من هندسة الامم الاخرى ، فردّ عليها لامنس بان هذه المدينة مدينة
دمشق لم تمس عاصمة كبرى الا في عهد بني أمية وبهمتهم . قلنا ولولم يُعَفَّ بنو
العباس آثار بني أمية في الشام لرأينا فيه أحسن صورة تامة من صور بنائهم . وكان
منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البادية او ما يقرب منها . لان الامو بين كانوا على
الاغلب يتحامون نزول دمشق لوطوبتها وحمياتها فمنهم من نزل قصر الموقر او المقور

وقصر المشقى والزيزاء والفسدين والازرق والاغدف والنجراء والابيض والقسطل والرصافة والزيتونة والجابية وحواريين والصنبرة ودابق وبطنان حبيب وأياير في البلقاء وشمالى الشام وشرقها . وحصن الموقر (وقيل المقوّر) بالبلقاء على ساعتين من عمان قرب قصر المشقى الواقع على ساعتين من مادبا سكنه يزيد بن عبد الملك وكان رحمه فجعله من القصور الجميلة . واستقر الوليد بن يزيد والعباس بن الوليد في القسطل في البلقاء . والوليد في الزيزاء وقصر الازرق . وابتنى عبد الملك الابنية حول قصر الموقر وكان له في البرية عدة قصور . وقصر عمرا على خط قصر المشقى على سبعين كيلو متراً من جهة الشرق وهو في وسط البادية . اكتشف قصر عمرا الاثري موسى سنة ١٨٩٨ وهو قصر أموي يجمع بين مزايا الصروح الملكية والحصون . وهو على الشاطئ الشمالي من البحر الميت وكان على ما يظهر حماماً حفظت فيه كما قال هرزفند نقوش عجيبة بجاها لم يحفظ مثلها في صقع آخر من أصقاع الشام، تمثل مشاهد الحمامات وألعاباً رياضية كالجر يد وصيوداً لأنواع الطيور وقنصاً في البحر ولوحات تمثل الصناعات وصوراً رمزية تمثل أدوار الحياة في البادية والتاريخ والفلسفة والشعر، وخليفة جالساً على العرش واعداء الاسلام ورسوم منطقة البروج ورجالاً ونساء واشجاراً وحيوانات في كؤوس وفرش، وشجيرات وعسليج الكرمة والدفل والنخيل وثماراً وطيوراً من أطيار البادية وامرأة عريانة محلاة باللؤلؤ . وكلها تدل على انها من هندسة الروم والشاميين والفرس . ووجد فيه اسم : « قيصر ، رذريق ، كسرى ، النجاشي » مكتوباً بالعربية والرومية . وإجماع الاثريين على القول ان هذا القصر من عمل الوليد الاول بين سنتي ٧١٢ و ٧١٥ ميلادية . وكذلك قصر المشقى وهو على اثني عشر ميلاً شرقي عمان وعلى ساعة من شرقي القسطل في خربة الموقر وهو قصر عظيم يشبه الحصون المنيعة يحيط به سور مربع الشكل تبلغ جوانبه نحو ١٥٠ متراً وفي زواياه اربعة بروج مستديرة ولكل من جوانبه الثلاثة الشرقي والغربي والشمالي بروج يشرف منها اثنان على جهتي باب البناء ومهما كثيرا الاضلاع . ويقسم البناء الى ثلاث مربعات مستطيلة اوسعها الاوسط فيه ابنية القصر القديمة وطول القصر خمسون متراً في عرض سبعين ويشتمل على حجرة واسعة يليها اربعة منازل .

والابنية كلها مشيدة بالآجر ماعدا طبقتها السفلى القائم عليها البناء فهي مبنية بالاحجار البيضاء . وفي ساحة القصر قطع ضخمة من الرخام الاخضر لم نخت بعد . وكانت وجه البناء الخارجي مزينا بابدع النقوش وهي تمثل جفنة محكمة الصنع ذات أغصان وفروع تمتد على طول البناء لتجملها طيور وحيوانات ليست معروفة كالا سود المجنحة والعنقاء قمرح وثقير العنق او تشرب من الكؤوس . اقتطع هذه الصور عللا من الالمان بامر عبد الحميد الثاني وهي اليوم في متحف برلين . والرأي الشائع انها من صنع الفسانيين . وفي تلك الارزاء نحو اربعين خربة لم يكشفها علماء الآثار حتى الآن .

وبني هشام حصن المثقب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحوله خندقاً وحصن بوقا من اعمال أنطاكية . وكانت هشام ينزل في الزيتونة في بادية الشام فلما عمر الرصافة انتقل اليها فكانت منزله الى ان مات . وكان يزيد يقيم في حواريين وتدمر وابنه خالد يسكن في قصر الفدين في البلقاء . وابن الدور الكبيرة بدمشق دار خالد ابن عبد الله بن يزيد ابو الهيثم الجلي القسري من اهل دمشق كان اميراً على مكة وولي إمرة المراقين وكانت داره بقنطرة سنان بباب نوما .

وبعض هذه القصور لا تزال أسسه ماثلة للعيان مثل قصر الموقر والمشتى لم ينسها العباسيون كما نسفوا آثار المدن ونقضوا مثلاً سور دمشق يوم فتحوها حجراً حجراً . وأخربوا ايضاً قصور الامويين في حلب مثل قصر سليمان بن عبد الملك بالحاضر وقصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير وقصري هشام في الرصافة وأبقوا في الغالب على قصر خناصرة من ارض الأحصن لعمر بن عبد العزيز احتراموه ولم يبقوا على غير قبره من قبور بني أمية . والظاهر من كلام المقدسي المعروف بالبناء الذي ولد سنة ٣٣٦ ان آثار بني أمية كانت موجودة في عهده خلافاً لما هو المعروف من ان العباسيين أتوا عليها كلها . والغالب ان بعض الابنية لم تعور كثيراً فأتى فأتى عليها اسمها الاصلي ونسبت اليها بالاول .

قصور خلت من ساكنيها فما بها سوى الادم تمشي حول واقفة المدمر

تجيب بها الهام الصدي ولطالما أجاب القيات الطائر المترفا
كان لم يكن فيها انيس ولا النقي بها الوفد جمعا والنجيس عرمرما

قال الجاحظ : من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار
عمل العباسيين { من قبلهم وان يميئوا ذكر أعقابهم ، فقد هدموا بذلك
السبب المدن واكثر الحصون ، كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية ، وعلى ذلك هم في
الاسلام ، كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الآطام (الحصون) التي كانت
بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم اصحابنا (يعني
العباسيين) بناء مدن الشامات (قد تسمى الشام بالشامات) اه .

اما بنو العباس فلم تبق الايام من آثارهم مصنعا يعتد به في الشام لنحوكم على
عظمتهم ، وكان من أهمها قناة قرية منين التي جرها المؤمنون الى معسكره بدير مران
في جبل قاسيون . وهذا عمل مهم مما بلغنا خبره لان الطريق من منين الى قاسيون
يحتوي على اودية وشعاب ونجاد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر . وقد بني للمتوكل
العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على اثر . قال ابن كثير ان المتوكل لما جاء
دمشق عازما على الإقامة بها سنة اربع واربعين ومائتين امر ببناء القصور بها وهي التي
بطرف داريا . ومن ذلك يفهم انها كانت موجودة الى زمن ابن كثير . وفي سنة
٢٦٢ هـ بنى الامير النعمان دارا عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها . اما المنغلبة
على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسلاجقة فانا
لا نعرف عن آثارهم كبير امر ايضا ولا سيما بنو طولون وبنو عبيد فانهم آثروا ان
يجمعوا مصانعهم في حصر مقر ملكهم كما آثر العباسيون ان يجمعوها في العراق وخراسان .
وما بناد ختكين والي دمشق للحاكم بامر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على
نهر بردى وسخر الناس لاجل عمله واخذ أموالهم .

ذكر ابن عساكر ان حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل
الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومنابر وقنوات واجرى الفوارة التي في جيرون .
وذكر انه وجد في تذكره سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة وهو الذي أنشأ

القيسارية المعروفة بالفخريّة توفي سنة ٤٣٤ . وكان لشمس الدين بن المقدم من كبار الدولتين النورية والصلاحية (٥٨٤) دار كبيرة بدمشق الى جانب المدرسة المقدمية ثم صارت لصاحب حماة ثم صارت لقرا سنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان . وكان الملك الامجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب ولعلمها دار المشيرة اليوم . ودار السعادة هذه اكملت عمارتها سنة ٤٠٨ هـ بعد إلزام النائب اهل البلد بعمارتهما ومرة ما يحتاج السكني فيها وتحول اليها فسكنها .

* * *

آثار عربية محلية { وقد نشأت في القرن الرابع وما بعده في الشام حركة
مينا عكا { مباركة في العمارات قام بها مهندسون من العرب

انتهى اليها قليل من أعمالهم مثل ابي بكر البناء المهندس الذي ابنتى مينا عكا لابن طولون . قال المقدسي ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على ميناها فأحب ان يتخذ لعكا مثل ذلك المينا ، فجمع صناع الكورة وعرض عليهم ذلك فقبل لا يهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدنا ابو بكر البناء ، وقيل ان كان عند احد علم هذا فمعه ، فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى أنهضه اليه ، فلما صار اليه وذكر له ذلك قال : هذا امر هين عليّ بفلق الجميز الغليظة ، فصنها على وجه الماء بقدر الحصن البري ، وخط بعضها ببعض ، وجعل لها باباً على الغرب عظيماً ، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد ، وجعل كلما بنى خمسة دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليشتد البناء ، وجعلت الملقى كلما ثقلت نزلت ، حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولا كاملاً حتى اخذت قرارها ، ثم عاد فبنى من حيث ترك ، وكلما بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخطه به ، ثم جعل على الباب قنطرة ، فالمرأكب في كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسلة مثل صور . قال المقدسي : ومينا صور وعكا من العجائب . وقال ابن اياس : من اهل القرن العاشر ان في صور قنطرة ليس في الدنيا أعظم منها وهي على قوس واحد

مثل قنطرة طليطلة بالاندلس الا انها دون قنطرة صور . وبني احمد بن طولون قلعة يافا ولم يكن لها قلعة من قبل .

وذكر المؤرخون ان جعفر بن فلاح لما فتح دمشق للفاطميين سنة ٣٥٨ نزل بظاهر سور دمشق فوق نهر يزيد وأقام أصحابه هناك الاسواق والمساكن وصارت شبه المدينة واتخذ لنفسه قصراً عجباً من الحجارة وجعله عظيماً شامعاً في الهواء غريب البناء . وهذه صورة ما وجد على جسر ثورا مكتوباً على حجر بالخط الكوفي على ما حققه استاذنا الشيخ طاهر الجزائري : امر بعمارة الجسر المبارك . ولانا الامام المستنصر بالله امير المؤمنين صلوات الله عليه تاج الامراء جيوش . . . شرف الملك عمدة الامام سيف الاسلام معز الدولة وسعدها وعضدها وأطال الله بقاءه في ربيع الاول سنة ٤٥٦ .

وفي الروضتين ان صلاح الدين يوسف كان يزور القاضي الفاضل ليستضيء برأيه فيما يريد فعله في جوسق (قصر) ابن الفراش بالشرف الاعلى في بستانه ، حتى ان الصفي بن القابض لما تولى خزانة دمشق لصلاح الدين بنى له داراً مطلة على الشرف بالقلعة وأنفق عليها أموالاً كثيرة وبالغ في تجبيرها وتحسينها وظن انها تقع من السلطان بمكان فما أعارها طرقات ولا استحسنها ، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي اوجبت عزله عن الديوان وقال : ما يصنع بالدار من يتوقع الموت ، وما خلقنا الا للعبادة والسعي للسعادة ، وما جئنا لنقيم ، وما نروم ان لا نريم .

ومن المصانع التي كانت بدمشق القصر الأبلق في { القصر الأبلق
الميدان القبلي ، وهو قصر عظيم مبني من أسفل الى أعلاه بالحجر الاسود والاصفر ، بتأليف غريب وإحكام عجيب ، بناء الظاهر بهرمن البندقداري وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر . قال ابن فضل الله : وامام هذا القصر اي أبلق دمشق دركاه ^(١) يدخل منها الى

(١) الدرگاه البيت المستطيل امام الدار يرتفق به وهو فارسي اخذه العرب من الفرس كما اخذوا لفظ الهنداز بمعنى الحد عن اندازه ومنه المهندس المقدّر مجاري القني

دهليز القصر وهو دهليز فسيح يشتمل على قاعات ملوكة مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن، المؤزر بالرخام، المفصل بالصدف والفص المذهب، الى سقف السقف والذراع الكبير به ابوانان منقابلان تطل شبابهك شرقيهما على الميدان الاخضر وغربيهما على شاطيء وادى اخضر يجري فيه نهر، وله رفارف عالية لناغي السحب، تشرف من جهاتها الاربع على جميع المدينة والغوطة . قال شيخ الربوة : سمي بالقصر الأبلق لكونه مبنياً بالحجارة البيض والحجارة السود . وقد بقي هذا القصر عامراً الى عهد العثمانيين رآه ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال ان على أسكفته ضرباً من رخام ابيض وسطه مكتوب عمل ابراهيم بن غنائم المهندس . وقد قال العارفون ان التكية السلجمانية قامت على أنقاض ذاك القصر .

وصف بهاء الدين الموصلى قصر الأبلق بدمشق فقال : وقصرها الأبلق ليس بالعقوق ، من شاهد بديع معانيه سها عن العاشق والمعشوق ، قد شام في غمده مشهور غمدان ، واسبل على ايوان كسرى ستر النسيان ، بهر الناظر حسن معناه ، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه ، الماء مرفوع في أقطاره ونواحيه ، فتصب في فوار بركة لتميز ناظر به ، يتكسر جمعه على شاذرواناته مجروراً باضافته الى مجاريه ، فقد اجتمع لقاطنه اضافة المعنى والحسن الباهر ، ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر ، اعين شبابهك الى ميدانه الاخضر ناظرة ، قد جمع الصادح والبانم واللافظ والطاعم ، به الظباء الاوانس ، والمها الكوانس ، أقطاره عربضة طويلة ، لا ترجع الابصار من السفر في دمنه الا كليله ، أخلجت خمائله الأيك والغصون ، ولاذ القائف بالسلاوان عن اقتفاء اثر السلوك في معانيه التي كلها عيون ، وقف الأبلق حين جرى الى منتهاه ، وادركه الاعياء فسكن باقصاه ، وشاهد الشقراء ترح في ميدان واديه فأراد الوصول اليه فعادده الاضطراب ، فقطعت عليه الانهار الطريق وضرب بينهما بسور له باباه .

والابنية واخذوا البركار ايضاً وكما اخذوا الشاذروان للفوارة نشق منها فوارات كثيرة والايوان والدهليز والبازار والحركاه والبيمارستان والخانقاه وكثيراً غيرها ومن ذلك يستدل على كثرة تأثير الاوضاع والهندسة الفارسية في الاوضاع والهندسة العربية .

وبني علم الدين قيطر المعروف بتعاسيف للملك المظفر في حماة أبراجاً وطاحوناً على العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعادته في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل .

ولما قويت حركة العمران في عهد الدولتين
النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس
وحماة وطرابلس وبلبك وغيرها واخذوا
ينشئون فيها المدارس والجوامع والرُّبُط والمستشفيات والقلاع والجسور ، كان منها
ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء المدرسة العادلية التي شرع بينائها نور الدين
ولم يتمها ، ولما ولي العادل أزل ما بناه نور الدين وبنائها كما قال صاحب الروضتين
هذا البناء المحكم الذي لا نظير له في بنيان المدارس . ومن البدائع واجهة مدخل
المستشفى القيمري في صالحة دمشق ، وهندسة مدرسة الصهبية في حلب ، وكذلك
المدرسة التي كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال : ومن أظرف ما يلحظ فيها
ان جدارها القبلي مفتوح كله بهوتا وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض ، وقد امتد
بطول الجدار عريش كرم مثمر عنباً ، فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من
ذلك العنب متديلاً أمامها ، فيمدُّ الساكن فيها يده ويحنيته متكئاً دون كلفة ولا مشقة .
وقد قيل ان منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الاسلامية .

ولقد بنى الملك الاشرف بن الملك العادل بدمشق قصوراً ومنزهات حسنة . وكانت
عمارة اللاذقية في الحروب الصليبية من أحسن الابنية واكثرها زخرفة مملوءة بالرخام
على اختلاف أنواعه كما قال ابن الاثير فخرب المسلمون كثيراً منها ونقلوا رخامها الى
دمشق وغيرها وخربوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الاموال الجلييلة المقدار ،
ولما تسلمها لقي الدين عمر حصن قلعتها وكان عظيم المهمة في تحصين القلاع والغرامة
الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة . وبني الملك الناصر صلاح الدين من أسرة صلاح الدين
يوسف قصراً في قرية القابون بدمشق « لم ير الراؤدن مثله » وعمّر الشرف الاعلى
بدمشق بقصور العظماء

عمران دمشق في { وبعد ان كانت دمشق في القرن السادس اكثر
القرون الوسطى } مدن الارض سكاناً كما قال ابن جبير وكانت في
القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي أجمل مدينة في العالم بل أغني مدينة ، أحرق
تيمورلنك بعض أحيائها ومدارسها وغرماً ملايين من الدنانير ، وحمل معه المهندسين
والبنائين والقاشين في جملة من حمل من ار باب الصنائع الى سمرقند ، كما فعل السلطان
سليم العثماني في مصر لما فتحها في الربع الاول من القرن العاشر ، فحمل الى القسطنطينية
كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة .

وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام أفردها ابن عبد الهادي في رسالة
كما كان في عصره الف جامع ومسجد في دمشق وضاحيتها وناهيك ببلدة فيها هذا
القدر من آثار العمران ولا غرو بعد هذا ان قال فينا ابو الفضل ابن منقذ الكناني
يوم كان لنا القدح المعلى في العماير :

واذا مررت على المنازل معرضاً عنها ففى لك حسناتها ان تقبلا
ان كنت لا تستطيع ان تمثل الفر - دوس فانظرها تكن ممثلاً
واذا عنان اللحظ أطلقه الفئ لم يبق الا جنة او جدولا
او روضة او غيضة او قبة او بركة او ربوة او هيكل
او وادياً او نادياً او ملعباً او مذبذباً او مجذلاً او مؤثلاً
او شارباً يزهو بربع قد غدا فيه الرخام مجزئاً ومفصلاً

دور الخاصة { ومن قصور حلب في القرن الثالث دار واليهازكا الاعور
ودار حاجبه فيروز ودار سيم الطوبل ودار كورة الخراساني
ومنها قصر السلطنة بدمشق . وذكر ابن عساكر ان محمد بن عمرو بن حوى السكسكي
كان في اقليم من أقاليم غوطة دمشق يعرف ببيت لها بينها وبين دمشق نحو ميل وكان
له في هذا الاقليم عدة قصور مبنية بالحجارة والخشب الصنوبر العرعر في كل قصر
منها بستان ونهر يسقيه وكانت كل جليل يقدم من الحفصة (بغداد) او من مصر

يريدها ينزل عنده وفي قصوره ، وكان ذلك في القرن الثالث . ومن قصور الشام قصر عبد الملك بن صالح والي حلب في مدينة منبج وكان بناء نفسه وأنشأ بستاناً الى جانبه . قال ابن الجوزي : هدم اهل دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيماً يسع الوفاً من الناس . وقصر بطيخاس في حلب المذكور في شعر البحتري كان عامراً الى عهد ابن العديم في القرن السادس وكان عامراً الى عهده برج من الحصن الذي كان بناء مسلمة بالناعورة وكان بنى فيها قصرآ بالحجر الاسود الصلد .

وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العمارة في فننة القرامطة سنة ٣٦٣ وكان فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله وهو أحسن مكان كان بظاهر دمشق . وقال ابن شاكر : ان اللؤلؤنين كانتا منظرتين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غرباً وكانتا من أعجب البناء . احرقها المصريون لما حاصروا دمشق . واللؤلؤتان الصغيرة والكبيرة هما اليوم حدائق في ارض باب السريجة بينها وبين قرية كفر سوسة . وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل ليس في الاسلام قنطرة أحسن منها ويقال انها من العجائب وسنجة بالقرب من منبج . وقال ابن القلانسي : من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزمته ، ومضاء همته ، ومستحسن ابتدائه ، ما أحدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق الاوسط منها ، وباب جسر الخندق الشرقي منها وهو الثالث لها ، أنشئ ذلك في سنة ٥٢٧ مع دار المسرة بالقلعة والحمام المحدث على صيغة اخترعها ، وبنية اقترحها ، وصفت آثارها ، فجاءت في نهاية الحسن والطيبة ، والقويم والاعتدال . واشتهرت في القرن الخامس دار ابن عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أسامة ابن منقذ فرآها وقد تهدمت وتغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الابيات :

احذر من الدنيا ولا تغتر بالهمر القصير
وانظر الى آثار من صرعه منا بالغرور
عمروا وشادوا ما ترا من المنازل والقصور
وتحولوا من بعد سكناها الى سكنى القبور

وذكر سبط ابن الجوزي ان أسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بانقاض بهوت الناس

تخربت على يد ايوب بن الكامل محمد في سنة ٦٤٧ ، وكانت أسامة قد غرّم عليها أموالاً عظيمة واخذ اراضي الناس والآلات بدون الطيف ، وصح فيه قول القائل الحجر المغصوب في البناء أساس الخراب . وكانت هذه الدار سبب هلاك أسامة . ومن جملة قصور الحكومة في الدولة الشراكسية دار السعادة وكانت مكان دائرة المشيرية امس ودار الانداب في دمشق اليوم .

تجديد المدن { من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الاتابية الصغيرة والايوبية مثل حماة فلم يكن لها في القديم نباهة ذكر ، وكان الصيت لمحص دونها ، فلما آلت الى ملك بني ايوب مصروها بالابنية العظيمة ، والقصور الفائقة ، والمساكن الفاخرة ، وفي جوامعها أثر من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها . ومنها ما قام على أنقاض الكاتدرائية القديمة ، ومنها ما حرق وخرب واستعوض عنه مكاناً آخر ، مثل طرابلس ففي سنة ٦٨٨ فتحت طرابلس وأخرب سورها وكان من الأسوار العظيمة . وامر السلطان بتجديد مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس . وكانت في يد الفرنج من سنة ٥٠٣ ، ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري في القرن التاسع للهجرة : ان فيها من الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة ما يورث العجب وتسمى دهليز الملك . وكان سور عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسع اذرع وفي مواضع عشر اذرع . وقال ابن فضل الله في بعلبك : انها مختصرة من دمشق في كل محاسنها ، وحسن بنائها وتهيئتها ، بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستان والاسواق الحسنة . وقال آخر وبقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الايوبية آثار ملوكية جليلة . وكانت على منبج سور بالحجارة المهندسة حصينة جداً . ومن هذه المدن ما أصبح الآن كالقرى مثل المعرة معرة النعمان التي ترى الى اليوم مسافة ما بين أبوابها ساعة على السائر ومثل قيسارية التي قال فيها المقدمي ليس على بحر الروم بلد اجل ولا اكثر خيرات منها . مر احدثهم سنة اربعين وستائة بقيسارية فوجد على حائط منها مكتوباً هذه الايات :

هذه بلدة قضى الله يا صاح عليها كما ترى بالخراب
 فقف العيس وقفة وابك من كان بها من شيوخها والشباب
 واعتبر ان دخلت يوماً اليها فهي كانت منازل الاحباب .
 وأزهرت طرابلس على عهد سيف الدين اسد صر الذي بنى القلعة وحماماً وسوقاً
 وأنشأ فيها مجاري المياه الغربية في تقسيمها الى جميع طبقات الدور ايأمن ساكنوها
 من الحمى في الطبقات الارضية وقد عمر فيها هذا الملك سنة ٧٠٩ حماماً عظيماً أجمع
 من رأده انه ما عمر مثله في البلدان ، وعمر قيسارية وطاحوناً وأنشأ للمالكة بها مساكن
 حسنة البناء تجري المياه اليها بالقنوات ، ومنها ما يطلع الى اعلاها وتجري في طباقها ،
 وعمر بعض القلعة وأقام أبراجاً وهذه القلعة مجاورة لدار السلطنة بطرابلس —
 قاله النويري .

* * *

القلاع والحصون وقلعة حلب ودمشق { في بر الشام كثير من القلاع من بناء القرن
 الخامس والسادس والذي بعده مثل قلعة صرخد
 قال ابن تغري بردي : في حوادث سنة ٤٦٦ وفيها بنى حسام بن مسمار الكلبي
 قلعة صرخد وكتب على بابها أمر بمارة هذا الحصن المبارك الامير الاجل مقدم العرب
 عن الدين نخر الدولة عدة امير المؤمنين يعني المستنصر صاحب مصر . وذكر عليها اسمه
 ونسبه . ومثل قلعة حلب وان كان تاريخها يُردُّ الى ابعد من هذا القرن والمهم من
 أبنيتها بدأ في عهد الاسلام .

وقلعة حلب أنغم ما في الديار الحلبية من القلاع بنيت وسط المدينة على اكمة ربما
 كانت صناعية ، ويحيط بها خندق عظيم كان القدماء يملأونه ماءً ليمتدوا الوصول اليها
 الا من مدخلها ، وهذا من أحسن ما يتصور العقل ، يقال ان حلب القديمة كانت
 كلها مبنية في هذه القلعة ، تعاورتها الايدي بالبناء في قرون مختلفة وظلت مسكونة
 الى سنة ١٨٢٢ م ايام خربت بالزلازل . يسير الداخل الى القلعة على جسر بديع
 أقيم فوق الخندق ، فيبلغ برجاً خارجاً جعل في واجهته أنواع من نوافذ الحديد البديع ،
 قيل انه من عهد الملك الظاهر غازي ، لما وجد في مدخله من كتابة تاريخها سنة ٦٠٥

مع بعض الآيات الكريمة . وفي دهليز القلعة المنعرج عدة كتابات ونقوش بارزة على الحجر منها صورة نمرين على يمين الباب و يساره من أجل ما زيرت ايدي النقاشين على الصخور . فاذا دخل المرء من الباب وجد ساحة وآثار عدة شوارع وركاماً من الأنقاض ، بعضها أنقاض جامع ومأذنة ، وأخرى أنقاض أروقة ، وأخرى محال لرصد المدو ، وفي الوسط صهريج كبير ينزل اليه بمئة وخمس وعشرين درجة ، وكان بها دير للنصارى ويقال ان في أساسها ثمانية آلاف عمود . تعاورها الملوك في الاسلام بالبناء والترميم . ومنهم الظاهر غازي الذي بنى على بابها برجين لم يبن مثلها قط وجعل لها ثلاثة أبواب حديد . وكان كثير من ملوك حلب يسكنونها . وذكر الغزي ان في قلعة حلب آثار عدة مساجد وانه كان فيها عشرة مساجد . قال الجالدي شاعر سيف الدولة في وصف هذه القلعة :

وخرقاء (?) قد قامت على من يرومها بمرقبها العالي وجانبها الصعب
يجر عليها الجو صيب غمامه ويلبسها عقداً بانجمه الشهب
اذا ماسري برق بدت من خلاله كما لاحت العذراء من خلل الحجب
فكم من جنود قد أمانت بغصة وذوي سطوات قد أبانت على عقب

ومثل هذا يقال في قلعة دمشق التي سميت « الاسد الرابض » وهي من بناء تاج الدولة تثن سنة ٤٧١ هـ جعل بها دار أمارة وسكنها ، ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير منهم . وكانت دار الامارة قبله تسمى « القصر » بناها العباسيون بعد ان دكوا الخضراء وقصور الامويين ، فخرّب القصر في بعض قن الفاطميين . وفي سنة ٦٩١ مكل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبة الزرقاء في قلعة دمشق ، فجاءت في غابة الحسن والكمال والارتفاع ، وأنشئ فيها قاعة اسمها قاعة الذهب وفرغ من جميع ذلك في سبعة اشهر . طولها من الشرق الى الغرب ٣٣٠ وعرضها من الشمال الى الجنوب ١٧٠ خطوة . وقد خربت في أدوار كثيرة ثم أعيد بناؤها .

وصف ابن حجة الحموي قلعة دمشق عندما حوصرت في الوغمة المشهورة : ونظرت بعد ذلك الى القلعة المحروسة وقد قامت قيامة حربها ، حتى قلنا أزفت الآزفة ، وقد ستروا بروجها من الطارق وهم يتلون : (ليس لها من دون الله كاشفة) ، واستجلبت

عروس الطارمة عند زفتها وقد تجهزت للحرب ، ولم ترض بغير الارواح مهزأة ، وقد عقدت على رأسها تلك المعائب ، وقد توشحت بتلك الطوارق وأدارت على معصمها الابيض سوار النهر ، وغازلت بمواجب قسيها ورمت القلوب من عيوب مراسيها بالنبال ، واهدت الى العيون من مكاحل نارها الحلالا كانت السهام لها أميال ، وطلبها كل من الحاضرين وقد غلا دست الحرب ، وشمخ وهو على فرسه بنفسه الغالية ، وراموا كشفها وهم في رقعة الارض كأنهم لم يعلموا بان الطارمة عالية ، وتالله لقد حوزت يقوم لم يتورعوا بغير آية الحرس في الاسحار ، وقد استيقظوا لحمل قسيهم ولم انتم اعينهم عن الاوتار ، فأعيز روايتها التي كالجبال الشامخة بمن أسس المجوج ، وأحصنها قلعة بالسما ذات البروج .

ووصف القاضي الفاضل حصن الكرك في بعض كتبه فقال : هو شجما في الحناجر ، وقذى في المحاجر ، قد اخذ من الآمال بمخنقتها ، وقد قام بارصاد الزائم وطرقها ، وصار ذئبا للدهر في ذلك الفج ، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج ، وهو حصن الشوبك يسران من الآخر كبيت الواصف للاسدن :

ما مرّ يوم الا وعندهما لحم رجال او يولغان دما

ومن القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على مثال قلعة دمشق . وهي أقدم من الاسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في أدوار مختلفة ، دع القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف ارنون وشقيف تيروت وهونين وتبنين وكوكب وعجلون وقافون والصنينة والصلت والمارونية وبيت لاهة وحصن ابي قبيس وصافيتا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصهيون وبغراس ودر بساك ودر كوش واسفونا وبسرفوت وبلاطنوس وحصن الاكراد وشيزر والمنيطرة والشفر وبكاس وأرسوف وبيت جبرين وخبزون وأرتاح والاثارب وبارين وبارة وإعزاز ومرفند وعدلونس و برج الرصاص وحصن الاسكندرونة والتينات وحلبا وعرقا وبرز به وخناصرة وقسطون وتل اعدى وحصن الحبيس والقدموس ومصيات والكهف والعليقة والخوابي وغيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة اي الدعوة الباطنية او الاسماعيلية . هذا الى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة وحمص وعكا والكرك

والشوبك وصرخد وأذرح وصفد وشيميس . ومعظمها نساطح السحاب بعلوها وتشبه الجبال بمتانتها . وما أحلى ما قاله القاضي الفاضل في وصف حصن كوكب : ووردنا حصن كوكب وهو نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب ، وهامة ، لها الغمام عمامة ، وانملة ، اذا خضبها الاصيل كان الهلال لها علامة .

ووصف شهاب الدين محمود حصناً فقال : حصن قد نفرط بالنجوم ، ونقرطقي بالغيوم ، وسما فرعه الى السماء ، ورسا اصله الى النجوم ، تحال الشمس اذا علت انها تنقل في أبراجه ، و يظن من سها الى اليها انها ذبالة في سراجها ، لا يعلوه من نسر السما غير نسر السما وزمامه ، ولا يرمق ممبرجات بوجه غير عين الشمس والمقل التي تطرف من انجمه ، وحوله كل شاخ تهييب عقاب الجو قطع عقابه ، وثقف الريح حسرى اذا تمرقلت في هضابه ، تحقق العيون اذا رمقته سلوك مادونه من المهاجر ، ويحيل الفكر صورة الترقى اليه لا يلفها حتى تبلغ القلوب الحناجر ، وحوله من الاودية خنادق لا تعلم منها المشهور الا بانصافها ، ولا تعرف فيها الالهة الا باوصافها .

ولقد بدأ منذ القرن الخامس الفرام ببناء القلاع والحصون لان المدينة او الموقع الحربي اذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين ان يجتاحها . ومن كتاب فاضلي في وصف حصن بيت الاحزان : « وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر أذرع وقطعت له عظام التجارة كل فص منها من سبع اذرع الى مافوقها ومادونها وعدتها تزيد على عشرين الف حجر ، لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقل في بنيانه الا باربعة دنائير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من التجارة الصم ، المرغم بها انوف الجبال الشم ، وقد جمعت سقيته بالكلس وأحاطت قبضته بالحجر ما زجه بمثل جسمه ، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهده » .

مثال التخريب في
الحصون والبيع { وكثيراً ما كان ساسة هذه الديار يخربون الاسوار والحصون لغرض من الاغراض ، كما خرب عبد الله ابن طاهر سنة ٢٠٩ سور معرة النعمان ومعظم الحصون الصغار . مثل حصن الكفر

وحصن حناك وحصن كبسوم وغير ذلك . وكما خرب سلاطين الشام منذ استولى عليها الاتابك زنكي الى أواخر عهد المماليك الحصون التي استولوا عليها او التي كانوا بنوها لثلاثين عود اعداؤهم فيستولوا عليها وينتقدموها في داخلية البلاد . وقد ألف جمهور الناس ان ينقضوا البنيان القديم ويمروا به بناءهم الحديث . ولهذا أمثلة كثيرة في تاريخ العمران في هذه البلاد خاصة . فقد ذكر العمد الكاتب ان اللاذقية لما استخلصت من ايدي الصليبيين وقع من عدة من الامراء الزحام على الرخام ، ونقلوا منه أحمالاً الى منازلهم بالشام « فشوهوا وجوه الاماكن ومحووا سنا المحاسن » وبظواهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة باجزاء الاجزاء مرصعة ، وبالوان الرخام مجزعة ، واجناس تصاويرها متنوعة ، ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها ، وشوهوا اعلامها .

وذكروا ان سيبيي كافل الشام في الدولة الشركسية لما أراد بناء جامع في باب الجابية خرب عدة جوامع ومدارس واتى باحجارها فسمى العلماء ما بناه « جمع الجوامع » ولما أرادوا في أواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر بردى من صدر الباز الى داخل مدينة دمشق حملوا اليه من ضخام الاحجار التي كانت في قلعتها . ورهباهدم بمثل هذا العامل ما كان في أكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز وهو اول من اتخذ من الخلفاء الخانات للمسافرين كما اتخذ دار ضيافة . وقصر الفقراء الذي بناه نور الدين في ربوة دمشق ووقف عليه قرية دار يا ليصطاف الفقراء الى جانب الاغنياء . ودار العدل التي بناها نور الدين ايضاً في دمشق وهي اول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلمات وسماها دار العدل كان يجلس فيها لفصل الخصومات مرتين في الاسبوع وعنده القاضي والفقهاء . وبني نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع (على الليطاني) كما جدد كثيراً من الجسور والخانات وقنوات السبل في اعمال دمشق وغيرها . ولاهل الخير في كل عصر اباد بهضاء في إقامة الخانات والفنادق بين البلاد ومنها خان بناء علي بن ذي النون الاسمردي الدمشقي بقرب الكسوة اول مرحلة للحج الشامي وكان من كبار التجار وعمرة هذا الخان لنفع الناس . وما كان في قمم الجبال من المناور التي كانت توفد فيها النيران للاعلام بحركات العدو في الليل وما كان يثبدي في البلاد من أبراج حمام الزاجل لنقل الاخبار

في النهار . ومن ذلك دمنة القبتين المائتين في فنة جبل قاسيون وكان فيه مرصد
فلكي بناء المأمون قدثر في جملة ما دثر . ومما اشتهر جسر منبج اتخذ في زمن عثمان بن
هفان رضي الله عنه للصوائف و يقال بل كان له رسم قديم .

فلاع الصليبيين { دخلت الشام في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية
وكنائسهم } وغيرها وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور
والكنائس ولا سيما في طرابلس وبيروت وعكا . واهتم الصليبيون ببناء القلاع
والكنائس في البلاد التي احتلوها من ارض الشام ولا سيما في طرابلس وصور وانطاكية
وعكا والقدس حتى قال بعض الباحثين : اذا استثنينا الدور الروماني فانه لم يأت على
الشام زمن توفرت اهمم فيه على البناء مثل عهد الصليبيين . فان كل مستعمرة تجارية
في المواني البحرية كانت تحاول ان يكون لها على الاقل كنيسة وخانات وحمامات .
ثم للقلاع التي غصت بها البلاد وهي أحسن نموذج للهندسة الحربية في القرون الوسطى .
قال فان يرشم : ان على طرابلس صبغة المدن الايطالية أثرت فيها منذ الحروب الصليبية
كما اثرت هندسة المدن الايطالية الكبرى في جميع المواني البحرية في الشام . وكان
للطراز الايطالي التقدم على غيره لان الطليان اهل البندقية وبيزة وجنوة وطسقانا
كانوا أسبق أم الغرب الى الاختلاط بسكان الشام للقرب والعلاقة الدينية بين رومية
ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية . وكان عدد الصليبيين من جمهوريات
ايطاليا اكثر من غيرهم من الامم . قال الاثري فان يرشم : لما كانت سواحل الشام
محط رحال للصليبيين ، ونقطة حركاتهم الحربية ، تشبعت ابنيشها بالروح الايطالي
خصوصاً لان الطليان كانوا اذذاك اكثر عدداً في هذه الحملات من العنصر الفرنسي .
ومن هذه المدن ما دثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان ، ومنها ما هو
باقٍ مثل انطاكية وبيروت واللاذقية وعكا . وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها
يتجلى للروح الايطالي الباقي من القرون الوسطى في ابنيشها وهندستها . ولا تزال قلعة
الحصن لو حصن الاكراد والكرك كما يدعوا فرسان الصليبيين محفوفة منذ عهد الصليبيين
على ما هي عليه وهي آية في باب الهندسة العسكرية في القرون الوسطى ، غاطقة بلسان

حاليا بان الصليبيين نزلوا الارض المقدسة . ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وأرواد وصور وصيدا ودير البلمند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شربل في معاد وكنيسة انفة هذا الى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصنا في البلاد التي احتلوها .

قال رنان : الظاهر ان البناءات المربعة الشكل الضخمة الحجم هي من عمل الطليان وفرسان الهيكلانيين . وان البناءات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسيين وفرسان الاسبتاليين وكثيراً ما كان تأثير هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم — وكانت البلاد خاصة بها — تعدل ذيق الافرنج الخاص في هذا المعنى . قال وفي طرطوس قامت أم هذه الآثار واستمدل مما فيها ان منزل الصليبيين في هذه البلاد لم يكن منزل قلعة بل وطدوا انفسهم على احتلالها احتلالاً دائماً وان في طرطوس بنعة هي أجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار .

هندسة البيوت وبيوت دمشق وحلب { لم يبلغنا ان في البلاد دوراً يرد تاريخها الى الف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن في عهد ارتفاع البلاد على عهد الحكومات العربية كما بقيت مثلاً بعض دور قنوات في جبل حوران محفوظة على الصورة التي كانت عليها بنوافذها وابوابها الحجرية . وكما ادعى القرماني ان في اللجاة من البنيان ما يعجز عن وصفه اللسان وكل دورها من الصخر المستحدث ليس في الدار خشبة واحدة بل كلها حجارة سوداء منحوتة تنوف على مائتي الف دار (كذا) كل دار منفردة عن الاخرى لا بلاصقها جدر أخرى ، وكل دار فيها حوش وبئر وله باب من حجر اذا أغلق ووضع خلفه حصة لا يمكن فتحه ابداً من الخارج . ولكننا على مثل اليقين من ان طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بعصور وان هذا الطراز في بناء بيوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الاخيرة ومنه مثال من المدارس والرباط وغيرها في دمشق .

قال احد المهندسين المعاصرين ان التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية فقد كانت الدور نمحاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع ويكتفى بطيقتان للتهوية ولما فناء دار داخلي تحف به غرف ومخادع وفي وسط الفناء او الصحن فوارة او حوض ماء . لا جرم ان المسلمين قد اخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط ولا تزال نجد فيه مثالا في اسبانيا حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » او الفناء المبلط .

وكانت دمشق تعتمد في ابنيتها على الحجر غالبا . وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الادوار الاخيرة . قال المقدسي : ان منازل دمشق ضيقة وأزقتها غامة ، وأكثر أسواقها مغطاة ، ولم سوق على طول البلد مكشوف لا ترى أحسن من حماماتها ، ولا أعجب من فواراتها . هذا في القرن الرابع للهجرة . وقال ابن جبير في القرن السادس ان أكثر ابنيتها بالقصب والطين . وقال ابن فضل الله في الثامن ان غالب بناء دمشق بالحجر ودورها أصغر مقادير من دور مصر لكنها أكثر زخرفة منها ، وان كان الرخام بها اقل ، وانما هو أحسن أنواعا . قال وعناية اهل دمشق بالبساتين كثيرة ولم يفي بساتينهم منها ما تفوق به وتحسن باوضاءه وان كانت حلب أجل بناء اعنائتهم بالحجر فدمشق أزين وأكثر رونقا تحكم الماء على مدينتها ، وتسليطه على جميع نواحيها ، ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلا من خشب النخل ، الا انه لا يغشى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره ، واشرف دورها ما قرب ، واجل حاضرتها ما هو في جانبها اه . قلنا وهذا ينافي ما كان يراه العرب في تخير أماكن بيوتهم فقد كانوا اصطلموا على ان الاطراف منازل الاشراف قال البحتري :

عجب الناس لاعتزالي وفي الاطراف — راف تُلقي منازل الاشراف

نماذج من آثار الشراكسة { ولذلك كنت ترى في سفح جبل الصالحية
والعثمانيين { والربوة والشرف الاعلى الشمالي والشرف
الادنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصورا أنيقة ينزلها القضاة والحكام وكبار ارباب
الاملاك والاشراف ولكنها دثرت بالفتن المتواترة ولم تقو على عوادي الايام حتى نحم

على ماعمله الدمشقيون وأسلوبهم في هندسة مصانعهم على العهد الاسلامي الاوسط وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين . ويقول كاتب جلبي : انه كانت في المرجة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ابفاؤها حقها من الوصف لا سيما أبنية البرامكة وآثارهم فانها لم تنزل باقية الى هذا العهد (القرن الحادي عشر) . وروى الظاهري : ان دمشق تشمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة على المدينة بها تحت الملك مغطى لا يكشف الا اذا جلس السلطان عليه وقال ايضا : ان ما في الميدان الاخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب وهذا في القرن العاشر .

وقد أنشأ العثمانيون بعض خانات في طريق الشام الى الروم وفي طريق الشام الى الحجاز وبعض قلاع وأبراج ومنها برج قلعة طرابلس فقد كتب على احد جدرانها بعد البسملة « رسم بالامر الشريف العالي السلطاني الملكي المظفري سلطان سليمان شاه ابن السلطان سليم شاه لا زالت اوامره الشريفة مطاعة في الامراء بان يحدد هذا البرج المبارك ليكون حصنا منيعا على الدوام وكان الفراغ من عمارته في شهر شعبان المبارك سنة ٩٢٧ وفي سنة ٩٦٧ امر السلطان سليمان بتعمير قلاع بطريق الحاج الشامي وتعيين صنيق لكل قلعة واحدة بالقطرانة وثانية بمعان الى ماوراء ذلك من ارض الشام ، فعمرت ودام الانتفاع بها زمنا طويلا .

وآثار العثمانيين في دمشق التكيان السلمانية والسليمية والجامعات السنانية والدرويشية . بنوها على الاسلوب التركي البيزنطي ولهم مثل ذلك في حلب ومنها المدرستان البديعتان مدرسة الخسروية والمدرسة العثمانية . قال سوبرنهم الاثري : ان عدد أعظيما من مصانع حلب يرد الى زمن المماليك والعثمانيين وماءدا الجوامع الكثيرة مثل جامع الاطروش والطنون بنا والطواشي ومناراتها المختلفة الهندسة — وبغضام — تذكر حلب بصورة الناهرة في هذا المعنى — فان حلب قد احتفظت بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة ٧٥٥ وبكثير من المخازن والخانات والحمامات والدور والسلسبيلات وفي هذا المستشفى افاريز ونقوش من اجمل مانقش النقاشون تزينه فتجعله بهجة للناظرين . ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها العسكري والديني والمدني

وكلها بما زبر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد ان يتصور اصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي الشام اه . ومن اجل آثار الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التي بنتها ضيفة خاتون التي ملكت حلب ست سنين وهي ابنة ابي بكر ابن ايوب الملك العادل . ولو كتب البقاء على الاقل للقصر الذي بناء بقريه بطيخاس من ضواحي حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناء عبد الملك بن صالح خارج باب انطاكية وقصر مرتضى الدولة احد موالى بني حمدان وقصر سيف الدولة ابن حمدان الذي بناء بالحمة من ضواحي حلب ونهاى في حسنه وعمل له اسواراً وقد احرقه الروم في احدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك او قصر آخر من قصور الحمدانيين — لو كتبت الاقدار ذلك لساغ لنا ان نحكم حكماً صحيحاً على هندسة دور الشهباء في القديم . والغالب ان هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق عن الطراز القديم . و يقول الظاهري ان الميدان الاخضر في دمشق كان فيه من القصور الحسنة ما هو عجيبة من العجائب .

* * *

هندسة الجسور { وفي سنة ٦٩٢ كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع ببنائه سيف الدين ارقطاي المنصور الناصري كافل السلطنة ايام الملك المنصور بن قلاوون ، وكان بناؤه بعدما خرب الجسر الذي اقامه السلطان انطونيوس الحلبي الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة واربعين سنة وهو الذي قطع الصخور وبنى البرج ومشى في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل الى مدينة بيروت كما هو مكتوب على الصخر قبالة الجسر القديم مما يلي قبليه على هذه الصورة : الامير ادوار قيصر مارقوس اورليوس انطونيوس الحلبي السعيد اغسطس كبير الجرمانين الحبر الاعظم قطع الجبال المشتملة على نهر ليقا ونهج الطريق مهلاً ولقبه بالطريق الانطونياني . وهذا النهر تلقب بالكلب لكونه بعدما اصلحه انطونيوس الملك نصب به قائمة (نصباً) من حجر كبير على صورة الكلب وقيدته بسلسلة حديد في الصخر وجعلوا قدامه تقيراً لاجل الطعام .

لما اراد نائب الشام في اواخر النصف الاول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور

الجاري بين صيدا وبيروت ، ندبوا لذلك مهندساً خبيراً بالأعمال الساحلية يقال له ابو بكر بن البصيص البعلبكي وهو الذي عمر جسر نهر الكلب وله غير ذلك من الاعمال النقال ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة . وعمر الامير بشير الشهابي بايعاز من والي صيدا جسراً على نهر الدامور ايضاً فجمع اهل الصناعة اليه فكانوا اكثر من مائة وخمسين رجلاً فأتمه في شهرين وغرّم عليه نحو مائة الف درهم . وكذلك جسر الظاهر برقوق الذي بناه على نهر الأردن (الشريعة) وطوله مئة وعشرون ذراعاً وعرضه عشرون . وقالت فيه السيدة عائشة الباعونية الدمشقية :

بنى سلطاننا برقوق جسراً بامر والانام له مطيعه
مجاز في الحقيقة للبرايا وامر بالمرور على الشريعة

وعمر قاضي دمشق سنة ٩٣٢ سوفاً تجاه باب جيرون بدمشق فبنى اقواساً يحملون فيها قباب مبنية بالآجر اذ رآه احكم في البناء لانه لا يحتاج الى طين ويؤمن من حرقه . وجدد سور قلعة حلب السلطان سليمان بن السلطان سليم في شهر المحرم سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكتب ذلك بالعربية .

القاعات والقصور { من القاعات في دمشق وحلب ما يرجع تاريخه الى
المعتبرة { القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر
ومنها نعرف كيف كانت هندسة القو في تلك العصور . فمنها القاعة المشهورة بباب
جيرون وباب السلسلة أنشأها الامير محمد بن منجك الذي عمر العمارات النافقة بدمشق
فانه تأتق في عمارتها بالقاشاني والرخام وعمر القصر المعروف به في الوادي الاخضر
(١٠١١) . وذكر الخياري انه كان في القرن الحادي عشر في المرجة بدمشق قصر مقابل
القصر المنجكي قصر الباشا محمد بن الناشف وغير ذلك من العمارات والقصور
النافقة . وكانت في الصالحية محل يقال له القصر ثمّره ابو البقاء الصفوري المتوفى
سنة ١٠٣٥ وكان يقال له صاحب القصر وكان من احسن المنزهات وفيه يقول الامير
المنجكي من قصيدة :

أُقيمت بالبيت العتيق وما حوت بطحاؤه من حجره وحجونه
ما ضمت الدنيا كقصر كمنزلاً كلا ولا سمحت بمثل قطيعه

ومنها عمارات الامير منصور بن الفريخ امير البقاع المقتول سنة ١٠٠٢ بقرية
قب الياس وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة قال المحبي: لم يرسم
مثلها، جعل بابها بالرخام الابيض والحجر الاحمر المعدني، ونقل لها الرخام من بلاد السواحل
والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسخرة . وفي سنة ١٠٣٤ بنى الامير منذر
ابن الامير سليمان بن علم الدين بن محمد النوخى سرايا عظيمة في قرية عبيه في لبنان
وبقي مدة اربعين سنة ولم يكملها لزيادة اتساعها وكان البناؤون من اسلامبول . وامر
الوزير احمد باشا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة ١٠٧١ بعمارة قاعة معظمة داخل
دار الامارة بدمشق فبنيت كما قال المحبي على أسلوب عجيب ووضع غريب . وقال
المؤرخون ان الامير بشير الشهابي كان كالامير نجر الدين المعني يحب البذخ والرفاهية
ونظم اصطبلاته وبيطرتة حتى أصبح مضرب الامثال في ذلك ، وعمر في بيت الدين
قصرًا ملوكيًا وجلب اليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ . قال بعض المؤرخين جر
الامير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب نهر الصفا الى منزله
في بيت الدين من بعد ثلاث ساعات وغرّم على ذلك زهاء مائتي الف درهم وكانت
جميع اهل البلاد تحضر في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة بغير اجرة اكرامًا له .
ومدة العمل اثنان وعشرون شهرًا .

والمهندسون - في سراي بيت الدين ايطاليون والبناؤون دمشقيون وحلبيون
واتراك من الاسنانة وهي على الطرز التركي الممتزج بالطرز الايطالي أنشأها الامير
بشير عمر الكبير ١٨١٠ وانتهت سنة ١٨١٥ وعلى جوانب هذا القصر اربعة جواسق
بديعة وله مدخل فخم يبلغ علوه نحو ١٥ مترًا كله بني بضروب الرخام الوطني الفسالي
الثلثي والاجنبي الفاخر ، مزين بنقوش ملونة ، وتمثل اشكالاً هندسية ونباتات وتصادير
شتى ، ولهذا المدخل افاريز لطيفة الصنع تطيف به على شكل الاقواس ، وفوقه شُرُف
بنقاطيع جميلة والمدخل رتاج عظيم ذو مصراعين وفي داخل القصر ديوان كبير
واسع يعرف بقاعة العمود ، للعمود من الرخام المجزّع في وسطه ، كان مفروشًا بالفسيفساء

والرخام وهو ملك الحكومة منذ سنة ١٨٦٠ . ومن الابنية التي اشتهرت قاعة حسين ابن قرنق في صالحة دمشق عمرت سنة ١٠٧٧ وكاسف يضرب بها المثل وهي على الاربع في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي . وكان ابن قرنق عارفاً بالعلوم الغربية مثل الطلسمات والنيرنجيات والاعمال العجيبة وكان صدر دمشق وعمر الاماكن البهية من جملتها قصره وقاعته قال فيه مفتي دمشق احمد الممendar مؤرخاً عام بنائه :

لقد شيد الشهم الحسين الذي له ما أثر مجد لا يحيط بها عد
بناء الى اعلى السماكين ارخوا هي القاعة الحسناء فطالها السعد
(١٠٧٧)

ومن الدور القديمة في حلب وهو مما بني في القرن العاشر دار جان بلاط بن عربو وهي ملك آل ابراهيم باشا ذكر في اعلام النبلاء ان صدر ايوانها مبلط بالقاشاني على اختلاف انواعه والوانه على اشكال هندسية واوزاع بدیعة احكت فيه الصنعة ايما احكام قال ان رؤيتها تذكرك ايوان كسرى وعظمتها . وذكر المحبي ان الوزير حسين باشا صاري احد ولاة دمشق المتوفى (١٠٩٤) عمر القصر المعروف به في طرف الشرف بالميدان الاخضر من دمشق وكان مكانه يعرف بالخانونية وتأنق في وضعه وغرس فيه انواع الاشجار من كل صنف وعزته عليه بدمشق بعض انواع الداكة فجلبه من اماكن بعيدة .

ومن محاسن دمشق في هذا القرن الداران اللتان عمرهما في القنوات الامير منصور الشهابي امير وادي التيم وابن عمه الامير علي وذلك على أسلوب منقش محكم وزخرفاهما بانواع الزخارف والنقوش وجلبا اليها الرخام من بلادهما . قال المحبي : ولعمري انهما ابدعا ونوعا واجادا في صنعهما .

وذكر المؤرخون ان الامير نجر الدين المعني جلب مهندسين من الغرب ولعلم من ايطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا وذكروا ايضا انه بني عدة بنايات وقلاعاً وحصوناً كثيرة ، ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا واتى بنو سيفا اصحاب طرابلس فأحرقوا ونهبوا الشوف قيل انه اقسم هكذا : وحق زحزم والنهي

المختار لأعمرك يادير بجبر عكار . وهكذا لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن واخذها وهدمها جعل الجمال بالالوف تحمل الحجارة من قلعة عكار الى دير القمر ، وبني جميع الدور القديمة في دير القمر ، ووزع في جدرانها من حجارة عكار ، وهي الحجارة الصفراء الموجودة في الخراج وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي باقية الى الآن .

قصور القرن الثاني عشر والثالث عشر { ومن امثلة البناء الجميل دار اسعد باشا العظم في جوار جامع بني أمية بدمشق شرع بانثائها (١١٦٣) وانتهت (١١٧٤) قيل ان ما أنفق عليها اربعمائة كيس ، كل كيس بخمسمائة قرش . وهذا اجور العملة . واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من املاكه وبساتينه عدا من مخزوم للبناء من الياس . وكان عدد العملة ثمانمائة . قال ابن بدير : ان بانيتها جد في العمارة ليلاً ونهاراً واحضر لها ١٢ الف عمود خشب عدا ما اهداه اياه اعيان البلد . واوعز الى الاطراف ان لا يباع القصر مل الا اليه ، وشغل غالب بنائي البلدة ونجارها ونقاشيها ، وجلب البلاط من اكثر دور المدينة وحيثما وجد بلاطاً ورخاماً واعمدة وفساقي بيعت بمن يقتامها ويعطي القليل في ثمنها . وكان على مقربة من مقبرة البرامكة فوق نهر بانياس قصر يقال لها قصر الزهرائية مطل على المرجة الخضراء انهدم فأخذ انقاضه واخذ انقاض طاحون كانت على نهر بانياس في وادي كبوان ونقل من بصرى احجاراً وعمداً من الرخام واخذ من مدرسة الملك الناصر في الصالحية عمداً غلاظاً وهدم سوق الزنوطية فوق حارة العمارة وكان كله عقداً بالاحجار ففكه واخذ احجاره كما نقل احجاراً من جامع يلبغا . وايضا سمع ببلاط لطيف او عمد حسنة يأتي بها شراءً وبلا شراءً ويشغل العملة بكراء وبلا كراء .

فيل ان داخل هذه الدار اما كن عديدة لا تشبه الواحدة الاخرى ، وجميعها عمل بماء الفضة والمذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم . ونقل بعض السائحين ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم . وهذه الدار بما حوت من الفناء والقاعات والزدهات والابهاء والنساق والفواتر والحمام من الطف

ما هندس المهندسون في ذاك القرن وكذلك يقال في قصره في حماة وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصغرة . والنقوش وأنواع الزينة فيها فارسية . فاستبدل من ذلك ان الدقاشين كانوا فرساً او تأثروا بالاسلوب الفارسي . ومن أجل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها انها كانت عامرة أكثر من اليوم على ما يظهر . ودار أسعد باشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورمتها وجعلتها مدرسة للصناعات الاسلامية (حزيران ١٩٢٢) وقد حُرقت قاعتها في ثورة سنة ١٣٤٤ هـ . ودار اسعد باشا في حماة اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة ايضاً . ومن أجل الآثار في دمشق ايضاً خان اسعد باشا العظم وواجهته ورتاجه « بوابته » وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس الى الرأس وعرضه . ومن أعظم بيوت حلب القديمة سراي الجلي كانت كل غرفة منها تضاهي داراً عظيمة استخرج منها مؤخر أخان وعدة دور . ومن أعظم خانات حلب خان الكرك القديم المعروف بخان محمد باشا الشهيد طوله مائة ذراع في مثلها .

ومن أجل آثار ذاك القرن جامع الجزار في عكا وداره في البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذاك القرن . ومن البيوت الجميلة قصور بني جنبلاط في المختارة في لبنان وفي الهلالية قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في راشيا . فان هذه القصور مثال من تفنن أعيان ذاك الزمان في تجميل بيوتهم وحسن هندستها . وكانوا يبنون كما قيل بناء الجبابة وينقشون نقش الصياغ . وانا اذا تأملنا الابنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام نراها طرزاً طليانياً في الاكثر قد لا ينطبق مع روح البلاد ومصطلحها في إشادة البيوت منذ القرون الاولى . وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان اولاً ثم امتد الى طرابلس وبافا وحيفا والقدس ودمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن . وما دور بني سرسق في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والتويني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجميلية والعزيرية في حلب ومصايف لبنان في عاليه وصوفر وبكفيا وغيرها وبعض الدور المحدثه في دمشق الامثال منها . ومن أهم ابنية الشام المحدثه دير الكازانوف في الناصرة ، ودير الالمان ودير الروس في

القدس ، ومدرسة اليسوعيين والجامعة الاميركية ودار المفوضية العليا في بيروت ، ومحطة السكة الحجازية في دمشق ، ومحطة سكة بغداد في حلب ، وغير ذلك من القصور الخاصة والفنادق والمدارس والملاجئ والمباني والمستشفيات في القدس وطبرية وبيروت ولبنان وغيرها . ومن أهم دور القرن الماضي في دمشق دار القوتلي وشامية وعنبر وشمعايا واستانبولي والحلبوني . ومن الدور الحديثة قصر الامارة الجديد في عمان . ويسرع البلى الى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين او بعضها منهما على الاغلب . واكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها نذبو عنه العين والزخرف في داخلها قال اليجري :

وتأملت ان تظل ركابي بين لبنان طامعا والسنير
مشرفات على دمشق وفداء - رض منها بهاض تلك القصور

ومع ان المقالع قريبة من دمشق وفيها ضروب الحجر الجميل من ابيض ومائل الى الصفرة او الحمرة ، فان القوم يستسهلون او يسترخسون البناء بالخشب واللبن او الحجر الاسود الناري فينبون به كما يبني اهل حمص بل اهل كل بلد كانت الحراء السوداء قريبة منهم . وأجمل الحجر الحجر الرملي في بيروت وحجر حلب . ولم يزل بناء بيت المقدس - كما قال القاضي الفاضل - من الرخام الذي يطرد ماؤه ، ولا ينطرد لألاؤه ، قد لطف الحديد في تجزيهه ، وثخن في توسيعه ، الى ان صار الحديد الذي فيه بأس شديد ، كالذهب الذي فيه نعيم عتيق ، فما ترى الا مقاعد كالرياض لها من بهاض الترخيم رفاق ، كالاشجار لها من النبت اوراق . وان بعض القاعات اذا كتب لها البقاء فلانها بنيت بالحجر الصلب وتماورتها ايدي العقلاء فرمتها يوم احتاجت الى الترميم بطاريء طراً عليها .

العمة في قلة { قات في الشام قصور افراد الناس من التجار والصناع
قصور الافراد { والزراع كما نشاهد في الغرب مثلاً لان اهل البلاد
كانوا يبنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر الامة والغبطة مدة قرون لغير ارباب

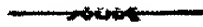
الدولة او من كان يعد من جملتهم ، وكان سائر الناس يحاذرون ان تنشأ لهم شهرة في الثروة ، والثروة تُعجلى في الدار والفرش والدابة واللباس ، فيتظاهرون بالفقر ليجنوا من مخالب العمال الذين كانت مصادرة الاموال اسهل شيء عليهم ، وقتل من يريدون استصفاء ارضهم وعقارهم وعروضهم من المباحات . ولذلك كانت ذو الغنى كثيراً ما يدفن امواله في مكان مجهول من داره ودكانه وربما خاف من زوجه وولده فكتم عنهم ما يملك . وقد يموت وتبقى دفينته مجهولة حتى يجيء بعد دهر طويل من ينبش الارض او الجدار ويعثر بالعرض على ما جمعه ذاك الغني المحروم .

وفسدت الاذواق في البناء في العهد الاخير . وحسن الذوق تبع للحضارة في الامة فاذا تأخرت حضارتها كان الذوق من اول ما يفسد فيها . ولذا كانت الناس يخرجون العامر وبنون بانقاضه . وكم أدركنا وأدرك آباؤنا واجدادنا في هذه الديار من اثر بدع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته . وكم من كتابة تاريخية عفي اثرها جهلاً وغباوة . اجتاز القاضي ابو يعلى المعري ببلدة شياث ظاهر معرفة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليحمرروا به موضعاً آخر فقال :

مررت برسم في شياث فراعني به زجل الاحجار تحت المعاول
 لناولها عبل الذراع كأنما رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
 أنشلفها شلت يمينك خلها لمعتبر او زائر او مسائل
 منازل قوم حدثتنا حديثهم ولم ار احلى من حديث المنازل

الاحفاظ بالمعاديات { وبعد فقد علمنا بما سر بنا ان الشام وافر المصانع
 والمصانع ابق في كل امة وكل جيل اثر من غناها
 وعظمتها وان الخراب يثخيف اكثر هذه المعاديات لان حب الاحفاظ بالقديم قد
 ضعف فينا . ونرى ان الشام لا يحفظ بآثاره وينمى الا يوم تنشأ فيه ادارة للمعاديات
 يكون سلطانها نافذاً على الكبير والصغير كما فعلت مصر منذ امد ، فاحفظت بالبقية
 الباقية من أعمال الغابرين ، وخدمت احباب الآثار وغلاة الهندسة من المحدثين .

ولا يبحث عن الماديات في أصقاع الا اذا توفر للباحثين العلم بالآثار على احدث الطرق العلمية ، حتى اذا استخرج شجرة منها يضمن به فلا يصدر الى البلاد الغربية بل يحفظ في دور الآثار تراث الاجداد . وأهم من هذا وذاك ان يترجي في الامة الذوق سيف الجمال ، وينتشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الاطفال ، ويعرف كل وطني معنى هذه التذكارات المطبوعة بطابع الاجداد والاجيال ، المنبعثة من ارجائها ريح فضائلهم ، المشبعة بانوار نبوغهم ، الصادرة من فيض قرائتهم وعبقريتهم ، وعندئذ يصبح الشام كله متحفاً نفيساً دونه اجمل المتاحف ، وانغم بيت يجمع الفاخر والمآثر .



انتهى الجزء الخامس وبليه الجزء السادس وارله « التاريخ المدني —
البيع والكنائس والديرة »

فهرست الجزء الخامس
« من خطط الشام »

جدد و كذا

صفحة	صفحة
٣٩	٣ (التاريخ المدني) « الجيش » —
٤١	جيوش الاشوريين والفراعنة والعبرانيين
٤٥	٤ جيوش اليونان والرومان
٤٧	٥ الجيش العربي مع الرومي
٤٨	٧ بعض قوانين الجيش العربي
٤٩	١٠ تعبئة الجيش العربي
٥١	١٢ شدة الامور بين ومثال من اوامرهم
٥٥	١٧ ادوات التدمير والسلاح والمواصلات
٥٧	٢٠ الجيش على عهد ملوك الطوائف
٦١	٢١ الجيوش الصليبية والثرية
٦٤	٢٢ اجناس الجيوش في القرون الوسطى
٦٥	وجمعيات الفتوة
٦٦	٢٥ الجيوش العثمانية
٦٧	٢٩ الجيوش الحديثة
٦٨	٣١ (الاسطول) — بحرية الفينيقيين
٦٩	والعبرانيين والفراعنة
٧٢	٣٢ بحرية الرومان واليونان
٧٣	٣٣ العرب والبحار
٧٤	٣٤ اول خليفة غزا البحر، الشامي
	والبحرية الاموية
	٣٧ وصف اسطول شامي
سواحل الشام ونفقات الاسطول	
والتاور البحرية والرباطات والقضاء	
الاساطيل في القرون الوسطى	
قصورتنا في البر والبحر	
(الجباية والخراج) — جبايات القدماء	
الجباية في الاسلام	
خسروب الجباية	
ابل ما فرض من الجباية	
عدل الخلفاء الراشدين	
احكام عمر بن عبد العزيز العادلة	
المباسبون والجباية ومساخة الشام	
الدميون وتجارهم	
نعمي المعري على ظلم الناس	
الجباية في الدولتين الاموية والعباسية	
الاموال في رأي التزالي ونقسم	
المقرزي لها	
الاقطاعات وخسروبها	
تجري الغدل في الدولتين النورية	
والصلاحية	
موازنة حلب وهي وحيدة في بابها	
الفرائب زمن الاتراك والفرانجية	
ابطال المظالم ايام الشراكسة	

صفحة	صفحة
١٠١ (الاقواف) — منشأ الوقف	٧٦ اسلوبهم في نشر الاوامر السلطانية
١٠٢ تعريف الاوقاف وطرقها	٧٧ غنى الشام في القرون الوسطى
١٠٣ اول اوقاف الشام	٧٧ المكوس على التجار
١٠٤ شرط الواقف وخراب اوقاف الشام	٧٨ رسوم غريبة
١٠٦ الفنان في الاحباس والتلاعب بالموقوف	٨٠ تفنن الشراكسة في اقتضاء الاموال
١١٠ اوقاف نور الدين وصلاح الدين ومن تقدمها وخلفها	٨١ الاموال اوائل العهد العثماني
١١٢ تكاثر الاوقاف ومضار الجود	٨٣ الخراج والعثمانيون والسخيف من ضروبه
١١٢ تأثير الوقف في العمران	٨٥ تفنن الجزائر في اخذ المال وطريقة العثمانيين
١١٣ الاوقاف عند قدماء العثمانيين	٨٧ الجباية على عهد المصريين والمقابلة بين طريقتهم وطريقة العثمانيين
١١٤ الوقف من مال غير محلل	٨٨ رأي انكليزي في اعنات البلاد بالضرائب
١١٦ مضار الاوقاف	٨٩ رأي مدحت باشا في مظالمهم
١١٦ منافع الاوقاف	٩٠ الاشتطاط في الاعشار والقسط في الجباية
١١٧ تقسيم الاوقاف واصلاحها	٩١ خراج الارض والعقارات
١٢٠ ضروب الخيل وانتماء حرمه الاوقاف	٩٣ رسوم المواشي
١٢٣ مصائب الاوقاف	٩٣ الاعشار
١٢٤ اوقاف الذرية	٩٤ رسوم الجمر
١٢٥ الاوقاف في العهد العثماني الاخير	٩٦ الجمارك الشامية ووجوه نفقاتها وتوزيعها
١٢٨ الاوقاف بعد العهد التركي والى اليوم	٩٧ ضريبة التمتع
١٣٠ وسائل اصلاح الاوقاف	٩٩ الضريبة النسبية
١٣٥ (الحسبة والبلديات) — العرب دعاة مدنية	٩٩ الضريبة المقطوعة
١٣٦ تعريف الحسبة	
١٣٧ الحسبة تجمع الشرطة والصحة والبلدية وعملها	

صفحة	صفحة
١٣٨ الحسبة قانون مدني	١٨١ خط بيروت — الماملتين
١٤٠ عمل المحتسب بحسب البلد	١٨١ خط دمشق — حوران
١٤١ ثلاثة آراء في الحسبة	١٨٢ خط دمشق — حلب
١٤٤ الحاجة والحسبة امس واليوم	١٨٤ خط حمص — طرابلس
١٤٤ تأسيس البلديات	١٨٤ طريق الحج وسبب انشاء الخط الحجازي
١٤٨ النظام الجديد	١٨٧ انشاء الخط الحجازي
١٥١ تأثير البلديات في العمران	١٩٧ الخط الحجازي في عهد العثمانيين وغيرهم
١٥٢ رأي في اصلاح البلدة	١٩٨ تقسيم الخط الحجازي
١٥٥ (الترع والمرافق والطرق) —	١٩٩ حالة الخط بعد دخول فرنسا دمشق
ترعة السويس	١٩٩ الخط الحجازي في شرقي الاردن
١٦٣ التربة العظيمة عن طريق فلسطين	١٩٩ الخط الحجازي على عهد الحكومة الهاشمية
١٦٤ التربة بين البحر الابيض والخليج	٢٠٠ الخط الحجازي في المؤتمرات
الفارسي	٢٠٠ الخط الجنوبي اليوم
١٦٤ مرفأ غزة	٢٠١ نفقات الخط الحجازي
١٦٥ مرفأ يافا	٢٠١ اصلاح الخط الحجازي
١٦٦ مرفأ حيفا	٢٠٢ الخطوط الحديدية الفلسطينية
١٦٨ مرفأ عكا	خط يافا — القدس
١٦٩ مرفأ صور	٢٠٣ خط حيفا — دمشق
١٦٩ مرفأ صيدا	٢٠٤ الخطوط العسكرية الفلسطينية
١٧٠ مرفأ بيروت	٢٠٨ خط بغداد
١٧٣ فرضتا جونيه وجبيل	٢١٣ الخطوط الحديدية بين الشام ومصر
١٧٣ مرفأ طرابلس	٢١٤ الكهرباء وخطوط الترام في دمشق
١٧٤ مرفأ اللاذقية	٢١٩ ترامواي حلب الكهربي
١٧٤ مرفأ الاسكندرونة	٢٢١ خط الترام في طرابلس الشام
١٧٦ الخطوط الحديدية	
١٧٧ خط بيروت — دمشق	

صفحة	صفحة
٢٦٦	٢٢١ الطريق العامة في الشام
٢٦٨	٢٢٣ طرق الشام
٢٦٩	٢٢٤ الطرق العامة
٢٧١	٢٢٥ وصف حالة الطرق
٢٧٣	٢٣٣ للسيارات
في القرن الرابع	٢٣٥ (البريد والبرق والهاتف) —
٢٧٥	منشأ البرق « التلغراف »
٢٨٠	٢٣٦ الآلات والآلات والادوات والمخاطرة
٢٨٣	٢٣٧ احداث الهاتف « التلفون »
٢٨٤	٢٣٧ منشأ البريد « البوسطة »
٢٨٥	٢٣٩ مراكز البريد والبرق في الشام
٢٨٧	٢٤١ (المصانع والقصور) — تقاسيم
النوري والصلاحي	المصانع وعظمتها
٢٨٨	٢٤٢ مصانع الاسم القديمة
٢٨٨	٢٤٣ هندسة الفيزيقيين وآثارهم
٢٩٠	٢٤٤ عاديات الرومان
٢٩١	٢٤٥ عاديات البتراء وجرش وعمات
٢٩٤	٢٤٨ وصف المحدثين خرائب جرش
٢٩٦	٢٥٠ عاديات قنصر
٢٩٧	٢٥٤ عاديات بعلبك امس واليوم
٢٩٨	٢٥٧ انطاكية وحمص والقامية والبارة ودمشق
٣٠٠	٢٥٨ حوران ولبنان وأغامية وغيرها
٣٠١	٢٦١ الهندسة الشامية والكنائس والهيكل
٣٠٤	٢٦٣ آثار العرب قبل الاسلام
٣٠٦	٢٦٤ قصور العرب في الاسلام
٣٠٧	٢٦٥ عتلة الامويين والمسلمين